الإمام الخامنئي دام ظله

إنسان بعمر 250 سنة

نصوص ومحاضرات **الإمام السيِّد علي الخامنئي** دام ظله
في الحياة السياسيّة والجهاديّة للمعصومين عليهم السلام

صهبا

المعارف
جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
إعداد مركز نون للتأليف والترجمة

بعمر

إنسان 250

لسنة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام الخامنئي دام ظله

إنسان بعمر 250 سنة

نصوص الإمام السيد علي الخامنئي دام ظله

في الحياة السياسية والجهاديّة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة أهل البيت عليهم السلام

اسم الكتاب:	إنسان بعمر 250 سنة
إعداد:	جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة - مركز نون للتأليف والترجمة
نشر:	جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الثانية:	2015م - 1437هـ

©جميع حقوق الطبع محفوظة

الفهرس

المقدّمة............ 9
مدخل............ 13

الفصل الأول: النبيّ الأعظم ﷺ............ 27
تمهيد 29
بعثة النبيّ الخاتم ﷺ وإرساء قواعد النّظام............ 31
حماية النّظام الإسلاميّ............ 49
تثبيت النّظام الإسلاميّ............ 65

الفصل الثاني: الإمامة............ 75
الإمامة في الفكر الشّيعيّ............ 77
المراحل الأربع لمسيرة الإمامة............ 85

الفصل الثالث: الإمام علي عليه السلام............ 91
مدرسة الإمام عليّ عليه السلام 93
مرحلة السكوت والتعاون............ 101
مرحلة الخلافة 107
القدرة والمظلوميّة والنصر............ 121

الفصل الرابع: السيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام............ 135
المكانة المعنوية للزهراء عليها السلام 137
حياتها عليها السلام الجهاديّة والسّياسيّة............ 147
حياتها عليها السلام العلميّة والعباديّة............ 151

الفصل الخامس: الإمام الحسن المجتبى عليه السلام............ 155
أعظم هدنة في التاريخ............ 157
صراع الحق والباطل............ 175

الفصل السادس: الإمام الحسين عليه السلام............ 193
مخاطر المرحلة ووسائل المواجهة............ 195
أهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام............ 201
منطلقات الثورة وثمارها............ 209

الفصل السابع: حركة السيدة زينب الكبرى عليها السلام............ 221
ملحمة زينب الكبرى عليها السلام............ 223
حركة الإمام السجّاد عليه السلام في مرحلة الأسر............ 235
الشّيعة بعد حادثة كربلاء............ 241

الفصل الثامن: الإمام السجّاد عليه السلام............ 253
الظّروف الاجتماعيّة والسّياسيّة............ 255
أهداف حركة الإمام السجاد عليه السلام............ 267
الإمام السجّاد عليه السلام............ 273
وتجلّيات المواجهة السّياسيّة............ 273
تحذير الخواص من الدنيا والرفاهية............ 281
تكتيك بداية المرحلة الثالثة لحركة الأئمّة عليهم السلام............ 289
مواجهة الإمام عليه السلام مع علماء البلاط............ 297

الفصل التاسع: الإمام الباقر عليه السلام............ 309
مرحلة البناء الفكريّ والتنظيميّ............ 311
إحضار الإمام الباقر عليه السلام إلى الشّام............ 327

الفصل العاشر: الإمام الصادق عليه السلام 343
الغموض الذي لفَّ حياة الإمام الصادق عليه السلام 345
دعوة الإمام الصادق عليه السلام للإمامة........................ 357
المواجهة السّياسيّة عند الإمام الصّادق عليه السلام 365
التشكيلات السرّية الأيديولوجية والسّياسيّة........................ 373

الفصل الحادي عشر: الإمام الكاظم عليه السلام 385
ظروف تولّي الإمام الكاظم عليه السلام للإمامة 387
السّعي دون كللٍ واعتماد أسلوب التقيّة........................ 393
جهاد الإمام عليه السلام ومعارضته لحكم هارون........................ 399

الفصل الثاني عشر: الإمام الرضا عليه السلام 411
الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد........................ 413
خطّة الإمام الرضا عليه السلام لمواجهة المأمون........................ 421
شهادة الإمام الرضا عليه السلام 429

الفصل الثالث عشر: الإمام الجواد عليه السلام الإمام الهادي عليه السلام
الإمام العسكريّ عليه السلام 433
الإمام الجواد عليه السلام وبنيان الحرية 435
مواجهة الإمامين........................ 437
الهادي والعسكري عليهما السلام للسلطة........................ 437

الفصل الرابع عشر: الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف 451
غاية حركة إنسان بعمر 250 سنة........................ 453
خصائص المجتمع المهدوي 461
مسؤوليّتنا في عصر غيبة الإمام عجل الله فرجه الشريف 469

المقدّمة

الحمدلله رب العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطاهرين وبعد

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المحاضرات والخطب والكتابات التي ألقاها ودوّنها الإمام الخامنئي دام ظله في سيرة وتاريخ النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الأطهار عليهم السلام، تمّ جمعها وتنسيقها وتبويبها بحيث تحقّق الهدف والغرض من طرح فكرة هذا الكتاب الجديدة والإبداعيّة؛ فقد كان أوّل طرح لهذا المفهوم الكبير والمتقدّم بعنوان «**إنسان بعمر 250 سنة**» من قبل الإمام الخامنئي دام ظله في المؤتمر العالميّ للإمام الرّضا عليه السلام عام 1986م.

والكتاب الحاضر، قبل أن يكون كتابًا تاريخيًّا صرفًا، هو متنٌ تحليليّ تاريخيّ؛ يتضمّن بالإضافة إلى السّرد والشّرح التّاريخيّ لوقائع من حياة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الأطهار عليهم السلام، طرح وبيان رؤية تحليليّة كلّية لحياة كلّ معصوم بالنّظر إلى المسار التاريخيّ لمرحلة إمامته، وفي إطار رؤية متكاملة ومترابطة مع باقي الأئمّة الأطهار عليهم السلام، بحيث غدت سيرتهم

الجهاديّـة بمثابة عرض منسجم ومترابط لحركة واحدة متّصلة ومتواصلة نحو مقصدٍ واحدٍ وغرضٍ مشخّص.

وهو يهـدف بشكلٍ أساس إلى تكوين رؤية واضحة عن الحياة السّياسيّة للأئمّـة الأطهـار عليهم السلام ، وإلى تسليط الضّوء والبحـث عن عنصر الجهاد والمواجهـة السّياسيّـة التـي اتّسمـت بهـا حياتهـم المباركـة، والمقصد الحقيقيّ الذي كانوا يرومون الوصول إليه.

والفكـرة المركزيّـة التـي تبتنـي عليهـا هـذه الرّؤيـة هي النظـر إلى الأئمّة عليهم السلام على أنّهم شخصٌ واحدٌ يحيا بأهدافٍ واضحة ومحدّدة على المستـوى المرحليّ والاستراتيجيّ؛ يسعى دون كللٍ أو ملل للوصول إلى هذه الأهداف، والتي هي نفسها أهداف هذا الدّين الحنيف والرّسالة المحمّديّة الأصيلة. وقد امتـدّت حياة هذا الإنسان على طول حياة الأئمّة عليهم السلام ، أي مـن سنة 11 للهجرة وحتّى عام 260 للهجرة، ليكون إنسانًا بعمر 250 سنة، ومن هنا اقتُبس عنوان هذا الكتاب؛ من كلمات القائد نفسها.

في الختام لا بدّ من الإشارة إلى أنّ حجم الكلام الذي صدر عن الإمام الخامنئي فـي الأبعاد المختلفة لحياة النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام وخاصّة حيـاة النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم والإمام أميـر المؤمنين والإمام الحسين عليهما السلام وكذلك في دائرة السّيرة الشّخصيّة لكلّ واحدٍ من المعصومين عليهم السلام أكثر بكثيـر من المقدار الوارد في هـذا الكتاب. وعليه يمكن اعتبار هذا الكتاب مقدّمـة أسـاس وديباجة مفيدة للدّخـول إلى المعارف الأسـاس والأصيلة في حيـاة المعصومين عليهم السلام والواردة في كلمـات الإمام الخامنئي دام ظله وخطاباته.

ولا يسعنـا في النّهايـة إلا أن نتقدّم بجزيل الشكـر والامتنان إلى جميع الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل وترجمته إلى اللغة العربيّة.

ولا بد من الإشارة في مقدّمة هذه الطبعة (الثانية) إلى أنّنا قد أجرينا الكثير من التصحيحات المضمونية، نتيجة التدقيق في ترجمة العديد من المـوارد والنصوص، وإعادة تحريـر وصياغة موارد أخـرى، ما يعني رفع الخلل الذي ورد في بعض الموارد في الطبعة الأولى.

الحمد لله رب العالمين

مركز نون للتأليف والترجمة

مدخل

إنّ غربة الأئمّة عليهم السلام لم تقتصر على الفترة الزمنيّة الّتي عاشوها في حياتهم، بل استمرّت لعصورٍ متمادية من بعدهم. والسبّب في ذلك يرجع إلى إهمال الجوانب المهمّة بل والأساس من حياتهم. ومن المؤكّد أنّ هناك كتبًا ومؤلّفاتٍ كثيرة قد حَظِيت بمكانة رفيعة لا نظير لها، وذلك لما حملته في طيّاتها من روايات تصف حال الأئمّة عليهم السلام ، ولما نقلته للأجيال المتعاقبة من أخبار تصف سيرتهم، ولكنّ عنصر المواجهة السّياسيّة الحادّة، والّتي تُمثّل الخطّ الممتد لحياة أئمّة الهدى عليهم السلام طيلة 250 سنة، قد ضاع في طيّات الرّوايات والأحاديث، وذكر الأحوال النّاظرة إلى الجوانب العلميّة والمعنويّة.

يجب علينا أن ننظر إلى حياة الأئمّة عليهم السلام كدرسٍ وأسوة، لا كمجرّد ذكريات قيّمة وعظيمة حدثت في التّاريخ. وهذا لا يتحقّق إلّا بالاهتمام والتركيز على المنهج والأسلوب السّياسيّ من سيرة هؤلاء العظماء عليهم السلام .

أنا شخصيًّا عندي رغبة شديدة في الاطّلاع على هذا الجانب المهمّ من

حياتهـم. وأوّل مـرّة شعـرت بأهميّـة هـذه المسألة كان عـام 1350هـ.ش (1971م) أي فـي مراحـل المحنة التـي سبقت الثّورة. ومـع أنّني قبل تلك الفتـرة كُنـتُ أنظر إلـى الأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بعنـوان أنّهم شخصيّـات مجاهدة ومكافحـة لإعـلاء كلمة التّوحيـد وإقامة الحكومـة الإلهيّـة، إلّا أنّ النقطة المهمّـة الّتي وصلتُ إليها في تلك الفترة هي أنّه على الرّغم من الاختلاف الظّاهـريّ بين سيَرهـم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ (حتّى أنّ بعض النّاس ليشعر بالاختلاف الشّاسـع وبالتّناقض فيهـا)، إلّا أنّها عبـارة عن مسيرة واحـدة استمرّت 250 سنـة ابتـداءً من سنة 11هـ.ق. إلى 260هــ.ق. أي انتهت ببداية الغيبة الصّغرى للإمام الحجّة عَجَّلَ اللهُ فَرَجَهُ الشَّرِيف.

هـؤلاء العظماء كانـوا شخصًا واحدًا. ولا ينبغي الشـكّ بأنّ هدفهم هو واحـدٌ. ولذلـك فإنّنا وبـدل أن ندرس حياة كلٍّ مـن الإمام الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ والحسيـن عَلَيْهِ السَّلَامُ والسجّاد عَلَيْهِ السَّلَامُ بصـورةٍ منفصلة عن الأخرى، حتّى لا نقـع في فـخّ هذا الخطأ الخطر مـن وجود التّناقـض والتّعارض بين سيرة هؤلاء الأئمّة الثّلاثة بسبب وجود هذا الاختلاف الظاهريّ، يجب أن نفرض وجـود إنسـان عمّر 250 سنة، وفـي سنة 11 للهجرة وضـع أوّل قدمٍ له على الطّريق، حتّى قطعه عام 260 للهجرة.

عندها سوف تُصبح كلّ حركات هذا الإنسان، العظيم والمعصوم، قابلةً للفهـم والتّفسيـر وِفق هذا المنظـار. فإنّ أيّ إنسان يملـك شيئًا من العقل والحكمـة، ولا نقول يملـك شيئًا مـن العصمة، تكون له تكتيـكات ومواقف موضعيّـة خاصّة خـلال حركته البعيدة المدى. وقد يجد هـذا الإنسان أنّه مـن الضـروريّ أن يُسرِع في حركته تـارةً، وأن يُبطئ تـارةً أخرى، أو حتّى

أن يتراجع تراجعًا حكيمًا في مواضع أخرى. والإنسان العاقل والحكيم والعارف سيرى في هذا التّراجع، بالنّظر لهدف هذا الإنسان، حركة وتقدّمًا نحو الأمام.

من هذا المنظار تُعتبر حياة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، والإمام المجتبى عليه السلام، والإمام الحسين عليه السلام، والأئمّة الثّمانية المعصومين عليهم السلام من ولدهم، حركة واحدة ومستمرّة حتّى سنة 260 للهجرة. وقد التفتُّ في تلك السنة (1971م) إلى هذا الأمر، ودخلتُ في دراسة حياتهم، من هذا المنظار، وعاودتُ النّظر مرّةً أخرى وكلّما توغّلت وجدتُ أنّ هذه الفكرة صائبة. إنّ الالتفات إلى الحياة المستديمة لهؤلاء المعصومين والعظماء من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بالتّلازم مع التوجّه السياسيّ، يستحقّ أن يُفرد له فصلٌ خاصّ مستقلّ، وقد قرّرتُ القيام بهذا الأمر. وإن شاء الله أرغب بالحديث عن هذه الجملة بشيءٍ من الشّرح والتفصيل.

أوّلاً: ماذا نقصد عندما ننسب المواجهة السّياسيّة أو النّضال السياسيّ الحادّ للأئمّة عليهم السلام؟

إنّ المقصود من هذا الكلام هو أنّ جهاد الأئمّة المعصومين عليهم السلام لم يكن منحصرًا بالجهاد العلميّ والعقائديّ والكلاميّ، من قبيل النّزاعات الكلاميّة الّتي تُشاهدونها عبر كلّ تلك الفترة من تاريخ الإسلام، مثل النّزاع بين المعتزلة والأشاعرة وغيرهم. فلم يكن هدف الأئمّة عليهم السلام، من اجتماعاتهم العلميّة وحلقات دروسهم والأحاديث ونقل المعارف الإسلاميّة وبيان الأحكام، أن يُثبتوا مدرستهم الكلاميّة أو الفقهيّة

ويُفحمـوا خصومهم فحسب، بـل كان هدفهم أبعد من ذلـك. كما لم تكن مواجهتهـم مواجهـة مسلّحة، كمـا كان الحال في عهد زيـد والّذين جاؤوا مـن بعـده، أو في عهد بنـي الحسن وبعض آل جعفر وغيرهم مـن الّذين مـرّوا في حياة الأئمّـة عليهم السلام. بالطّبع، إنّ الأئمّة عليهم السلام لـم يخطّئوا هذه التحرّكات بصورة مطلقة، وحكمهم على بعضٍ منها بالخطأ لم يكن بداعي كونها حـركات مسلّحة وإنّمـا لأسبابٍ أُخرى مختلفة. لـذا نجد أنّ مواقف الأئمّـة عليهم السلام كانت مؤيِّدة لهذه الحركات في بعض الأحيان، بل واشتركوا فـي بعضهـا، بصورة غيـر مباشرة، عـن طريـق المساعدات الّتـي كانوا يُقدّمونهـا للثّورة. ومن الجدير الالتفات إلى حديث الإمام الصادق عليه السلام الّـذي يقول: «**لـوددت أنّ الخارجيّ يخرج من آل محمّـد** صلى الله عليه وآله وسلم **وعليَّ نفقة عيالـه**»[1]: كالنّفقـات الماليّة وتقديـم العون المعنـويّ، والدّعم في تقديم الملاجـئ والمخابئ وأمثالها. إلّا أنّ الأئمّـة عليهم السلام أنفسهم، تلك السّلالة الّتـي نعرفهـا، لم يخوضوا في مثـل هذه المواجهات المسلّحـة أو يشتركوا فيها بشكلٍ مباشر. إنّ الجهاد السياسيّ، لا ذاك الأوّل ولا الثّاني، عبارة عن مواجهـة ذات هدفٍ سياسيّ. فما هو ذاك الهدف السياسيّ؟ هو عبارة عن تشكيل «حكومة إسلاميّة» وبحسب تعبيرنا «حكومة علويّة».

فكان سعي الأئمّة عليهم السلام ومنذ وفـاة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم وحتّى عام 260هـ.ق. هـو إيجـاد وتأسيس حكومة إلهيّـة في المجتمع الإسلامـيّ، وهذا هو الأصل المدّعـى. ولا نستطيـع القـول أنّ كلّ إمـام كان بصـدد تأسيـس حكومة في

(1) العلّامة المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي. بيروت، الطبعة الثانية، 1403هـ، ج46، ص172.

زمانــه وعصــره، ولكن كان كلّ إمــام يهدف إلــى تأسيس حكومــة إسلاميّة مستقبليّــة، كان ذلك في المستقبــل البعيد أو القريب. لقد كان هدف الإمام المجتبــى عليه السلام، مثــلًا، تأسيس حكومــة إسلاميّة فــي المستقبل القريب، فقولــه عليه السلام: «**قــال الله تبــارك وتعالــى:** ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾»[1] [2]، فــي جوابــه للمسيّب بن نجيّة ولآخريــن، عندما سألوه عــن سبــب سكوته، لهو خيــر دليلٍ وإشارة إلــى هذا المستقبــل؛ وأمّا الإمام السجّــاد عليه السلام، وبحســب اعتقادي، فقــد كان يهدف إلــى تأسيس حكومة إسلاميّــة في المستقبــل المتوسّط، ولدينا شواهد في هــذا المجال نذكرها فيمــا بعد؛ ويوجد احتمال كبيــر أنّ الإمام الباقر عليه السلام قــد سعى لتأسيس حكومــة في المستقبــل القريب؛ وأغلب الظــنّ أنّ الأمر، بعــد شهادة الإمام الثّامــن عليه السلام، بــات متوجّهًــا إلى المــدى البعيــد. إذًا، إنّ هــدف تأسيس الحكومة كان دومًا نُصب أعين الأئمّة عليهم السلام، لكنّ الزّمن المنشود لتأسيسها وقيامها كان يختلف من إمامٍ إلى آخر. وهذا هو معنى النّضال السّياسيّ.

فــكلّ الأعمال الّتي كان يقوم بها الأئمّة عليهم السلام، غير تلك الأعمال المعنويّة والرّوحيّــة الّتي كان لها علاقة بتكامل الإنسان وقربه من الله، بينه وبينه ربّه، من دراسة وعلم وحديث وكلام، ومناظرات ضدّ الخصوم العلميّين والخصوم السياسيّيــن، والنفي، وحماية جماعة والوقوف في وجه أخرى، كلّها تصبّ في هذا الخطّ؛ ألا وهو تأسيس الحكومة الإسلاميّة. هذا هو المدّعى.

(1986/07/19)

(1) سورة الأنبياء، الآية 111.

(2) بحار الأنوار، ج43، ص 354.

فهـل كان للأئمّـة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حياة سياسيّة أصـلًا أم لا؟ هل كانت حياتهم عبـارة عن جمع مجموعة مـن التّلامذة والمريديـن والمحبّين حولهم من أجـل أن يُبيّنوا لهـم أحكام الصّلاة والـزّكاة والحجّ والأخـلاق الإسلاميّة والمعارف والأصول الدينيّة والعرفان وأمثالها فحسب؟

لقد كان هناك أشياء أخرى غير الّتي ذُكرت، وهناك إطار آخر في قلب وروح مـا ذُكر في حياة الأئمّة، وهـو عبارة عن تلك الحياة السّياسيّة، فهذا أمرٌ مهمٌّ جدًّا، ومطلبٌ ينبغي أن يتّضح. بالطّبع، لا مجال للبحث الاستدلاليّ والمفصّل في الفرص القصيرة. فأنا العبد، أعرض لرؤوس المطالب، على أمل أن يقوم أولئك الذين يمتلكون الرّغبة بمتابعة هذه القضيّة.

نحتـاج في هذا الإطـار إلى أن ننظر فـي الرّوايات مرّةً أخـرى ونتأمّل فـي كتـب التاريخ، وعندهـا سيُعلم ما هـي حقيقة حياة الإمـام موسى بن جعفـر عَلَيْهِ السَّلَامُ أو أئمّتنـا الآخريـن عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، الّتي مـا زالت إلـى يومنا هذا غامضةً وغير مذكورة أو معروفة.

بعـد أن لوحظ في محيـط الإمامة ومحيط أهل البيـت أنّ هدف النبيّ لم يتحقّق أي ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[1]، وبعد أن رأى الأئمّـة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بعد عصر صدر الإسلام، أنّ تشكيل نظام إسلاميّ وتحقيق عالم إسلاميٍّ كما أراده الأنبياء قد تمّ نسيانه بالكامل، وأنّ الملَكيّة قـد حلّت مـكان النبوّة والإمامـة، وأنّ الكسرويّين والقياصـرة والطواغيت الإسكندريّين (نسبة للإسكندر) وغيرهم، من المعروفين بالظّلم والطّغيان

(1) سورة آل عمران، الآية 164.

عبر التّاريخ، قد سيطروا ولبسوا لباس الخلافة باسم سلالة بني أميّة وبني العبّاس، وأنّ القرآن أضحى يُفسّر كما يريد أصحاب الملك والقدرة، وأنّ أذهان النّاس قد وقعت تحت تأثير العمل الخيانيّ لأولئك العلماء الّذين جلسوا على معلف المطامع والتعلّقات المادّية للحكّام والملوك، فبعد أن رأى الأئمّة عليهم السلام كلّ ذلك، ظهرت خطّة عامّة في حياتهم.

ونحن عندما نقول الأئمّة نقصد بذلك جميع الأئمّة، من أمير المؤمنين وحتّى الإمام العسكريّ عليهم السلام . وكُنتُ، أنا العبد، قد ذكرتُ مرارًا أنّه علينا النّظر إلى حياة الأئمّة عليهم السلام ، والّتي استمرّت لمدّة 250 سنة، كحياة إنسانٍ واحد، إنسانٍ عاش لـ 250 سنة، فلا ينفصلون عن بعضهم بعضًا، كلّهم نورٌ واحد[1]. فأيّ واحدٍ منهم يتفوّه بكلمة، تكون هذه الكلمة في الحقيقة قد جرت على لسان غيره من الأئمّة، وأيّ واحدٍ منهم يقوم بعملٍ ما، فإنّ هذا العمل يكون في الحقيقة صادرًا عن غيره من الأئمّة، وكأنّ هناك إنسانًا عاش 250 سنة. فجميع أعمال الأئمّة، وطيلة الـ 250 سنة، هي عمل إنسانٍ له هدفٌ واحدٌ ونيّةٌ واحدة وتكتيكات مختلفة.

عندما شعر الأئمّة عليهم السلام أنّ الإسلام صار غريبًا وأنّ المجتمع الإسلاميّ لم يتشكّل، وضعوا عدّة أهدافٍ أساس لهم، إحداها: تبيين الإسلام بالصّورة الصّحيحة. فالإسلام بنظر أولئك، الّذين كانوا على رأس السّلطة طيلة هذه السّنوات المتمادية، هو أمرٌ يُعارض (مطامعهم). فإسلام النبيّ وإسلام القرآن وإسلام معركة بدر وحُنين والإسلام

(1) بحار الأنوار، ج26، ص16، وراجع: عيون أخبار الرضا عليه السلام ، ترجمة غفاري، ج2، ص417.

الّـذي يُعارض الارستقراطيـة والتمييـز الطبقـيّ والإسلام الّـذي ينصر المستضعفيـن ويقمـع المستكبريـن، لا يُمكن أن يكون فـي مصلحة أولئك الّذيـن يريدون أن يرتـدوا اللباس الموسويّ بالحقيقـة الفرعونية واللباس الإبراهيميّ بالحقيقة النمرودية، فكانوا مضطرّين لتحريف الإسلام. ولمّا لم يكن بالإمـكان إبعاد الإسلام دفعةً واحدة عن قلـوب النّاس وأذهانهم، لأنّ النّاسـ كانـوا مؤمنين به، اضطـرّوا إلى أن يُبدّلـوا الإسلام من حيث الرّوح والماهيّة وأن يُفرّغوه من محتواه.

ففـي العصر البائد، لم يكن هنـاك مخالفة للمظاهر الإسلاميّة، ولكنّ الأمـر لم يكن كذلك فيما يتعلّق بمضمـون الإسلام وروحه وجهاد الإسلام والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر الإسلاميين وبيان الحقائق الإسلاميّة، فهـم لم يُعارضوا المظاهر الإسلاميّـة الّتي لا تضرّ مصالحهم. ومثل هذه الحالة كانت حاصلة في زمن الخلافة الأمويّة والعبّاسيّة، لهذا ومن أجل أن يُفرغـوا الإسلام من روحه وحقيقته، استأجروا مجموعة من المرتزقة من أصحـاب القلم واللسان ليختلقوا الأحاديث وكانـوا يغدقون عليهم الأموال مـن أجل أن يخترعوا لهم منقبة، أو يكتبوا لهم كتابًا. يُقال إنّه عندما هلك سليمـان بن عبد الملك، قد شوهدت كُتب فلان العالم الكبير، وقد وُضعت علـى ظهور الإبل والحيوانات وأُخرجت مـن خزانة سليمان بن عبد الملك. أي أنّ هـذا الكاتـب والمحدّث الكبير وهـذا العالم المشهـور، الّذي يُذكر اسمه في كلّ هذه الكتب الإسلاميّة، كان يؤلّف لسليمان بن عبد الملك. فهل تتوقّعـون من كتابٍ يؤلّف لسليمـان بن عبد الملك أن يُذكر فيه ما لا يُرضي سليمان بن عبد الملك؟ فسليمان بن عبد الملك الّذي يظلم ويشرب الخمر

ويُصالح الكفّار ويقمع المسلمين ويُميّز بين النّاس ويُضيّق على الفقراء وينهب أموال النّاس، أيّ إسلامٍ سيُعجبه؟ لقد كان هذا هو المرض الكبير للمجتمع الإسلاميّ طيلة القرون الأولى. وقد شاهد الأئمّة عليهم السلام هذه الأمور وشعروا أنّ تراث النبيّ العظيم صلى الله عليه وآله وسلم، أي الأحكام الإسلاميّة الّتي ينبغي أن تبقى على مرّ التاريخ وتهدي البشريّة في كلّ عصوره، أضحى عرضةً للتّحريف. وكان من أهداف الأئمّة الأساس التبيين الصّحيح للإسلام والتفسير الحقيقيّ للقرآن، وكشف تلك التّحريفات والمحرّفين.

انظروا في كلمات الأئمّة عليهم السلام، سترون أنّ ما ذُكر في العديد من الموارد ناظرٌ إلى تلك الأمور الّتي ذُكرت باسم الإسلام من قِبَل العلماء والفقهاء والمحدّثين التّابعين للأجهزة الحاكمة والعاملة لدى بلاط السّلاطين من أجل ردّها وبيان حقائقها. لقد كان هذا من الأهداف الأساس والكبرى للأئمّة، وهو عبارة عن تبيين الأحكام الإسلاميّة.

إنّ نفس هذا العمل له بعدٌ سياسيّ؛ أي إنّنا عندما نعلم أنّ التحريف يحصل من قِبَل أجهزة السّلطة والخلافة، وأنّ أصحاب القلم المأجورين والّذين يظهرون بصورة العلماء يُحرّفون الأمور من أجل السّلاطين والحكّام، فمن الطبيعيّ، أنّ كلّ من ينهض بوجه هذه التّحريفات يكون في الواقع قد قام بعملٍ يُعارض سياسة أولئك الحكّام والسلاطين. وفي يومنا هذا، نجد، في بعض الدول الإسلاميّة، أصحاب القلم والكتّاب والعلماء المستأجرين من قِبَل تلك الأجهزة يؤلّفون كتبًا من أجل بثّ الفرقة بين المسلمين، أو من أجل تشويه صورة إخوانهم المسلمين، فلو ظهر في تلك البلاد كاتبٌ حرٌّ وألّف كتابًا حول الوحدة الإسلاميّة والأخوّة بين الجماعات

الإسلاميّـة، فإنّ مثل هذا العمل سيكون في الواقـع عملًا سياسيًّا ومخالفًا للأجهزة الحاكمة. لقد كان بيان تلك الأحكام الإسلاميّة من جملة الأعمال والأنشطـة الأساس للأئمّة، ولا يعنـي هذا أنّ الأحـكام الإسلاميّة لم تكن تُعلن فـي تلك الأيّام وداخل المجتمع الإسلامـيّ؛ كيف يكون ذلك وقد كان فـي كلّ زاويـةٍ من العالم الإسلامـي من يقرأ القرآن وينقـل الأحاديث عن النبيّ ﷺ، فـكان هناك بعض المحدّثين الّذين حفظـوا آلاف الأحاديث؛ ولم يكـن الأمر مختصًّا بمكّـة والمدينة والكوفة وبغـداد وأمثالها، بل كان شائعًـا فـي جميع أقطـار العالـم الإسلاميّ. انظـروا إلى التّاريـخ، فإنّكم تجدون في خراسان ذاك العالم الشابّ الّذي يدوّن عدّة آلاف من الأحاديث فـي خراسان؛ وفـي طبرستان، ذاك العالـم الكبير الّذي ينقـل عدّة آلاف مـن الأحاديث عن النبـيّ ﷺ وعن الصحابة. لقـد كان الحديث موجودًا وكانت الأحكام الإسلاميّة تُبيّن، ولكن ما لم يكن يُبيّن هو التفسير والتبيين الصحيـح للإسلام في جميع المجالات، وفي كل مـا يتعلّق بأمور المجتمع الإسلامـيّ، وهذا ما أراد الأئمّة عليهم السلام أن ينهضوا به. لقد كان هذا العمل من الأعمال المهمّة للأئمّة عليهم السلام.

العمـل الآخر الّذي كان له أهميّة هو تبيين قضيّة الإمامة. فالإمامة هي حاكميّة المجتمع الإسلاميّ والقضيّة الأساس الّتي لم تكن واضحةً بالنسبة لمسلمـي ذلك الزّمان والّتي قد تمّ تحريفها من الناحية العمليّة والنّظريّة. فلمـن تكـون إمامة المجتمع الإسلامـيّ؟ لقد وصل الأمر بحيـث إنّ الّذين لا يتقيّـدون بالأحـكام الإسلاميّة في الأغلـب، ويرتكبون أكثـر المحرّمات علانيـةً، يدّعون خلافة النبيّ ويجلسون على مسنده، ولا يخجلون. فلم يكن

الأمـر بحيث يخفى علـى النّاس، بل كانوا يـرون أنّ شخصًا اسمه الخليفة يأتـي ليُصلّي الجمعة مخمـورًا سكرانَ ويصبح إمامًا يأتـمّ به النّاس. كان النّاس يعلمون أنّ يزيد بـن معاوية مصابٌ بالأمراض الأخلاقيّة الكبرى ويرتكب الذنـوب الكبيرة، وفي نفس الوقت، عندما كان يُقال لهم قوموا علـى يزيد، كانوا يقولـون إنّنا بايعنا يزيـد ولا يجوز القيـام عليه. فقضيّة الإمامة لـم تكن واضحةً للنّاس. كان النّاس يتصـوّرون أنّ إمام المسلمين وحاكـم المجتمع الإسلاميّ يمكن أن يكون متلوّثًا بهذه المعاصي والمفاسد والمظالـم وهذه الأعمال الّتـي تُخالف صريح القـرآن والإسلام، فلم تكن القضيّة من هذه الناحية مهمّة بالنسبة للنّاس. لقد شكّل هذا الأمر مشكلةً كبيرةً. فبالالتفات إلى أهمية قضية الحكومة في أيّ مجتمع، وتأثير الحاكم على توجّهاته، فإنّ ذلك كان يُعدّ أخطر شيءٍ على عالم الإسلام. لهذا وجد الأئمّة عليهم السلام ضرورة تبيين أمرين للنّاس:

أحدهما: الشّـروط والخصائـص الّتـي ينبغـي أن يتمتّع بهـا الحاكم الإسلامـيّ والإمـام. كالعصمة والتقـوى والعلم والمعنويـات والسلوك مع النّاس والعمـل تجاه الـرّب...، التي تشـكّل خصائص الإمـام أي الحاكم الإسلاميّ.

الثانـي: تشخيـص من يتحلّى بهـذه الخصائص في يومهـم. وهذا ما قاموا به بأنفسهم. وقد كان عملًا كبيرًا من قِبَل الأئمّة. وأنتم ترون أنّه كان من أهمّ الأعمال السّياسيّة والإعلامية والمفاهيم السّياسيّة.

لو لم يكـن للأئمّة عليهم السلام سوى هذين العملين اللّذيـن ذكرتهما، لكانا كافيين لتكون حياة الأئمّة من بدايتها وحتى نهايتها حياةً سياسية. وعندما

كانوا يُفسّــرون القرآن ويُبيّنون المعارف الإسلاميّــة أيضًا فإنّهم كانوا في الواقع يقومون بعملٍ سياسيّ. وعندما كانوا يتحدّثون عن خصائص الإمام فإنّهم كانــوا أيضًا يزاولون عملًا سياسيًّا. أي لو تمّ اختصار بيانات الأئمّة بذكـر هاتين الخاصّيتين وهذين الموضوعيــن المذكورين، لكانت حياتهم حيــاةً سياسيّــة، لكنّهم لم يكتفوا بذلــك. فبالإضافة إلــى كلّ هذه الأمور، بــدأ الأئمّة عليهم السلام من عصر الإمام الحســن المجتبى عليه السلام وإلى ما بعد ذلــك، حركةً سريّــة لها أبعاد سياسيّة وثوريّة مــن جميع الجهات، من أجل الإمســاك بالحكومــة. ولا يبقى هناك أيّ شكٍّ لكلّ باحــثٍ في حياة الأئمّة، أنّ الأئمّــة عليهم السلام كانــوا أصحاب هذه الحركــة. وما ذكرته هنــا مجهولٌ. والمشكلــة وللأسف، هي أنّ الكتــب الّتي أُلّفت حول حياة الأئمّة، حول حياة الإمــام الصادق عليه السلام وحياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وبشأن حياة أكثر الأئمّة الآخرين لم تُبيّن هذه القضيّة.

فإنّ وجود حركةٍ سياسية عند الأئمّة، ورغم كلّ هذه الشواهد الموجودة وتلك التشكيلات الواسعة والمنتشرة الّتي بنوها، قد بقيت مخفيّةً ولم تُذكر وكان هذا الأمر يُعدّ المشكلة الأساس في فهم حياة الأئمّة عليهم السلام . فحقيقة الأمــر أنّ الأئمّة قد بدؤوا هذا العمل. وبالتأكيــد، توجد شواهد كثيرة على ذلك.

.. على جميع الإخوة والأخوات أن يعلموا هذا الأمر، وبصورة مختصرة، أنّ جميع الأئمّة عليهم السلام كانوا بمجرّد أن يُلقى عليهم حمل أمانة الإمامة، فإنّ مــن الأعمال الّتي كانوا يبدؤون بها هي تلك المواجهة السّياسيّة والمساعي السّياسيّة من أجل الإمساك بزمام الحكومة. إنّ هذا السعي السياسيّ كان

يشبه جميع المساعي التي يقوم بها من يريد أن يُشكّل نظامًا. وهو ما قام به الأئمّة عليهم السلام.

(1985/04/12)

إنّ كلّ هذا النّزاع الّذي تُشاهدونه عبر مسير حياة الأئمّة عليهم السلام فيما بينهم وبين أجهزة الظّلم والجور، إنّما كان حول هذه القضيّة. فالّذين خالفوا أئمّتنا وقتلوهم بالسمّ وسجنوهم وحاصروهم وضيّقوا عليهم، إنّما كان ذلك بسبب مطالبة الأئمّة عليهم السلام بالحكومة. فحتّى لو كان الأئمّة عليهم السلام يمتلكون علوم الأوّلين والآخرين، ولكنّهم لم يكونوا طلّاب حكومة، ولم تكن القضيّة لتمسّ السلطة السياسيّة والمطالبة بهذه السّلطة، لما كانوا تعرّضوا لهم بأيّ شكلٍ من الأشكال، أو على الأقل لما كانوا تعاملوا معهم بهذه الشدّة والعنف. فالقضيّة من الأساس هي هذه. لهذا، تُلاحظون وجود حساسية فائقة حول كلمة «الإمامة» في دعوات وكلمات الأئمّة عليهم السلام؛ أي إنّ الإمام الصادق عليه السلام عندما يريد المطالبة بالحاكميّة الإسلاميّة والسّلطة السّياسيّة فإنّه يقول: «**أيّها النّاس إنّ رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **كان الإمام**»، وذلك في اجتماع الحجّاج في عرفات، فإنّ إمام المجتمع وحاكمه وقائده هو رسول الله، «**ثمّ كان عليّ بن أبي طالب، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين**»[1]، إلى أن يصل إلى نفسه. أي إنّ كلّ بحث الأئمّة مع مخالفيهم، وبحث أصحاب الأئمّة في جهادهم إنّما كان حول قضية الحكومة والحاكمية والولاية المطلقة والعامّة على المسلمين وكذلك حول

(1) الشيخ الكليني، محمد بن يعقوب بن إسحاق، الكافي، دار الكتب الإسلامية - طهران، الطبعة الرابعة، 1407هـ، ج4، ص466.

السّلطة السّياسيّة، ولم يكن النّزاع حول المقامات المعنويّة للأئمّة.

غالبًا ما كان يحدث أن نجد أشخاصًا في المجتمع، في زمن الخلفاء، من أهل الزّهد والعلم المعروفين بالتّفسير والعلم ومثل هذه الأمور، ولم يكن الخلفاء يُعارضونهم فحسب، بل كانوا مخصلين لهم ويظهرون لهم المحبّة ويختلفون إليهم ويطلبون نصائحهم؟ لأنّ مثل هؤلاء لم يكونوا طلّاب زعامة سياسيّة في مقابل الخلفاء، من أمثال حسن البصري وابن شبرُمة وعمرو بن عبيد، هؤلاء الذين كانوا من كبار العلماء وكانوا مورد عناية وقبول الخلفاء ويدّعون العلم والزهد والمعنويّات والتفسير وعلوم النبيّ وكلّ هذه الادّعاءات، لكنّ الخلفاء لم يظهروا أيّة معارضة أو تعرّضٍ لهم بأيّ شكلٍ من الأشكال. لأنّه لم يكن هناك أيّ ادّعاء للقدرة السّياسيّة وطلب للسلطة السّياسيّة. أمّا نزاع الأئمّة مع خلفاء بني أميّة وبني العبّاس فقد كان حول قضيّة الإمامة والولاية هذه، وهو ذلك المعنى الّذي نستخدمه اليوم بشأن الإمامة.

(1988/01/22)

الإمام السيد علي الخامنئي دام ظله

الفصل الأول:

النبيّ الأعظم ﷺ

- بعثة الخاتم، بداية الصحوة.
- حماية النّظام الإسلاميّ.
- تثبيت النّظام الإسلاميّ.

تمهيد

إنّ العمل المهمّ لرسول الله ﷺ هو الدّعوة إلى الحقّ والحقيقة والجهاد في سبيل هذه الدّعوة. ولم يُبتلَ النبيّ الأكرم ﷺ بأيّ تشويشٍ أو تردّد أمام الدنيا الظّلمانيّة في زمانه. سواءٌ في تلك الأيّام الّتي كان فيها في مكّة وحيدًا، أم في ذلك الجمع الصّغير من المسلمين الّذين أحاطوا به وفي مواجهة زعماء العرب المتكبّرين من صناديد قُريش وطواغيتهم، بجلافتهم وبكلّ اقتدارهم، أمام عامّة النّاس الّذين يغطّون في سُبات الجهل والجاهليّة. فلم يستوحش. وقال كلمة الحقّ وأعادها وبيّنها وأوضحها وتحمّل الإهانات واشترى كلّ تلك الصعاب والآلام بالنّفس حتّى تمكّن من أسلمة عددٍ كبير منهم؛ أم في ذلك الوقت الّذي تشكّلت فيه الحكومة الإسلاميّة، وكان هو نفسه في موقع رئاسة الحكومة، وكانت السّلطة بيده. في تلك الأيّام أيضًا، كان هناك أعداءٌ ومخالفون متنوّعون يواجهون النبيّ ﷺ، سواء تلك المجموعات العربية المسلّحة ـ البدو المتفرّقون في صحاري الحجاز واليمامة[1]، والّتي كانت دعوة الإسلام

---

(1) في الجزيرة العربية ـ بين نجد والبحرين ـ التي تحتوي على الكثير من القرى والقلاع والعيون وبساتين النخيل.

تريد إصلاحهم وهم يقاومون -أم ملوك العالم وسلاطينه - القوّتان العظميان في ذلك الزّمان - أي إيران والإمبراطورية الرومانيّة، الّذين كتب إليهم رسول الله ﷺ وجادلهم وتوجّه إليهم وجيّش الجيوش نحوهم، وعانى الصّعاب ووقع في الحصار الاقتصاديّ، حتّى وصل الأمر إلى حدّ أنّه كانت تمرّ على أهل المدينة عدّة أيّام أحيانًا، لا يجدون فيها خبز يومهم. لقد كانت التهديدات الكثيرة تُحيط بالنبيّ ﷺ من كلّ حدبٍ وصوب. كان بعض النّاس يقلقون، وبعضهم يتزلزلون، وبعضهم يتذمّرون، وبعضهم يلوم النبيّ ﷺ ويحثّه على التنازل، إلّا أنّ النبيّ ﷺ لم يتردّد أو يضعف في ميدان الجهاد هذا، وتقدّم بالمجتمع الإسلاميّ بكلّ اقتدار حتّى أوصله إلى أوج العزّة والقدرة. هذا هو النّظام والمجتمع، الّذي استطاع ببركة صمود النبيّ في ميادين الجهاد والدعوة، أن يصبح القوّة الأولى في العالم في السنوات التالية.

(1991/09/27)

بعثة النبيّ الخاتم ﷺ وإرساء قواعد النّظام

بداية الصّحوة

كمـا رُوي عنه ﷺ، في حديث مشهـور ومتواتر، أنّه قـال: «**إنّما بُعثت لأتمّـم مكارم الأخلاق**»[1]، فـإنّ البعثة قد وُجدت في هذا العالَم لأجل هذا الهـدف، من أجل تعميم المكارم الأخلاقيّـة، والفضائل الروحيّة وتكميلها عند النّاس.

وطالمـا أنّ المـرء لم يتحلَّ بأفضل المـكارم الأخلاقيّة، فإنّ اللّه تعالى لـن يـوكل إليه هذا المهمّـة العظيمة والخطيـرة، ولهذا فـإنّ اللّه سبحانه يُخاطـب النبيّ ﷺ في أوائـل البعثة قائـلاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]؛ أي أنّ الرسـول ﷺ كان على درجة من الاستعـداد تجعله قادرًا على تلقّي الوحي الإلهيّ، وهذا الأمر يعود إلى ما قبل البعثة. ولهذا فقد ورد أنّ النبيّ الأكـرم ﷺ كان يشتغل بالتجـارة في شبابه، وقد كسب مـن ذلك أرباحًا طائلة، ما لبث أن أنفقها جميعًا على المساكين قربةً إلى اللّه تعالى.

---

(1) بحار الأنوار، ج68، ص 382.

(2) سورة القلم، الآية 4.

وفي هذه المرحلة الّتي كانت نهاية تكامل النبيّ ﷺ وقبل نزول الوحي ـ ولم يكن قد نُبّئ بعد ـ كان النبيّ يعتزل في غار حراء ويجول بفكره في الآيات الإلهية من سماءٍ ونجومٍ وأرض، ويتأمّل في هذه الخلائق والموجودات الّتي تعيش على وجه البسيطة بما لها من مشاعر مختلفة وطبائع شتّى. لقد كان يشاهد كافّة هذه الآيات الإلهية فيزداد خضوعه يومًا بعد آخر أمام عظمة الحقّ ويتضاعف خشوع قلبه أمام الأمر والنّهي الإلهيّين والإرادة الرّبانية وتتفتّح في وجدانه، مع مرور الأيّام، براعم الأخلاق النبيلة. ولهذا فقد ورد أنّه ﷺ: «كان أعقل النّاس وأكرمهم»[1]، حيث كان يزداد تكاملًا قبل البعثة بمشاهدة الآيات الإلهيّة حتّى بلغ الأربعين، «**فلمّا استكمل أربعين سنة ونظر الله عزّ وجل إلى قلبه فوجده أفضل القلوب وأجلّها وأطوعها وأخشعها وأخضعها أذن لأبواب السماء ففُتحت، ومحمّد ينظر إليها، وأذن للملائكة فنزلوا ومحمّد ينظر إليهم**»[2]، حتّى نزل عليه جبرائيل الأمين وقال: ﴿اقْرَأْ﴾[3] فكانت بداية البعثة.

إنّ هذا المخلوق الإلهيّ الّذي لا نظير له، وهذا الإنسان الكامل الّذي كان قد بلغ تلك الدرجة من الكمال في هذه المرحلة قبل نزول الوحي، قد شرع منذ اللحظة الأولى من البعثة في دخول مرحلة من الجهاد الشامل والبالغ المشقّة والمكابدة، استغرقت ثلاثًا وعشرين سنة، وكل هذا كان نموذجًا للكفاح والمجاهدة والعمل الدؤوب. لقد كان جهاده ﷺ جهادًا

---

(1) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، ص260، وأصل الحديث عن رسول الله ﷺ: «**أفضل النّاس أعقل النّاس**» وفسره ابن عباس برسول الله ﷺ.

(2) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج17، ص 309.

(3) سورة العلق، الآية 1.

مع نفسه، ومع أُناس لا يُدركون من الحقيقة شيئًا، ومع ذلك المحيط الّذي كان يعمّه ظلامٌ حالك ومطبق. ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة في وصف ذلك: «**فِي فِتَنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا، وَوَطِئَتْهُمْ بِأَظْلافِهَا، وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا**»[1]. لقد كانت الفتن تُهاجم النّاس من كلّ جانب: حبّ الدنيا واتّباع الشهوات والظلم والجور والرذائل الأخلاقيّة، الّتي تقبع في عمق وجود البشريّة؛ وأيادي الطغاة الجائرة، الّتي كانت تمتدّ على الضعفاء بلا أدنى مانعٍ أو رادع. ولم يكن هذا التعسّف مقتصرًا على مكّة أو الجزيرة العربية، بل كان يسود أعظم الحضارات في العالم آنذاك، أي الإمبراطورية الرومانية العظيمة والإمبراطورية الشاهنشاهية في إيران. فإذا ما تأمّلتم في التاريخ، لوجدتّم صفحة تاريخية مظلمة كانت تضرب بأطنابها كافّة نواحي الحياة الإنسانيّة.

لقد بدأ النبيّ ﷺ جهاده منذ اللحظة الأولى للبعثة متسلّحًا بقوّة خارقة وسعي متواصل يستعصي على التصوّر. لقد تحمّل الوحي، ذلك الوحي الإلهيّ الّذي كان ينزل على قلب الرسول ﷺ كما ينزل الغيث العذب ويهطل على الأرض الخصبة فيمنحه الطاقة ويمدّه بالقوّة؛ وانبرى موظّفًا كلّ طاقته ليأخذ بِيَد العالَم إلى زمنٍ من التحّول العظيم، ولقد حالفه التوفيق.

إنّ الرسول ﷺ بنى الخلايا الأولى لجسد الأمّة الإسلاميّة بيَده المقتدرة، في تلك الأيّام العصيبة من تاريخ مكّة. لقد بنى قواعد الأمّة

---

(1) السيد الرضي، محمد بن حسين، نهج البلاغة، تحقيق وتصحيح صبحي الصالح، دار الهجرة - قم، الطبعة الأولى، 1414هـ، ص47.

الإسلاميّة ورفع عمادها، فكان المؤمنون الأوائل وأوّل من اعتنق الإسلام وأوّل من كانت لديهم تلك المعرفة والشجاعة والنورانية الّتي مكنتهم من الوقوف على حقيقة الرسالة النبويّة والإيمان بها، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾(1). لقد كان الرسول ﷺ هو الّذي لامس بأنامله الرقيقة شعاع تلك القلوب الوالهة، وفتح بيده القويّة أبواب الأفئدة على عالَم رحبٍ من المعارف والأحكام الإلهيّة، فتفتّحت الأذهان والقرائح وازدادت الإرادات صلابةً ودخلت تلك الثلّة المؤمنة - الّتي كان يزداد عددها يومًا بعد يوم - في صراعٍ مريرٍ لا يُمكن تصوّره بالنسبة لنا في المرحلة المكّية. لقد تفتّحت هذه البراعم في بيئة لم تكن تعرف سوى القيم الجاهليّة، فكان يسودها العصبية الخاطئة، ويعمّها الحقد العميق، وتتصارع بين جنباتها قوى القسوة والشرّ والظلم والشهوة الّتي تضغط بشدّة على حياة البشر وتحيط بها من كلّ جانب، فنبتت تلك الغرسات وأينعت من بين كلّ هذه الأحجار والأشواك الجامدة والملتفّة، وهذا هو معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**وإنَّ الشَّجَرَةَ الْبَرِّيَّةَ أصلبُ عوداً، [والرواتع الخضرة أرقّ جلوداً، والنباتات العذية] أَقْوَى وَقُوداً**»(2). ولذلك فإنّ كافّة العواصف والأنواء لم تستطع النيل من هذه النباتات والبراعم والأشجار الّتي نمت وترعرعت وانبثقت أعوادها من بين الصخور الصمّاء، وانقضى ثلاثة عشر عامًا، ثمّ ما لبث صرح المجتمع الإسلاميّ ـ المجتمع المدنيّ والنبويّ ـ أن قام على أساس هذه القواعد القويّة.

(1) سورة الأنعام، الآية 125.

(2) نهج البلاغة، ص 418.

العمل السياسيّ

لم تكن السياسة هي العنصر الوحيد في بناء هذه الأمّة، بل كانت تُمثّل قسمًا من هذه العمليّة. والقسم الأساس الآخر فيها كان يتركّز على بناء الأفراد، ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[1]، ومعنى ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أنّ الرسول ﷺ كان يعمل على تربية وتزكية القلوب قلبًا قلبًا، كما كان يُغذّي العقول عقلاً عقلاً، وذهناً ذهناً، بالحكمة والعلم والمعرفة، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، والحكمة أعلى درجة ومكانة. فلم يكن النبيّ ﷺ يُعلّمهم القوانين والأحكام فحسب، بل كان يُعلّمهم الحكمة أيضًا، وكان يفتح عيونهم على حقائق الوجود. وهكذا سار النبيّ ﷺ فيهم لمدّة عشر سنوات. فمن ناحية كان اهتمامه منصبًّا على السّياسة وإدارة الحكومة والدّفاع عن كيان المجتمع الإسلاميّ ونشر الإسلام وفتح المجال أمام تلك الجماعات الّتي كانت تعيش خارج المدينة أن يدخلوا السّاحة النورانيّة للإسلام وللمعارف الإسلاميّة؛ ومن ناحيةٍ أخرى كان يعمل على تربية أفراد المجتمع. وهذان الأمران لا يُمكن فصل أحدهما عن الآخر.

لقد اعتبر بعض النّاس أنّ الإسلام مسألة فرديّة، وفصلوه عن السياسة، في حين أنّ نبيّ الإسلام المكرّم ﷺ في بداية الهجرة، ومن اللحظة الأولى الّتي تمكّن فيها من النجاة بنفسه من مصاعب مكّة، فإنّ أوّل ما قام به هو السياسة. فإنّ إقامة المجتمع الإسلاميّ وتشكيل الحكومة والنّظام

---

(1) سورة الجمعة، الآية 2.

والجيش الإسلاميّ وإرسال الرسائل إلى حكّام العالم الكبار والدخول في معترك السياسة العظيم آنذاك، تُعدّ كلّها من شؤون السياسة. فكيف يُمكن فصل الدين عن السياسة؟! وكيف يُمكن إعطاء السياسة معنىً ومضمونًا وشكلًا بيَد غير يد الهداية الإسلاميّة؟! ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾[1]، ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾[2]. إنّهم يؤمنون بالقرآن، لكنّهم لا يؤمنون بسياسته! ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾[3]. فما معنى القسط؟ إنّ القسط يعني إقرار العدالة الاجتماعيّة في المجتمع. فمن الّذي يستطيع تحمّل هذا العبء؟ إنّ إقامة مجتمع يعمّه العدل والقسط هو عملٌ سياسيّ يقوم به مدراء البلاد، وهذا هو هدف الأنبياء جميعًا. فليس الأمر مقتصرًا على نبيّنا فقط، بل إنّ عيسى وموسى وإبراهيم وجميع الأنبياء الإلهيّين عليهم السلام قد بُعثوا من أجل العمل السياسيّ وإقامة النّظام الإسلاميّ. (2006/08/22)

النّظام النموذجيّ للحكم

إنّ سيرة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في مرحلة السنوات العشر لحاكميّة الإسلام في المدينة، تُعدّ من ألمع عهود الحكم طيلة التاريخ البشريّ، ولا نقول ذلك جزافًا، وإنّما يجب التعرّف إلى هذا العهد القصير والمليء

(1) سورة الحجر، الآية 91.
(2) سورة البقرة، الآية 85.
(3) سورة الحديد، الآية 25.

بالنشــاط والّذي له تأثيــرٌ خارقٌ على تاريخ البشريّــة. إنّ المرحلة المدنيّة هــي الفصل الثاني من عصر رسالة النبيّ، الّــذي امتدّ لـ 23 سنة. الفصل الأوّل، الّــذي كان مقدّمــةً للفصل الثاني، كان عبــارة عن 13 سنة في مكّة. أمّــا السنوات العشر الّتــي قضاها النبيّ ﷺ في المدينــة فهي تُمثّل سنيّ إرساء قواعد النّظام الإسلاميّ وبناء أنموذج الحكم الإسلاميّ لجميع أبناء البشريّــة على مرّ التاريخ الإنسانيّ في مختلــف الأعصار والأمصار. وهذا الأنموذج الكامل، لا نجد له نظيرًا في أيّ حقبة أخرى. وبمقدورنا من خلال إلقاء نظرة على هذا الأنموذج الكامل تحديد المعالم الّتي بها ينبغي للبشر وللمسلمين الحكم على الأنظمة وعلى النّاس.

لقد كانت غاية النبيّ ﷺ مــن هجرته إلى المدينة هي مقارعة الواقع السياســيّ والاقتصــاديّ والاجتماعيّ بظلمه وطاغوتيّتــه وفساده الّذي كان مهيمنًا على الدنيــا آنذاك، ولم يكن الهدف مكافحة كفّار مكّة فحسب، بل كانــت القضيّــة ذات بعد عالميّ أيضًا. كان النبــيّ الأكرم ﷺ يتعقّب هذا الهــدف، فكان يغرس بذور الفكر والعقيدة أينمــا وَجد الأرضيّة المساعدة لذلك، على أمل أن تنبت تلك البذور في الوقت المناسب. وكانت غايته من ذلك إيصال رسالــة الحريّة والنهوض وسعادة الإنســان إلى كافّة القلوب. وذلك يتعذّر إلاّ عن طريق إقامة النّظام النموذجيّ القدوة. لذلك فقد جاء النبــيّ ﷺ إلى المدينة لإقامــة مثل هذا النّظام النموذجــيّ؛ لكن إلى أيّ مــدى تسعى الأجيال اللاحقة لمواصلة ذلك والاقتــراب من هذا النّموذج، فذلك منوطٌ بهممها ومساعيها.

فالنبـيّ ﷺ يبني النّمـوذج ويُقدّمه للبشريّة والتّاريـخ. والنّظام الّذي شيّده النبيّ ﷺ كان له الكثير من المعالم، أبرزها وأهمّها سبعة:

المعْلَم الأوّل: الإيمان: فالدّافع الحقيقيّ للنّظام النّبويّ إلى الأمام هو الإيمان المنبثق من قلوب النّاس وعقولهم والذي يأخذ بأيديهم وكلّ كيانهم نحـو طريق الصّـواب. إذًا، المعلم الأوّل يتمثّل في نفخ روح الإيمان وتقويته وترسيخه وتغذية أبنـاء الأمّة بالمعتقد والفكـر السليمين، وهذا ما باشره النبيّ ﷺ في مكّة ورفع رايته في المدينة بكلّ اقتدار.

المعْلَـم الثاني: العدل والقسط: فمنطلق العمل كان يقوم على أساس العدل والقسط وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه من دون أدنى مداهنة.

المعْلَـم الثالث: العلم والمعرفـة: فأساس كلّ شيء في النّظام النبويّ هـو العلم والمعرفة والوعـي واليقظة، فهو لا يُحرّك أحدًا فـي اتّجاهٍ معيّن حركـةً عميـاء، بل يحوّل الأمّـة عن طريق الوعـي والمعرفـة والقدرة على التشخيص إلى قوّة فعّالة لا منفعلة.

المعْلَـم الرابـع: الصفـاء والأخـوّة. فالنّظام النبويّ ينبـذ الصّراعات التي تُغذّيها الدّوافع الخُرافيّة والشّخصيّة والمصلحيّة والنّفعيّة ويُحاربها. فالأجواء هي أجواء تتّسم بالصّدق والأخوّة والتآلف والحميميّة.

المعْلَـم الخامس: الصّلاح الأخلاقـيّ والسلوكيّ: فهـو يُزكّي النّاس ويُطهّرهـم من رذائـل الأخـلاق وأدرانها، ويصنـع إنسانًا خلوقًـا ومزكّىً ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[1]، فالتّزكيـة هـي

(1) سورة آل عمران، الآية 164.

أحد المرتكزات الأساس. أي إنّ النبيّ ﷺ كان يعمل على أبناء الأمّة فردًا فردًا على أساس التّربية وبناء الإنسان.

المعْلَم السادس: الاقتدار والعزّة: فالمجتمع والنّظام النبويّ لا يتّسمان بالمذلّة والتسوّل ومدّ يد الحاجة إلى هذا وذاك، بل يتميّزان بعزّتهما واقتدارهما وعزمهما؛ فهما متى ما شخّصا موطن صلاحهما سعيا إليه وشقّا طريقهما إلى الأمام.

المعْلَم السابع: العمل والنّشاط والتّقدّم المطّرد: فلا مجال للتّوقّف في النّظام النبويّ، بل الحركة والعمل والتقدّم بنحوٍ منظّم. ولا يحدث أن يقول أبناؤه إنّ كلّ شيء قد تمّ، فلنركن إلى الدّعة والرّاحة! وهذا العمل ـ بطبيعة الحال ـ مبعث لذّة وسرور وليس مدعاة للكسل والملل والإرهاق، بل هو عمل يمنح الإنسان النّشاط والطّاقة والاندفاع.

دعائم النّظام النموذجيّ

قدِم النبيّ ﷺ إلى المدينة ليُقيم هذا النّظام ويعمل على تكامله ويجعله أنموذجًا إلى أبد الدّهر، وليقتدي به اللاحقون على امتداد التاريخ، ممّن تتوفّر لديهم القدرة على إقامة نظامٍ مماثل له، ومن أجل أن يزرعوا الاندفاع في القلوب كي يحثّ بنو البشر الخطى نحو إيجاد مثل هذا المجتمع. وبالطّبع، فإنّ إيجاد مثل هذا النّظام يحتاج إلى دعائم عقائدية وإنسانية.

فلا بدّ أوّلًا من وجود معتقدات وأفكار سليمة كي يُقام هذا النّظام على أساسها. وقد بيّن النبيّ ﷺ هذه الأفكار والرؤى في إطار كلمة التّوحيد والعزّة الإنسانيّة وسائر المعارف الإسلاميّة خلال فترة السّنوات الثلاث

عشـرة الّتـي أمضاها في مكّة، ثـم علّمها وفهّمها الآخريـن بنحوٍ متواصلٍ وعلى مدى لحظات حياتـه حتّى وافاه الأجل في المدينة، وكان على الدوام بصـدد تعليـم وتفهيم الجميـع مثل هذه الأفـكار والمعـارف السامية الّتي شكّلت أسس هذا النّظام.

وثانيًـا من الضـروريّ وجود القواعـد والدّعائم الإنسانيّـة كي يستقيم هـذا البناء عليها، لأنّ النّظام الإسلاميّ لا يقوم على فردٍ واحد. وقد باشر النبـيّ ﷺ بإعداد هـذه الرّكائز في مكّة وحقّقهـا. كان البعض منهم من كبـار الصّحابة ـ على اختـلاف مراتبهم ـ لقد كانوا ثمرة الجهود المضنية والجهـاد المرير خلال فتـرة السنوات الثـلاث عشرة في مكّـة، فيما كان البعض الآخر من الّذين تمّ بناؤهم في يثرب من خلال رسالة النبيّ ﷺ، أمثال سعد بن معاذ وأبي أيوب وآخرين، وذلك قبل هجرة النبيّ ﷺ.

وعندمـا حلّ النبيّ ﷺ في المدينـة، فقد باشر عملية بناء الإنسان من لحظـة دخولـه إليها. ومع مرور الأيّـام أخذت ترد إلـى المدينة شخصيّات تتّسـم بجدارتهـا الإدارية وجلالـة القـدر والشجاعة والتضحيـة والإيمان والاقتدار والمعرفة حتّى أصبحت أعمدةً صلبة لهذا الصّرح الشامخ الرفيع.

لقـد كانت هجرة النبيّ ﷺ إلى المدينة ـ الّتي كانت تُسمّى قبل حلوله فيهـا بـ «يثرب» ومن ثـمّ سُمّيت بـ «مدينة النبيّ» بعد دخولـه إليها ـ بمثابة نسائـم ربيع عمّت أجواء المدينة فشعر أهلها كأنّ انفراجًا حلّ فيهم جذب القلـوب وأيقظها. وعندمـا سمع أهل المدينة بوصـول النبيّ ﷺ إلى قبا ـ وهـي على مقربة من المدينة وقد مكث فيها خمسة عشر يومًا ـ كان الشّوق لرؤيتـه يغلي فـي قلوبهم يومًا بعد يوم، وكان بعض النّاس يذهبون إلى قبا

ويزورون النبيّ ﷺ ويرجعون؛ فيما بقي الآخرون ينتظرونه في المدينة. وعندما دخل النبيّ ﷺ المدينة تبدّل ذلك الشّوق وذلك النّسيم إلى عاصفة ألهبت قلوب النّاس فغيّرتها. وسرعان ما نما لديهم الشّعور بأنّ جميع ما لديهم من عقائد وعواطف وروابط قبليّة وعصبيّات قد ذابت بطلوع محيّا هذا الرجل وسلوكه ومنطقه، وأشرفوا على نافذة جديدة تطلّ بهم على حقائق عالم الخلق والمعارف الأخلاقيّة. فكان أن أحدثت هذه العاصفة ثورةً في القلوب بادئ الأمر، ثمّ امتدّت إلى تخوم المدينة، لتخرج فيما بعد إلى قلاع مكّة وتسيطر عليها، وتنطلق في خاتمة المطاف لتشقّ طريقها إلى ما هو أبعد، فتتقدّم إلى أعماق امبراطوريتي ذلك الزمان العظميين، وحيثما توجّهت كانت تهزّ القلوب وتحدث ثورةً في باطن البشر. ففي صدر الإسلام فتح المسلمون بقوّة إيمانهم بلاد إيران والروم، وأيّما قوم طالهم هجوم المسلمين كان الإيمان يُداعب قلوبهم بمجرّد رؤيتهم للمسلمين. كانت الغاية من السيف إزالة العراقيل عن الطريق، والقضاء على المتسلّطين والمترفين. أمّا السواد الأعظم من النّاس فقد استقبل هذه العاصفة في جميع الأمكنة، فكان أن نفذ النّظام والدولة الإسلاميّة إلى أعماق امبراطوريتي ذلك الزمان ـ أي إيران والروم ـ فأصبحتا جزءًا من النّظام والدولة الإسلاميّة. وكلّ ذلك حصل في ظرف أربعين سنة، عشرٌ منها في عهد الرسول ﷺ، وثلاثون منها بعد رحيله.

لقد باشر النبيّ ﷺ عمله بمجرّد أن حلّ في المدينة. ومن العجائب الّتي حفلت بها حياته ﷺ هي أنّه، وطوال تلك السنوات العشر، لم يهدر لحظةً واحدة، فلم يُرَ ﷺ، غافلًا عن إنارة مشعل الهداية والإيمان والتعليم

والتربية ولو للحظةٍ واحدة؛ فلقد كانت يقظته ونومه ومسجده وداره ودخوله ساحة الحرب ومسيره في الطرقات والأسواق ومعاشرته لأسرته وكلّ وجوده أينما حلّ، درسًا. يا لها من بركة زخر بها هذا العمر! فالشّخص الّذي شغل التّاريخ برمّته وترك بصماته عليه - ولقد قلت مرارًا إنّ الكثير من المفاهيم الّتي اكتست وشاح القدسيّة على مدى القرون التالية، من قبيل المساواة والأخوّة والعدالة والسيادة الشعبيّة، كلّها كانت تحت تأثير تعاليمه ﷺ. ولم يكن لمثل هذه الأمور من وجود في تعاليم سائر الأديان، أو لا أقلّه فإنّها لم ترَ النّور، مع أنّ نشاطه الحكوميّ والسياسيّ والاجتماعيّ قد دام عشر سنين فقط لا غير! فيا له من عمرٍ مبارك!

السّلوك الاجتماعيّ للنبيّ ﷺ

لقد حدّد ﷺ موقفه منذ اللحظة الأولى لدخوله المدينة، فعندما دخلت النّاقة، التي كان يركبها النبيّ، يثرب أحاط بها النّاس. وكانت يثرب يومها مقسّمة إلى أحياء تضمّ بيوتًا وأزقّة ومتاجر، يعود كلٌّ منها إلى واحدة من القبائل التّابعة إمّا للأوس أو للخزرج... كانت الناقة تمرّ من أمام قلاع هذه القبائل فيخرج كبارها ويأخذون بركاب النّاقة منادين: إلينا يا رسول الله، وكان ﷺ يقول: «**دعوا الناقة فإنّها مأمورة**»[1]. لكنّ كبار القوم وأشرافهم وشيوخهم وشبابهم اعترضوا ناقة النبيّ ﷺ قائلين: انزل هنا يا رسول الله، فالدّار دارك، وكلّ ما لدينا في خدمتك، لكنّه ﷺ، كان يقول لهم: «**دعوا الناقة فإنّها مأمورة**». وهكذا طوت الناقة

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج19، ص 110.

الطريق حيًّا بعد حيّ، حتّى وصلت إلى حيّ بني النجّار، الّذين تنتمي إليهم أمّ الرسول ﷺ، وباعتبارهم أخوال النبيّ ﷺ جاؤوه وقالوا: يا رسول الله! إنّ لنا بك لقرابة فانزل عندنا، فقال ﷺ: «**دعوا الناقة فإنّها مأمورة**»، فانطلقت الناقة حتّى حطّت رحالها في أكثر أحياء المدينة فقرًا، فمدّ النّاس أعناقهم ليعرفوا مَنْ صاحب الدار الّتي حطّت عندها الناقة، فإذا به أبو أيّوب الأنصاريّ، أفقر أهل المدينة أو أحد أفقرهم. عمد أبو أيّوب الأنصاريّ وعياله الفقراء المعوزون إلى أثاث النبيّ ﷺ فنقلوه إلى دارهم، وحلّ النبيّ ﷺ ضيفاً عليهم[1]، فيما رُدّ الأعيان والأشراف وأصحاب النفوذ وذوو الأنساب وأمثالهم، أي أنّه حدّد موقعه الاجتماعيّ، فاتّضح من خلال ذلك عدم تعلّق هذا الرجل بالثّروة والنسب القبليّ والزعامات القبلية والانتماء الأُسريّ والعائليّ وعدم ارتباطه بالمتحايلين الوقحين ولن يكون كذلك. فهو ﷺ حدّد طبيعة سلوكه الاجتماعيّ منذ اللحظة الأولى، وأيًّا من الفئات يُساند، ولأيٍّ من الطبقات ينحاز، ومَنْ هم الّذين سينالون القسط الأوفر من فائدة وجوده. فالجميع كانوا ينتفعون من وجود النبيّ ﷺ وتعاليمه، بيد أنّ الأكثر حرمانًا كان أكثر انتفاعًا منه، دافعهم في ذلك هو التعويض عن حرمانهم.

كانت قبال دارة أبي أيّوب الأنصاريّ قطعة أرض متروكة فسأل ﷺ عن صاحبها، فقيل إنّها ليتيمين، فدفع لهما ثمنها واشتراها ثمّ أمر ببناء مسجد عليها، كان بمثابة مركز سياسيّ عباديّ اجتماعيّ وحكوميّ ومركز

(1) م. س، ص121.

يتجمّع فيه النّاس؛ حيث اقتضت الضرورة بناء مركز يُمثّل المحورية، ومن هنا تمّت المباشرة ببناء المسجد. ولم يطلب ﷺ قطعة أرض من أحد أو يستوهبها، بل اشتراها بأمواله؛ ورغم عدم وجود محام عن هذين اليتيمين فإنّ النبيّ ﷺ راعى الدقّة في أداء حقوقهما كاملةً تامّةً كالأب والمدافع عنهما. وعندما باشروا ببناء المسجد، كان النبيّ نفسه ﷺ من أوائل الأشخاص بل أوّل شخص جاء وحمل بالمعول وباشر بحفر أرض المسجد. ولم يكن عمله هذا استعراضيًّا، بل بالفعل باشر بالعمل وكان يتصبّب عرقًا. كان عمله بحيث أنّ بعض الأشخاص الذين جلسوا جانبًا، قالوا: أنجلس والرسول يعمل هكذا؟! فلنذهب ونعمل، فجاؤوا وانهمكوا في العمل حتّى شيّدوا المسجد خلال برهة وجيزة. وبذلك أثبت النبيّ ﷺ - ذلك القائد العظيم والمقتدر - أنّه لا يرى أيّ حقّ لشخصه، فإذا ما كان هنالك عمل فلا بدّ أن تكون له مساهمة فيه. بعد ذلك، وضع ﷺ، الأطر الإدارية والسّياسيّة لذلك النّظام. ولو أنّ المرء ألقى نظرة على التطوّر الّذي خطاه بذكاء وفطنة، لأدرك أيّ عقل وفكر ودقّة وحنكة تقف وراء تلك العزيمة القاطعة والإرادة الصلبة الّتي لا يمكن تحقّقها ظاهرًا إلاّ برفدٍ من الوحي الإلهيّ. وحتّى يومنا هذا، إنّ الّذين يحاولون تتبّع وقائع تلك السنوات العشر خطوةً خطوة يعجزون عن استيعاب أيّ شيء. وإذا ما حاول المرء دراسة كلّ واقعة على حدة فإنّه لا يدرك منها شيئًا، بل عليه أن يُدقّق النّظر ويلحظ تسلسل الأعمال وكيفية إنجاز كلّ تلك المهامّ بتدبيرٍ ووعيٍ وحساباتٍ دقيقة.

تمثّلت الخطوة الأولى في إرساء الوحدة. لم يكن جميع أهل المدينة مسلمين؛ لقد كان أكثرهم كذلك، إلّا أنّه بقيت فيما بقيت قلّة قليلة منهم غير مسلمة. علاوة على ذلك، كانت ثلاث من القبائل المهمّة لليهود - بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة - تقطن المدينة؛ أي في القلاع الخاصّة بهم المحاذية للمدينة. كانت هذه القبائل قد جاءت إلى المدينة قبل قرن أو قرنين من ذلك التاريخ، وقصّة مجيئهم إلى المدينة هي قصّة طويلة لها تفاصيلها. وعند دخول النبيّ ﷺ إلى المدينة كان لهؤلاء اليهود ثلاث مزايا:

أوّلها: سيطرتهم على الثروات الأساس في المدينة، وعلى أهمّ مزارعها وتجارتها ومنافعها، وعلى أهمّ صناعاتها الّتي تدرّ الأرباح وهي صناعة الذهب وغيرها. وكان أغلب أهل المدينة يرجعون إليهم لسدّ حوائجهم والاستقراض منهم وتسديد الربا إليهم، أي أنّهم كانوا يقبضون على كلّ شيء من الناحية المالية.

والثانية: تفوّقهم على أهل المدينة من الناحية الثقافيّة، فهم كانوا أصحاب كتاب وعلى اطّلاع على مختلف المعارف والعلوم الدينيّة والمسائل الّتي تجهلها عقول أهل المدينة ذات الطّبيعة شبه البدائيّة. من هنا كانت لهم الهيمنة الفكريّة. وإذا ما أردنا وصفهم وفقًا للمصطلحات المعاصرة فبإمكاننا القول بأنّهم كانوا يُشكّلون طبقة مثقّفة؛ لذلك كانوا يستحمقون أهل المدينة ويسخرون منهم ويُحقّرونهم. بالطّبع، كانوا يتصاغرون في المواطن التي كانوا يدركون فيها الخطر أو عند الضرورة، غير أنّ التفوّق كان لهم في الحالات الطبيعية.

الثالثة: اتّصالهم بالمناطق النائية عن المدينة، فلم يتقوقعوا داخل حدود المدينة. لقد كانوا يُمثّلون واقعًا قائمًا في المدينة، لذا كان على النبيّ ﷺ أن يضعهم في الحسبان؛ فأوجد ﷺ ميثاقًا جماعيًّا عامًّا. ولدى ورود النبيّ ﷺ المدينة اتّضح أنّ قيادة مجتمعها منحصرةٌ به ﷺ من دون أن يبرم عقدًا أو يطلب شيئًا من النّاس أو أن يدخل في مباحثات مع أحد، أي إنّ الشّخصيّة والعظمة النبويّة أخضعت الجميع لها بشكلٍ طبيعيّ. لقد تجلّت قيادته وجعلت الجميع يتحرّكون ويُبادرون حول محوريّتها.

لقد كتب النبيّ ميثاقًا، وصار موضع قبول من قِبل الجميع. كان الميثاق شاملًا للتفاعل الاجتماعيّ والمعاملات والنزاعات والديات وعلاقة النبيّ ﷺ بمعارضيه وموقفه من اليهود ومن غير المسلمين؛ كلّ ذلك كان مدوّنًا ومفصّلًا ولعلّه قد احتلّ صفحتين أو ثلاث صفحات كبيرة من كتب التّاريخ القديمة الكبرى.

الخطوة الثانية كانت في غاية الأهميّة وهي إشاعة روح الأخوّة. لقد كانت الأرستقراطيّة والعصبيّات الخُرافية والتكبّر القبليّ وانفصال الشّرائح المختلفة للنّاس عن بعضها البعض، أبرز البلاءات الّتي كانت تُعاني منها المجتمعات الجاهليّة العربيّة المتعصّبة يومذاك. وبإشاعته للأخوّة، سحق النّبيّ ﷺ هذه النعرات تحت قدميه. فقد آخى بين رئيس القبيلة وبين من هو في مستوًى دانٍ أو متوسّط. وهؤلاء بدورهم ارتضوا هذه الأخوّة طائعين. ووضع السّادة والأشراف إلى جانب العبيد من المسلمين والعتقاء، وبذلك قضى على العوائق في طريق الوحدة الاجتماعيّة. وعندما أراد ﷺ اتّخاذ مؤذّن لمسجده، كان ذوو الحناجر الجهوريّة والهندام

الجميل والشخصيّات المشهورة، من الكثرة بمكان؛ لكنّه اختار من دونهم بلالًا الحبشيّ الّذي كان يفتقد إلى الجمال والصوت الحسن والشّرف العائليّ والنَّسبيّ. فالمناط كان الإسلام والإيمان والجهاد والتّضحية في سبيل اللّه لا غير. لاحظوا كيف أنّه ﷺ حدّد القيم على صعيد العمل، فقبل أن يترك كلامه بصماته على القلوب، كانت أعماله وسيرته وهديه يؤثّرون في القلوب.

حماية النّظام الإسلاميّ

بغية إنجاز هذه المهمّة كان هناك ثلاث مراحل هي:

المرحلة الأولى: إرساء قواعد النّظام من خلال إنجاز هذه الأعمال.

المرحلة الثّانية: صيانة هذا النّظام؛ فمن الطبيعيّ أن يكون هناك من يُعادي هذا الكيان المتنامـي والمتعاظم الّذي لو أحسَّ به أصحاب السّلطة لشعـروا بالخطـر إزاءه. وإذا لـم يتمكّن النبيّ ﷺ من حفـظ هذا الوليد الطّبيعيّ الميمون بحنكة في مقابـل الأعداء، فسيزول هذا النّظام وتذهب جهوده سدًى، فلا بدّ له من صونه.

المرحلـة الثالثـة: إكمـال البناء وإعمـاره؛ إذ لا تكفـي عمليّة الإرساء وإنّما هي الخطوة الأولى.

وهـذه المراحل الثلاث تسير إلـى جانب بعضها بعضًـا عرضيًّا. إنّ عمليّـة إرساء القواعد تأتـي بالدّرجة الأولى، بيد أنّـه يتعيّن الحذر من العـدوّ أثناءها، وهكذا تأتي مرحلة الصيانة، حيث يتمّ خلالها الاهتمام ببنـاء الأشخاص والكيانـات الاجتماعيّة ومن ثـمّ تتواصل في المراحل اللاحقة.

أعداء النّظام الإسلامي

كان النبيّ ﷺ يرى خمسة أصناف من الأعداء يتربّصون بهذا المجتمع الفتيّ:

العدوّ الأول: وهو عدوٌّ ضئيل الأهميّة ومحدود، ولكن ينبغي عدم التّغافل عنه في الوقت نفسه، فلربّما يتسبّب في بروز خطرٍ داهم. فمن هو هذا العدوّ؟ إنّه القبائل شبه الهمجيّة التي تُحيط بالمدينة؛ فعلى بُعد عشرة أو خمسة عشر أو عشرين فرسخًا من المدينة تعيش قبائل شبه بدائيّة، جلّ حياتها عبارة عن الاقتتال وإراقة الدماء والإغارة والنّهب والسّلب. وإذا كان النبيّ ﷺ يصبو إلى إقامة مجتمعٍ سليم آمنٍ ووادعٍ في المدينة، فما عليه إلا أن يحسب لهؤلاء حسابهم، وهكذا فعل ﷺ، حيث تعاهد مع مَنْ تتوفّر فيه أمارات الصّلاح والهداية، ولم يُبادرهم بالدّعوة للإسلام بادئ الرأي، بل عاهدهم مع بقائهم على كفرهم وشركهم بغية تجنّب انتهاكاتهم. لقد كان النبيّ ﷺ ملتزمًا أشدّ الالتزام بتعهّداته ومواثيقه، وهذا ما سأتطرّق إليه أيضًا، لكنّه لاحَقَ الأشرار ومَن لا عهد لهم وعالج مشكلتهم. وما يُذكر من بَعْثِ النبيّ ﷺ للسّرايا، حيث كان يرسل الخمسين أو العشرين من المسلمين في سرايا، لملاحقة هؤلاء الّذين تأبى طبيعتهم الوئام والهداية والصّلاح ولا يستقرّ لهم حال إلا بإراقة الدّماء والتوسّل بالقوّة، فكان أن لاحقهم النبيّ ﷺ وقمعهم وأخمد نارهم.

العدوّ الثاني: هو مكّة الّتي كان لها مركزيّة (بعض زعامات مكة). وبالرغم من عدم وجود حكومة فيها بالمعنى المتعارف عليه، بيد أنّه كان هناك مجموعة من الأشراف المتكبّرين العتاة أصحاب النّفوذ يحكمون

مكّة، وهم على اختلافهم، كانوا متّحدين بوجه هذا المولود اليافع الجديد. وكان النبـيّ ﷺ على علم بأنّ الخطر الجسيم إنّما ينطلق منهم، وهذا ما حـدث عمليًّا. أحسّ النبيّ ﷺ أنّه لو قعد حتى يأتوا بحثًا عنه فإنّهم يقينًا لـن يتوانوا عـن ذلك وسوف يقتنصـون الفرصة، لذلك ذهـب في أثرهم؛ لكنّـه لم يقصد مكّـة. كان طريق قافلتهـم يمرّ بقرب المدينـة، فبادرهم الرّسـول ﷺ بالهجوم، وكانت معركة بدر أهـمّ هذه الهجمات وفي طليعة الأعمـال. لقد بادرهـم النبيّ ﷺ بالهجوم، وهـم أيضًا جـاؤوا لمحاربة حضرته بدافع العصبيّة والغلظة والعناد.

(2001/05/18)

بحسـب الوعد الإلهـيّ، أُخبر المسلمون أنّهـم سينتصرون على جماعة مـن الكافريـن. وقد كان ذلك فـي السنة الثانيـة للهجرة. كانـت القافلة، المحمّلـة بأمتعـة وبضائـع قريش، قادمة من الشـام إلى المدينـة، لتعبر أطـراف المدينة نحو مكّة. وبمجـرّد أن اتّضح لكفّار قريش تهديد أبطال ومجاهـدي العـرب والمسلميـن، حتّى أرسلت قـوّات مسلّحة إلـى المدينة للدّفـاع عن متاعها وبضائعها. كان المسلمـون يميلون أكثر لإيقاف القافلة المحمّلـة بالثّروة والمتاع، والّتي لم يكن لديها أيّ دفاع يُذكر. أمّا حكم اللّه فقـد قضى بأن يذهبـوا لمواجهة القـوّات المسلّحة لكفّـار قريش، ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ ﴾[1]. كان المسلمـون يعلمـون أنّهـم سينتصـرون فـي هـذه

(1) سورة الأنفال، الآية 7.

المواجهــة ولكنّهــم لم يكونــوا يعلمون بــأنّ ذلك سيكون على قــوّات قريش المسلّحة، بل كانوا يظنّون أنّ انتصارهم سيكون على هذه القافلة التجارية العائـدة من الشــام. ولكنّ النبــيّ بدّل طريقهـم وأخذهم نحـو المواجهة العسكريّــة؛ فعبرت القافلة، لكنّ المسلمين التقــوا بالكفّار في محلّةٍ تُدعى بــدرًا. فماذا كانت العلّة من تبديل اللّه تعالى طريق المسلمين من مواجهة مع القافلة إلى مواجهة مع القوّات المسلّحة؟ السبب هو أنّ المسلمين كانوا يرون ما هو قريب وكانت إرادة اللّه ومشيئته تريد هدفًا بعيدًا، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾[1]. فـإنّ اللّه تعالــى أراد أن يعمّ الحقّ هذا العالم ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾[2] وأراد أن يزهق الباطل، الّــذي هو بطبيعته زاهق. ألــم يكن من المقرّر أن يقــوم الإسلام بالقضاء علــى جميع القوى والسلطنات الشيطانية والطاغوتية؟ ألم يكن من المقرّر أن تصبح الأمّة الإسلاميّة ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[3]؟ ألم يكن من المقــرّر أن ترتفع راية الإسلام خفّاقةً على قمم الإنسانيّة والبشريّة؟ فمتى يكون ذلك؟ وكيف؟ وعن أيّ طريقٍ؟

لقــد كان المسلمون في ذلــك الوقت يُفكّرون في أنفسهم أنّهم لو صادروا هذه القافلة الثرية، وحصلوا على بعض المال فإنّ الإسلام الفتيّ سوف يقوى. كانــوا يُفكّرون بشــكلٍ صحيح، لكن كان الفكر الأرقــى والأكثر قيمةً في محلٍّ آخـر. الفكر الأرقى هو أنّنــا نحن المسلمون الّذين نحيــط بالنبيّ اليوم، قد

(1) سورة الأنفال، الآية 7.

(2) سورة الأنفال، الآية 8.

(3) سورة البقرة، الآية 143.

وصلنـا إلى حدّ يُمكننا أن نُرسّخ فكرنا وطريقنا في المجتمعات المستضعفة المحرومة وفي وسط عوالم الظلام والظلمانية، ففي هذا الحوض من المياه مـا يمكّنه من التدفّـق لإرواء كلّ هذه الغرسات والأشجـار والأراضي الميّتة واليابسة. هذه هي الفكرة الأرقى. فإذا كان من المقرّر أن يصل الإسلام إلى النصر الواقعيّ، وإذا كان من المقرّر أن تتحرّك هذه النواة الجليلة للإسلام نحـو المناطـق المستضعفة، وإذا كان من المقـرّر أن تتساقط قصور الظلم والجور واحدًا بعد الآخر، فينبغي أن يبدأ ذلك من مكانٍ ما. لم يكن المسلم المخلص المحبّ في صدر الإسلام يعلم من أين يبدأ، فعلّمه اللّه تعالى ذلك وهيّأ له، أخرجه اللّه تعالى من أجل مصادرة بضائع قريش ليجرّه إلى معركةٍ لـم يردها، فيتحقّق بذلك، مـع قلّة العتاد ولكن مع الإيمـان الراسخ، تراجع العـدوّ القهقـريّ وفتح الطريق أمام سيلان وجريان وتقـدّم ونفوذ قوّة الحقّ وثبـات طريقه، فلكـي يفهم العـدوّ أنّ الإسلام موجودٌ يجـب أن يأخذه على محمـل الجدّ. ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾[1]، لقد جعلناكـم أيّها المسلمون في مواجهة الجيش الجرّار للعدوّ من دون أن تريدوا ذلك، وذلك من أجل أن توجّهوا قبضتكم نحوه، فتظهر قدرة اللّه أمام ناظريه.

(1980/10/03)

بعـد أن كان النّصـر الإلهيّ في معركة بدر، بفضـل اللّه ورحمته وبهمّة المسلميـن، من نصيب مجاهدي الإسلام، فإنّه لم يكـن متوقّعاً من العدوّ أن يُقلـع عـن عداوته بهذه السرعـة، ولذلك بدأ بالتخطيـط لمعركة أُحد.

(1) سورة الأنفال، الآية 8.

وفـي معركة أُحد كان الأمر في البدايـة لصالح المسلمين بسبب اتّحادهم وتوافقهـم، واستطاعوا فـي البداية أن يهزمـوا المشركيـن، ولكن بعد أن حصلـوا على النصـر بسرعة، فإنّ أولئك الـ 50 رجـلًا الذين أُمروا بحفظ منفـذ الجبل مـن أيدي العدوّ، ومـن أجل أن لا يتخلّفوا عـن جمع الغنائم، تركـوا مهمّتهـم ولحقوا بالمسلميـن الّذين كانوا بدورهـم مشغولين بجمع الغنائـم. بقي عشـرة أشخاص فقط من المسلمين عنـد ذلك الجبل وأدّوا مـا عليهم؛ لكـنّ العدوّ اغتنم هذه الفرصة والتـفّ عليهم من خلف الجبل، وهجـم على المسلميـن من الشقّ والمنفذ الذي لم يكـن عليه ما يكفي من الحرسـ. وقـد دفع المسلمـون ثمنًا باهظًـا بسبب هذا الهجـوم؛ لم يُهزم الإسلام، ولكنّ انتصاره تأخّر بالإضافة إلى خسارة أبطالٍ جشعان وأعزّاء في هـذا الطريق، كحمزة سيّد الشهداء. واللّه تعالـى يدعو المسلمين إلى الاعتبـار والتأمّـل فيقول لهـم إنّنا صدقنـا وعدنا وقلنا إنّكـم ستنتصرون علـى العدوّ وقد انتصرتـم، ولكن بعد أن ظهرت فيكم تلـك الحالات وتلك الخصال الثّلاث، تلقّيتم الضربة؛ وتلك الخصال الثلاث هي عبارة عن:

أوّلًا: ﴿فَشِلۡتُمۡ﴾، أي ضعفتم وفقدتم حماسكم وجهوزيّتكم وثباتكم وإقدامكم.

ثانيًا: ﴿وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾، فشققتم وحدة الكلمة والصفّ.

ثالثًا: ﴿وَعَصَيۡتُم﴾[1]، فتخلّفتم عـن أوامر الرسول والقائد وأولئك الّذين كانوا مسؤولين عن إدارة أموركم.

---

(1) سورة آل عمران، الآية 152.

فهـذه الصفات الثلاث الّتي ظهرت فيكم أعطـت العدّو الفرصة ليلتفّ عليكـم ويوجّه لكم ضربة وليسقط أعزّ أبناء الإسلام مضرّجين بدمائهم، بالغيـن بذلك مقـام الشهادة والمفاخر، وليخسر العالـم الإسلاميّ بسبب هذا الأمر أمثال هذه الشّخصيّة.

(1980/05/09)

كانـت معركة الخندق آخـر المعارك الّتي شُنّت ضـدّ النبيّ ﷺ - وهي واحـدة من أهمّها - حيث استجمـع كفّار مكّة كلّ قواهم واستعانوا بالآخرين أيضًـا وقالوا فلنذهب ونقتل النبيّ ﷺ وبضـع مئات من أنصاره المقرّبين وننهـب المدينة ونرجع مطمئنّين؛ ولن يبقى بعدهـا عينٌ ولا أثر للنبيّ ومن معه. وقبـل أن يصلوا إلى المدينة كان النبيّ ﷺ قد علم بالأمر فبادر إلى حفر خندق عرضه أربعون مترًا تقريبًا من الجّهة الّتي يسهل اختراقها. كان ذلك في شهر رمضان والمناخ قارس البرودة، كما تنقل الروايات، ولم يهطل المطـر ذاك العام؛ من هنا فقد عمّ الجدب وعانـى النّاس من المصاعب. كان النبـيّ ﷺ أكثر النّاس عمـلًا في حفر الخندق؛ فحيثمـا وقعت عيناه علـى من أعياه العمل وأصابـه الإرهاق ولم يعد قادرًا علـى مواصلة العمل، كان ﷺ يتنـاول معولـه ويمارس العمل المقـرّر إنجازه عنه. فلـم يسجّل حضـوره بإصـدار الإيعـازات فقط، بـل كان يحضر بشخصـه وسط جموع النّاس. جاء الكفّـار مقابل الخندق، ولمّا أدركوا عجزهم أصيبوا بالإحباط والهزيمـة وافتُضح أمرهم فأُجبروا علـى التّراجع. عندها نادى النبيّ ﷺ بـأنّ الأمر قـد انتهى؛ وهذه كانت آخـر المعارك الّتي شنّهـا كفّار مكّة ضدّ المسلمين، وقد جاء دور المسلمين للتوجّه نحو مكّة وملاحقة الكفّار.

بعد عـام من تلك الواقعة أراد النبيّ ﷺ التوجّه إلى مكّة لأداء العمرة – وأثنـاء ذلك وقع صلح الحديبية الغنيّ بالمعاني والأهداف – وكان مسير النبـيّ ﷺ إلى مكّـة في شهر محرّم الحـرام – حيث كانـوا يُحرّمون فيه القتـال – فأصبحوا في حيرة من أمرهم ما عساهم صانعين، أيسمحون له بالتقدّم في مسيـره؟ وماذا سيفعلون إزاء نجاحه هـذا؟ وكيف يواجهونه؟ أيقاتلونه وهم في شهر محرّم؟ وكيف يقاتلونه؟ وأخيرًا قرّروا عدم السّماح لـه بالمجيء إلـى مكّة، وإبادته هو وأصحابه إن وجـدوا لذلك مبرّرًا. تميّز تصـرّف النبـيّ ﷺ بأسمى درجـات التدبيـر، حيث قام بمـا دفعهم لأن يُبرِمـوا معـه صلحًا يقضي بـأن يعود إلـى المدينة على أن يأتـي في العام القـادم لأداء العمرة. وتوفّرت الظّروف جميعهـا أمام النبيّ ﷺ من أجل التّبليـغ في كلّ أرجاء المنطقـة وفُتحت أمامه الأبـواب. كـان ذلك صلحًا، بيد أنّ البـاري تعالـى يُصرّح فـي كتابه بالقول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[1]. ومن يُراجع مصادر التاريخ الصحيحة والموثّقة يُدهشه كثيرًا ما جرى في واقعة صلح الحديبية. وفي العام التالي توجّه النبيّ ﷺ لأداء العمرة ورغم أنوفهـم أخذت شوكته تزداد قوّة يومًا بعد يوم. ولمّا نقض الكفّار العهد في العـام اللاحق ـ أي العـام الثامن للهجرة ـ تقـدّم نحوهم النبيّ ﷺ وفتح مكّة، فكان فتحًا عظيمًا يُنبئ عن اقتدار النبيّ ﷺ وتمكّنه. وتأسيسًا على ذلـك فقد اتّسم تعامل النبيّ ﷺ مع هذا العدوّ بالتدبير والاقتدار والتأنّي والصبـر بعيدًا عن الارتباك، ولـم يتراجع أمامه ولو خطوة واحدة، بل كان

(1) سورة الفتح، الآية 1.

يتقدّم نحوه يومًا بعد يوم وآنًا بعد آن.

العدوّ الثالث: كانوا اليهود؛ أي الدّخلاء الّذين لا يوثق بهم والّذين أسرعوا بالتّعبير عن استعدادهم لمعايشة النبيّ ﷺ في المدينة؛ لكنّهم لم يُقلعوا عن أعمال الإيذاء والتخريب والخيانة. بالتدقيق جيّدًا، نجد أنّ قسمًا مهمًّا في سورة البقرة وبعض السور الأخرى من القرآن الكريم، ترتبط بطريقة تعامل النبيّ ﷺ وصراعه الثقافيّ مع اليهود الذين كانوا على قدرٍ من العلم والوعي والثقافة، وكانوا يؤثّرون على أفكار ضعاف الإيمان من النّاس، ويحوكون الدّسائس ويزرعون اليأس في قلوبهم ويثيرون الفتن بينهم، فكانوا يُمثّلون عدوًّا منظّمًا. وكان النبيّ ﷺ يسلك معهم سبيل المداراة ما أمكنه، لكنّه لمّا لمس منهم عدم استجابتهم لهذه المداراة بادر إلى معاقبتهم. ولم تأتِ مباغتة النبيّ ﷺ لهم من دون سبب أو مقدّمات، بل إنّ كلاًّ من هذه القبائل الثلاث ارتكبت أفعالًا فعاقبهم النبيّ ﷺ بما يوازي فعلتهم.

الأولى: «**قبيلة بنو قينقاع**»: الذين خانوا النبيّ ﷺ، فتوجّه نحوهم وأمرهم بالجلاء وأخرجهم من ديارهم تاركين ثرواتهم للمسلمين.

الثانية: «**بنو النضير**»: الّذين خانوا النبيّ ﷺ أيضًا - وقصّة خيانتهم مهمّة - فأمرهم النبيّ ﷺ بحمل بعض أمتعتهم والرحيل، فاضطرّوا لذلك وارتحلوا.

الثالثة: «**بنو قريظة**»: الذين منحهم النبيّ ﷺ الأمان وسمح لهم بالبقاء في المدينة ولم يُخرجهم منها، وأبرم معهم عقدًا على ألّا يسمحوا للعدوّ بالتسلّل من أحيائهم في معركة الخندق، لكنّهم غدروا وتعاقدوا

مـع العدوّ على الوقـوف إلى جانبه لمقاتلة النبـيّ ﷺ، أي إنّهم لم يكتفوا بتنصّلهـم مـن عهدهـم مع النبـيّ ﷺ، بل فـي الوقت الّذي بـادر رسول الله ﷺ إلى حفر الخندق في الجهة الّتي يسهل اختراقها وسلّمهم الجّهة، الّتي تقع عليها أحياؤهم، ليمنعوا العدوّ من التسلّل عبرها، ذهبوا للتفاوض والتباحـث مع العدوّ ليدخلـوا معًا من تلك الجهة ويطعنـوا النبيّ ﷺ من الخلف.

وفي تلـك الأثناء علم الرسول ﷺ بهذه المؤامـرة، وكان قد مضى ما يُقـارب الشّهر على حصـار المدينة؛ وقد وقعت خيانـة هؤلاء في منتصف هـذا الشهر؛ فلجأ ﷺ إلى عملٍ فـي غاية الذكاء، حيث أوقع الفتنة بينهم وبيـن قريش، فقضـى على الثّقة الّتـي تربطهم بقريش، وقـد تجلّت بذلك واحـدة من الخطط السّياسيّة العسكريّـة الرائعة للرسول الأكرم ﷺ، أي أنّـه ﷺ باغتهم حتى لا يتمكّنوا من توجيـه أيّ ضربة للمسلمين. وبعد أن انهزمـت فيه قريش وحلفاؤها وابتعدوا عـن الخندق وعادوا إلى مكّة، رجع النبـيّ إلى المدينة. وفي اليوم عينه الذي رجـع فيه، صلّى ﷺ الظهر، ثمّ دعـا إلى صـلاة العصر قبالة قلاع بني قريظة، فتوجّـه نحوهم، أي أنّه لم يُمهلهم ولـو لليلةٍ واحدة، فحاصرهم لمدّة خمسـة وعشرين يومًا تواصلت خلالهـا المناوشات بين الطّرفين. ثمّ إنّ النبيّ ﷺ قتل مقاتليهم لفداحة خيانتهم وعدم إمكانيّة إصلاحهم.

هكـذا تميّز تعامل النبيّ ﷺ مع هـؤلاء، أي إنّه أزال عداوة اليهود من على طريق المسلمين - بشكل أساس في قضية بني قريظة، وقبلها مع بني النضيـر، وبعدها مع يهود خيبر - بكلّ تدبير وقوّة وإصرار مقترن بالأخلاق

الإنسانيّة العالية. وفـي كلّ هذه المواطن لم ينقض النبيّ ﷺ عهدًا أبدًا، وهذا ما يُذعن له حتّى أعداء الإسلام، بل أولئك هم الّذين نقضوا العهود.

العدوّ الرابع: كانـوا المنافقون. كان المنافقون يعيشـون بين النّاس. وكانوا من الّذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم. كانوا أشخاصًا منحطّين ومعاندين وضيّقي الأفق ومستعدّين للتعاون مع العدوّ؛ لكنّهم كانوا يفتقدون للتنظيـم، وهذا ما كان يُميّزهم عن اليهود. لقد كان النبيّ ﷺ يتعامل مع العدوّ المنظّم المتوثّـب لمهاجمة المسلمين كتعامله مع اليهود ولم يُعطهم الأمان أبدًا، لكنّه كان يتحمّل العدوّ غير المنظّم، ممّن تلوّث أفراده بالعناد والعداوات والخبائث الفردية وعدم الإيمان؛ فلقد كان عبد الله بن أُبيّ من ألـدّ أعداء النبـيّ ﷺ وقد عاصر الرسول ﷺ حتّـى آخر سنة من عمره تقريبًـا؛ إلّا أنّ الرسـول ﷺ لم يتعامل معه تعامـلًا سيّئًا، مع علم الجميع بنفاقه؛ فقد كان ﷺ يُداريه ويُعامله كباقي المسلمين من حيث عطاؤه من بيت المال وصيانة أمنه وحرمته. كان ذلك منه ﷺ بالرغم من خبث هذه الفئة وإساءتها، وفي سورة البقرة آيات تختصّ بهؤلاء المنافقين.

ولمّـا اتّخـذ تجمّـع بعض المنافقيـن طابـع التنظيم قـام النبيّ ﷺ بملاحقتهـم. ففـي قضيّة مسجـد ضرار، حيـث اتّخذوا منه مركـزًا، كما أقاموا اتّصالات مع عناصر من خارج النّظام الإسلاميّ، من قبيل الرّاهب أبـي عامر من بـلاد الروم، وأعـدّوا مقدّمـات تحشيد الجيوش لمحاربة النبـيّ ﷺ حتى يستعينـوا بجيش الرّوم ضـدّ النبيّ. من هنـا بادر إليهم النبيّ ﷺ وهـدم المسجد الّذي بنوه وأحرقه، معلنًـا أنّه ليس بمسجد بل هـو بؤرة للتآمر على المسجد وعلى اسم الله وعلـى النّاس. أو تلك الحفنة

مـن المنافقين الّذين أعلنوا كفرهم وخرجـوا من المدينة وحشدوا قواهم فقاتلهم النبيّ ﷺ وقال: لئن دنَوا من المدينة لأخرجنّ لقتالهم. رغم أنّه كان يوجـد منافقون داخل المدينة، لكنّ النبـيّ ﷺ لم يتعرّض لهم أبدًا. وهكـذا فقد واجه النبـيّ ﷺ الفئة الثالثة مواجهة منظّمـة صارمة، لكنّه سلـك طريق المداراة مع الفئـة الرابعة لافتقادهم للتنظيـم، ولأنّ الخطر الصـادر عنهـم يُمثّل خطـرًا فرديًّا. كمـا أنّه ﷺ كان غالبًا مـا يُخجلهم بسلوكه.

أمّـا **العدوّ الخامس**: فكان عبارة عن العدوّ الكامن في باطن كلّ مسلم ومؤمن وهو الأخطر من بين جميع الأعداء. وهذا العدوّ معشش فينا أيضًا؛ إنّـه الأهواء النفسية والأنانيّة والجنوح نحـو الانحراف والضّلال والانزلاق الّـذي يُهيّئ الإنسان بنفسه أرضيّته. وقد خاضـ النبيّ ﷺ مع هذا العدوّ صراعًـا مريرًا. غاية الأمر أنّ آلة الصراع مع هذا العدوّ لا تتمثّل بالسّيف، بـل بالتّربية والتّزكية والتّعليم والتّحذير. لهـذا، عندما عاد المسلمون من الحـرب مع كلّ ذلك التّعـب، قال لهم الرسول ﷺ : «**مرحبًا بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي الجهاد الأكبر**». فتعجّب المسلمون من قوله وسألوه: ما الجهاد الأكبر يا رسول الله؟! لقد خضنا غمار هذا الجهاد المرير، فهل من جهاد أكبر منه؟! قال: «**جهاد النفس**»[1]. فإذا ما صرّح القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[2] فذلك لا يعني أنّهم منافقون، بل بعض المنافقيـن في عداد الّذيـن في قلوبهم مرض. ولكن ليسـ كلّ «**الّذين في**

(1) الكافي، ج5، ص12.

(2) سورة التوبة، الآية 125.

قلوبهـم مرض» هم من المنافقين، فربّما يكون المرء مؤمنًا لكن في قلبه مرض. فمـاذا يعني هذا المرضـ؟ إنّه يعني ضعف الأخـلاق والشّخصيّة والشهوانيّة والجنوح نحو مختلف الأهواء الّتي إن لم يُبادر المرء للحدّ منها ومقارعتهـا فإنّها ستسلب منه الإيمـان ويقسو باطنه. وإذا ما سُلب الإيمان من المرء، وأصبح قلبه بلا إيمان وظاهره مؤمنًا، عندئذٍ يُسمّى منافقًا.

فلـو خلـت قلوبنـا، لا سمح الله، مـن الإيمـان وبقـي ظاهرنـا متلبّسًا بالإيمـان، وقطعنـا أواصر الإيمـان وعلائقه، بيـد أنّ ألسنتنـا ظلّت تلهج بالتعابيـر الإيمانية، فهذا هـو النّفاق وهـو من الخطـورة بمكان. والقرآن الكريـم يُصـرّح: ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾[1]، وذاك هـو السّـوء المبين، ألا وهو التّكذيب بآيـات الله. ويقـول فـي موضـع آخـر: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾[2]. وهـذا هو الخطـر الكبير الّذي يتهـدّد المجتمع الإسلامـيّ، وحيثما شاهدتم في التّاريـخ انحرافًا في المجتمع الإسلاميّ فمن هنـا كانت بدايته. ربّما يشنّ العـدوّ الخارجيّ هجومه ويدمّر ويخرّب لكنّه لا قـدرة له على الإفناء. ففي النّهايـة سيبقى الإيمـان، وينبعث في مكانٍ ما ويؤتي أكلـه. غير أنّ جيوش العـدوّ الداخلـيّ إن هجمت علـى الإنسان وأفرغت باطنـه إذ ذاك سيطال الانحـراف سبيله، وأينما وُجد الانحراف فإنّ منشـأه يكون هو ذاك. ولقد تصدّى النبيّ ﷺ لهذا العدوّ أيضًا.

(1) سورة الروم، الآية 10.

(2) سورة التوبة، الآية 77.

امتـاز سلوك النبيّ ﷺ بالتدبيـر والسّرعة في العمل فلم يدعْ الفرصة تفوتـه فـي أيّ قضيّة. كان ﷺ طاهرًا قانعًا لا وجـود لأيّ نقطة ضعف في وجـوده المبـارك. كان معصومًـا نقيًّا، وهذا بحـدّ ذاته يُمثّـل أهمّ عوامل التّأثيـر. إنّ التّأثيـر بالعمل هو أوسع وأعمق بدرجات مـن التّأثير باللسان. لقـد كان قاطعًا وصريحًا. ولم يتحدّث النبيّ يومًا بلسانين. بالطّبع، عندما كان يواجـه العدوّ كان يستخدم معه أسلوبًا سياسيًّا يوقعه في الخطأ؛ فلقد كان يُباغت العدوّ فـي الكثير من الحالات، سواء في المواقف العسكريّة أم السّياسيّـة، لكنّه كان صريحًا وشفّافًـا مع المؤمنين ومع قومه على الدّوام، نقيًّـا واضحًا في كلامه بعيدًا عـن الألاعيب السّياسيّـة، يُبدي المرونة في المواطـن الضّروريّـة - كمـا في قضيّة عبـد الله بن أُبـيّ - ذات الأحداث المفصّلـة، ولـم ينكـث عهدًا مـع قومه أو مـع الفئـات الّتي عاهدهـا وإن كانـوا أعداءً له، وخاصّةً مع كفّار مكّة، الّذيـن نقضوا عهودهم فردّ عليهم النبـيّ ﷺ ردًّا قاطعًـا، ولم ينقضِ ﷺ موثقًا أبرمـه مع أحد قطّ، لذلك كان الجميع على ثقةٍ بالعهد الّذي يُبرمه معهم.

ومـن ناحيةٍ أخـرى، لم يفقـد النّبـيّ ﷺ تضرّعه إلـى الله سبحانه، وكان مواظبًـا علـى توطيد أواصر علاقته بالباري جـلّ وعلا يومًا بعد يوم. فلقـد كان يرفع يد الضراعة إلى بارئه فـي تلك الأثناء الّتي ينظّم عساكره ويحثّهم ويحضّهم على القتال؛ وفي ساحة الوغى، عندما كان يُمسك بسيفه ويقـود جيشه بحـزم أو يُعلّمهم مـا يصنعون، كان يجثو علـى ركبتيه رافعًا يديـه باكيًا مناجيًا ربّه سائلًا إيّـاه العون والإسناد ودفع الأعداء. لم يؤدِّ به الدّعـاء إلى تعطيل قـواه، ولا أنّ استثماره لقواه أغفله عن التوسّل والتضرّع

والارتبــاط باللّه سبحانه؛ بـل كان حريصًا على كلي الجانبيـن، لم يعتوره التـردّد أو الخوف وهو يواجه عدوًّا عنيدًا؛ ولقد قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ – وهــو مظهـر الشّجاعة –«**كنّا كلّمـا اشتد الوطيس لذنـا برسول الله**»[1]، وكان يلـوذ بــه كلّ من شعـر بالضعف. استمرّ حكمــه عشر سنوات؛ لكن لو أردنا إيكال العمل، الّذي قد أنجزه خلال العشر سنوات هذه، إلى مجموعة مليئــة بالنشاط لتقوم بإنجــازه، فإنّها لن تستطيع إنجــاز كلّ تلك الأعمال والخدمـات والمساعـي ولو على مـدى مئة عام. فلو قارنّـا أعمالنا بما قام بــه النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، عندها سنُدرك ما الـذي قام به. فإدارة الحكم وبناء ذلك المجتمع وصياغة ذلك الأنموذج بحدّ ذاته هي أحد معاجز الرسول.

فعلــى مـدى عشر سنــوات، عاشـره النّاس ليلًا ونهــارًا، وتـردّدوا إلى داره وتــردّد هو إلــى دورهم، وكانوا معــه في المسجد وفــي الطّرقات وفي حلّــه وترحاله، وتحمّلــوا الجوع معًــا، وتذوّقوا طعم السّــرور معًا؛ فقد كان الوســط الّذي يعيش فيــه النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مفعمًا بالمســرّة، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُلاطف الآخرين ويُقيم السّباقات ويشترك فيها. وعلى امتداد تلك السّنوات العشر تعمّقــت محبّة أولئك الّذين عاشــروه له وازداد إيمانهم بــه عمقًا ورسوخًا فــي قلوبهم. وعندما فتح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مكّة، جاء أبو سفيــان متخفّيًا يلوذ بالعبّاس – عــمّ النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ – إلى معسكر النبيّ يطلب الأمــان. ولما حلّ الفجر، رأى النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يتوضّأ وقد أحاط به القوم ليحظى كلّ منهم بقطرات الماء الّتي تتناثــر من وجهه ويديه، فقــال أبو سفيان: لقد رأيت كسرى وقيصر ـ وهما

---

(1) نهـج البلاغة، ص368، وقول الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ هو: «**كنّا إذا احمرّ البأس اتقينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فلم يكن أحد منّا أقرب إلى العدو منه**».

مـن ملوك الدنيـا المعروفين بجبروتهـم وسطوتهم - لكنّني لـم أرَ عليهما مثل هذه العـزّة! أجل، فالعزّة المعنويّة هي العـزّة الحقيقيّة ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فالعـزّة من نصيب المؤمنيـن أيضًا، إن هم سلكوا ذات الطريق.

(2001/05/18)

(1) سورة المنافقون، الآية 8.

تثبيت النّظام الإسلاميّ

إنّ واقعــة غدير خم هي واقعة مصيريّة ومهمّة جدًّا في تاريخ الإسلام. ويُمكــن النّظر إليها من حيثيّتيــن أو بعدين: الأوّل يختصّ بالشّيعة، والثاني يرتبط بجميع الفــرق الإسلاميّة. وبالنظر إلى البعــد الثاني لهذه الواقعة، يجــب إيجاد هــذه الرّوحيّة وهذا الشّعور عند جميــع مسلمي العالم وهو أنّ عيد الغدير الّذي يُذكّر بهذه الواقعة الكبرى ليس مختصًّا بالشّيعة.

البعــد الأوّل لهــذه الواقعــة، وكمــا ذكرنا، يختصّ بالشّيعــة، لأنّ أمير المؤمنيــن عليه السلام في هذه الواقعة قــد نُصّب للخلافة من قِبَل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. وفــي ذلــك اليوم وفي تلــك الواقعة سُئل رســول الله: يا رســول الله هل إنّ إعلانك هذا هو من نفسك أو من الله؟ فقال: «**من الله ورسوله**»[1]، أي إنّه أمــرٌ إلهيّ وكذلك هو منّي. فالشّيعة تُعظّم هذه الواقعة من هذه الجهة؛ لأنّ اعتقادهــم بأنّ الخلافة المباشرة هي لأمير المؤمنين عليه السلام ترتبط بهذه الواقعــة أكثر من سائــر الدلائل. بالطّبع، إنّ البحث فــي مجال الاستنباط

---

(1) الطبرســي، أحمد بن علي، الاحتجاج على أهــل اللجاج، تحقيق وتصحيح محمد باقر الخرسان، نشر المرتضى، مشهد، الطبعة الأولى، 1403هـ، ج1، ص 82.

والاستدلال على هذه الواقعة في الكتب الكثيرة والمتنوّعة على مرّ تاريخ الإسلام، قد استمرّ من اليوم الأوّل وإلى يومنا هذا. ولا أنوي هنا أن أُضيف شيئًا على ما كتبته وذكرته آلاف الألسنة والأقلام بشأن هذا المطلب.

وأمّا البعد الثاني لهذه الواقعة والّذي لا يقلّ أهمّية عن البعد الأوّل، فهو أمرٌ مشتركٌ بين الشّيعة والسنّة. وسوف أُفصّل فيه قليلاً.

ما جرى هو أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، وفي السّنة العاشرة للهجرة، توجّه إلى الحجّ مع جمع من مسلمي المدينة وسائر مناطق الجزيرة العربية الّتي أسلمت. وفي هذا السفر، استفاد النبيّ الأكرم من حجّ بيت اللّه في بيان المفاهيم الإسلاميّة سواء على المستوى السياسيّ أم العسكريّ أم الأخلاقيّ أم العقائديّ، استفادةً كاملة وجديرة بالذّكر، وقد نُقل عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم خطبتان إحداهما، على الظاهر، في اليوم العاشر (من ذي الحجة) أو قريبًا منه، والأخرى في نهاية أيّام التشريق[1]. وعلى ما يبدو أنّهما كانتا خطبتين لا خطبةً واحدة. في هاتين الخطبتين، بيّن رسول اللّه جميع المسائل الأساس الّتي ينبغي أن يلتفت إليها المسلمون بعمق وهي في الأساس قضايا سياسيّة. ويُدرك الإنسان جيّدًا كم أنّ أولئك الّذين يفصلون بين الحجّ والقضايا السّياسيّة في العالم الإسلاميّ اليوم؛ ويتصوّرون أنّ الحجّ ينبغي أن يكون عبادةً فقط، بالمعنى الرائج والعاديّ؛ وأنّ كلّ عملٍ سياسيّ هو عملٌ خارج عن نطاق الحجّ؛ كم أنّهم غرباء وبعيدون عن تاريخ الإسلام وعن سيرة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(1) يُطلق هذا الاسم على الأيّام من 11 إلى 13 من شهر ذي الحجة. ويطلق عليها في القرآن ﴿أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾، سورة البقرة، الآية 203.

ما بيّنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هاتين الخطبتين من مسائل، وقد ذُكرت في بعض كتب الشّيعة والسنّة بالإجمال، هي هذه. لقد تحدّث أوّلًا عن الجهاد، وطرح قضيّة الجهاد ضدّ المشركين والكفّار، وأعلن أنّ الجهاد سيستمرّ حتّى تنتشر كلمة لا إله إلا الله في كلّ العالم. وبشأن الوحدة الإسلاميّة بيّن رسول الله في هذه الخطب عدّة مطالب، وصرّح أنّ على المسلمين أن لا يقتتلوا فيما بينهم، وأكّد على وحدة المسلمين وانسجامهم. وفيما يتعلّق بالقيم الجاهليّة صرّح بكلام واضحٍ، أنّ هذه القيم بنظر الإسلام هي لا شيء ولا قيمة لها «**ألا إنّ كلّ مالٍ ومأثرةٍ ودمٍ يُدّعى تحت قدَميَّ هاتين**»[1]، فقد تبرّأ من القيم الجاهليّة بالكامل. وكلّ الخلافات الماليّة الّتي كانت بين المسلمين من أيّام الجاهليّة، كأن يكون أحدهم قد أقرض أخاه وله عليه ربا، فإنّه أصبح منسوخًا، «**ألا وكلّ ربا كان في الجاهليّة فهو موضوع وأول موضوع منه ربا عمّي العبّاس**»[2]، الّذي كان قد أقرض في الجاهليّة كثيرين وله عليهم ربا، فقد أعلن النبيّ أنّه رفعه ونسخه. وقد أكّد على قيمة التقوى كأعلى قيمة إسلامية، وصرّح أنّه لا فضل لأحدٍ على أحد إلا بالتّقوى. وبيّن ضرورة النصيحة لأئمّة المسلمين، أي التدخّل في القضايا السّياسيّة وإبداء الرأي للحكّام والأئمّة وجعل ذلك كفريضة، حيث يجب على جميع المسلمين أن يُسّدوا للحكّام الإسلاميّين نصيحتهم وآراءهم النافعة.

---

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج21، ص105.

(2) م.ن، ج37، ص 113.

ضمانة النّظام الإسلامي

لقد بيّن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في هاتين الخطبتين المسائل السّياسيّة والاجتماعيّة الأساس للعالم الإسلاميّ. وفي هاتين الخطبتين ذكر حديث الثقلين أيضًا، وهو حديث قال فيه: «**إنّي قد تركتُ فيكم أمرين (نفيسين) لن تضلّوا بعدي ما إن تمسّكتم بهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فإنّ اللطيف الخبير قد عهد إليّ أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، كهاتين (السبابتين) وجمع بين مسبِّحتيه، ولا أقول كهاتين وجمع بين المسبّحة والوسطى، فتسبق إحداهما الأخرى فتمسّكوا بهما...**»[1].

وقد عرض قضية العترة. وبعد إنهاء أعمال الحجّ توجّه مباشرةً إلى المدينة. وأثناء الطريق، وعلى مفترق ثلاثة طرق، حيث كان ينبغي أن تفترق القوافل اليمنيّة عن قوافل المدينة، وقف صلى الله عليه وآله وسلم في محلّةٍ يُقال لها «**غدير خم**»، وكما نقل الشاهد والحاضر، أنّ الحرارة كانت شديدة إلى درجة أنّه لو وضعوا قطعة لحمٍ على الأرض لشُويت، ففي مثل هذه الحال وقف صلى الله عليه وآله وسلم على مرتفعٍ ونادى في النّاس، وعندما رأى الجميع أعلن قضية الولاية، «**من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه**»[2] وأخذ بيد أمير المؤمنين عليه السلام ورفعها حتّى يراها الجميع. وفي رواياتٍ عديدة نُقل أنّه شوهد بياض إبطي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ بن أبي طالب عليه السلام، عندما رفع يده من أجل أن يظهر الأمر للنّاس جميعًا، هذه هي الواقعة في الإجمال.

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 415.

(2) م.ن، ج1، ص420.

إنّ البُعد الّذي هو مورد نظري ـ البعد الدّوليّ الإسلاميّ والمتعلّق بالفرق الإسلاميّة الّتي لا تنحصر بالشّيعة ـ هو أنّه لو فرضنا أنّ النبيّ ﷺ في هذا الإعلان، الّذي حصل حتمًا وقد صدر عنه هذا الكلام، لو فرضنا أنّه لم يُرد أن يُبيّن أنّ خليفته المباشر هو أمير المؤمنين عليه السلام، فإنّه بالحدّ الأدنى أراد أن يُثبّت الولاء والرّابطة العميقة للمسلمين مع أمير المؤمنين عليه السلام وعترته. والسبب في أنّ النبيّ قرن عترته بالقرآن سواء في خطبة منى أم في حديث الثقلين ـ وعلى ما يبدو أنّ هذا الحديث قد صدر عن النبيّ عدّة مرّات ـ وأيضًا في حديث الغدير وفي هذه الواقعة ـ الّتي يُركّز فيها على أمير المؤمنين عليه السلام وشخصه ـ أنّه أراد أن يُثبّت هذه الرابطة من أجل أن يُظهر للنّاس وعلى مرّ الزمان نماذج كاملة للإنسان الّذي يريده الإسلام ويكون ذلك لجميع الأجيال الآتية. فيجعل النموذج الكامل للإنسان بصورة مجسّمة وعينية بحالاته الواضحة الّتي لا شكّ فيها أمام أعين جميع البشر، وليقول إنّ التربية الإسلاميّة ينبغي أن تكون في هذا الاتّجاه، وإنّ شخصّية الإنسان المسلم هي تلك الشّخصيّة الّتي تجعل غايتها ونموذجها هذا الإنسان الكامل.

هؤلاء الّذين كانت طهارتهم وعلومهم وتقواهم وصلاحهم وعبوديتهم للّه، واطّلاعهم على القضايا الإسلاميّة، وتضحيتهم وشجاعتهم من أجل تحقّق الأهداف والقيم الإسلاميّة، وإيثارهم واضحٌ بيّنٌ للجميع. لقد تمّ تعريف أمير المؤمنين عليه السلام كأنموذج يمكن للنّاس أن يرتبطوا به سواء كان في ذلك الزّمان أم في الأزمان الآتية. وهنا، وإن لم تتحقّق الخلافة المباشرة عمليًّا إلّا بعد مرور 25 سنة، فإنّه في النّهاية صار خليفة النبيّ،

وثبّت مقام إمامته، وقبل به جميع المسلمين، كفرد، إمامًا للمجتمع. هذه الخصوصيّة، وهذه الرّابطة الموجودة عند جميع المسلمين مع هذه الشّخصيّة، الّتي يقبل الجميع أنّها خليفة النبيّ ﷺ. كلّ ما هنالك أنّ بعض النّاس يقول إنّه الخليفة المباشر وبعض يعتقد بخلاف ذلك، وإنه خليفة بعد 25 سنة. هذه الشّخصيّة الّتي يقبل جميع المسلمين بها على أنّها خليفة يجب أن تكون لجميع المسلمين أنموذجًا خالدًا وقدوةً كاملة للإنسان الإسلاميّ. ويجب أن تبقى هذه الرابطة بينه وبين جميع المسلمين وإلى الأبد كرابطة فكريّة واعتقاديّة وعاطفيّة وعمليّة.

فمن هذه النّاحية، لا يختصّ أمير المؤمنين عليه السلام بالشّيعة، بل هو لجميع المسلمين. كما أنّ هذا الكلام لا يختصّ بأمير المؤمنين عليه السلام بل يشمل العترة الشّريفة وأئمّة الشّيعة الّذين هم من أولاده، الّذين هم أيضًا من العترة، والّذين يجب أن يبقوا دائمًا كنماذج كاملة للإنسان الإسلاميّ في أعين المسلمين. هذه قضية.

وبجعل العترة إلى جانب القرآن وبالإعلان عن ضرورة الارتباط بين المسلمين والعترة، بيّن الرسول الأكرم ﷺ في الحقيقة الموقف تجاه كلّ أنواع التّحريف الّذي سيتعرّض له القرآن والانحراف عن المفاهيم القرآنيّة الأساس. فحينما تقوم الأجهزة الجائرة بتحريف المفاهيم الإسلاميّة من أجل منافعها وتُسيء إلى معاني القرآن وتُفسّر القرآن بصورةٍ خاطئة وتُضلّ المسلمين وتحرمهم من فهم الدّين الإسلاميّ؛ فإنّ ذاك المرجع والمحور والقطب، الّذي ينبغي أن يوعّي النّاس حول الحقيقة والمفاهيم والمعارف الصحيحة ويُنجي النّاس من الضلالة وعليهم أن

يستمعوا إليه، هو العترة الطاهرة.

وهذا هو الأمر الّذي يُعدّ اليوم بالنسبة للعالم الإسلاميّ ضرورة ومطلبًا لازمًا. يحتاج جميع المسلمين اليوم أن ينهلوا المعارف الإسلاميّة عن طريق أهل بيت النبيّ، دون فرق بين أن يكونوا معتقدين بأنّ الإمامة المباشرة هي لأمير المؤمنين ولأولاده أو لا. وبالطّبع، فإنّ الشّيعة يعتبرون بأنّ العقيدة الحقّة والاستفادة القطعية من هذا الحديث هي الخلافة المباشرة، فهم يعتقدون بذلك ويتمّسكون به. والّذين لا يعتقدون بذلك ولا يتمسّكون به - أي الإخوان من أهل السنّة - لا ينبغي أن يقطعوا رابطتهم الفكريّة والعقلانيّة والاعتقاديّة والعاطفيّة بالعترة وبأمير المؤمنين عليه السلام. لهذا فإنّ قضية الغدير من هذا البعد الثاني، الّذي هو بعد إيجاد الرّابطة بين عليّ بن أبي طالب وعترة النبيّ من جهة وجميع المسلمين من جهة ثانية، هي قضيّة لجميع المسلمين.

(1987/08/14)

مستقبل النّظام الإسلاميّ

إنّ قضيّة الغدير ليست قضيّة تاريخيّة بحتة، بل إنّها علامة على جامعيّة الإسلام. وإذا ما افترضنا أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لم يترك للأمّة منهاجاً لبناء مستقبلها، بعد عشر سنوات أمضاها في تحويل ذلك المجتمع البدائيّ، الملّوث بالعصبيّات والخُرافات، إلى مجتمع إسلاميٍّ راقٍ، بفضل سعيه الدؤوب وما بذله أصحابه الأوفياء من جهود، لظلّت كلّ تلك الإنجازات مبتورة وبلا جدوى.

لقد كانـت تراكمات العصبيّـة الجاهليّة على قدرٍ عظيـم من العمق، بحيـث إنّها كانت بحاجة إلى سنوات طويلة للتغلّب عليها والتخلّص منها. لقـد كان كلّ شيء على ما يرام كما يظهر، وكان إيمان النّاس جيّدًا، حتّى ولـو لم يكونوا علـى مستوًى واحدٍ مـن العقيدة. فبعضهـم كان قد اعتنق الإسـلام قبل وفـاة الرسول الأكرم بعـام واحد أو ستّة أشهـر أو عامين، وذلك بفضل هيمنة البُنية العسكريّة الّتي أسّسها النبيّ ﷺ مع ما رافقها مـن حلاوة الإسـلام وجاذبيّتـه. لم يكونـوا جميعًا من طـراز المسلمين الأوائـل من حيث العمق، ولهذا فقد كان من الضروريّ اتّخاذ ما يلزم من التدابير بغية إزالة تلك التراكمات الجاهليّة من أعماق المجتمع الجديد، والحفـاظ على خطّ الهداية الإسلاميّة سليمًا ومستقيمًا بعد عشر سنوات مـن زمن الرسـول الأكـرم ﷺ؛ وذلك لأنّ جهـوده الجبّـارة خلال تلك السنـوات العشر ستبقى بلا ثمار فيما لم يتـمّ اتّخاذ تلك التدابير. وهذا ما صرّحت به الآية المباركة من سورة المائدة، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[1] فهـذه إشارة إلى أنّ هـذه النعمة هي نعمة الإسلام ونعمـة الهداية ونعمة إرشـاد العالمين جميعاً إلى الصراط المستقيم. وهذا ما لا يمكن أن يتمّ بـلا خارطة للطريـق بعد الرسول ﷺ، وهذا أمـرٌ طبيعيّ. وهذا عين ما فعلـه النبـيّ ﷺ في الغدير، حيـث نصّب للولاية خليفةً ممتـازًا لا نظير لـه وهو أميـر المؤمنين عليه السلام، لمـا كان يتمتّع به من شخصيّـة إيمانيّة

(1) سورة المائدة، الآية 3.

فريـدة، وأخلاق سامية حميـدة، وروح ثوريّة وعسكريّـة متميّزة، وسلوكٍ راقٍ مع جميع النّاس، وأمر النّاس باتّباعه.

ولم يكن هذا من عند رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ، بل كان هداية ربّانية وأمرًا إلهيًّا وتنصيبًـا من اللّه تعالـى، كما هو شـأن كافّة أقوال وأفعـال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الّتي كانت وحيًا إلهيًّا، وهو الّذي لا ينطق عن الهوى. لقد كان هذا أمرًا إلهيًّا صريحًا للرسول صلى الله عليه وآله وسلم فقـام بتنفيذه وإطاعته. وهذه هي قضيّة الغدير، أي بيان جامعيّة الإسلام وشموليّته، والتطلّع إلى المستقبل، وذلك الأمر الّذي لا تتمّ هداية الأمّة الإسلاميّة وزعامتها إلّا به. فما هو ذلك الأمر؟ إنّها تلك الـأمور الّتي تُجسّدها شخصيّة أمير المؤمنين، أي التّقوى والتديّن والإيمان الراسـخ وعـدم التـوكّل إلّا علـى اللّه، وعدم السّيـر إلّا في سبيلـه، والجدّ والاجتهـاد في طريق الحـقّ، والاتّصاف بالعلم، والتميّـز بالعقل والتدبير، والتمتّع بقدرة العـزم وبالإرادة. إنّه عملٌ واقعيّ ونموذجيّ في نفس الوقت. لقد نُصّب أمير المؤمنين عليه السلام لاتّصافه بتلك الخصوصيات، الّتي باتت لازمـة في كلّ زعيم للأمّـة الإسلاميّة، أياً كان، مدى الدّهر، أي إنّ هذا هو النمـوذج الأمثل للقائد الإسلاميّ على مدى حيـاة الإسلام، وهو ما تجسّد في الاصطفاء الإلهيّ لأمير المؤمنين عليه السلام . والغدير هو هذه الحقيقة.

(2007/01/08)

الفصل الثاني:

الإمامة

- الإمامة في الفكر الشيعي.
- المراحل الأربع لمسيرة الإمامة.

الإمامة في الفكر الشّيعيّ

الإمامة في الإسلام

الإمامة هي تلك القمّة للمعنى المنشود من إدارة المجتمع، قِبَال ضروب وأصنــاف الإدارة المنبثقة من مكامن الضّعف والشّهوة والحميّة في الإنسان ومطامعــه. والإسلام يطرح أمــام البشريّة نهج الإمامــة ووصفتها، أي ذلك الإنســان الطّافــح قلبه بفيض الهداية الإلهيّة، العــارف بعلوم الدّين المتميّز بفهمــه - أي الّــذي يُجيد تشخيصــ الطّريــق الصّحيح - ذو القــوّة في عمله ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾[1]، ولا وزن لديه لنفسه ورغباته الشّخصيّة، في حين أنّ أرواح النّاس وحياتهم وسعادتهم تُمثّل كلّ ما لديه. وهذا ما عبّر عنــه أمير المؤمنيــن عليه السلام عمليًّا أثناء حكمه الّذي استمــرّ أقل من خمس سنوات. تلك الفترة الّتي كانت أقل من خمس سنوات، تُمثّل أنموذجًا يُحتذى لــن تنساه البشريّــة أبدًا، وسيبقى خالــدًا وضّاءً لقــرونٍ متمادية. وهذه هي ثمرة واقعة الغدير، والدّرس والمغزى والتّفسير المستقى منها.

(2002/03/03)

(1) سورة مريم، الآية 12.

إنّ كلمـة «الإمامة» الّتي تعني في الأصل القيادة بمعناها المطلق؛ غالبًا مـا تُطلق في الفكـر الإسلاميّ علـى مصداقها الخاصّ، وهـو القيادة في الشّؤون الاجتماعيّة والفكريّة والسّياسيّة. وأينما وردت في القرآن مشتقّات لكلمة الإمامة ـ كإمام، وأئمّة ـ يُراد بها هذا المعنى الخاصّ، أي قيادة الأمّـة وقدوتها. سواءً القيادة الفكريّة، أم القيادة السّياسيّة، أم الاثنين معًـا. وبعـد رحيل النبـيّ ﷺ، وظهور الانشقـاق الفكـريّ والسياسيّ بين المسلميـن، اتّخـذت كلمة الإمامة والإمـام مكانة خاصّة، حيـث إنّ مسألة القيـادة السّياسيّة شكّلـت المحور الأساس للاختـلاف. وكان لهذه الكلمة فـي البداية مدلولهـا السياسيّ أكثر من أيّ مدلولٍ آخر، ثـمّ انضمّت إليها بالتدريج معانٍ أخرى، حتّى أصبحت مسألة «الإمامة» تُشكّل في القرن الثاني الهجريّ أهمّ مسائل المدارس الكلاميّة ذات الاتّجاهات الفكريّة المختلفة؛ وكانت هـذه المدارس تطرح أراءها بشأن شـروط الإمام وخصائصه، أي شـروط الحاكم في المجتمـع الإسلاميّ، وهو معنًى سياسـيّ للإمامة. في هذه القضيّة، جرت العادة أن يتمّ الحديث عن شروط وخصائص الإمام ـ أي حاكم المجتمع وزعيمه ـ وكان لكلّ فرقة في هذا المجال عقيدة وكلام.

إنّ للإمامـة فـي مدرسة التشيّع ـ الّتي يرى أتباعهـا أنّها أكثر القضايا الفكريّـة الإسلاميّـة أصالـةً ـ المعنى نفسـه أيضًا. وتتلخّـص نظريّة هذه المدرسة بشأن الإمام بما يلي:

يجـب أن يكـون الإمـام والزعيـم السياسـيّ فـي المجتمـع الإسلاميّ منصوبًا من الله، بإعلانٍ من النبيّ، وأن يكون قائدًا فكريًّا ومفسّرًا للقرآن وعالمًـا بـكلّ دقائق الدّين ورمـوزه، وأن يكون معصومًا مبـرأً من كلّ عيب

خَلقــيّ وأخلاقيّ وسببيّ، ويجب أن يكون مــن سلالة طاهرة ونقيّة، ويجب، ويجب...وبذلك فـإنّ الإمامة في عُرف مسلمي القـرن الأوّل والثاني كانت تعنــي القيــادة السّياسيّة، وفـي العرف الخاصّ بأتباع أهـل البيت، تعني إضافةً إلى القيادة السّياسيّة، القيادة الفكريّة والأخلاقيّة أيضًا.

فالشّيعة تعترف بإمامة الفرد حين يكون ذلك الفرد متمتّعًا بخصائص هي ـ إضافةً إلى مقدرته على إدارة الأمور الاجتماعيّة ـ مقدرته على التّوجيه والإرشـاد والتّعليم في الحقل الفكريّ والدينيّ، والتزكية الأخلاقيّة. وما لم تتوفّـر فيه هذه المقدرة لا يمكن أن يُعترف به كإمام بحقّ. وفي نظرهم، لا يكفـي حسن الإدارة السّياسيّة والاقتـدار العسكريّ والصّلاح وفتح البلدان وأمثالها من الخصائص.

إذًا، بناءً على فهم الشّيعة للإمامة، فإنّ إمام أيّ مجتمع هو تلك القدرة الفائقـة الّتي توجّه وتقـود الحركة الجمعيّة والفرديّـة لأبناء المجتمع وفي الوقت نفسه يكون معلّم الدين والأخلاق والموجّه لحياة النّاس ومساعيهم. ومن هنــا، كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إمامًا أيضًا، لأنّه كان القائد الفكريّ والسياسيّ للمجتمـع الّذي أقام بنفسـه دعائمه. وبعـد النبيّ، تحتاج الأمّـة إلى إمام يخلفـه ويتحمّل عـبء مسؤوليّاته، (بما فـي ذلك المسؤوليّـة السّياسيّة). ويعتقـد الشّيعـة أنّ النبيّ نصّ على خلافة عليّ بـن أبي طالب عليه السلام، ثمّ تنتقل الإمامة من بعده إلى الأئمّة المعصومين من ولده (ولأجل المزيد من التفاصيل والأدلّة ينبغي الرجوع إلى الكتب المتعلّقة بهذا المجال).

ولا بـدّ مـن الإشـارة إلـى أنّ تداخل المهـامّ الثّلاث للإمامـة: القيادة السّياسيّـة، والتعليـم الدينـيّ، والتهذيب الأخلاقيّ والرّوحـيّ في الخلافة

والحكومة الإسلاميّة ـ حيث جُعلت الإمامة والحكومة الإسلاميّة ذات أبعاد وجوانب ثلاثة، كما بيّنه بعض المفكّرين البارزين في هذا الزّمان تبيانًا صحيحًا ـ ناشئ من عدم وجود تفكيك بين هذه الجوانب الثّلاثة في المشروع الإسلاميّ للحياة البشريّة. فقيادة الأمّة يجب أن تشمل هذه الحقول الثّلاثة أيضًا. وبسبب هذه السّعة وهذه الشموليّة في مفهوم الإمامة لدى الشّيعة، كان لا بدّ أن يُعيّن الإمام من قِبَل الله سبحانه.

نستنتج ممّا سبق أنّ الإمامة ليست، كما يراها أصحاب النظرة السّطحيّة، مفهومًا مقابلًا لـ «الخلافة» و«الحكومة»، أو منصبًا منحصرًا بالأمور المعنويّة والروحيّة والفكريّة، وإنّما في الفكر الشيعيّ تعني «قيادة الأمّة» في شؤون دنياها وما يرتبط بذلك من تنظيم للحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة للنّاس في المجتمع (رئيس الدولة)، وأيضًا في شؤون التّعليم والإرشاد والتّوجيه المعنويّ والروحيّ، وحلّ المشاكل الفكريّة وتبيين الأيديولوجية الإسلاميّة، «القائد الفكريّ».

هذه المسألة الواضحة أضحت، مع الأسف، غريبة على أذهان أكثر المعتقدين بالإمامة، ولذلك نرى أنّ عرض بعض النماذج من مئات الأدلّة القرآنية والحديثيّة، ليس بالأمر الكثير كما يبدو، في هذا المجال:

في كتاب «الحجّة» من «الكافي» حديثٌ مفصّل عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام يذكر فيه بالتفصيل ما يرتبط بمعرفة الإمام ووصف الإمام، ويتضمّن معاني عميقة ورائعة.

من ذلك ما ورد بشأن الإمامة من أنّها: «**منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء، إنّ الإمامة خلافة الله، وخلافة الرسول** صلى الله عليه وآله وسلم**، ومقام أمير**

المؤمنين عليه السلام وميراث الحسن والحسين عليهما السلام، إنّ الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعزّ المؤمنين، إنّ الإمامة أسّ الإسلام النامي، وفرعه السّامي، بالإمام تمام الصلاة والزّكاة والصيام والحجّ والجهاد، وتوفير الفيء والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف».

وحول الإمام أنّه: «**النجم الهادي، والماء العذب، والمنجي من الرّدى، والسّحاب الماطر، ومفزع العباد في الدّاهية، وأمين الله في خلقه، وحجّته على عباده، وخليفته في بلاده، والدّاعي إلى الله، والذابّ عن حرم الله، ونظام الدين، وعزّ المسلمين، وغيظ المنافقين، وبوار الكافرين**»[1].

وفي روايةٍ أخرى عن الإمام الصادق ذكر صراحةً: أنّ كلّ ما كان يُمارسه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من مسؤوليّات ومهامّ يتحمّلها الإمام عليّ عليه السلام والأئمّة من ولده أيضًا[2].

وفي روايةٍ أخرى عن الإمام الصّادق عليه السلام نرى تأكيدًا على إطاعة «الأوصياء»، وتوضح الرواية[3] أنّ الأوصياء هم أنفسهم الّذين عبّر عنهم القرآن بـ ﴿أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ﴾[4].

---

(1) الكافي، ج1، ص200.

(2) م.ن، ج1، ص 196، نص الحديث: «**جرى له من الفضل مثل ما جرى لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم..وكذلك يجري الأئمة الهدى واحداً بعد واحد... ولقد حملت على مثل حموله...**».

(3) م.ن، ج1، ص 189.

(4) سورة النساء، الآية 83.

إنّ مئـات الروايات المتفرّقّة في الأبـواب والكتب المختلفة، تُصرّح أنّ مفهـوم الإمام والإمامة في الثّقافة الشيعيّة ما هو إلّا القيادة وإدارة شؤون الأمّــة المسلمــة، وأنّ أئمّة أهــل البيت عليهم السلام هم الأصحـاب الحقيقيّون للحكومة. وتدلّ جميع (هذه الروايات)، بما لا يُبقي أيّ شكّ أو ترديد، لأيّ باحثٍ منصف، على أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام في ادّعائهم الإمامة ذهبوا إلــى ما هو أبعد من المقــام الفكريّ والمعنويّ، ليُطالبـوا بالحكومة أيضًا كحــقٍّ ثابتٍ لهم. ودعوتهم على هذا النطاق الواسع الشامل إنّما هي دعوة لنضالٍ سياسيّ عسكريّ لتسلّم السّلطة.

(قيادة الصادق عليه السلام، ص69 –74)

الإمامة والحكومة

لــو تصــوّر أحــدٌ أنّه لــم يكــن للأئمّة مــن الإمــام السجّاد إلــى الإمام العسكــريّ عليه السلام، ســوى ذكر أحكام الدّين ومعارفــه، وأنّه لم يكن لهم أيّ نــوع من الجهاد السياســيّ بما يتناسب مع زمانهم، فإنّــه حتمًا لا يكون قد حقّــق غورًا كافيًا في حياة هؤلاء العظماء. فهذا ما يبرز بوضوح من أحوال هــؤلاء العظماء. وفي الأساس لا يمكن قبول معنى الإمامة في الإسلام وفي الفلسفــة الّتي يطرحها الشّيعة حولها سوى من هــذا الطّريق وبما يتناسب معــه. وحتّى لو لم يكن لدينا دليلٌ واضحٌ على جهاد الأئمّة، ينبغي أن نعتقد أنّــه وإن لــم يكن لدينا علم ولــم يصلنا، فإنّهم كانــوا يجاهدون. ولا يمكن أن نعلــم بوجود معنًــى للإمامة على هــذا النّحو في ثقافــة الإسلام ـ ليس فقــط فــي ثقافة التشيّــع – وأن نكون معتقديــن به وفي الوقــت نفسه نقبل

مثلًا بـأنّ أئمّتنا عليهم السلام ، جلسوا في بيوتهم طيلـة المئة والخمسين سنة أو أكثر، ووضعوا كفًّا على كف وشغلوا أنفسهم ببيان أحكام القرآن والمعارف الإسلاميّـة دون أن يكون لهم أيّ مواجهة سياسيّـة، فمثل هذا الشيء ليس صحيحًـا بأيّ شكلٍ من الأشكال. بالطبع، عندما نقـول إنّ الأئمّة جاهدوا، يجب علينا أن نلتفت إلى أنّ الجهاد يكون في كلّ زمانٍ بشكلٍ خاصّ. فأحيانًا، يكـون الجهاد من خلال العمل الثقافيّ، والعلمـيّ، والسياسيّ، والتنظيميّ، والحزبيّ، وتأسيس المنظّمـات، وأحيانًا أخرى من خلال الأعمال الدمويّة والأنشطة العسكريّة والقتال الظاهريّ. وفي كلّ زمانٍ جهادٌ بنحوٍ ما.

(1987/07/31)

من الممكـن أن يُشكل البعض قائلًا: كيف كان الأئمّة عليهم السلام يُجاهدون ويُناضلون من أجل الإمساك بالحكومة، في حين أنّهم كانوا يعلمون بعلمهم الإلهـيّ بأنّهم لن يصلوا إلى الحكومة؟ فمن المعلوم أنّ حياة الأئمّة عليهم السلام تـدلّ على أنّهم لم يتمكّنوا مـن الوصول إلى الحكومة، ولم يُشكّلوا المجتمع والنّظـام الإسلامـيّ بحسب ما يرونـه وبحسب تكليفهم. لكـن كيف يُمكن للأئمّـة أن يقوموا بهـذا الأمر، مع أنّهم كانوا يعلمون وقـد اطّلعوا بواسطة الإلهام الإلهيّ على ذلك؟

والجـواب عن هذه الفكرة: إنّ معرفة عـدم الوصول إلى الهدف لا تمنع مـن أداء الوظيفة والتكليف. فعلى سبيـل المثال نجد في حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، أنّه كان يعلم بهزيمة المسلمين في معركة أُحد، وكان يعلم أنّ أولئك الّذين وقفوا على كتف الجبل لن يصمدوا وسوف تُحرّكهم أطماعهم نحو الغنائم. وكذلك عندما ذهب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطّائف من أجل هداية بني ثقيف، ولجأ

إليهم من شرّ أهل مكّة، كان يعلم أنّهم سيستقبلونه بالحصى والحجارة؛ لقد رموه بالحجارة إلى درجة أنّ الدّم سال من ساقيه المباركتين واضطُرّ إلى الرّجوع. والأئمّة عليهم السلام كانوا يعلمون ذلك كلّه. كان أمير المؤمنين عليه السلام يعلم أنّه سوف يستشهد في الواحد والعشرين من شهر رمضان، لكنّه في الوقت نفسه، وقبيل شهر رمضان، أقام معسكرًا كبيرًا خارج الكوفة من أجل أن يُكمل حربه على معاوية. لو كانت معرفة أمير المؤمنين عليه السلام موجبة لأن لا يعمل طبق المسار العاديّ، فلماذا نصب ذاك المخيّم؟! ولماذا جيّش الجيوش فأخرج النّاس إلى خارج الكوفة وجعلهم ينتظرون؟! لماذا؟! ما هي الفائدة؟! إنّ معرفة الأئمّة عليهم السلام بأنّهم لن يصلوا إلى الحكومة لا ينبغي أن تؤدّي إلى إيقاف مساعيهم. بل يجب السّعي والجهاد والقيام بكلّ ما ينبغي كشخصٍ لا يعلم ما ينتظره.

(1985/04/21)

المراحل الأربع لمسيرة الإمامة

ظهرت مسيـرة الإمامة منذ اليوم الأوّل لرحيـل النبيّ ﷺ - في شهر صفر من السنة الحاديـة عشرة للهجرة - واستمرّت حتّى عام وفاة الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام - في شهر ربيع الأوّل سنة 260 هـ - وسط مجتمع المسلميـن. وطـوت المسيرة، خلال هـذه السنوات، أربـع مراحل بصورة تقريبيّة، وكان لكلّ مرحلة خصائصها بلحاظ مواقف الأئمّة عليهم السلام مقابل القوى السّياسيّة المهيمنة.

المرحلـة الأولـى: هي مرحلـة السكوت، أو مرحلة التّعـاون مع الحكّام والسّلطات.

تميّـزت هذه المرحلـة بـأنّ المجتمـع الإسلاميّ الحديـث الولادة والفتـيّ كان محفوفًا بأعداءٍ مقتدرين تربّصـوا بالإسلام من الخارج، وبوجود عناصر من جماعات حديثة العهد بالإسلام، لا تتحمّل أن ترى تشتّتًـا في المجتمـع الإسلاميّ، وكلّ ثغرة في جسـد الأمّة كانت تُشكّل تهديـدًا لأساس المجتمع الإسلامـيّ ووجوده. ومن جانبٍ آخر، لم يكن منحنـى انحراف الواقع عن الحقيقة كبيرًا بحيث لم يعد قابلًا للتحمّل

بالنسبة لشخص مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام - الّذي هـو أحرص النّاس علـى سلامة الرّسالة وسلامـة المجتمع الإسلاميّ وأكثرهـم التزامًـا بها - ولعـلّ هذه الحالـة الّتي حدثت فـي المجتمع الإسلامـيّ، هـي الّتي أشـار إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيـن أوصى تلميذه الفذّ بالصبر عند وقوعها[1].

لقـد استوعبـت هـذه المرحلـة الّتـي امتـدت لـ 25 سنة حيـاة الإمام علـيّ عليه السلام منذ وفاة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم - عام 11 للهجرة - حتّى تولّيه الخلافـة - سنة 35 للهجرة. وقد شـرح الإمام موقفه في هذه المرحلة من خـلال الكتاب الّذي وجّهه إلى أهالـي مصر، عبر مالك الأشتر عندما ولّاه إمارتهـا، حيـث جاء فيـه: «**فأمسكت يـدي، حتّى رأيـت راجعـة النّاس قد رجعـت عـن الإسلام يدعون إلـى محق دين محمّـد صلى الله عليه وآله وسلم، فخشيت إن لم أنصـر الإسـلام وأهلـه أن أرى فيه ثلمًـا أو هدمًا تكون المصيبة به علـيّ أعظم من فوت ولايتكم،... فنهضت في تلك الأحداث**»[2].

إنّ حيـاة أمير المؤمنين عليه السلام في هذه السنوات الـ 25 لهذه المرحلة، تحكي عـن التدخّل الفعّال والدّعم والعون الناتج مـن الحرص الكبير على الإسلام ومجتمع المسلمين. إنّ أجوبة وإرشادات هذا الإمام لخلفاء زمانه، فيمـا يتعلّق بالقضايـا السّياسيّـة والاجتماعيّة وغيرها، قـد نُقلت في نهج

(1) العلّامـة المجلسـيّ، بحار الأنوار، ج28، ص 210. عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**يـا علي إن القوم نقضوا أمـرك واستبـدّوا بهـا دونك وعصوني فيك فعليك بالصبر حتى يُنـزل الله الأمر، وإنهم سيغدرون بـك لا محالـة فلا تجعل لهم سبيلاً إلـى إذلالك وسفك دمك، فإن الأمّة ستغدر بك بعدي، كذلك أخبرني جبرئيل عليه السلام من ربي تبارك وتعالى**».

(2) نهج البلاغة، ص 451.

البلاغة وغيرها من كتب الحديث والتّاريخ، وهي شاهدة على عدم تردّده في هذا النهج.

المرحلة الثانية: هي مرحلة تسلّم الحكم ووصول الإمام إلى السّلطة.

وقد استغرقت (هذه المرحلة) أربعة أعوام وتسعة أشهر من خلافة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. وبضعة أشهر من خلافة ولده الحسن عليه السلام. ورغم قصر هذه المرحلة وما اكتنفته من آلام وهموم ومشاكل ومصاعب لا تُحصى ولا تنفكّ عادة عن كلّ حكومة ثوريّة، إلّا أنّها سجّلت أنصع الصفحات وأروعها في تاريخ الحكومة الإسلاميّة، بما قدّمته من طريقة إنسانيّة في التّعامل، ومن عدلٍ مطلق والتزام دقيق بأحكام الإسلام وبأبعاده المختلفة في إدارة المجتمع الإسلاميّ. هذا إلى جانب الحزم والصّراحة والجرأة في التّطبيق واتّخاذ المواقف.

إنّ هذه المرحلة من تاريخ الإمامة كانت النموذج الّذي دعا أئمّة أهل البيت عليهم السلام، خلال القرنين التاليين، إلى تطبيقه في الحياة السّياسيّة والاجتماعيّة وسعوا على طريقه. وكان الشّيعة يذكرون مثل هذه الذكرى العظيمة ويتحسّرون عليها، ويندّدون بالأنظمة الّتي تلتها عند مقارنتها بها. في الوقت نفسه، كانت درسًا وتجربةً ملهمة يمكن أن تدلّ على وضع وأحوال أيّة حكومة ثوريّة وإسلاميّة صرفة داخل مجتمع وجماعةٍ لم تتربَّ أو انجرّت نحو الانحراف، ومنذ ذلك الوقت كانت تُفرضُ الأساليبُ والمناهج البعيدة المدى والمتلازمة مع كلّ أنواع التربية الصعبة والحزبيّة الشديدة على الأئمّة اللاحقين.

المرحلة الثالثة: هي الّتي استوعبت السّنوات العشرين بين صلح الإمام الحسن عليه السلام سنة41 هـ، وشهادة الإمام الحسين عليه السلام سنة 61 هـ.

فبعد صلح الإمام الحسن عليه السلام، بدأ نوعٌ من العمل شبه السرّيّ للشّيعة، كان هدفه إعادة القيادة الإسلاميّة إلى عترة النبيّ في الفرصة المناسبة. وهذه الفرصة، ووفق الاستنتاج الطبيعيّ، لم تكن بعيدة المنال وكان تحقّقها مأمولاً بعد انتهاء حياة معاوية الشرّيرة؛ لهذا، يمكن تسمية المرحلة الثالثة بـ «مرحلة السّعي البنّاء القصير المدى لإيجاد الحكومة والنّظام الإسلاميّ»[1].

المرحلة الرّابعة: وهي مرحلة متابعة ذلك النّهج في برنامجٍ بعيد المدى؛ في زمنٍ قارب القرنين، شهد انتصاراتٍ وهزائم في مراحل مختلفة، وتلازم مع الانتصار القاطع في مجال العمل الأيديولوجيّ، وامتزج بمئات التكتيكات المتناسبة مع الزّمان، والمزيّنة بآلاف مظاهر الإخلاص والتضحية وعظمة الإنسان الّذي يريده الإسلام.

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص 16ـ 19)

إنّ أهمّ شيء في حياة الأئمّة عليهم السلام، ممّا لم يتمّ الالتفات إليه بصورةٍ لائقة، هو عنصر الجهاد السياسيّ الحادّ في بداية النصف الثاني من القرن الأوّل للهجرة، حينما امتزجت الخلافة الإسلاميّة وبصورة علنيّة بزخارف السلطنة والملكيّة وتبدّلت الإمامة الإسلاميّة إلى حكومة ملكية جائرة. هناك شدّد أئمّة أهل البيت عليهم السلام نضالهم السياسيّ بما يتناسب

(1) في هذا المجال قد بحثت وضمن عدّة خطب بشرح وتفصيل وذكر الوثائق والشواهد (الكاتب).

مع الأوضاع والظّروف. وكان الهدف الأكبر لهذا النّضال هو تشكيل النّظام الإسلامي وتأسيس الحكومة على أساس الإمامة. ولا شكّ بأنّ تبيين وتفسير الدّين بحسب الرؤية الخاصّة لأهل بيت الوحي، ورفع التّحريفات والتّفسيرات المغلوطة للمعارف الإسلاميّة والأحكام الدينيّة، كانت أيضًا هدفًا مهمًّا لجهاد أهل البيت عليهم السلام. إلّا أنّه طبق القرآئن الحتميّة، لم يكن جهاد أهل البيت منحصرًا بهذه الأهداف، ولم يكن لديهم هدف أعظم من هدف «تشكيل الحكومة العلويّة» وتأسيس النّظام الإسلاميّ العادل. وإنّ أشدّ الصعاب التي واجهها الأئمّة وأنصارهم، في حياتهم المليئة بالمرارة والإيثار، كانت بسبب امتلاك مثل هذا الهدف، وقد كانوا منذ عهد الإمام السجّاد عليه السلام وبعد واقعة عاشوراء ينهضون لتأمين الأرضيّة المناسبة البعيدة المدى لتحقّق هذا الهدف.

وقد كان التيّار المرتبط بأئمّة أهل البيت عليهم السلام - أي الشّيعة - يُعتبر العدوّ الأكبر والأخطر للأجهزة الحاكمة، في جميع مراحل المائة وأربعين سنة، ما بين واقعة عاشوراء وقضية ولاية العهد للإمام الثامن. ولقد تأمّنت الظّروف والأرضيّة المناسبة في تلك المدّة عدّة مرّات، واقترب نضال التشيّع، الّذي ينبغي تسميته بالنهضة العلويّة، من الانتصارات الكبرى. ولكن في كلّ مرّة كانت تبرز الموانع على طريق النّصر النهائيّ. وفي الأغلب، فإنّ أكبر الضّربات كانت توجّه إلى المحور والمركز الأساس لهذه النهضة، وهو شخص الإمام في كلّ زمان، من خلال سجنه أو قتله. وعندما كان الدّور يصل إلى الإمام اللاحق كان القمع والضّغط والتّشديد يصل إلى حدّ يتطلّب زمانًا أطول من أجل تهيئة وإعداد الأرضيّة المناسبة.

وقـد تمكّـن الأئمّة مـن تثبيـت التشيّع وسط هـذا الإعصـار الشديد لهذه الأحـداث بكلّ شجاعة وحكمة، كتيّارٍ صغيـرٍ لكنّه عميقٌ وقويٌّ وثابتٌ وسط تلـك المعابر الشديدة والخطرة. ولم يتمكّـن الحكّام الأمويّون والعبّاسيّون مـن القضاء على تيّار الإمامة بقتلهـم الإمام. وقد بقي هذا الخنجر الحادّ دومًا في خاصرة أجهزة الحكم، ويقضّ مضاجعهم بشكل دائم.

(1984/08/09)

الفصل الثالث:

الإمام علي عليه السلام

- مدرسة الإمام علي عليه السلام.
- مرحلة السكوت والتعاون.
- مرحلة الخلافة.
- القدرة والمظلومية والنصر.

مدرسة الإمام عليّ عليه السلام

إنّ وجود أميـر المؤمنين عليه السلام يُعدّ درسًا خالدًا لا يُنسى لكلّ الأجيال البشريّة، من جهاتٍ عدّة وفي الظّروف والأوضاع المختلفة؛ سواءٌ في عمله الفـرديّ والشخصـيّ أم في محـراب عبادته أم في مناجاتـه أم في زهده أم فـي فنائه في ذكـر الله، أم في جهاده مـع النفس والشّيطـان والدوافع النفسانيـة والمادية. ما زالت كلمـات أمير المؤمنين عليه السلام تصدح وتملأ آفـاق عالـم الخلقة والحيـاة الإنسانيّة: «**يا دنيـا... غرّي غيـري**»[1]. أيّتها الزخـارف الدنيويّة والزبـارج المليئـة بالجاذبيّة وكلّ أنـواع الزبارج التي تجذب أقوى البشر، اذهبي إلى شخص آخر لتخدعيه، إنّ عليًّا أكبر وأقوى وأسمـى من هذه الأمور. لهذا يجد كلٌّ إنسانٍ صـاحٍ دروسًا لا تُنسى في كلّ لحظات حياة أمير المؤمنين عليه السلام وفي ارتباطه بالله وإيمانه به.

وفي البعد الآخر أيضًا، في جهاده لأجل رفع خيمة الحقّ وإقامة العدالة، أي منـذ ذلك اليـوم الّذي حمل فيـه النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ثقـل الرّسالة على عاتقـه، ومـن السّاعات الأولـى، وجد إلى جانبـه شخصًا مجاهـدًا مؤمنًا

---

(1) نهج البلاغة، ص 480.

مضحّيًـا ـ كان ما زال في بداية عهده وشبابه ـ وهو عليٌّ عليه السلام . وإلى آخر ساعات حياة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم المباركة، لم يتوقّف أمير المؤمنين عليه السلام لحظةً واحـدةً عن الجهاد في طريق إقامـة النّظام الإسلاميّ، وفيما بعد من أجل الحفاظ عليه. فكم جاهد وكم خاطر بنفسه وكم ذاب في طريق الجهاد من أجـل إقامة الحقّ والعدل؟ هناك عندما لم يكـن يصمد أحدٌ في الميدان، كان يبقى. هنـاك عندما لم يكن يجرؤ أحدٌ على الإقدام كان يقدم. هناك عندما كانت الصّعاب كالجبال الرّواسي تنهال على رؤوس المجاهدين في سبيل الله، كانت قامته الشّامخة تمنح الآخرين العزم والطّمأنينة. بالنسبة له، كان معنى الحياة هو أن يستفيد من الإمكانات الّتي منحه الله إيّاها من القـوّة الجسمانيّة والروحيّة والعاطفيّة وغيرها مـن أجل إعلاء كلمة الحقّ وإبقاء الحقّ حيًّا. وبقدرة وإرادة عليّ وعضده وجهاده بقي الحقّ حيًّا.

إذا كانـت مفاهيم الحقّ والعدل والإنسانيّة، وغيرها من المفاهيم الّتي لها قيمة إنسانية بالنسبة لأصحاب الفهم في هذا العالم، قد بقيت وازدادت قوّة ورسوخًا يومًا بعـد يوم، فذلك بسبب تلك المجاهدات والتّضحيات. لو لـم يكن أمثال عليّ بن أبي طالـب عليه السلام – والّذين هم عبر تاريخ البشريّة قلّـة نـادرة ـ لمـا كان اليوم من وجـود لأيّ قيمـة إنسانيّة؛ ولمـا كانت هذه العناوين الجذّابة للنّاس تمتلك أيّ جاذبية؛ ولما كان للبشر حياةٌ وحضارةٌ وثقافـةٌ وآمالٌ وقيمٌ وأهدافٌ ساميةٌ؛ ولتبدّلت البشريّة إلى حيوانيّة وحشيّة وسبعيّـة. إنّ البشريّة مرتهنة لأمير المؤمنين عليه السلام ولـكلّ إنسانٍ بلغ من السمـوّ مرتبته في حفظ المفاهيم السّاميـة. إنّ كلّ ذلك الجهاد ترك هذا الأثر.

البعد الآخر من حياة أمير المؤمنين عليه السلام هو ميدان الحكومة. عندما تسلّم هذا الإنسان، صاحب الفكر العميق والشّخصيّة العظيمة، الحكومة في نهاية الأمر؛ قام بأعمالٍ في ذلك العهد المختصر، لو قام المؤرّخون والكتّاب والفنّانون ولسنواتٍ طويلة بالكتابة عنها وتجسيدها وتصويرها لما قالوا إلا القليل. كان وضع حياة أمير المؤمنين عليه السلام في عصر حكومته قيامة. أصلًا، لقد بدّل عليّ معنى الحكومة.

إنّه تجسيدٌ للحكومة الإلهية، وتجسيدٌ للآيات القرآنية بين المسلمين، وتجسيدٌ لـ ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾[1]، وتجسيدٌ للعدل المطلق. كان يُقرّب المساكين[2] ويعتني بالضعفاء عنايةً خاصّة؛ وكان الوجهاء، الّذين يفرضون أنفسهم بغير حقّ بواسطة المال والسّلطة وغيرها من الوسائل، كانوا في نظر عليٍّ هم والتراب على حدٍّ سواء. والّذي كان في نظره وقلبه ذا قيمة، هو الإيمان والتقوى والإخلاص والجهاد والإنسانيّة. وبهذه المباني القيّمة حكم أمير المؤمنين عليه السلام أقلّ من خمس سنوات. لقد مضت قرون وهم يكتبون عن أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يكتبوا إلّا القليل، ولم يستطيعوا أن يُصوّروا الأمر تصويرًا صحيحًا، وأفضلهم يعترفون بعجزهم وتقصيرهم.

(1991/01/30)

---

(1) سورة الفتح، الآية 29.

(2) ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات مكتبة المرعشي النجفي، قم، إيران، الطبعة الأولى، 1404هـ، ج18، ص 226.

إنّ أعظم خصائصه هي التّقوى. فنهج البلاغة هو كتاب التقوى، وحياته طريق وسبيل التقوى.

(1999/01/08)

فهذه الآية الشّريفة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[1] نزلت في أمير المؤمنين. وتأويل هذه الآية هو عليّ بن أبي طالب عليه الصلاة والسّلام. تقول الآية إنّ من بين النّاس من يبيع نفسه ووجوده، أي أعزّ ما عند الإنسان، هذا الرّأسمال العزيز الوحيد الّذي لا يُمكن جبرانه - بحيث إنّك لو قدّمته لن يكون بعدها عنه بديل. فبعضٌ يُقدّم هذا الرأسمال وهذا الوجود دفعةً واحدة من أجل الحصول على رضا الله لا غير، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي﴾ أي يبيع نفسه ويُقدّم وجوده ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾، فلا يوجد في البين أيّ هدفٍ آخر أو أيّ مقصدٍ دنيويّ أو أيّ دافعٍ ذاتيّ، بل فقط وفقط جلب رضا الله. وفي مقابل مثل هذا الإيثار وهذه التضحية، فإنّ الله لا يُمكن أن يكون من دون ردّ فعل يُناسبها، ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ ومصداقه الكامل هو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وسوف أُبيّن هذا البعد.

الناظر إلى تاريخ حياة أمير المؤمنين عليه السلام، منذ الطفولة، ومنذ ذلك الوقت الّذي كان فيه في سنّ التاسعة أو الحادية عشرة، يرى أنّه كان قد آمن بنبوّة الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأدرك الحقيقة بوعيٍ تامّ وتمسّك بها، ومنذ تلك اللحظة وإلى حين لحظة محراب العبادة، سحر يوم التاسع عشر

(1) سورة البقرة، الآية 207.

مـن شهر رمضان، قدّم نفسه فـي سبيل الله فرحًا مسـرورًا مليئًا بالشّوق إلـى لقاء ربّه. فطـوال هذه السّنـوات الخمسين تقريبًا أو أكثـر، منذ سنّ العاشرة وحتى سن الـ 63، يُرى أنّ هنـاك خطًّا واحدًا مستمرًّا يشرح ويُبيّن حيـاة أمير المؤمنين عليه السلام ، وهو خطّ الإيثار. وفي كلّ القضايا الّتي مرّت عليـه عليه السلام طيلة هذا التاريخ الممتـدّ لـ 50 سنة، تظهر علائم الإيثار من البدايـة وحتّى النّهايـة. وهذا في الحقيقة درسٌ وعبـرةٌ لنا. ونحن، الّذين نتحـدّث عنه ونبحـث عنه ونُعرف في العالم بمحبّته، يجـب علينا أن نأخذ هذا الدرس منه عليه السلام ، فمجرّد الحبّ لا يكفي، ومجرّد معرفة فضيلة عليّ لا تكفي. كان هنـاك من يعترف في قلبه بفضائل علي بن أبي طالب عليه السلام ، ولعلّهم أكثر منّا نحن الّذين يفصلنا عنه 1400 سنة، هؤلاء أو بعضهم كانوا يُحبّـون عليًّا من القلب كإنسـانٍ معصوم ومنزّه، أمّـا سلوكهم فكان سلوكًا مختلفًـا. لأنّه لم يكـن لديهم تلك الخاصّيّـة نفسها، وذلـك الإيثار نفسه، وتـرك الذّات نفســه، وترك العمل من أجـل الذّات نفسه، فكانـوا ما زالوا عالقين في سجن النفس. أمّا امتياز عليّ فكان بأنّه لم يقع في أسر النّفس. لم يكن للـ «أنا» مكان عنده، بل ما كان له مكان عنده كان التكليف والهدف والله والجهاد في سبيل الله.

لقـد تحمّل أميـر المؤمنين الأذى والسخرية منذ بدايـة إيمانه بالنبيّ، وعندمـا كان مـا زال في مرحلـة الطّفولة. تصوّروا مدينـةً يستخدم أهلها العنـف بشـكل طبيعـيّ، ولـم يكونـوا متحضّريـن ووقورين ولائقيـن؛ قومٌ يتشاجرون عند أدنى مسألـة، وشديدو التعصّب لتلك العقائد الباطلة؛ في مثـل ذلك المجتمع، طُرحت رسالـة من إنسانٍ عظيم جعلـت كلّ شيء في

ذلك المجتمـع مورد تشكيك، على مستوى العقائد والآداب والتقاليد؛ فمن الطبيعـيّ أن ينهض الجميع وبـكلّ طبقاتهم، حتّى عـوام النّاس، لمخالفة النبـيّ ﷺ. فحتّـى يقـوم شخـص بالدّفاع عن هكـذا إنسـان وعن هكذا رسالـة، بكلّ وجوده ويقوم باتّباعه، فإنّ ذلـك يتطلّب نكران الذّات. وكانت هذه خطوة أمير المؤمنين الأولى في نكران الذّات.

وقف عليّ بن أبي طالـب عليه السلام لمدّة 13 سنة إلى جانب الرسول ﷺ وفـي أصعـب المواطـن. صحيـحٌ أنّ هجـرة الرسـول الأكـرم ﷺ كانت اضطراريّـة وتحت الضّغط المتواصل لقريش وأهل مكّة، لكنّها كانت ذات مستقبلٍ مشـرق. فالجميع كان يعلم أنّ هذه الهجرة هي مقدّمة النّجاحات والانتصـارات. هناك عندمـا تتجاوز أيّ نهضةٍ مرحلـة المحنة لتدخل في مرحلـة الرّاحة والعزّة، هناك عندما يكـون الجميع منشغلًا بحسب العادة لكـي يوصلـوا أنفسهـم أسـرع من غيرهـم علّهـم يأخذون مـن المناصب الاجتماعيّـة شيئًـا وينالـون موقعيّـةً؛ في تلـك اللحظة بالـذّات، كان أمير المؤمنيـن عليه السلام مستعدًّا لأن ينام مكان الرسول ﷺ في فراشه في تلك الليلـة المظلمة الحالكة، حتّى يتمكّن الرّسول مـن الخروج من منزله ومن هـذه المدينة. في تلـك الليلة، كان مقتـل من ينام فـي ذاك الفراش أمرًا شبـه قطعيّ ومسلّمًا به. كوننا نحن نعلم ما حدث، ونعلم أنّ أمير المؤمنين لـم يُقتل في تلك الحادثة، هذا لا يعني أنّ الجميع في تلك الأثناء كان يعلم ذلـك، كلّا، فالقضيّة كانت أنّه في ليلـةٍ حالكة، وفي لحظة معيّنة، كان من المقرّر أن يُقتل شخصٌ حتمًا. كان يُقال أنّه ومن أجل أن يخرج هذا السيّد مـن هنا ينبغي أن يكون هناك شخصٌ آخـر مكانه حتّى يشعر الجواسيس،

الّذيـن يُراقبون، بأنّه ما زال هناك، فمن هو المستعدّ لذلك؟ هذا هو إيثار أمير المؤمنين عليه السلام الّذي يُعدّ بذاته حادثةً استثنائية من حيث الأهمّية. لكنّ توقيت هذا الإيثار يزيد من أهميّته. ففي أيّ وقتٍ كان ذلك؟ في الوقت الذي كان متوقّعًا أنّ تصل فيه هذه المحنة إلى نهايتها، وأن يذهبوا لتشكيل الحكومة، وأن يكونوا مرتاحين؛ وأهل يثرب قد آمنوا وينتظرون النبيّ. الكلّ كان يعلـم ذلك. في مثل هـذه اللحظة، يقوم أميـر المؤمنين عليه السلام بهذا الإيثـار، فلا ينبغي أن يكون هنـاك أيّ دافعٍ شخصيّ في مثل هذا الإنسان، حتّى يقدم على مثل هذه الحركة العظيمة.

وبعدها يأتي إلى المدينة وتبدأ المعارك والقتال المتواصل لحكومة النبيّ الفتيّة. فالمعارك والحروب كانت دائمة، هكذا كانت خاصيّة تلك الحكومة. كان هنـاك مواجهات دائمة، بـدأت قبل معركة بـدر، واستمرّت على مدى السنـوات العشر تلك، وإلى آخر حياة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، خاض فيها النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عشرات المعارك والمواجهات مع الكفّار على مختلف أنواعهم وأقسامهـم وشُعَبِهم. وفـي كلّ هذه المراحـل، كان أمير المؤمنين عليه السلام حاضـرًا ليكون أوّل مـن يتصدّى وأكثـر النّاس تضحيةً وفـداءً واستعدادًا للموت بين يديّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، كما بيّنه أمير المؤمنين عليه السلام نفسه، وأظهره التاريـخ في جميع هذه المراحل والميادين المهولة: «**ولقد واسيته بنفسي فـي المواطـن الّتـي تنكص فيها الأبطـال وتتأخّر فيها الأقـدام**»[1]. وقف أمير المؤمنين عليه السلام في أشدّ اللحظات حرجًا وما كان يلوي على شيء أو

(1) نهج البلاغة، ص 311.

يقول إنّ هناك خطرًا. بينما كان بعض النّاس يُفكّر في نفسه والحفاظ عليها بحجّة أن يكون مفيدًا للإسلام فيما بعد. ولم يخدع أمير المؤمنين عليه السلام نفسه أبـدًا بمثل هذه المعاذير، ولم تكن نفسه السّامية لتُخدع. ففي جميع مراحل الخطر كان أمير المؤمنين عليه السلام حاضرًا في الخطوط الأماميّة.

(1999/01/08)

مرحلة السكوت والتعاون

إنّ أشـدّ مراحـل حيـاة أميـر المؤمنيـن عليه السلام ، بنظـري، قد بـدأت في هـذه السنوات الثلاثيـن، أي بعد انتهاء عصر النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم وارتحاله عن هذه الدنيـا. كانت تلك الأيّـام، أصعب مراحل حياة أميـر المؤمنين عليه السلام ، ففي تلـك الأيّام الّتي كان النبيّ العزيز صلى الله عليه وآله وسلم موجـودًا فيها وكان (أمير المؤمنين) يذهـب ويُجاهـد في كنفه، كانت الأيّـام جميلةً وعذبة. في تلـك الأيام المرّة، والأيام التي تلت ارتحال النبيّ الأكرم والتي كانت أيّامًا نادرةً، كانت قطع الليل المظلـم للفتنة تسدّ آفاق الرّؤية أمام الأعيـن، بحيث لا يستطيع أولئك الذين كانـوا يريدون أن يسيروا بالاتّجاه الصحيـح أن يخطوا خطوةً واحدة، في ظلّ مثل هذه الظرّوف نجح أمير المؤمنين عليه السلام في أعظم امتحانات الإيثار.

أوّلًا، أوّل ما حضرت الوفاة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ، كان أمير المؤمنين عليه السلام منشغـلًا بأداء التكليف؛ لا أنّـه لم يكن يعلم بوجود اجتماعٍ ومن الممكن أن يُحدّد فيه مصير السّلطة والحكومة في العالم الإسلامي؛ فلم تكن هذه هي قضيّة أمير المؤمنيـن، ولم تكن القضيّة بالنسبة له قضيّة «الأنا». فبعد أن استقرّت مسألة الخلافة، وبايع النّاس أبا بكر وانتهى كلّ شيء، انزوى أمير

المؤمنين عليه السلام ، ولم يُسمع منه أيّ كلمةٍ أو موقفٍ يحكي عن معارضته للجهاز الحاكم. لقد سعى في الأيّام الأولى لعلّه يتمكّن من إحقاق ما يراه بحسب عقيدته حقًّا، وممّا ينبغي القيام به. وعندما رأى الأمر خلاف ذلك، وأنّ النّاس قد بايعوا وانتهت القضيّة، وأضحى أبو بكر خليفة المسلمين، هنا نجد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام ، عُرف عبر التّاريخ كشخص، وإن كان معارضًا لكنّه لم يبدر منه أيّ خطر أو تهديد على الجهاز الحاكم، وبأيّ كيفيّة كانت. لقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في هذه المرحلة - والّتي لم تكن مديدة، لعلّها لم تكن أكثر من عدّة أشهر ـ لقد علمتم أنّي أحقّ النّاس بها من غيري ويقصد الخلافة. «**ووالله لأسلمنّ ما سلمت أمور المسلمين**»، ـ فما دمتُ أرى أنّه لا يُظلم أحد، «**ولم يكن فيها جورٌ إلا عليّ خاصّة**»[1]، فإنّني لن أقوم بأيّ عملٍ ولن أعارض أبدًا.

وبعد مدّةٍ وجيزة، لا تزيد على عدّة أشهر، بدأ ارتداد بعض الجماعات، ولعلّها كانت مدفوعةً لذلك، حيث شعرت بعض القبائل العربية أنّه طالما لا يوجد نبيّ ولا يوجد قائد للإسلام، فلا بأس أن يختلقوا إشكالات وأن يُعارضوا ويُحاربوا ويُثيروا القلاقل، ولعلّ ذلك كان بتحريكٍ من المنافقين، فنشأ تيّار الردّة ـ أي ارتداد مجموعة من المسلمين ـ وبدأت حروب الردّة. وهنا حيث أصبح الوضع على هذا النّحو، رأى أمير المؤمنين عليه السلام أنّ الأمر لم يعد يحتمل الجلوس وعليه أن ينزل إلى الميدان للدّفاع عن الحكومة. هنا يقول: «**فأمسكت يدي**»، ويقصد ما جرى في قضيّة الخلافة

(1) نهج البلاغة، ص 102.

وصيرورة أبي بكر خليفةً للمسلمين، «**أمسكت يدي**» وجلست جانبًا. كانت هذه حالة اختيار الانزواء، «**حتّى رأيت راجعة النّاس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمّد** صلى الله عليه وآله وسلم»[1]، رأيت أنّ جماعةً من النّاس قد ارتدّوا عن الإسلام ويريدون محو الإسلام، هنا نزلت إلى الميدان. لقد دخل أمير المؤمنين الميدان بصورةٍ فعّالة، وهكذا كان في جميع القضايا الاجتماعيّة المهمّة.

ويصف أمير المؤمنين عليه السلام حضوره في مرحلة الـ 25 سنة من خلافة الخلفاء الثّلاثة، بالوزارة؛ فعندما جاؤوا إليه بعد مقتل عثمان وبايعوه بالخلافة، قال: «**وأنا لكم وزيرًا خيرٌ لكم منّي أميرًا**»[2]. أي كما كنت لكم في السّابق دعوني كذلك. فقد كان مقامه وموقعيّته طوال الـ25 سنة موقعيّة الوزارة؛ أي أنّه كان في خدمة الأهداف دومًا، وكان يُعين المسؤولين والخلفاء الّذين كانوا على رأس الأمور حيث يلزم، ومثل هذا يُعدّ إيثارًا لا مثيل له، يحيّر الإنسان في الواقع ويجعله يُفكّر كم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان مؤثّرًا في حياته.

وخلال الـ 25 سنة هذه، لم يُفكّر أبدًا بالقيام والانقلاب والمعارضة وجمع العدّة والإمساك بالسّلطة والسّيطرة على الحكومة. مثل هذه الأمور تأتي على أذهان النّاس. عندما ارتحل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عن الدنيا كان عمر أمير المؤمنين عليه السلام نحو 33 سنة. وبعدها فإنّ كل المسائل الجذّابة التي كان من الممكن أن تتوفّر لإنسان، كانت موجودة في أمير المؤمنين

---

(1) نهج البلاغة، ص 451.

(2) م.ن، ص 136.

ولكن على نحوٍ أعلى وأسمى؛ من مراحل شبابه وقدرته الجسمانيّة ومرحلة نشاطـه، إلى الوجاهـة والمحبوبيّة بين عمـوم النّاس، إلـى الذّهن الوقّاد والعلـم الوفيـر. فلـو أراد أن يقوم بـأيّ عملٍ لاستطـاع ذلـك. إلا أنّ أمير المؤمنيـن عليه السلام، على مدى الـ 25 سنـة هذه، لم يُسمع منه أيّ شيء، ولم يقـم بأيّ تحـرّك إلّا من أجل خدمة تلـك الأهداف العامّـة والكليّة للنظام الإسلاميّ الّذي كان أولئك الخلفاء على رأسه. وكان هناك أحداثٌ عظيمةٌ استثنائية، ولا أريد الآن أن أدخل هنا في شرح الموارد التاريخية.

وبعـد مـوت الخليفة الثّانـي، دُعي أميـر المؤمنين عليه السلام إلـى الشّورى المتشكّلـة مـن ستـة أشخاص، فلـم ينزعج ودخل فـي الشّورى. لـم يقل إنّ هـؤلاء ليسوا من مستواي، فأين طلحة والزبيـر وأين عبد الرحمن بن عوف وأيـن عثمان وأين أنا؟ وطبقًا لوصيّة عمـر، فقد جعلوا ستة أشخاص بعنوان الشّـورى من أجـل أن ينتخبوا من بينهـم خليفةً. وكان حـظّ أمير المؤمنين بالخلافـة من بين هؤلاء الستّة هو الأوفـر. وكان رأي عبد الرحمن بن عوف هو الرأي الفاصل. فقد كان لأمير المؤمنين صوتان هو والزبير، وكان لعثمان صوتـان هو وطلحـة، وكان لعبد الرحمن بن عوف صوتـان هو وسعد بن أبي وقّاص، وكان صوت عبد الرحمن بن عوف هو الصّوت الفاصل. فلو بايع أمير المؤمنيـن عليه السلام لصار هو الخليفة، ولو بايع عثمان لصار هو الخليفة. هنا توجّـه (عبد الرحمن بن عـوف) إلى أمير المؤمنيـن عليه السلام وسأله إن كان يعمل بكتاب الله وسنّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وسيرة الشيخين، أي الخليفتين السابقين. فقـال عليه السلام: كلّا، إنّنـي أعمل بكتاب الله وسنّة النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم؛ لقد كان من الممكن لأمير المؤمنين أن يحصل على الحكومة ويُمسك بزمام السّلطة، لو

أنّه تغاضى بأقلّ قدرٍ ممكن عمّا هو صحيحٌ وحقّ. لكنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يُفكّر بذلك لحظةً واحدةً، ففقد الحكومة وخسر السّلطة. وهنا قد آثر ولم يطرح نفسه وإنّيته أبداً، بل جعلها تحت قدميه. وما كانت مثل هذه المشاعر لتبرز في أمير المؤمنين عليه السلام من الأساس.

وبعد مرور 12 سنة من حكومة عثمان، كثُرت الاعتراضات عليه في نهاية الأمـر، وبدأ النّاس يُخالفونـه ويعترضون عليه كثيـرًا، وتقاطروا من مصر ومن العـراق ومن البصرة ومن أماكن أخرى، وفي النّهاية تشكّل جمعٌ كبير وحاصروا بيت عثمان وهدّدوه. هنا ماذا يُمكن أن يفعل أيّ إنسان في موضع أميـر المؤمنين عليه السلام؟ ذاك الّذي يرى نفسه صاحب حقٍّ بالخلافة، وكان لمـدّة 25 سنة يتغاضـى عن حقّه وهو يعترض على سلـوك الحاكم الحالي، هـا هو الآن يرى بيت هـذا الخليفة محاصـرًا. فالشخص العـاديّ بل حتّى النخب والوجهاء ماذا يفعلون في مثل هذه الحالة؟ نفس العمل الّذي قام به الآخرون، نفس ما فعله كلّ من طلحة والزبير وغيرهم، وكلّ الآخرين الّذين كان لهـم في قضية عثمـان ما كان. إنّ قضية قتل عثمـان هي من الأحداث المهمّـة جداً في تاريخ الإسلام، ويُمكن للإنسان أن يُشاهد في نهج البلاغة وفـي الآثار وفي التاريخ الإسلاميّ ما الّذي أدّى إلى مقتل عثمان، ليتّضح له بشكلٍ كامل من الّذي قتل عثمان ومن الّذي دفع إلى قتله. أولئك الّذين كانوا قـد جعلوا ادّعـاء محبّة عثمان فيمـا بعد محور تحرّكاتهـم، هنا طعنوه من الخلـف، وكانوا يُحرّكون الأمور مـن وراء الكواليس. سألوا عمرو بن العاص مـن الّـذي قتل عثمان، فقال: فلانٌ ـ وذكر اسم أحد الصحابـة ـ هو الّذي صنع سيفه، والآخر أحدّه، والثالث سمّه، وذاك طعنه به. الواقع هو هذا.

نجـد أنّ أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الحادثة يقوم بكمال الإخلاص بمـا يراه تكليفًا إلهيًّا وإسلاميًّا؛ فيُرسل كلّاً من الحسن والحسين عليهما السلام، هاتيـن الجوهرتين العظيمتين وبقيّـة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، إلى بيت عثمان من أجل الدّفاع عنـه. كان المخالفون يُحاصرون بيت عثمـان ويمنعون دخول الماء إليه، وكان أمير المؤمنيـن عليه السلام يُرسل له الماء والطعام ويُفاوض مرّاتٍ ومـرّات أولئك الّذين غضبوا على عثمان، لعلّـه يُهدّئ من روعهم. وعندما قتلوا عثمان غضب أمير المؤمنين عليه السلام.

هنـا أيضًا، نجد أنّـه لا يُمكن أن نُشاهد في أميـر المؤمنين عليه السلام أيّ حالـة من الإنّية وحبّ الذّات ومشاعـر الأنا الّتي يُمكن أن توجد في كلّ فرد مـن النّاس. فبعـد أن قُتل عثمان كان من الممكـن لأمير المؤمنين عليه السلام أن ينـزل إلى الميدان كوجـهٍ وجيه، وكشخص انتهـازيّ وكمخلّص، ويقول أيّهـا النّاس هـا أنتم قـد ارتحتم أخيـرًا وتخلّصتـم من المشكلـة، وكان النّاس سيُحبّونـه؛ لكنّه لم يفعـل، فبعد حادثـة عثمان، لم يتحـرّك أمير المؤمنين عليه السلام نحو السّلطة والإمساك بالحكومة. فما أعظم هذه الرّوح: «**دعونـي والتمسـوا غيري**»[1]، أيّهـا النّاس اتركوني واذهبـوا إلى شخصٍ آخـر. ولو اخترتـم شخصًا آخر فإنّنـي سأكون له وزيـرًا وأُعينه. هذه هي تصريحات أمير المؤمنين عليه السلام في تلك الأيّام. لكنّ النّاس لم يقبلوا ولم يستطيعوا أن ينتخبوا شخصًا آخر للحكومة غير أمير المؤمنين.

(1) نهج البلاغة، ص 136.

مرحلة الخلافة

لقد بايعت جميع الأقطار الإسلاميّة أمير المؤمنين عليه السلام. وحتّى ذلك الوقت، لم يكن قد جرى مثل هذه البيعة العامّة الّتي تمّت لأمير المؤمنين عليه السلام، حيث إنّ جميع الأقطار الإسلاميّة وكلّ الكبراء والصحابة قد بايعوه، باستثناء الشام. فقط عدّة قليلة، أقل من عشرة أشخاص لم يُبايعوا أمير المؤمنين عليه السلام، فأحضرهم إلى المسجد واحدًا واحدًا وسألهم لماذا لم يُبايعوا - وكان من بين هؤلاء عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقّاص - فكان أن قدّم كلّ واحدٍ منهم عذرًا، وقال شيئًا. فبعضٌ منهم عاد وبايع، وبعضٌ آخر لم يُبايع مطلقًا - عددٌ قليلٌ جدًّا بعدد أصابع اليد الواحدة - فتركهم أمير المؤمنين عليه السلام. ولكن بقية الوجوه المعروفة كطلحة والزبير وغيرهما، جميعًا قد بايعوا أمير المؤمنين؛ وقبل أن يُبايعوه قال لهم: «**واعلموا أنّي إن أجبتكم**»، وهو يشير إلى أنّهم لو أصرّوا أن يُمسك هو بالحكومة «**ركبت بكم ما أعلم**»[1]، فلا تتصوّروا أنّني سأُراعي تلك الوجوه والشخصيّات والهياكل القديمة والمشهورين

(1) نهج البلاغة، ص 136.

والمعروفين، كلا، ولا تتصوّروا أنّني سأتّبع فلانًا وأقلّد فلانًا، أي إنّني سأُديركم بحسب ما أعلم وما أُشخّص وما أعرفه من الإسلام. وهكذا فقد أتمّ أمير المؤمنين عليه السلام الحجّة على النّاس وقَبِل بالخلافة. كان من الممكن لأمير المؤمنين هنا، ولأجل حفظ المصالح ورعاية جوانب القضيّة وأمثالها، أن يتنازل ويجذب إليه القلوب، لكنّه وبكلّ قاطعية أصرّ على الأصول والقيم الإسلاميّة بحيث إنّ كلّ هؤلاء الأعداء قد اصطفّوا في مقابله؛ وقد واجه أمير المؤمنين عليه السلام معسكرًا مليئًا بالمال والقهر والتزوير، ومعسكرًا آخر فيه الشخصيّات الوجيهة والمعتبرة والمعروفة، ومعسكرًا ثالثًا يضمّ المتظاهرين بالقداسة والتعبّد، لكنّهم جاهلون بحقيقة الإسلام وروحه وتعاليمه ويجهلون شأنيّة أمير المؤمنين عليه السلام ومقامه من أهل التشبّث بالعنف والقسوة وسوء الخلق.

ميزان الحقّ والقيم الإسلاميّة

لقد قاتل أمير المؤمنين عليه السلام ثلاثة معسكرات بثلاثة خطوطٍ منفصلة، هم الناكثون والقاسطون والمارقون. وكلّ واحدة من هذه الوقائع تدلّ على تلك الروح الرفيعة للتوكّل على الله والإيثار والبعد عن الأنانيّة والإنّية، في أمير المؤمنين عليه السلام. واستُشهد في النهاية على هذا الطريق، حتّى قيل بشأنه إنّ عدل عليّ عليه السلام قد قتله. لو لم يكن أمير المؤمنين عليه السلام مريدًا للعدالة، وعمد بدل ذلك إلى رعاية هذا وذاك، وتقديم الشأنية والمقام والشّخصيّة على مصالح العالم الإسلامي لكان أكثر الخلفاء نجاحًا وقدرةً، ولما وجد له معارضًا. لكنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو ميزان

الحـقّ والباطل. ولهذا كان عليه السلام يتحرّك وفق جوهر التكليف دون أيّ ذرّة من تدخّل الأنا والمشاعر الشّخصيّة والمنافع الذاتيّة، وقد تحرّك على هذا الطريـق الّذي اختاره. هكذا كانت شخصيّـة أمير المؤمنين عليه السلام . لهذا فـإنّ عليًّا عليه السلام هو فـي الواقع ميزان الحقّ. هكـذا كانت حياته عليه السلام ، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ ﴾. فلـم يكـن عظيمًـا فـي الشّهـادة فحسب، ولم يكـن عند الممـات ممّن يفـدي نفسه فحسب، بل على مدى حياته كان يُقدّم نفسه دومًا في سبيل الله.

(1989/04/28)

أثبت أميـر المؤمنين خلال هـذه المدّة أنّ الأصـول الإسلاميّة والقيم الإسلاميّة الّتي وُجدت في مرحلة عزلة الإسلام وفي مرحلة صغر المجتمع الإسلامـيّ، قابلةٌ للتّطبيـق مثلما أنّها كذلك في مرحلـة الرّفاهية والتّوسّع والاقتـدار والتقدّم والازدهار الاقتصـاديّ للمجتمع الإسلاميّ. فمن المهم جدًّا أن نلتفت إلى هذه النقطة. لقد نزل الوحي الإلهيّ بالأصول الإسلاميّة، والعدالـة الإسلاميّة، وتكريـم الإنسان، وروح الجهاد، والبنـاء الإسلاميّ، والمرتكـزات الأخلاقيّة والقيمية الإسلاميّـة، في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وقد تمّ تطبيقها مـن قِبَل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في المجتمـع الإسلاميّ ضمن الحدود المتاحـة. ولكن كيـف كان المجتمع الإسلاميّ في عهـد الرّسول؟ تأسّست القيـم الإسلاميّة في بيئـة صغيرة وضئيلة، إذ حتى عشـر سنوات لم يكن سـوى المدينـة، وكانت مدينـة صغيرة تضمّ بضعـة آلاف مـن النّاس، ثمّ فُتحت مكّة والطائف؛ وهي منطقة محدودة بثروات قليلة جدًّا، فالفقر كان شاملًا، والإمكانات الّتي كانت في متناول أيديهم كانت ضئيلة جدًّا..

مضـت خمس وعشـرون سنة علـى رحيل الرّسـول عن الدّنيـا. وكانت مساحة الدّولـة الإسلاميّة قد ازدادت، خلال هذه المدّة، مئات الأضعاف، لا ضعفيـن أو ثلاثـة أو عشرة. فيـوم تسلّم أميـر المؤمنين عليه السلام الحكم كانـت الأرض التي تمتدّ من آسيا الوسطى حتّـى شمال أفريقيا - أي مصر - داخلـةً ضمـن نطاق الدولـة الإسلاميّة. ففي بداية الأمـر، تلاشت إحدى الدولتيـن العظمييـن المجاورتين للدّولـة الإسلاميّة - وأعنـي بهما إيران والـرّوم - فقـد تلاشـت إحداهما نهائيًّـا وهي الدّولـة الإيرانيّـة، وصارت كافّـة الأراضي الإيرانية بيـد الإسلام. ودخلت أجـزاء مهمّة من الأراضي الرّومانيّـة - بـلاد الشـام وفلسطين والموصـل ومناطق أخـرى - أيضًا في دائـرة الإسلام. مثل هذه الرقعة الواسعة كانت بيد الإسلام يومذاك. إذًا، لقـد توفّرت ثـروات طائلة ولم يعد هنـاك فقرٌ أو عوزٌ أو شـحٌّ في الطّعام؛ وأصبـح الذهـب كثيرًا، والأموال وفيرة، وأصبح هنـاك ثروات طائلة. لذا، كانـت الدّولـة الإسلاميّة قد أصبحت ثريّـة. الكثيرون تمتّعـوا برفاه جاوز الحـدود. لو لم يكن الإمام عليّ عليه السلام في البين، ربّما كان التاريخ ليحكم بأنّ المبادئ الإسلاميّة والقيـم النبويّة كانت جيّدة لعصر المدينة النبويّة فقط، أي لذلك العهد الّـذي تميّز بضآلة حجم المجتمع الإسلاميّ وفقره. أمّـا بعد أن اتّسع المجتمع الإسلاميّ واختلـط بالحضارات المختلفة حيث وفدت من إيران والرّوم ثقافات وحضارات شتّى إلى حياة النّاس، وانضوت شعـوب مختلفة تحـت مظلّة المجتمـع الإسلامي، فلا تبقـى تلك المبادئ كافية ولا قـادرة على إدارة البلد». وقد أثبت أمير المؤمنين عليه السلام، طوال هـذه السنوات الخمـس، بممارساته وسيرته وأسلوبه فـي الحكم أنّ الأمر

على العكس من ذلك؛ فتلك المبادئ نفسها الّتي كانت متألّقة في صدر النبوّة ــ ذات التوحيد، والعدل، والإنصاف والمساواة بين النّاس - هي ممكنة التطبيق على يد خليفة قويّ كأمير المؤمنين عليه السلام. هذا شيء خلّده التاريخ. ومع أنّ هذا المنهج لم يستمرّ بعد أمير المؤمنين عليه السلام، لكنّه أثبت أنّ الحاكم الإسلاميّ ومديري المجتمع والمسؤولين المسلمين إذا قرّروا وعزموا وكانوا أصحاب عقيدة راسخة لأمكنهم تطبيق نفس تلك المبادئ في عهد اتّساع رقعة الدّولة الإسلاميّة وظهور ظروف جديدة ومتنوِّعة للحياة، حتّى ينتفع بها النّاس... فمن الواضح أنّ إقامة العدالة الاجتماعيّة في مجتمع يضمّ عشراً أو خمس عشرة ألف نسمة في المدينة تختلف اختلافًا هائلًا عنها في مجتمع يضمّ عشرات الملايين أو مئات الملايين كما كان الحال في عهد أمير المؤمنين عليه السلام. وقد نهض أمير المؤمنين عليه السلام بهذه المهام.

عدالة الإمام عليّ عليه السلام

نورد هنا نماذج من أعمال أمير المؤمنين عليه السلام تجلّت في كلمات هذا العظيم. وهناك آلاف الأمثلة الأخرى في حياته. جاء النّاس وأصرّوا وبايعوا، لكنّه لم يوافق. وازداد إصرار جميع النّاس، من أكابر وصغار ورؤساء وصحابة قدماء، فقالوا جميعًا: كلّا، لن يكون غير عليّ بن أبي طالب عليه السلام ولن يستطيع ذلك سواه. جاؤوا وأخذوا الإمام مصرّين. فقال الإمام عليه السلام: إذًا فلنذهب إلى المسجد. ارتقى الإمام المنبر، وألقى خطبة أوضح فيها آراءه، فقال: الأموال الّتي استحوذ عليها الخواصّ

والوجهاء من دون وجه حقّ سأُعيدها إلى بيت المال أينما وجدّتها. حيث استطاع بعض الأشخاص خلال تلك السّنوات مصادرة أموال من بيت المال لصالحهم. فقال سأُعيد كلّ هذه الأموال: «**لو وجدّته قد تُزوّج به النساء**»، أي أنّكم جعلتم تلك الأموال مهورًا لنسائكم، أو «**مُلك به الإماء**» واشتريتم بها الجواري لحريمكم «**لرددّته**»[1] وأعدّته إلى بيت المال. ليعلم النّاس والأكابر أنّ هذه هي طريقتي.

بعد أيّام بدأت المعارضات، وكان المستضعفون من النّاس والطّبقة المضطَّهدةً في المجتمع يتمنّون من الله أن يُتّبع مثل هذا المنهج، أمّا أصحاب النّفوذ والمخاطبون الحقيقيّون بهذا الكلام فمن البديهيّ أن يسخطوا. فجلسوا وعقدوا اجتماعًا وقالوا: ما هذا الّذي يريد عليّ صنعه؟ قام الوليد بن عقبة ـ وهو نفسه الّذي كان والي الكوفة في زمن عثمان ـ وجاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام، نيابةً عنهم، فقال له: يا عليّ! إنّ لبيعتنا إيّاك شروطًا، «ونحن نُبايعك اليوم على أن تضع عنّا ما أصبناه من المال في أيّام عثمان»[2]، شرطنا هو أن لا تنال من الأموال الّتي حصلنا عليها وتترك لنا ما كسبناه خلال العهد الّذي سبقك. ومن بعد الوليد بن عقبة، جاءه طلحة والزبير. الوليد بن عقبة، بالطّبع، يختلف عن طلحة والزبير. فالوليد بن عقبة كان في الحقيقة من حديثي العهد بالإسلام، وكانت عائلته ضدّ الإسلام ومعارضة للثّورة وقد حاربت الإسلام. وبعد ذلك حين ساد الإسلام، في نهاية عهد النبيّ، دخل في الإسلام كغيره من بني أميّة.

(1) نهج البلاغة، ص 396.

(2) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج32، ص 19.

أمّا طلحة والزبير فكانا من السّابقين في الإسلام ومن أعوان الرّسول ﷺ المقرّبين. جاء طلحة والزبير أيضًا ـ وهما يومذاك من أكابر الإسلام ومن البقيـة الباقية لأصحاب الرّسول ﷺ ـ إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وتكّلما كلامًـا فيه عتاب، منه قولهم: «إنّك جعلت حقّنا فـي القَسْم كحقّ غيرنا». فقد ساويـت بيننا وبين غيرنا في تقسيم بيت المـال. «وسوّيت بيننا وبين مـن لا يُماثلنا»، ساويت في منح أموال بيت المال بيننا وبين من هم ليسوا مثلنـا، فأيّ قسمة هذه؟ لماذا لا تُقـرّر امتيازات معيّنة؟ «من لا يُماثلنا في ما أفاء الله تعالى بأسيافنا ورماحنا»[1] هذه خيرات استُحصلت بأسيافنا. نحـن الّذين رفعنا الإسلام، نحن الّذين بذلنا الجهود والمساعي، وإذا بك تساوينا بالجُدد والأعاجم ومن جاؤوا من البلدان المفتتحة.

لم يُسجّـل لنا التّاريخ جـواب أمير المؤمنيـن عليه السلام للوليد بن عقبة، لكنّـه أجـاب الآخرين. صعـد الإمام المنبـر وأجابهم جوابًـا شديدًا. قال بشـأن قضيّة المساواة في تقسيم بيت المال: «**فإنّ ذلك أمر لم أحكم فيه بادئ بدء**»، فلست أنا من أسّس لهذه الطريقة وهذا المنهج، «**بل وجدتُ أنا وأنتما رسول الله ﷺ يحكم بذلك**»[2]، لم أجئ بأسلوبٍ جديد من عندي، إنّمـا أتّبع الفعل الّـذي كان يأتي به الرسول ﷺ. أريـد تكريس تلك القيم والقواعـد الاعتقادية والسّلوكيّة في المجتمع، في هذا العصر. وقد كرّسها الإمـام عليّ عليه السلام وكان يفعل. وقـد دفع أمير المؤمنين عليه السلام ثمن ذلك أيضًا.

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج32، ص 21.

(2) م.ن، ص 22.

فكان ثمن هذا العمل أن نشبت ثلاثة حروب. وقف أمير المؤمنين عليه السلام. ومن البديهيّ أنّه كان يرى لنفسه حقّ الخلافة. ولكن لم يكن الأمر على هذا النّحو بعد رحيل الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم، فلم يتحرّك على مدى خمس وعشرين سنة من أجل الشّيء الّذي كان يعلم أنّه حقّه. وإذا كان هناك من يريد التحدّث بالأمر، كان يُهدّئه، «**إنّك لقلق الوضين ترسل في غير سدد،... دع عنك نهبًا صيح في حجراته**»[1]. لم تصدر عنه ردود فعل إزاء تلك القضيّة على مدى خمس وعشرين سنة. لكنّ أمير المؤمنين عليه السلام تحمّل عبء ثلاثة حروب ـ حرب الجمل، وحرب صفّين، وحرب النهروان ـ مقابل قضيّة تبدو في الظاهر أقل من تلك القضيّة ـ وهي قضية العدالة الاجتماعيّة، وقضيّة إحياء الأصول النبويّة، وإعادة تشييد الصّرح الإسلامي المتين الذي أرسى دعائمه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فكم كانت هذه القضيّة مهمّة بالنسبة لأمير المؤمنين عليه السلام! وهذا هو الإنجاز العظيم الّذي نهض به أمير المؤمنين عليه السلام. وله في هذا المجال كلمة أخرى، يقول فيها: «**لا تمنعنّكم رعاية الحقّ لأحد عن إقامة الحقّ عليه**»[2]، أي إنّ الإنسان إذا كان مؤمنًا ومجاهدًا في سبيل الله وبذل جهدًا كبيرًا وخاض المعارك وأنجز أعمالًا كبيرة فستكون مراعاة حقّه واجبة. وأمّا إذا تعدّى هذا الشّخص حدوده في حالة خاصّة وضيّع حقًّا من الحقوق، فلا ينبغي التّغاضي عن خطئه هذا بحجّةٍ أعماله الحسنة السّابقة، إذًا لا بدّ من التمييز بين الأمور. فإذا كان الإنسان صالحًا وذا قدرٍ كبيرٍ وسابقة محمودة وجهود بذلها للإسلام والبلاد فهذا جيّد وحقوقه مقبولة ومحفوظة وينبغي أن تُقدّر، ولكن إذا

(1) نهج البلاغة، ص 231.

(2) تصنيف غرار الحكم ودرر الكلم، ص 69.

تعـدّى وتجاوز، فـإنّ مراعاة ذلك الحقّ ينبغي أن لا تؤدّي إلى غضّ الطّرف عن المخالفة الّتي ارتكبها. هذا هو منطق أمير المؤمنين.

كان هنـاك شاعرٌ اسمه النّجاشيّ، هو من شعراء أمير المؤمنين عليه السلام ومدّاحيـه، وصاحب أفضـل القصائد في حرب صفّين فـي تحريض النّاس ضـدّ معاوية، ومن محبّي أميـر المؤمنين عليه السلام وأحد الدّاخلين في حزبه، وأفعالـه مشهورة بالإخلاص والولاية والسّوابق، وكان قـد شرب الخمر في نهـار شهـر رمضان. حين علـم أمير المؤمنيـن عليه السلام بالأمر قـال إنّ حدّ الخمر معروف، آتوني به لإقامة الحدّ عليه. أقام أمير المؤمنين عليه السلام عليه حدّ الخمر أمام أعين النّاس، ثمانين سوطًا. فجاءت عائلته وقبيلته إلى أمير المؤمنين عليه السلام وقالوا: يا أمير المؤمنين، أرقت ماء وجوهنا. لقد كان هذا مـن أصحابك وأصدقائك. وبتعبيرنا المعاصر. كان من تيّارك. فقال أنا لم أفعل شيئًا، إنّه مسلم ارتكب مخالفة، فوجب عليه حدّ من حدود الله، فأقمت ذلك الحدّ. بالطبع، النّجاشيّ، وبعد أن جُلد من قِبَل عليّ عليه السلام، قال: طالما كان الأمر كذلك، فسأذهب إلى معاوية وأنظم أشعاري به. فقام وفارق أمير المؤمنيـن عليه السلام والتحق بمعسكر معاوية. فلـم يقل أمير المؤمنين عليه السلام إنّ النجاشـيّ قـد تركنا وهذه خسارة مؤسفة، فلنحـاول إبقاءه هنا، كلّا، إنْ ذهـب، فليذهـب! بالطبع، مـن الأفضـل كان أن يبقى. هذا هـو منطق أمير المؤمنين عليه السلام ومنهجه. قال الإمام عليه السلام لأصحاب النجاشي: «**فهل هو إلاّ رجلٌ مـن المسلميـن انتهك حرمة من حُـرَم الله فأقمنا عليه حدّاً كان كفّارته**»[1]. أقمنا عليه الحدّ فسقط عنه ذنبه.

---

(1) بحار الانوار، ج33، ص273.

وكان هناك رجلٌ من قبيلة بني أسد ـ كان من أقارب أمير المؤمنين عليه السلام ـ وجب عليه حدٌّ من الحدود. فقال نفرٌ من محبّي أمير المؤمنين عليه السلام ومن رجال قبيلة ذلك الشخص: لنذهب إلى أمير المؤمنين عليه السلام ونُعالج المشكلة بنحوٍ من الأنحاء. فجاؤوا أوّلًا إلى الإمام الحسن المجتبى عليه السلام [1] ليكون واسطتهم لدى أبيه، فقال الإمام الحسن: لا ضرورة لمجيئي، اذهبوا أنتم، فوالدي أمير المؤمنين يعرفكم. فجاؤوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام وقالوا: هذه هي حالنا فساعدنا. فقال الإمام عليه السلام في معرض إجابتهم لا مانع لديّ في أيّ أمر أكون فيه حرًّا مختارًا، وسأفعله لكم، ففرح هؤلاء وخرجوا، وفي الطّريق صادفوا الإمام الحسن عليه السلام فسألهم: ماذا فعلتم؟ قالوا له: انتهى الأمر على خيرٍ والحمد لله، وقد وعدنا أمير المؤمنين عليه السلام. فسألهم: ماذا قال لكم أمير المؤمنين؟ قالوا: قال لنا أفعل لكم ما أكون حرًّا فيه ويعود أمره إليّ. فتبسّم الإمام الحسن عليه السلام وقال: إذًا اذهبوا وافعلوا كلّ ما يجب أن تقوموا به في حال إقامة الحدّ عليه! وأقام أمير المؤمنين عليه السلام الحدّ عليه بعد ذلك. فجاؤوا وقالوا: يا أمير المؤمنين، لمَ أقمت الحدّ على هذا الرجل؟ فقال: ليس الحدّ ممّا أملك أمره وحرّية التصرّف فيه. الحدّ حكمٌ إلهيّ. قلتُ لكم ما أكون حرًّا فيه أفعله لكم[2]. والحدّ ليس في يدي. هذا، وبنو أسد من أصدقاء أمير المؤمنين عليه السلام والمخلصين له. هكذا كانت

(1) وذكرت بعض المصادر أنّهم جاؤوا إلى الإمام الحسين عليه السلام.

(2) نعمان بن محمد المغربي، دعائم الإسلام، تحقيق وتصحيح: آصف الفيضي، نشر مؤسسة آل البيت عليهم السلام، قم، الطبعة الثانية، 1427هـ، ج 2، ص 443.

حياة أمير المؤمنين عليه السلام.

هناك روايات كثيرة عن قضائه وثيابه ومعيشته وأولاده. يقول الرّاوي: ذهبت فشاهدت الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام جالسين يأكلان الطّعام، طعامهما كان خبزًا وخلًّا وبعض الخضار. فقلتُ لهما يا سيّداي أنتما أميران، أنتما العائلة الحاكمة، ابنا أمير المؤمنين وفي السّوق كلّ هذه المأكولات «وفي الرحبة ما فيها»، في الرحبة ـ بقرب الكوفة ـ يُباع كلّ شيء والنّاس تشتري، وأنتما ابنا الأمير عليه السلام، أهذا هو طعامكما؟ فالتفتا إليه وقالا: «**ما أغفلك عن أمير المؤمنين**»[1]، أنت غافل عن أمير المؤمنين، اذهب وانظر إلى حياته! كان الإمام هكذا حتّى مع عائلته.

لقد سمعتم بقصّة زينب الكبرى والاستعارة من أبي رافع؛ وكذلك قصّة عقيل الّذي جاء إلى الإمام وطلب: «صاع من بُرّ»، أي أراد من القمح مقداراً أكثر من حصّته. فأخذ الإمام تلك الحديدة المحمّاة وقرّبها منه ـ بالطّبع لم يضعها عليه ـ وهدّده ولم يقبل طلبه. جاءه عبد الله بن جعفر ـ ابن أخيه وصهره، زوج السيّدة زينب ـ وقال: يا أمير المؤمنين ليس في يدي شيء، وأنا مضطرّ لبيع بعض أدوات منزلي. فساعدني ببعض شيء، فلم يوافق الإمام عليه السلام وقال: إلاّ إذا قلت لي اذهب يا عمّ واسرق واعطني من مال النّاس.

لقد حدّد أمير المؤمنين عليه السلام معيار الحكم في مجتمعٍ متطوّرٍ وكبيرٍ ومتحضّرٍ وثريّ، في زمانه على أساس ما كان في زمن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. كلّ

---

(1) بحار الأنوار، ج 41، ص 113.

شيء كان قد تطوّر. أراد أمير المؤمنين عليه السلام بسلوكه إثبات أنّه بالإمكان إحياء تلك المبادئ حتّى في أحلك الظروف. هذا هو العمل العظيم الّذي قام به أمير المؤمنين عليه السلام. فمبدأ الإيمان، والعدالة، والجهاد، وصناعة النّاس، والإدارة الكفوءة اللائقة المؤمنة - فحياة أمير المؤمنين عليه السلام زاخرة بأحداث وأمور أنتم أيها النّاس وعلى مدى سنوات تسمعون وقد سمعتم من كلّ قسم منها على شكل قصص وروايات وأحاديث له عليه السلام - كلّها دلائل على هذه الحقيقة، وخلاصتها أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أراد أن يُبرهن للعالَم أنّ هذه المبادئ الإسلاميّة ممكنة التّطبيق في كلّ الظروف. وهذا هو الواقع. ليست المبادئ الإسلاميّة في شكل ثياب أمير المؤمنين عليه السلام بحيث إذا كان يرتدي مئزرًا أو قميصًا علينا اليوم ارتداء نفس الملابس. المبادئ الإسلاميّة هي العدالة، والتوحيد، وإنصاف النّاس، واحترام حقوقهم، ومتابعة شؤون الضعفاء، والوقوف بوجه الجبهات المعادية للإسلام والدين، والإصرار على ركائز الحقّ والإسلام والدّفاع عن الحقّ والحقيقة. هذه مفاهيم ممكنة التطبيق في جميع العصور.

بالطبع، نحن عندما نذكر هذا الكلام اليوم، فإنّنا نأتي به من مكانٍ رفيع، فمن ذا الّذي بوسعه حتّى أن يتصوّر التشبّه بأمير المؤمنين عليه السلام؟ كلّا، لا أحد يمكنه التشبّه بأمير المؤمنين عليه السلام. الإمام السجّاد عليه السلام وهو حفيد أمير المؤمنين عليه السلام وله مقام العصمة، حين قيل له إنّك كثير العبادة قال أين عبادتنا من عبادة عليّ عليه السلام؟ أي إنّ الإمام العابد السجّاد يقول ليس بالإمكان مقارنتي بعليّ عليه السلام. وبين الإمام السجّاد عليه السلام وخيرة العُبّاد والزهّاد في زماننا آلاف الفراسخ. أشار

أميـر المؤمنين عليه السلام إلى النّموذج والقمّة واتّجاه الحركة وحدّد الملاك، فلنصل أينما استطعنا الوصول. النّظام الإسلاميّ نظام العدل والإنصاف وخدمة النّاس واحترام حقوق الإنسان ومجابهة الظّلم الّذي يُمارسه القويّ ضـدّ الضعيف. هـذه هي مشـكلات البشريّة المهمّة على امتـداد التاريخ. ابتُليـت البشريّة بهـذه المشكلات دائمًـا وما تزال تُعاني مـن هذا البلاء. لاحظـوا اليوم كيف يدّعي العتـاة والأقوياء فـي العالـم أنّ العالم كلّه لهم. تُعانــي الشّعـوب الضّعفات وضنـك العيش بسبب هذا التعسّـف. إنّ منطق الإسـلام ومنطق أمير المؤمنين عليه السلام ومنطـق الحكومة العلويّة مجابهة هـذه الأشياء، سواء داخل المجتمـع إذا أراد قويٌّ ابتـلاع ضعيف، أم على المستوى العالميّ والدوليّ.

(2004/11/05)

القدرة والمظلوميّة والنصر

لقـد التأمت في شخصيّة وحياة وشهادة هذا الرّجل الفذّ ثلاثة عناصر تبـدو غير منسجمة تمامًـا مع بعضها البعض في الظاهـر، وتلك العناصر الثلاثة عبارة عن: القوّة، والمظلومية، والانتصار.

فقوّته تكمن في إرادته الصّلبة وعزمه الراسخ، وفي تسيير دفّة الشّؤون العسكريّـة في أعقـد المواقف، وفي هدايـة العقول نحو أسمـى المفاهيم الإسلاميّـة والإنسانيّـة، وتربية وإعـداد شخصيّات كبرى مـن قبيل مالك الأشتـر وعمّار وابن عباس ومحمّد بـن أبي بكر وغيرهم، وشقّ مسار مميّز فـي تاريخ الإنسانيّة. ويتمثّـل مظهر قوّته في اقتداره المنطقيّ واقتداره في ميادين الفكـر والسياسـة، وفي اقتدار حكومتـه وشدّة ساعـده. ليس ثمّة ضعف فـي شخصيّة أميـر المؤمنين عليه السلام فـي أيّ جانب مـن جوانبها. ويُعتبـر في الوقت ذاته من أبـرز الشّخصيّات المظلومة فـي التّاريخ. وقد كانت مظلوميّته في كلّ جوانب حياته؛ لقد ظُلم في أيّام شبابه، حيث تعرّض للظّلـم حينذاك من بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وظُلِـم في سنوات كهولته وفي عهد خلافته واستُشهد مظلومًا، وظلّ من بعد استشهاده يُسبّ على المنابر

على مدى سنوات طوال، وتُنسب إليه شتّى الأكاذيب.

لدينـا في جميع الآثار الإسلاميّـة شخصيّتان أطلقت عليهما صفة «ثار اللّه». ولا توجـد في اللغـة الفارسية كلمـة معادلة تمامًا لكلمـة «الثأر» كما في اللغـة العربية؛ فعندما يُقتل شخص ظلمًـا فأسرته هي وليّ دمه، وهذا ما يُسمّـى بالثـأر، ولأسرته حقّ المطالبـة بثأره. أمّا مـا يُسمّى بـ «دم اللّه» فهـو تعبيرٌ قاصر وناقص لكلمـة الثأر ولا يوصل المعنـى المطلوب. فالثّأر معنـاه حقّ المطالبة بالدّم. فـإذا كان لأسرة ما ثأر، فلها حقّ المطالبة به. وورد فـي التّاريـخ الإسلاميّ اسما شخصيّتين، ولـيّ دمهما اللّه، فهو الّذي يطلـب بثأرهمـا، أحدهمـا الإمام الحسيـن عليه السلام، والآخر هـو أبوه أمير المؤمنيـن عليه السلام: «**يـا ثار اللّه وابن ثـاره**»[1]، أي أنّ المطالب بدم أبيه هو اللّه تعالى أيضًا.

أمّـا العنصر الثالث الّـذي طبع حياة الإمام علـيّ عليه السلام فهو النّصر؛ حيـث تغلّـب في حياته علـى جميع التّجـارب العصيبة الّتـي فُرضت عليه؛ ولـم تستطـع جميع الجبهـات، الّتي سنذكرهـا لاحقًا، والّتـي فتحها ضدّه أعـداؤه أن تنال منـه وإنّما هُزِمت كلّها أمامه. ومـن بعد استشهاده أخذت حقيقتـه الناصعة تتجلّى وتتفتّح يومًا بعد آخر أكثر ممّا كانت عليه في أيّام حياتـه. ففي عالم اليـوم، ليس العالـم الإسلاميّ وحده وإنّمـا العالم كلّه، هنـاك أناس كثيرون لا يؤمنون حتّـى بالإسلام، إلا أنّهـم يؤمنون بعليّ بن أبي طالب عليه السلام كشخصيّـة تاريخيّة لامعة. وهذا هو جلاء ذلك الجوهر

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 4، ص 576.

الوهّـاج، وكأنّ الله يُكافئـه على ما لحق به من ظلم. فـلا بدّ أنّ يكون لتلك المظلوميّـة ولذلك الكبـت والضّغط والتعتيم ولتلـك الحقيقة السّاطعة مع تلـك التّهم العجيبة، التي واجهها بالصّبر، ثواب عند الله. وثوابها هو أنّك لا تجـد على مدى التاريـخ شخصيّة، على هذه الدرجة من التألّق وقد نالت القبـول بكلّ هذا الإجماع. ولعـلّ أفضل الكتب الّتي سُطّرت حتّى اليوم بحقّ أميـر المؤمنين عليه السلام، وأكثرها ولهًا وحبًّا، هـي تلك الّتي كتبها أشخاص غير مسلمين. وفي ذهني أسماء ثلاثة كتّاب مسيحيّين كتبوا بوَلهٍ حول أمير المؤمنيـن عليه السلام كتبًا جديرة بالثناء حقًّا. وكان هـذا الحبّ قد نشأ منذ اليـوم الأوّل؛ أي من بعد استشهاده، حيـث تكالب الجميع على الإساءة إليه والانتقاص منـه ـ من الطّغمـة الّتي كانت تحكم الشام ومـن كان يدور في فلكها، وممّن امتلأ غيظًا من سيف أمير المؤمنين ومن عدله ـ فكانت هذه القضيّة واضحة منذ ذلك الوقت. وأنا أذكر ها هنا مثالًا واحدًا على ذلك:

انتقـص ابن عبـد الله بن عروة بن الزبيـر من أميـر المؤمنين عليه السّلام ذات يوم، أمام أبيه عبد الله بن عروة بن الزبير. وكان آل الزبير كلّهـم ضـدّ عليّ، إلا واحدًا منهم وهو مصعب بـن الزبير الّذي كان رجلًا شجاعًـا وكريمًا، وهو الّذي دخل لاحقًا في صـراعٍ مع المختار الثقفيّ في الكوفـة، ومـن بعده مع عبـد الملك بن مـروان، وهو زوج سكينـة، أي إنّه أوّل صهـر للإمام الحسين عليه السلام، فـكان آل الزبير كلّهم خصومًا لأمير المؤمنيـن عليه السلام أبًا عن جدّ، باستثنائه هو. وهذا ما يدركه الإنسان من خـلال دراسته للتاريخ. وبعدما سمع عبد الله ذلـك الانتقاص على لسان ابنه قال جملة ليست حيادية كثيرًا، إلا أنهّا تنطوي على نقطة مهمّة وهي:

«والله يا بُنيّ، ما بنى النّاس شيئًا قطّ إلّا هدمه الدّين، ولا بنى الدّين شيئًا فاستطاعت الدنيا هدمه». أي إنّهم يحاولون عبثًا هدم اسم أمير المؤمنين عليه السلام القائم اسمه على أساس الدّين والإيمان، **«ألم ترَ إلى عليّ كيف تُظهر بنو مروان من عيبه وذمّه؟ والله لكأنّهم يأخذون بناصيته رفعًا إلى السّماء. وأما ترى ما يندبون به موتاهم من التّأبين والمديح؟ والله لكأنّما يكشفون به عن الجيف»**[1]. لعلّ هذه الكلمة قيلت بعد نحو ثلاثين سنة من شهادة أمير المؤمنين عليه السلام، أي إنّه عليه السلام وعلى الرغم من فداحة الظّلم الّذي نزل به، أضحى هو المنتصر في حياته وفي التاريخ وفي ذاكرة الإنسانيّة.

ويمكن تلخيص قضية قوّة أمير المؤمنين إلى جانب مظلوميّته الّتي انتهت إلى هذا الحال في ما يلي:

القاسطون

لقد اصطفّت ضدّ عليّ عليه السلام في أيّام حكومته الّتي استمرّت أقلّ من خمس سنوات، ثلاثة تيارات هي: القاسطون، والناكثون، والمارقون؛ إذ ينقل عنه عليه السلام السنّة والشّيعة أنّه قال: **«أُمرت أن أُقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين»**[2]. وهذه التسمية هو الّذي أطلقها على تلك الفئات الثلاث؛ فالقاسطون بمعنى الظّالمين، لأنّه عندما يأتي الفعل قسط مجرّدًا: قَسَطَ يقسِط، بمعنى جار يجور، وظلم يظلم. وحينما يأتي على صيغة الثّلاثيّ المزيد على وزن أفعل: أقسط يُقسط، فمعناه العدل

(1) راجع: بحار الأنوار، ج39، ص 314.

(2) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 44، ص 36.

والإنصـاف. وعلى هذا، إذا استعمُلـت كلمة القسط على وزن إفعال، تعني العـدل، وإذا جـاءت علـى صيغة قَسَـطَ يقسِط فهي على عكس ذلك؛ أي بمعنـى الظّلم والجور. فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ سمّاهم الظّالمين. ولكن من هم أولئك القاسطـون؟ القاسطون فئة دخلت الإسـلام ظاهريًّا لمصالحها الخاصّة ولم تكـن تعترف بالحكومة العلويّـة أساسًا. ولم تُجـدِ كلّ الأساليب، الّتي انتهجهـا معها أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ ، نفعًا. والتفّت تلك الفئة حول محور بنـي أميّـة الّـذي كان معاوية بن أبـي سفيان ـ والـي الشام آنـذاك ـ أبرز شخصيّـة فيه، ثمّ يأتي مـن بعده مروان بن الحكم والوليد بن عقبة. شكّل هـذا المحور جبهـة رفضت التّفاهم والاتّفاق مـع أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ . ومـع أنّ المغيـرة بـن شعبة وعبـد اللّه بن عبّـاس وغيرهما أشـاروا على أميـر المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ منـذ أوّل حكومتـه بالإبقاء عليهم فـي مناصبهم لبعـض الوقـت، غير أنّه أبى عليهم ذلك، فذهبت بهـم الأوهام إلى أنّه لم يُحسـن اتّخاذ الموقف السياسـيّ المناسب. ولكنّهم هـم الّذين كانوا في غفلـةٍ كما برهنت عليه الأحداث اللاحقة؛ فمعاوية لم يكن يأتلف مع أمير المؤميـن عَلَيْهِ السَّلَامُ رغم كلّ ما كان يفعله عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ولم يكن يقبل به رغم كلّ الأساليـب الّتي اتّبعها عَلَيْهِ السَّلَامُ لأجل هذه الغايـة. ولم يكن ذلك النّهج ممّا ترتضيه حكومة كالحكومة العلويّة، على الرغم من تحمّل السّابقين لبعض هؤلاء.

كان هنـاك أقلّ من ثلاثين سنة ما بين إسلام معاوية وهبوبه لمحاربة أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ . فكان هو وأذنابه قد حكموا الشّام لسنواتٍ طوال وبسطوا نفوذهم فيها وأسّسوا لهم قاعدة واسعة هنـاك. ولم تكن الأحوال

آنـذاك كمـا كانت عليه في الأيّام الأولى الّتـي كان بالإمكان أن يُقال لهم فيهـا - إذا مـا أظهروا الخلاف - إنّكم دخلتم الإسـلام توًّا، ولا يحقّ لكم الخـلاف. فهـم كانوا قد ثبّتوا لهـم قدمًا عنـد ذاك. إذًا كان هذا التيّار يرفض الحكومة العلويّة جملةً وتفصيلًا، ويرنو إلى نمطٍ آخر من الحكم يكـون زمامـه بيده، وهو ما ثبـت عنهم فيما بعـد وذاق العالم الإسلاميّ مـرارة حكمهـم. فهـذا معاوية نفسـه، الّـذي كان في عهـد صراعه مع أميـر المؤمنين عليه السلام يُظهر الودّ والمحبّة لبعض الصّحابة، قد أبدت حكومتـه فيما بعد أسلوبًا في غاية العنف والشـدّة حتّى انتهى بها الحال إلـى عهد يزيد وواقعة كربـلاء، ومن بعده إلى زمن مـروان وعبد الملك والحجّـاج بن يوسف الثقفـيّ ويوسف بن عمر الثقفـيّ الّذين يُعدّون من جملـة نتائج تلك الحكومة وثمارهـا. ومعنى هذا أنّ الحكومات الّتي يهتزّ التّاريـخ لذكر جرائمها - كحكومة الحجّاج على سبيل المثال - كان معاوية هـو الّذي أرسـى أسسها وحاربه أمير المؤمنيـن عليه السلام من أجلها. فقد كانـت غايتهم معروفة منذ البداية، إذ إنّهـم كانوا يبتغون حكومة دنيويّة محضة تـدور في فلك ذواتهم ومصالحهم الذاتيـة؛ وهي المظاهر الّتي شاهدها الجميع في حكومة بني أميّة.

ولا نـودّ الدخـول هنا فـي أيّ بحـث عقائـديّ أو كلاميّ. والأمـور الّتي نعرضهـا هي من صلب التاريخ، وليس تاريخ الشّيعة طبعًا، وإنّما تاريخ ابن الأثيـر وابن قتيبة وما شابه ذلك. وهـي نصوص مدوّنة ومحفوظة، وتدخل فـي عداد الحقائـق المسلّم بها وليس فـي إطار الاختلافـات الفكريّة بين الشّيعة والسنّة.

النّاكثون

الجبهـة الثّانية الّتي حاربت أمير المؤمنين عليه السلام هي جبهة الناكثين. والناكث هـو الناقض، والمـراد به هنا ناقض البيعة. وهـذه الفئة بايعت أميـر المؤمنين عليه السلام في البداية إلا أنّها نقضت البيعة فيما بعد ونكثتها. وكان أفـراد هذه الفئة ـ على العكس من الفئـة الأولى ـ مسلمين ملتزمين، وفـي الخنـدق الموالـي. إلا أنّ ولاءهـم واعترافهـم بحكومة علـيّ بن أبي طالـب عليه السلام كان منوطًا بإعطائهـم حصّة مقبولة فيهـا والتّشاور معهم ومنحهـم المناصـب والمسؤوليّـات الحكوميّـة مع عـدم التعرّض لما في أيديهـم من ثـروات وعدم السّؤال عـن مصادرها. ويُمكـن ملاحظة مدى ضخامـة الثروات الّتي خلّفها أمثال هؤلاء بعد موتهم. إذًا، كانت هذه الفئة ترتضـي حكم أمير المؤمنين عليه السلام ولكن بشرط عدم المساس بمثل هذه الأمور، وأن لا يُقال لأحدهم من أين لك هذه الثّروة؟ وكيف حصلت عليها؟ ومـا إلى ذلـك. ولهذا السّبب بايع أكثرهم منذ البدايـة، في حين أنّ بعضًا آخـر لـم يُبايع؛ فسعد بـن أبي وقّاص لـم يُبايع منذ البدايـة، إلّا أنّ طلحة والزبيـر وأكابر الصّحابة وغيرهم بايعوا أميـر المؤمنين عليه السلام وأسلموا لـه القيـادة، بيد أنّهم أدركوا بعد مضيّ ثلاثة أو أربعـة أشهر عدم إمكانيّة الانسجـام مع هذه الحكومة الّتـي لا تُفرّق في تعاملها بين القريب والبعيد، ولا ترى لذاتها ولا لأفراد أُسرها أيّ امتياز، ولا تقرّ بأيّ امتياز للسّابقين في الإسلام – وإن كان أمير المؤمنين عليه السلام نفسه أوّلهم إسلامًا ـ ولا تُحابي أحـدًا في تطبيق الأحكام الإلهيّة. ولهذه الأسباب جنّدوا أنفسهم لمعارضة هـذه الحكومـة وتسبّبوا في وقوع معركة الجمل الّتـي كانت فتنة حقًّا، وقُتل

في هذه المعركة عـددٌ كبيرٌ من المسلمين، وانتهت المعركة بانتصار أمير المؤمنين عليه السلام وإعادة الأمور إلى نصابها. وهذه هي الجبهة الثانية الّتي شغلت أمير المؤمنين عليه السلام ردحًا من الزمن.

المارقون

أمـا الجبهـة الثالثة فكانت جبهـة المارقين، والمـارق بمعنى الخارج والهارب. وقيل إنّهم سمّوا بالمارقين لخروجهم من الدين كخروج السّهم من القوس. وكانت هذه الفئة متمسّكة بظواهر الدين، ويُكثرون من التبجّح باسـم الدين. وهـؤلاء هم الخـوارج الّذين وضعوا أسسهـم الفكريّة على أساس فهم مغلوط للدين - وهي ظاهرة خطيرة طبعًا - ولم يأخذوا الدّين عن عليّ بـن أبي طالب عليه السلام الّذي كان مفسّرًا للقرآن وعالمًا بالكتاب. أمّـا تكتّلهم أو ما يُسمّى بالاصطـلاح المعاصر «**تحزّبهم**» فكان يستلزم سياسـة معيّنة، وكانت هذه السّياسة توجّه من مكانٍ آخر. والسّمة البارزة الّتـي كانـت تُميّز أعضـاء هذه الفئة هي أنّـك لا تكاد تتلفّـظ بكلمة حتّى يُسـارع أحدهم إلى الإتيان بآية من القرآن، وكانوا كثيرًا ما يقرؤون أثناء صـلاةِ جماعةِ أمير المؤمنين عليه السلام آيـات معرّضين به، أو يقومون عند منبـره ويقرؤون آية فيها تعريض يقصدونه بهـا، وكان شعارهم «لا حكم إلّا للّه»، بمعنـى أنّنـا لا نعترف بحكومتك، ونحن أتبـاع حكومة اللّه! هذه الفئـة، الّتي كان ظاهر أمرها على هـذه الشّاكلة، كان تنظيمها واتّجاهها السياسـيّ يجري وفقًـا لآراء وتوجيهات كبـار القاسطيـن والشّخصيّات البـارزة فـي حكومة الشّام - أي عمرو بن العاص ومعاوية - إذ كانت لهذه

الفئـة علاقات بأولئـك الأشخاص؛ فالأشعث بن قيـس، كما يشير الكثير مـن القرائن. كان رجلًا غيـر نزيه. واتّبعت هذه الفئـة طائفة كبيرة من البسطـاء فكريًّا. إذًا، الفئة الثالثة الّتـي جابهت أمير المؤمنين عليه السلام ـ وانتصـر عليهـا طبعًا ـ هي فئة المارقين الّتي وجّـه لها ضربة قاصمة في معركـة النّهروان. ولكن كان لهم وجود فـي المجتمع، وفي ختام المطاف كان استشهاده على أيديهم.

ينبغي أن لا يُشتبه في فهم الخوارج، فهنالك من يصف الخوارج بالتحجّر والتنسّـك الجامد، ولكن المتنسّك يتّصف بالعزلـة والانطواء على صلاته ودعائه، وهذا المعنى لا يصدق على الخوارج، لأنّ الخوارج عناصر متمرّدة تُثيـر الأزمات، ولها وجود فاعل في السّاحة، وتشنّ حربًا ضدّ عليّ عليه السلام ، ولكن أساس عملها خاطئ، وحربها خاطئـة، وأساليبها مرفوضة، وغايتها باطلة. هذه هي الفئات الثّلاث الّتي جابهت أمير المؤمنين.

الفرق بين حكومة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وحكومة علي عليه السلام

الفـارق الأساس بين أمير المؤمنين عليه السلام فـي عهد حكومته، وبين رسـول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في أيّـام حياته وعهد حكومته هـو أنّ الخنادق في عهد الرسـول كانت مشخّصة ومشخّصة تمامًا؛ خندق الإيمان وخندق الكفر؛ أمّـا المنافقون فكثيرًا ما كانت الآيات القرآنية تُشير إليهم وتُحذّر منهم وتُقـوّي صفوف المؤمنين في مواجهتهم وتُضعف من شوكتهم؛ أي إنّ كلّ شيء كان فـي النّظام الإسلاميّ في عهد الرسول واضحًا تمام الوضوح، وكانـت الصفـوف مفـروزة فـرزًا جليًّـا؛ فطائفة كانـت علـى الجاهليّة

والكفر والطاغوت، وأخرى كانت على الإيمان والإسلام والتوحيد؛ ومن الطّبيعيّ أنّ كلّ واحدة من هاتين الطائفتين كانت تضمّ صنوفًا شتّى من النّاس، لكن الصفوف كانت مشخّصة وواضحة كلّ الوضوح. أمّا في عهد أمير المؤمنين عليه السلام فكانت المشكلة الكبيرة في تداخل الصفوف والخنادق؛ وهذا هو السّبب الّذي جعل للفئة الثانية ـ أي النّاكثين ـ وضعًا مقبولًا ومبرّرًا. وكان كلّ مسلم يتردّد كثيرًا في محاربة شخصيّات من أمثال طلحة أو الزبير؛ فالزبير هو ابن عمّة الرّسول وكان من الشخصيّات البارزة والمقرّبة إليه، حتّى أنّه كان ممّن اعترضوا على السّقيفة دفاعًا عن أمير المؤمنين عليه السلام بعد عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولكن الأمور بخواتيمها. نسأل الله أن يجعل عاقبتنا إلى خير. فقد يؤثّر حبّ الدّنيا ومظاهر الحياة في بعض النّاس إلى درجة تجعل المرء يشكّ حتّى في الخواصّ، فما بالك بالعوام. وعلى كلّ الأحوال، كانت الظروف آنذاك عصيبة حقًّا.

ولا بدّ أنّ النّاس الّذين صمدوا مع أمير المؤمنين عليه السلام وحاربوا إلى جانبه كانوا على قدرٍ كبير من البصيرة. والشاهد على هذا قول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا يحمل هذا العلم إلّا أهل البصر والصّبر**»[1]. فلا بدّ من توفّر البصيرة بالدّرجة الأولى. ويُستدّل من هذه التّداخلات على طبيعة المشاكل الّتي واجهت أمير المؤمنين عليه السلام، وعلى الأساليب الملتوية الّتي اتّبعها النّاس الّذين حاربوه. ففي صدر

(1) نهج البلاغة، ص 248.

الإسـلام، كان هناك أفكار خاطئة كثيرة تُطرح في السّاحة، ولكن كانت تنـزل آية قرآنية وتفنّدها بصراحـة؛ سواء عندما كان النبيّ في مكّة أم فـي المدينـة؛ فسورة البقرة – علـى سبيل المثال – وهـي سورة مدنية، عندمـا ينظر المرء فيها يراها حافلة بصور من التحدّيات والاشتباكات بيـن الرسـول ﷺ والمنافقيـن واليهود، حتّـى أنّها تناولـت التفاصيل الجزئيّـة واستعرضـت الأساليـب الّتـي كان يتّبعهـا يهـود المدينة في إيـذاء الرسول ﷺ نفسيًّا، ومنهـا ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾[1] وما شابه ذلـك. وجاءت أيضًا سورة الأعراف، وهـي سورة مكّية، زاخرة بمحاربة الخُرافـات وكُرّس فصلٌ منها للحديث عن تحريم وتحليل أنواع اللحوم، فـي مقابـل التّحليل والتّحريم الزائـف الّذي اصطنعـه النّاس لأنفسهم يومـذاك: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[2]. هـذه هـي المحرّمـات الحقيقيـة وليسـت تلك الّتـي اصطنعتموها أنتـم لأنفسكم مـن أمثال البحيرة والسّائبة وما شـاكل ذلك. وكان القرآن يحارب هذه الأفـكار صراحةً. أمّا في عهد أميـر المؤمنين عليه السلام، فقد كان أعداؤه يستغلّـون تلـك الآيات القرآنيـة. وهذا مـا صعّب كثيرًا مـن مهمّة أمير المؤمنيـن عليه السلام. لقد قضى عليه السلام مدّة خلافتـه القصيرة في أمثال هذه المصاعب والمعضلات.

---

(1) سورة البقرة، الآية 104.

(2) سورة الأعراف، الآية 33.

وفـي مقابل هـؤلاء كانت جبهة علـيّ نفسه، وهي جبهـة قوية حقًّا، وفيهـا رجـال كعمّار ومالـك الأشتر وعبـد الله بن عباس ومحمّد بن أبـي بكر وميثم التمّـار وحُجر بن عديّ، كانـوا شخصيّات مؤمنة ذوي بصيـرة ووعي، وكان لهـم دورٌ مؤثّر في توعية النّاس الآخرين. فكان مـن جملة المواقف الجميلة في عهد أميـر المؤمنين – ويُعزى جمالها طبعًـا إلى الجهود الطيّبة لهـؤلاء الأكابر، إلا أنّها في الوقت ذاته كانت مريـرة بسبب ما لحقهـم من جرّائها من عناءٍ وعـذاب ـ هو مسيرهم نحو الكوفة والبصرة من بعد ما هبّ طلحة والزّبير وغيرهما واستولوا علـى البصـرة وأرادوا المسيـر منهـا نحو الكوفـة، حيث أرسـل أمير المؤمنين عليه السلام الإمام الحسن عليه السلام وبعض هؤلاء الأصحاب، وكان لهم مـع النّاس في المسجد مـداولات وأحاديث ومحاجّـات تُعتبر من المواقف المثيرة وذات مغـزًى عميق في تاريخ الإسلام. ولهذا السبب يُلاحـظ أنّ الهجمـات الأساس لأعداء أميـر المؤمنين عليه السلام وُجّهت صوب هذه الشّخصيّات، ضدّ مالك الأشتر، وضدّ عمّار بن ياسر، وضدّ محمّد بن أبي بكر، وضدّ كلّ من وقف إلى جانب أمير المؤمنين عليه السلام منـذ البداية وأثبتـوا صلابة إيمانهـم وسلامة بصيرتهـم. ولم يتورّع الأعـداء عن كيـل أنواع التّهـم لهم والسّعـي لاغتيالهـم. ولهذا قضى أكثرهـم شهداء؛ فاستشهد عمّار في الحرب، واستشهد محمّد بن أبي بكـر بتحايـل أهل الشام، وكـذا استشهد مالك الأشتـر بحيلةٍ من أهل الشام.

وبقي البعض الآخر، ولكنّهم عادوا واستشهدوا على نحوٍ قاسٍ وفجيع.

هـذه هي الظروف الّتـي عاشها أمير المؤمنيـن عَلَيْهِ السَّلَامُ في حياته وفي عهـد حكومته. ولو أردنا الخـروج بنتيجة مختصرة عنها لقلنـا إنّها كانت حكومـة قويّة ولكنّها في الوقت ذاته مظلومة ومنتصرة؛ بمعنى أنّه استطاع قهـر أعدائه في أيّام حياته، واستطاع من بعد استشهاده مظلومًا أن يتحوّل إلـى شعلـةٍ وهّاجة على مدى تاريخ الإنسانيّة. ولا شـكّ في أنّ المرارة الّتي ذاقهـا أميـر المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ خلال هـذه الفترة تُعتبر مـن أشدّ وأصعب المحن في التاريخ.

(1999/01/08)

الفصل الرابع:

السيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام

- المكانة المعنوية للزهراء عليها السلام .
- حياتها عليها السلام الجهادية والسّياسيّة.
- حياتها عليها السلام العلميّة والعباديّة.

المكانة المعنوية للزهراء عليها السلام

الصابرة الممتحنة

لا تنحصر فيوضات السيّدة فاطمة الزّهراء عليها السلام لمجموعة صغيرةٍ تُعدّ جماعةً محدودة من مجموع العائلة البشريّة. فلو أنّنا نظرنا بنظرةٍ واقعيّة ومنطقيّة، فإنّ البشريّة مرهونة لفاطمة الزّهراء عليها السلام، وهذا ليس جزافًا؛ إنّها حقيقة، مثلما أنّ البشريّة مرهونة للإسلام والقرآن ولتعاليم الأنبياء عليهم السلام والنبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم. لقد كان الأمر كذلك دومًا وعلى مرّ التّاريخ وهو اليوم كذلك؛ فإنّ نور الإسلام ومعنويّات فاطمة الزّهراء عليها السلام يومًا بعد يوم سيصبحان أكثر نصوعًا، وسوف تتلمّس البشريّة ذلك. ما لدينا من تكليف ووظيفة في هذا المجال، هو أن نجعل أنفسنا لائقين للانتساب إلى هذه العترة. وبالطّبع، فإنّ الانتساب لعترة الرسالة وأن نكون من جملة التّابعين لهم والمعروفين بولايتهم أمرٌ صعبٌ؛ حيث نقرأ في الزيارة إنّنا أصبحنا معروفين بمحبّتكم وولايتكم، وهذا ما يُلقي على كاهلنا تكليفًا مضاعفًا.

إنّ هذا الخير الكثيـر الّذي أعطاه اللّه تعالى في سورة الكوثر المباركة كبشارةٍ للنّبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾[1]، تأويله هو فاطمة الزّهراء عليها السلام، في الحقيقة هو مجمع جميع الخيرات الّذي سوف ينـزل يومًا بعد يوم من منبع الدّين النبويّ على كلّ البشريّة والخلائق. لقد سعـى الكثيرون من أجل إخفائـه وإنكاره ولكنّهم لم يتمكّنوا ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[2].

يجـب علينا أن نُقـرّب أنفسنا إلى مركز النّور هـذا، وإنّ لازم وخاصّيّة هـذا التقرّب هو التنـوّر. يجب علينا أن نُصبـح نورانيّين من خلال العمل، لا بواسطـة المحبّـة الفارغة، العمل الّـذي تُمليه علينا هـذه المحبّة وتلك الولايـة وذاك الإيمـان ويطلبـه منّا؛ بهـذا العمل يجـب أن نُصبح من هذه العتـرة والمتعلّقين بها. ليس من السهل أبدًا أن يصير المرء قنبرًا في بيت عليّ عليه السلام، ليس من السهل أن يصبح الإنسان «**سلمان منّا أهل البيت**»[3]. نحن مجتمع الموالين وشيعة أهل البيت عليهم السلام نتوقّع من هؤلاء العظماء أن يعتبرونا منهم ومن حاشيتهم. «فلانٌ من ساكني تربة عتباتنا»، قلوبنا تريد أن يحكم علينا أهل البيت بهذه الطّريقة وهذا الأمر ليس سهلًا ولا يحصل بمجرّد الادّعاء. إنّ هذا يستلزم العمل والإيثار والتشبّه والتخلّق بأخلاقهم.

انظـروا إلـى هـذه السّيّـدة الجليلة فـي أيّ سنٍّ حـازت علـى كلّ هذه الفضائـل! وفي أيّ عمرٍ بـرزت فيها كلّ هذه التألّقات! فـي عمرٍ قصير لم

(1) سورة الكوثر، الآية 1.

(2) سورة الصف، الآية 8.

(3) بحار الأنوار، ج10، ص 123.

يتجاوز 18 سنة، 20 سنة، 25 سنة بحسب اختلاف الرّوايات. وكلّ هذه الفضائل لا تحصل عبثًا، «**امتحنك الله الّذي خلقك قبل أن يخلقك، فوجدك لما امتحنك صابرة**»[1]، فإنّ اللّه تعالى قد امتحن زهراء الطّهر، وهي المصطفاة من عباده. إنّ النّظام الإلهيّ هو نظامٌ يعتمد على الحساب والكتاب، وما يمنحنا إيّاه إنّما يكون محسوبًا بدقّة. إنّه يعدّ كلّ هذا الإيثار والمعرفة والتّضحية الخاصّة (وهي من عبيده الخواص)، في سبيل الأهداف الإلهيّة، لذلك جعلها مركز فيوضاته.

(1370/10/05)

نور فاطمة

في روايةٍ، إنّ سطوع نور فاطمة الزّهراء عليها السلام أدّى إلى أن تنبهر عيون الكروبيّين من الملأ الأعلى، «**زهر نورها لملائكة السّماء**»[2]. فماذا نستفيد نحن من هذا النّور والسّطوع؟ يجب علينا الاهتداء بهذا النّجم السّاطع إلى اللّه وإلى طريق العبوديّة الّذي هو الصّراط المستقيم، الّذي سلكته فاطمة الزّهراء عليها السلام، فوصلت إلى تلك المدارج والمقامات العالية. فإن جعل اللّه طينتها طينةً متعالية، فلأنّه كان يعلم أنّها تخرج مرفوعة الرّأس من الامتحان في عالم المادّة والنّاسوت «**امتحنك الله الذي خلقك قبل أن يخلقك فوجدك لما امتحنك صابرة**»[3]، هذه هي

(1) بحار الأنوار، ج97، ص 194.

(2) م.ن، ج43، ص 172.

(3) بحار الأنوار، ج97، ص 194.

القضيّـة. فاللّه تعالى إذ تلطّـف بلطفه الخاصّ على تلـك الطّينة، فجانبٌ مـن القضيّة هـو أنّه يعلم بأنّها تخـرج مرفوعة الرأس مـن الامتحان، وإلا فـإنّ الكثيرين كان لديهـم طينة طيّبة، لكن هل تمكّـن الجميع من الصّبر علـى الامتحان؟ هـذا جانبٌ من حيـاة الزّهراء عليها السلام الّتـي نحتاج إليها لنجـاة أنفسنـا، فالحديـث ورد مـن طريـق الشّيعـة أنّ النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم قـال لفاطمـة عليها السلام: «**يا فاطمة اعملـي فإنّي لا أغني عنك من الله شيئًا**»[1]، أي يجب عليك أن تُفكّري وتهتمّي بنفسك، فكانت تهتمّ بنفسها منذ صغرها وإلى نهاية عمرها القصير.

كيف كانت حياتها؟ كانت إلى ما قبل الزّواج، عندما كانت ما زالت فتاة كانت تعامل أباها، الذي كان بهذه العظمة، بحيث راحت تُكنّى بـ «**أمّ أبيها**»[2]؛ في الوقت الذي كان نبيّ الرّحمة والنّور ومؤسّس الحضارة الحديثة والقائد العظيم للثّورة الخالـدة يرفع راية الإسلام. ولم تُكنَّ بـ «**أمَ أبيها**» اعتباطًا، فقـد كانت الزّهراء إلى جانب أبيها، تزيل بيديها الصّغيرتين غبار الحزن والغمّ عن وجه رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، سواء في مكّة أم في شُعب أبي طالب مع كلّ شدائدهما، أم عندما بقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحيدًا مكسور القلب بوقوع حادثتين في فترة قصيـرة، هما وفاة خديجة عليها السلام ووفاة أبي طالب عليه السلام حيث أحسّ النبيّ بالغربة. هذا هو منشأ كنيتها بـ «**أمّ أبيها**»[3].

---

(1) شرح نهج البلاغة، ج18، ص134.

(2) بحار الأنوار، ج43، ص 19.

(3) (م.ن).

لقد كانت السيّدة الزّهراء عليها السلام في سنّ السادسة أو السّابعة ـ حيث يوجد روايات مختلفة بشأن تاريخ ولادتها ـ عندما حدثت مسألة شُعب أبي طالب. لقد شكّلت شعب أبي طالب مرحلة صعبة جدًّا في تاريخ صدر الإسلام؛ أي إنّ دعوة النبيّ كانت قد بدأت وصارت علانيّةً، وبالتدريج بدأ أهل مكّة ـ وخصوصًا الشباب، وبالأخص العبيد ـ يقبلون ويؤمنون به، ورأى صناديد قريش كأبي لهب وأبي جهل وغيرهما أنّه لا بدّ من إخراج النبيّ وكلّ من كان معه من مكّة، وهذا ما فعلوه. فأخرجوا عددًا كبيرًا منهم وقد بلغوا عشرات الأُسر بما في ذلك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأسرته وأبو طالب نفسه، مع أنّ أبا طالب كان يُعدّ من الوجهاء الكبار. فخرجوا من مكّة ولكن إلى أين يذهبون؟ صادف أن كان لأبي طالب مُلكٌ في بقعة قريبة من مكّة ـ لعلّها كانت تبعد عدّة كيلومترات ـ وكانت في شعاب جبل يُدعى شُعب أبي طالب. فقال لهم أبو طالب فلنذهب إلى هذه الشّعب. فكِّروا في هذا الأمر! كانت النّهارات في مكّة شديدة الحرارة، والليالي في غاية البرودة، أي إنّ الوضع لم يكن قابلًا للتحمّل. لقد عاشوا في هذه الشّعب مدّة ثلاث سنوات. فكم تحمّلوا من جوعٍ وصعابٍ ومحنٍ، الله وحده يعلم. فأحد المراحل الصّعبة في حياة النبيّ كانت هناك. ولم تكن مسؤولية النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في هذه المرحلة منحصرة في القيادة بمعنى إدارة مجموعة، بل كان عليه أن يتمكّن من الدفاع عن عمله أمام هؤلاء الّذين كانوا واقعين في المحنة.

ومن المعلوم أنّه عندما تكون الأوضاع جيّدة، فإنّ الذين يكونون مجتمعين حول القيادة، يكونون جميعهم راضين عن الأوضاع ويقولون:

رحـم اللّه أبـاه، فقد أوصلنـا إلى هذا الوضـع الجيّد. ولكـن عندما تسوء الأحـوال، فـإنّ الجميع يُصابون بالحيـرة والتردّد، ويقولـون: إنّه هو الّذي أوصلنا إلى هذا الوضع السيّئ! ولم نكن نريد أن نصل إلى مثل هذا الوضع! وبالطبـع، فإنّ أصحـاب الإيمان القويّ يصمدون؛ ولكن فـي النّهاية إنّ كلّ الصّعـاب كانت تنهال علـى الرّسول. وفي هذه الأثنـاء، وعندما كان النبيّ يُقاسـي أشدّ أنواع المحنة، توفّي كلٌّ من أبي طالب الّذي كان الدّاعم للنبيّ وأملـه، والسيّـدة خديجة الكبرى الّتـي كانت تُعدّ أكبر عـونٍ روحيّ له، في ظـرف أسبوعٍ واحد! فكانت حادثة عجيبة جـدًّا، أي أنّ النبيّ أصبح بعدها وحيدًا فريدًا.

إنّ مَـن يترأس مجموعـة معيّنة، يعلم مـا معنى مسؤوليّـة المجموعة. ففـي مثل هـذه الظّروف يصبح الإنسـان متحيّرًا. انظـروا إلى دور فاطمة الزّهراء عليها السلام في مثل هذه الظّروف. عندما يتأمّل الإنسان في التّاريخ، ينبغـي أن يجـد مثل هـذه الموارد في الزّوايـا المختلفـة، وللأسف لم يتم فتـح أيّ فصل لأيّ من هذه الأمور. لقـد كانت فاطمة الزّهراء عليها السلام كأمٍّ ومشاورٍ وممرّضة بالنسبة للنبيّ. هنـاك قيل «فاطمة أمّ أبيها». إنّ هذا الأمر مربـوط بذاك الوقت، أي عندما كان للابنة من العمر ستّ أو سبع سنوات. وبالطبع، في البيئة العربية وفي البيئات الحارّة، تنمو البنات بصورةٍ أسرع مـن النـاحيتين الجسديّة والرّوحيّة، أي بمعدّل فتاة بعمر العاشرة أو الثانية عشـرة في أيامنـا هذه. وهذا ما يـؤدّي إلى الشعـور بالمسؤوليّة. ألا يمكن أن يُشـكّل ذلك قدوةً لأيّ فتاة، كي تشعر باكـرًا بالمسؤوليّة والنشاط تجاه القضايـا التي تدور من حولها؟ إنّ هذا الرأسمال العظيم للنشاط الموجود

فيها، كانت تنفقه من أجل أن تزيل غبار التكدّر والغمّ عن وجه أبٍ لعلّه قد مرّ على عمره أكثر من 50 سنة وقد قارب سنّ الهرم. ألا يُمكن أن يكون هذا بالنسبة للفتاة نموذجًا وقدوةً؟ هذا مهمٌّ جداً.

(1998/04/27)

في ذاك الوقت، وفي مثل هذا العالم، ربّى النبيّ الأكرم بنتًا صارت لائقةً لأن يأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويُقبّل يدها! إنّ تقبيل يد فاطمة الزّهراء عليها السلام، من قبل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لا ينبغي أن يؤخذ أبدًا على معنىً عاطفيّ. فإنّ هذا أمرٌ خاطئٌ جدًّا وحقيرٌ جدًّا فيما لو تصوّرنا بأنّه يُقبّل يدها فقط لأنّها ابنته ولأنّه يُحبّها. فهل يُمكن لشخصيةٍ بمثل هذه العظمة، وبمثل تلك العدالة والحكمة، الّتي كانت في النبيّ، يعتمد على الوحي والإلهام الإلهيّ أن ينحني ليُقبّل يد ابنته؟ كلّا، إنّ هذا أمرٌ آخر وله معنىً آخر. إنّه يحكي عن أنّ هذه الفتاة وهذه المرأة عندما ترحل من هذه الدنيا في عمر 18 أو 25 ـ قيل 18 وقيل 25 ـ تكون في أوج الملكوت الإنسانيّ وشخصًا استثنائيًّا. هذه هي نظرة الإسلام إلى المرأة.

(1991/12/25)

أمّا المقام المعنويّ لهذه السيّدة العظيمة، بالنسبة لمقامها الجهاديّ والثوريّ والاجتماعيّ، فهو أعلى بدرجات. ففاطمة الزّهراء عليها السلام هي في الظاهر بصورة بشر، وامرأة، وامرأة شابّة أيضًا؛ ولكنّها في المعنى هي حقيقةٌ عظيمة ونورٌ إلهيٌّ ساطع وعبدٌ صالح وإنسانٌ مميّز ومصطفى. هي شخصٌ قال فيه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لأمير المؤمنين عليه السلام: «**يا عليّ أنت إمام أمّتي وخليفتي عليها بعدي، وأنت قائد المؤمنين إلى الجنّة،**

وكأنّي أنظر إلى ابنتي فاطمة قد أقبلت يوم القيامة على نجيبٍ من نور عن يمينها سبعون ألف ملك، وعن يسارها سبعون ألف ملك، وبين يديها سبعون ألف ملك، وخلفها سبعون ألف ملك تقود مؤمنات أمّتي إلى الجنّة»[1]، أي أنّه يوم القيامة يقود أمير المؤمنين عليه السلام الرجال المؤمنين، وتقود فاطمة الزّهراء عليها السلام النساء المؤمنات إلى الجنّة الإلهيّة. فهي عِدل أمير المؤمنين عليه السلام. هي الّتي إذا وقفت في محراب العبادة فإنّ آلاف الملائكة المقرّبين للّه يُخاطبونها ويُسلّمون عليها ويُهنّئونها ويقولون لها ما كانوا يقولون في السّابق لمريم الطّاهرة عليها السلام: «**يا فاطمة إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين**»[2]، هذا هو المقام المعنويّ لفاطمة الزّهراء عليها السلام.

امرأةٌ، في سنّ الشباب، وصلت بلحاظ المقام المعنويّ، ووفق ما نُقل في الروايات، إلى حيث تُحدّثها الملائكة وتظهر لها الحقائق. «المحدَّثة» أي من تُحدّثها الملائكة وتتكلّم معها. وهذا المقام المعنويّ والميدان الوسيع والقمّة الرّفيعة هي في مقابل جميع نساء عالم الخلقة. إنّ فاطمة الزّهراء عليها السلام في قمّة هذا العلوّ العظيم تقف وتُخاطب كلّ نساء العالم، وتدعوهنّ لطيّ هذا الطّريق. هؤلاء الّذين كانوا عبر التاريخ. سواء في الجاهليّة القديمة أم في جاهليّة القرن العشرين. قد سعوا لتحقير المرأة وجعلها متعلّقة بهذه الزّخارف والزّينة الظّاهريّة ولا همّ لها سوى

---

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 43، ص 24.

(2) م.ن.

الموضـة واللباس والزّينة والذّهب والزّخـارف، ولا همّ لها سوى أن تقضي هـذه الحيـاة في لهـوٍ وعبث، وقد تحرّكوا مـن أجل ذلـك، إنّ منطقهم هو منطـق يشبـه الثلـج والجليد مقابل حـرّ شمس المقـام المعنـويّ لفاطمة الزّهـراء عليها السلام، سيذوب وينعدم. يُعـرّف الإسلام فاطمة ـ هذا العنصر المميّـز والملكوتيّ الممتـاز ـ بعنوان الأنمـوذج والأسوة للنسـاء. وهو تلك الحياة الظّاهريّة والجهاد والعلم والبيان والتّضحية وحسن التبعّل والأمومة والزّوجيـة والهجـرة والحضور في جميـع الميادين السّياسيّـة والعسكريّة والثورية، والتفوّق في جميع الجوانب بحيث يخضع لها كلّ الرّجال العظماء، بل هذا أيضًا المقـام المعنويّ والركوع والسجود ومحراب العبادة والدعاء والصحيفـة والتضـرّع والذّات الملكوتيـة وتألّق العنصـر المعنويّ وكذلك عِـدْل ووزان أمير المؤمنين عليه السلام والنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. هذه هي المرأة، وهذا هو نموذج المرأة الذي يريد أن يصنعه الإسلام.

(1368/10/26)

حياتها عليها السلام الجهاديّة والسّياسيّة

توجد نقطةٌ في حياة الزّهراء المطهّرة عليها السلام يجب الالتفات إليها. بالطّبع، فإنّنا لن ندخل في بيان المقامات المعنويّة لهذه السّيّدة الجليلة، فضلًا عن أنّنا لسنا قادرين على إدراك هذه المقامات وفهمها. وفي الحقيقة، اللّه تعالى وحده يعرف أمثال هؤلاء العباد الذين يكونون في أوج قمّة المعنويّة الإنسانيّة والتّكامل البشريّ. وأولئك الذين يكونون على طرازهم ـ ويرى مقامهم. لهذا لم يكن هناك من يعرف فاطمة الزّهراء عليها السلام سوى أمير المؤمنين عليه السلام وأبيها صلى الله عليه وآله وسلم وأولادها المعصومين عليهم السلام. فلا يمكننا نحن في هذا الزّمن ـ ولا للنّاس الذين كانوا في ذاك الزّمان والأزمنة التي تلته ـ أن نُشخّص ذلك التألّق والتلألؤ المعنويّ الّذي كان موجوداً فيها. فلا يمكن لنور المعنويات السّاطع أن يصل إلى عيون جميع الأشخاص، وتعجز عيوننا الضّعيفة والقاصرة عن أن ترى تجلّي الإنسانيّة السّاطع الّذي كان موجودًا في هؤلاء العظماء. لهذا، لن ندخل في مجال تعريف الجانب المعنويّ لفاطمة الزّهراء عليها السلام. لكن توجد نقطة مهمّة في حياتها اليوميّة وهي الجمع بين حياة امرأة مسلمة

في سلوكها مع زوجها وأبنائها وقيامها بمسؤوليّاتها في البيت من جهة؛ وبين مسؤوليّات الإنسان المجاهد الغيور الّذي لا يعرف التّعب في التّعامل مع الأحداث السّياسيّة المهمّة بعد رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم؛ حيث جاءت إلى المسجد وخطبت واتّخذت المواقف ودافعت وتحدّثت وكانت من جهاتٍ أخرى مجاهدة بكلّ ما للكلمة من معنىً؛ لا تعرف التّعب وتتقبّل المحنة والصّعاب. ومن جهةٍ ثالثة، فقد كانت عابدة ومقيمة للصّلاة في الليالي الحالكة وتقوم للّه خاضعةً خاشعة له، وفي محراب العبادة كانت هذه المرأة الصبيّة كالأولياء الإلهيّين تناجي ربّها وتعبده.

إنّ هذه الأبعاد الثلاثة مجتمعةً تُمثّل النقطة الساطعة لحياة فاطمة الزّهراء عليها السلام. فإنّها لم تكن تفصل بين هذه الجهات الثلاث. يتصوّر بعض النّاس أنّ الإنسان عندما يكون مشغولاً بالعبادة، وهو من أهل الذّكر، لا يُمكنه أن يكون سياسيًّا، أو يتصوّر البعض الآخر أنّ أهل السياسة، سواء من الرجال أو النساء، إذا كانوا حاضرين في ميدان الجهاد في سبيل اللّه بفاعليّة؛ فإذا كنّ من النساء، لا يُمكنهنّ أن يكنّ ربّات منزل يؤدّين وظائف الأمومة والزوجيّة والخدمة، وإذا كان رجلاً لا يُمكنه أن يكون ربّ منزل وصاحب دكّان وحياة؛ إنّهم يتصوّرون أنّ هذه تتنافى فيما بينها وتتعارض في حين أنّ هذه الأمور الثلاثة لا تتنافى مع بعضها البعض ولا توجد ضدّية بينها من وجهة نظر الإسلام. ففي شخصيّة الإنسان الكامل تكون هذه الأمور معينة لبعضها البعض.

(1368/09/22)

تُعتبر شخصيّة الزّهراء المطهّرة عليها السلام في الأبعاد السّياسيّة والاجتماعيّة والجهاديّة شخصية مميزة بحيث إنّ جميع النّساء المجاهدات والثوريّات والمميّزات والسياسيّات في العالم يُمكنهنّ أن يأخذن الدروس والعبر من حياتها القصيرة والمليئة بالمحتوى والمضمون. امرأةٌ وُلدت في بيت الثورة، وأمضت كلّ طفولتها في حضن أبٍ كان في حالة مستمرّة من الجهاد العالميّ العظيم الّذي لا يُنسى؛ تلك السيّدة الّتي كانت في مرحلة طفولتها تتجرّع مرارات الجهاد في مكّة، وعندما حوصرت في شعب أبي طالب، لمست الجوع والصعاب والرّعب وكلّ أنواع وأصناف الشّدائد في مكّة، وبعد أن هاجرت إلى المدينة أضحت زوجة رجلٍ كانت كلّ حياته جهادًا في سبيل الله؛ فلم تمرّ سنة أو نصف سنة على هذا الزّوج لم يكن فيها في جهادٍ في سبيل الله أو لم يذهب فيها إلى ميدان المعركة، طيلة المدّة التي عاشتها فاطمة الزّهراء عليها السلام مع أمير المؤمنين عليه السلام ، والتي قاربت الإحدى عشرة سنة. وكانت هذه المرأة العظيمة والمضحّية زوجةً لائقةً لرجلٍ مجاهدٍ وجنديّ وقائد دائم في ميدان الحرب. فحياة فاطمة الزّهراء عليها السلام ، وإن كانت قصيرة ولم تبلغ أكثر من عشرين سنة، لكنّها من جهة الجهاد والنّضال والسّعي والصّبر الثوريّان والدّرس والتّعليم والتعلّم والخطابة والدّفاع عن النبوّة والإمامة والنّظام الإسلاميّ كانت بحرًا مترام من السّعي والجهاد والعمل وفي النّهاية الشهادة. هذه هي الحياة الجهاديّة لفاطمة الزّهراء عليها السلام الّتي هي عظيمة جداً واستثنائية وفي الحقيقة لا نظير لها، ويقيناً ستبقى في أذهان البشر - سواء اليوم أم في المستقبل - نقطةً ساطعةً واستثنائية.

(1990/01/16)

حياتها عليها السلام العلميّة والعباديّة

وفي أجواء العلم، كانت فاطمة الزّهراء عليها السلام عالمةً عظيمة؛ فتلك الخطبة الّتي ألقتها في مسجد المدينة بعد رحيل النبيّ، هي خطبة، بحسب كلام العلّامة المجلسيّ، يحتاج فطاحل الفصحاء والبلغاء والعلماء أن يجلسوا ليفسّروا معاني كلماتها وعباراتها، لقد كانت بمثل هذا العمق؛ وبلحاظ جمالية الفنّ فهي مثل أجمل وأرقى كلمات نهج البلاغة. تذهب فاطمة الزّهراء عليها السلام إلى مسجد المدينة وتقف أمام النّاس وترتجل، ولعلّها تتحدّث لمدّة ساعة بأعذب وأجمل العبارات وأكثرها بلاغةً.

(1992/12/16)

فأمثالنا نحن الّذين نُعدّ من أهل الخطابة والكلام الارتجاليّ نفهم كم أنّ هذه الخطبة عظيمة. فتاة ابنة 18 أو 20 سنة وفي الحدّ الأكثر 24 سنة - فالسنّ الدّقيق لحضرة الزّهراء عليها السلام غير مسلّم - ومع كلّ تلك المصائب والصّعاب أتت إلى المسجد وخاطبت الجمع الغفير من وراء حجاب، بحيث بقيت كلمات هذه الخطبة، كلمة كلمة في التاريخ.

كان العرب معروفين بقوّة حافظتهم. فكان يأتي شخصٌ وينشد قصيدة مـن 80 بيتًا وبعـد أن ينتهي يقـوم 10 أشخاص ويكتبون هـذه القصيدة؛ فهذه القصائـد الّتي بقيت إلى يومنا هذا، في الأغلب هكذا حُفظت. كانت الأشعـار تُتلى وتُحفظ في الأندية ــ أي في تلك المراكز الاجتماعيّة. وهذه الخطـب وهذه الأحاديث كانـت (تُحفظ) بهذه الكيفيّـة أيضًا. لقد جلسوا وكتبوا وحفظـوا وبقيت هذه الخطب إلى يومنا هـذا. أمّا الكلمات الجوفاء فلا تبقى في التاريخ، فليس كلّ كلام يُحفظ، فلقد قيل الكثير الكثير، وأُلقي الكثيـر مـن الخطب والكثير مـن الأشعار ولكن لم تبقَ كلّهـا، ولم يعتنِ بها أحدٌ. كلّما نظر الإنسان إلى ذاك الشّيء الّذي حفظه التاريخ في قلبه، وبعد مرور 1400 سنة، يشعر بالخضوع، وهذا إنّما يدلّ على هذه العظمة. برأيي إنّ هذا يُعدّ بالنسبة للفتاة الشابّة قدوة.

(1998/04/27)

كانت حياة فاطمة الزّهراء عليها السلام في جميع الأبعاد، حياةً مليئة بالعمل والسّعي والتّكامل والسموّ الرّوحيّ للإنسان. وكان زوجها الشابّ في الجبهة وميادين الحرب دائمًا، وكانت مشاكل المحيـط والحياة قد جعلت فاطمة الزّهراء عليها السلام كمركزٍ لمراجعات النّاس والمسلمين. إنّها ابنة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم المفرّجـة للهمـوم، وقد صارت في حياتها في تلك الظّـروف بمنتهى العزّة والسمـوّ، وقامت بتربية أولادهـا الحسن والحسين وزينـب، وإعانة زوجها علـيّ عليه السلام، وكسـب رضـا أب كالنبيّ. وعندمـا بدأت مرحلـة الفتوحات والغنائم لم تأخذ بنت النبيّ ذرّة من لذائذ الدنيا وزخرفها ومظاهر الزينة والأمور الّتي تميل لها قلوب الشابّات والنّساء.

وكانت عبادة فاطمة الزّهراء عليها السلام عبادةً نموذجيّة. يقول الحسن البصريّ، الّذي كان أحد العبّاد والزهّاد المشهورين في العالم الإسلاميّ، بشأن فاطمة الزّهراء عليها السلام: إنّ بنت النبيّ عبدت الله ووقفت في محراب العبادة حتى تورّمت قدماها[1]. ويقول الإمام الحسن المجتبى عليه السلام إنّ أمّه وقفت تعبد الله في إحدى الليالي ـ ليلة الجمعة ـ «**حتى انفجر عمود الصبح**». ويقول الإمام الحسن عليه السلام إنّه كان يسمعها تدعو دائمًا للمؤمنين والمؤمنات وللنّاس، وتدعو لقضايا العالم الإسلاميّ العامّة، وعند الصّباح قال لها: «**يا أمّاه لما لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟ فقالت: يا بنيّ الجار ثمّ الدار**»[2]. هذه هي الرّوحيّة العظيمة. إنّ جهاد تلك المكرّمة في الميادين المختلفة هو جهاد نموذجيّ في الدفاع عن الإسلام، وفي الدّفاع عن الإمامة والولاية، وفي الدّفاع عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وفي حفظ أكبر القادة الإسلاميّين وهو أمير المؤمنين عليه السلام زوجها. وقد قال عليّ عليه السلام مرّة بشأن فاطمة الزّهراء عليها السلام: «**لا أغضبتني ولا عصت لي أمراً**»[3]. ومع تلك العظمة والجلالة، فإنّها كانت زوجة في بيتها، وامرأة بالنّحو الذي يقول عنه الإسلام.

تلك كانت عبادتها وفصاحتها وبلاغتها وحكمتها وعلمها ومعرفتها وجهادها وسلوكها كابنة وزوجة وأمّ؛ وكان إحسانها إلى الفقراء بحيث عندما أرسل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رجلًا عجوزًا فقيرًا إلى بيت أمير المؤمنين عليه السلام

(1) المناقب، ج3، ص 341.

(2) بحار الأنوار، ج86، ص 313.

(3) م.ن، ج43، ص 134.

وقـال له أن يطلب حاجته منهـم، أعطته فاطمة الزّهراء عليها السلام جلدًا كان ينام عليه الحسن والحسين عليهما السلام حيث لم يكن عندها شيءٌ غيره، وقالت له أن يأخذه ويبيعه ويستفيد من ثمنه. هذه هي الشّخصيّة الجامعة لفاطمة الزّهراء عليها السلام. إنّها أسوة للمرأة المسلمة.

إنّ علـى المرأة المسلمـة أن تسعى في طريق الحكمة والعلم وفي طريق بنـاء الـذّات معنويًّـا وأخلاقيًّـا وأن تكون فـي الطّليعة في ميـدان الجهاد والكفـاح، وأن لا تهتـمّ بزخارف الدّنيـا ومظاهرها الرّخيصـة، وأن تكون عفّتها وعصمتها وطهارتها بحيث تدفع بذاتها عين ونظرة الأجنبيّ المريبة تلقائيًّـا، وفي البيت سكينة للـزّوج والأولاد وراحة للحيـاة الزوجيّة، وتُربّي في حضنها الحنـون والرّؤوف وبكلماتها اللطيفـة والحنونة أولادًا مهذّبين بـلا عُقـد، وذوي روحيّـة حسنة وسليمـة، وتُربّـي رجال المجتمـع ونساءه وشخصيّاته. إنّ الأم أفضل من يبني، فقد يصنع أكبر العلماء آلة إلكترونية معقّـدة جدًّا مثـلًا، أو يصنعون أجهـزة للصّعود إلى الفضـاء، أو صواريخ عابـرة للقارّات، ولكن كلّ هذا لا يُعادل أهميّة بناء إنسانٍ سامٍ، وهو عمل لا يتمكّن منه إلا الأم، وهذه هي أسوة المرأة المسلمة.

(1992/02/16)

الفصل الخامس:

الإمام الحسن المجتبى عليه السلام

- أعظم هدنة في التاريخ.
- صراع الحق والباطل.

أعظم هدنة في التاريخ

الظّروف التّاريخيّة للصّلح

كان عهـد الإمـام المجتبى عليه السلام وواقعة صلحه مـع معاوية ـ ما سُمّي بالصّلـح ـ حدثـاً مصيريّاً وفريداً على امتداد مسيـر الثورة الإسلاميّة في العهد الأوّل. فليس لدينـا نظير لهذه الحادثة. وهنا أُقدّم إيضاحًا مقتضبًا لهذه العبارة ثمّ أدخل إلى أصل المطلب.

إنّ ثورة الإسلام أي الفكر الإسلاميّ والأمانة الّتي تحمل عنوان الإسلام والّتـي أرسلها اللّه سبحانه إلى العالمين، كانت في عهدها الأوّل عبارة عن نهضـة واحـدة وتحرّكٍ واحد، جاء فـي إطار حركة جهاديّـة ونهضة ثوريّة عملاقـة. ومـا إن أعلن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عن هذا الفكـر في مكّة حتّى حشد أعداء الفكر التّوحيديّ وأعداء الإسلام صفوفهم للوقوف بوجهه والحيلولة دون أن يشـقّ هذا الفكر طريقه، فعمد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى تنظيم هذه النهضة بتعبئـة قواه مـن العناصر المؤمنة صانعًا ملحمـةً جهاديّةً في غاية الفطنة والقوّة والتقدّم داخل مكّة استمرّت إحدى عشرة سنة، فكانت تلك المرحلة الأولى.

وبعد ثلاث عشرة سنة، ومن خلال تعاليم النّبيّ ﷺ، والشّعارات الّتي رفعها والتّنظيم الّذي اعتمده والتّضحيات الّتي بُذلت ومجموع العوامل التي توفّرت، تحوّل هذا الفكر إلى حكومة ونظام؛ وتبدّل إلى نظامٍ سياسيّ وحياتيّ لأمّة بأكملها؛ وكان ذلك عندما قدم النبيّ ﷺ إلى المدينة وجعل منها قاعدة له وبسط فيها الحكومة الإسلاميّة، فتحوّل الإسلام من نهضة إلى حكومة، وهذه هي المرحلة الثّانية.

استمرّت هذه المسيرة على مدى عشر سنوات من حياة النبيّ الأكرم ﷺ، والفترة الّتي تلتها من عهد الخلفاء الأربعة، ومن ثمّ إلى زمان الإمام المجتبى عليه الصّلاة والسّلام، وخلافته الّتي استمرّت ما يناهز ستّة أشهر؛ برز خلالها الإسلام على شكل حكومة. وكان كلّ شيء يتّخذ هيئة النّظام الاجتماعيّ؛ أي الحكومة والجيش والعمل السياسيّ والثقافيّ والقضائيّ وتنظيم العلاقات الاقتصادية للأمّة؛ وكان قابلًا للاتّساع؛ ولو قُدّر له أن يمضي قُدُمًا على هذا النّحو لكان قد عمّ المعمورة بأكملها، أي لكان الإسلام أثبت أنّ لديه هذه القابليّة.

لقد تنامى التيّار المعارض في زمن الإمام الحسن عليه السلام إلى أن استطاع أن يبرز كواحدٍ من العراقيل. بالطبّع، إنّ هذا التيّار المعارض لم يظهر إلى الوجود في عهد الإمام المجتبى عليه السلام، بل في السّنوات التي سبقته. فلو أراد شخصٌ أن يبتعد قليلًا عن الجوانب العقائدية ويعتمد فقط على الشّواهد التاريخيّة، لعلّه يستطيع الادّعاء أنّ هذا التيّار لم يظهر إلى الوجود حتّى في العهد الإسلاميّ، وإنّما كان استمرارًا لما شهدته مرحلة نهضة النبيّ ﷺ، أي مرحلة مكّة. بعد ذلك، وصلت

الخلافة في عهد عثمان –الّذي كان من بني أميّة ـ إلى أيدي هؤلاء القوم؛ وأبـو سفيان – الـذي كان أعمى يومها – كان يجلس بعيـدًا مع أصدقائه. فسـأل: من هم الحاضرون في الجلسة؟ فجاءه الرّد: فلانٌ وفلانٌ وفلان، فلمّـا اطمأنّ بأنّ الحاضريـن جميعهم من قومه، ولا يوجد شخصٌ غريب بينهـم؛ خاطبهم قائـلاً: «تلقّفوها تلقّـف الكـرة»[1]، أي تناولوا الحكومة كتناول الكرة ولا تدعوها تفلـت منكم. وقد تناقلت تواريخ الشّيعة والسنّة هـذه الحادثة. فهذه ليسـت مسألة عقائديّة، ونحـن لا نتناولها وفق رؤية عقائديّـة، ولا أُحبّذ أن أتناولها من خلال هذه الرؤية، بل إنّني أُثيرها من بعدها التاريخيّ فقط.

بالطّبـع، كان أبو سفيان في ذلك الوقت مسلمًا وقد أسلم؛ غاية الأمر، كان إسلام ما بعد الفتح أو على شرُف الفتح، عندما لم يكن الإسلام يعيش زمن الغربـة والضّعف، فكان إسلامه بعد بلوغ الإسلام أوج قدرته. لقد بلغ هذا التيّـار ذروته في عهد الإمام الحسـن المجتبى عليه السلام وبرز متجسّدًا بمعاويـة بن أبي سفيـان وهو يقف بوجه الإمـام الحسن المجتبى عليه السلام. فباشـر هذا التيّار معارضته سـادًّا الطّريق بوجه الحكومة الإسلاميّة – أي الإسـلام بطابعه الحكومـيّ – مفتعلًا المشاكل حتّى تحـوّل إلى عائق أمام تقدّم تيّار الحكومة الإسلاميّة عمليًّا.

لقد ذكرنا مرارًا فيمـا يتعلّق بصلح الإمام الحسن عليه السلام، وما نصّت عليـه المصنّفات والكتب أيضًا، عدم قدرة من كان في نفس موقف الإمام

(1) بحار الأنوار، ج 31، ص 197.

الحسن المجتبى عليه السلام وفي مثل ظروفه، إلّا أن يقوم بمثل ما قام به الإمام الحسن عليه السلام ، بما في ذلك أمير المؤمنين عليه السلام نفسه؛ ولا يستطيع أحدٌ أن يقول إنّ الجانب الفلانيّ من عمل الإمام عليه السلام هو مثارٌ للتّشكيك. كلّا، ففعله عليه السلام كان مطابقًا للاستدلال المنطقيّ الّذي لا يقبل التخلّف.

من هو الأكثر ثوريّة من بين آل رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ؟ ومن الّذي فاقهم في اصطباغ حياته بصبغة الشّهادة وفاقهم حميّةً للمحافظة على الدّين ومواجهة العدوّ؟ إنّه الحسين بن عليّ عليه السلام ، وهو عليه السلام قد شارك الإمام الحسن عليه السلام في هذا الصّلح، فلم يعقد الإمام الحسن الصّلح وحده بل عقداه معًا، غاية الأمر أنّ الإمام الحسن عليه السلام كان المتقدّم يتبعه الإمام الحسين في ذلك. كان الإمام الحسين عليه السلام أحد الذائدين عن مبدأ صلح الإمام الحسن عليه السلام . وعندما بدر اعتراضٌ من أحد الأنصار المقرّبين ــ من هؤلاء المتحمّسين الثائرين ـ على ما فعله الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ، ردّ عليه الإمام الحسين عليه السلام ، «وغمز الحسين حجراً»[1]، وليس هنالك من يقول: لو كان الإمام الحسين مكان الإمام الحسن لما وقّع الصّلح، كلا، فلقد كان الإمام الحسين إلى جانب الإمام الحسن ووقّع الصلح، ولو لم يكن الإمام الحسن عليه السلام وكان الإمام الحسين عليه السلام وحيدًا في تلك الظّروف لحدث ما حدث ووقع الصلح.

(1) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج 16، ص 15.

ضرورة الهدنة والصّلح

لقد كانت للصّلح عوامله، ولم يكن بالإمكان تفاديه، فلا مناص منه. يومها لم تكن فكرة شهادة الإمام أمرًا ممكنًا. ويثبت المرحوم الشّيخ راضي آل ياسين، رضوان الله تعالى عليه، في كتابه «صلح الحسن»، تعذّر الشّهادة إذ ذاك ـ وقد ترجمت هذا الكتاب قبل عشرين عاماً وجرى طبعه ـ فليس كلّ قتلٍ شهادة، بل الشّهادة قتلٌ بشروط، ولم تكن تلك الشّروط متوفّرة حينها. ولو قُدّر للإمام الحسن عليه السلام القتل يومذاك لما مات شهيدًا، فقد كان متعذّرًا على أيّ أحد القيام بتحرّكٍ مضمون المصلحة في تلك الظّروف فيُقتل شهيدًا إلّا أن ينتحر.

لقد تحدّثنا عن الصّلح بأبعاده المختلفة. والقضيّة الّتي تبلورت الآن هي أنّ الأمر جرى تنظيمه بعد صلح الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بذكاءٍ وحنكة بنحوٍ لا يدخل فيه الإسلام والنّهضة الإسلاميّة في نفق الخلافة بما تحمله من مواصفات الملكيّة، وهذا كان فنّ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام. فقد قام هذا الإمام بعملٍ جعل تيّار الإسلام الأصيل ـ الذي كان قد انطلق من مكّة ووصل إلى الحكومة الإسلاميّة وإلى زمن أمير المؤمنين، وإلى زمنه هو ـ يسير في مجرًى آخر، غاية الأمر، أنّه وإن لم يكن على شكل حكومة، لأنّ ذلك لم يكن ممكنًا، فعلى الأقل جرى مرّة أخرى على شكل نهضة. كانت هذه المرحلة الثالثة للإسلام. مرّةٌ أخرى، نهض الإسلام؛ الإسلام الأصيل، الإسلام المقارع للظلم، الإسلام الّذي لا يداهن، الإسلام البعيد عن التحريف والمنزّه من التحوّل إلى ألعوبة تتقاذفها الأهواء والنزوات. لقد بقي؛ ولكن بقي على شكل نهضة. أي أنّه في زمن الإمام الحسن عليه الصّلاة

والسلام، فإنّ الفكّر الثوريّ الإسلاميّ الذي كان قد طوى مرحلة ووصل إلى السّلطة والحكومة، عاد مرّةً أخرى وتحوّل إلى نهضة. وبالطّبع، كانت هذه المرحلة، مرحلة الثورة، أكثر تعقيدًا بمراتب ممّا كانت عليه في زمن النبيّ ﷺ نفسه، لأنّ الّذين رفعوا الشعارات كانوا ممّن تلبّسوا بزيّ الدّين ولم يكونوا من أهله. وهنا تكمن المشكلة الّتي واجهها أئمّة الهدى عليهم السلام. بالطّبع، من خلال مجمل الآيات وعموم حياة الأئمّة عليهم السلام لقد استنبطُّ ما يلي أنّ هؤلاء العظام عليهم السلام ومنذ صلح الإمام المجتبى عليه السلام وحتى النهاية كانوا دائمًا بصدد إعادة هذه النهضة مجدّدًا لتتّخذ شكل حكومة علويّة وإسلاميّة.ويوجد روايات بهذا الصدد. بالطّبع، يُمكن للبعض الآخر أن لا يرى المسألة على هذا النّحو وأن يراها بنحوٍ آخر، لكنّ تشخيصي هو على هذا الشّكل. كان الأئمّة عليهم السلام يريدون أن يبدّلوا النّهضة مجدّدًا إلى حكومة وتيّارٍ إسلاميٍّ أصيل، وأن يكون هذا التيّار الإسلاميّ بعيدًا عن التلوّن والامتزاج والتلوّث بلوث الأهواء النّفسية، ليمسك بزمام الأمور. بيد أنّ هذا العمل كان عملًا صعبًا.

الغاية من الصلح

إنّ أهم ما كانت الأمّة بحاجة إليه خلال المرحلة الثانية من النهضة - فترة خلافة السفيانيّين والمروانيّين والعبّاسيّين - معرفتها وتشخيصها لمواطن الأصالة في الإسلام ومكامن الانبعاث الّتي ينطوي عليها الإسلام الأصيل والقرآنيّ، من بين طيّات التفسيرات المختلفة والمشتّتة، وأن لا يخلطوا بينها. فهذا التّاكيد في الأديان على التعقّل والتدبّر ليس عبثًا.

وما ورد في القرآن الكريم من حثّ النّاس على التفكّر والتعقّل والتدبّر فيما يتعلّق بأهمّ الموضوعات الدّينيّة وهو التوحيد، ليس لغوًا. فالتوحيد لا ينحصر في قولنا إنّ اللّه موجودٌ، وهو واحدٌ لا اثنين، بل هذه صورة من التوحيد. فحقيقة التوحيد هي أنّه محيطٌ بلا شاطئ يغرق فيه أولياء اللّه، وهو وادٍ عظيم الشّأن؛ لقد طُلب من المؤمنين والمسلمين الموحّدين السّير في هذا الوادي ذي العظمة بتفكّرٍ وتدبّرٍ وتعقّل. وفي الحقيقة، إنّ العقل والتفكّر هما اللذان يستطيعان التقدّم بالإنسان إلى الأمام. وبطبيعة الحال، فإنّ هذا العقل إنّما يتغذّى ويستمدّ من نور الوحي والمعرفة ويستلهم من تعاليم أولياء اللّه على مراحل متعدّدة؛ لكن في النّهاية، إنّ الّذي يتحرّك إلى الأمام هو العقل، ومن دونه لا مجال للحركة أبدًا.

إنّ الشّيء الذي كان يحتاج إليه الشّعب الإسلاميّ، على مرّ القرون الّتي تمّ التسلّط فيها عليه باسم الخلافة - أي حتّى القرن السّابع، فترة الخلافة العبّاسيّة، وبالطبع، بعد انهيار الخلافة العبّاسيّة، كانت تأتي حكومات من هنا وهناك تحكم باسم الخلافة، كزمن المماليك في مصر، وما تلاها كذلك في البلدان العثمانيّة وأماكن أخرى - إنّ ما كان يحتاج إليه هو تحكيم العقل ليعلم ما إذا كانت رؤية الإسلام والقرآن والكتاب الإلهيّ والأحاديث المسلّمة بشأن أولياء الأمور تنطبق مع الواقع المعاش أم لا، إنّ هذا أمر في غاية الأهمية.

لقد تميّزت فترة الخلافة المروانيّة والسّفيانيّة والعبّاسيّة بإفراغ القيم الإسلاميّة من محتواها الحقيقيّ، إذ بقيت منها صورها لكنّ المضامين تبدّلت إلى مضامين جاهليّة وشيطانيّة.

لقـد تحوّل ذلك الجهـاز الّذي كان يريـد تربية وصناعـة أناسٍ عقلاء متعبّديـن مؤمنيـن أحرار بعيدين عن التلوّث، خاضعيـن لله متكبّرين على المتكبّريـن - والـذي كان أفضله الجهـاز الإداريّ الإسلاميّ الذي كان في عهـد النبيّ ﷺ - إلى جهاز يُربّي النّاس ويُعلّمهم أصناف المكر ويجعلهم من أهل الدّنيا والأهواء والشّهـوات والتملّق وبعيدين من المعنويّات؛ أناسًا فارغين، ديدنهم الفسق والفساد.

وللأسـف، كان الوضـع على هـذه الشّاكلـة على امتداد فتـرة الخلافة الأمويّة والعبّاسيّة. لقد سطّروا في كتب التّاريخ أمورًا، لو شئنا التطرّق إليها لطـال بنا المقام. لقد بـدأ الأمر في عهد معاوية، حيـث امتدح المؤرّخون معاوية كثيـرًا بوصفه بالحلم وسعة الصدر وسماحه لمعارضيه بالتفوّه بما شـاؤوا أمامـه. ولعلّه كان كذلك لبرهةٍ من الزّمن وفـي أوائل حكمه. ولكن هنالـك أبعاد أخرى إلى جانب هذا البعد مـن شخصيّته، نادرًا ما تطرّقوا إليـه. فهنـاك الكثيـرون ممّن لم يشيـروا إلى طريقـة استمالتـه للأفراد والأقطـاب والأشراف من الرّجال لكي يتنصّلـوا ممّا يعتقدون ويؤمنون به، بل وتجنيدهم لمواجهة الحقّ. والكثيرون لم يكتبوا مثل هذه الأمور. وهذا - بطبيعة الحال - مدوّن في التّاريخ، وهناك أناسٌ كتبوا ما نعرفه نحن الآن.

إنّ النّاسـ الّذين كانـوا يخضعون لتربية تلك الأجهـزة، كانوا يدرجون على عدم التفوّه بما يُخالف هوى الخليفة ورغبته، فيا له من مجتمع! ويا له مـن إنسان! وأين هي تلك الإرادة الإلهيّـة والإسلاميّة الموجودة في النّاس لإصلاح المفاسد وإزالتهـا وجعل المجتمع مجتمعًا إلهيًّا؟ فهل أنّ مثل هذا الشّيء سيكون ممكنًا؟

يـروي «الجاحظ» أو لعلّه «أبو الفرج الأصفهانـيّ» أنّ معاوية توجّه إبان حكمـه إلى مكّة راكبًا فرسًـا، وكان أحد الوجهاء إلى جانبه يومها، ومعاوية منهمـكٌ في الحديث معه ويتبعهما آخـرون. كان معاوية يُحدّث هذا الرجل متفاخرًا بأمجاده وأمجاد أبيه «أبي سفيان» في الجاهليّة. وكانت مجموعة مـن الأطفال تلهـو في الطّريق، وعلى ما يبدو كانـوا يلعبون بالأحجار. وفي تلك الأثناء أصاب حجرٌ جبهة ذلك الرّجل المرافق لمعاوية فسالت الدّماء منها لكنّه لم ينبس ببنت شفة ولم يقطع على معاوية حديثه، فأخذ يتصبّر بينمـا كانت الدماء تسيل على وجهه ولحيتـه. وفيما كان معاوية يسهب في الحديـث، وإذ بـه يلتفت إلـى صاحبه فيرى الدّماء قـد غطّت وجهه، فقال لـه: إنّ الدماء تسيـل من جبهتك، فأجاب الرجل معاويـة: أدماءٌ تسيل من جبهتي؟! أين ومتى؟ فلشدّة انبهاره بمعاوية، تظاهر بعدم إحساسه بإصابة الحجر وجرحه وسيلان الدّم من جبهته. فقال له معاوية: عجبٌ لك، أصاب الحجـر جبهتـك ولم تشعر بـه! فأجاب: كلّا، لم أشعر بـه، ثمّ ضرب يديه وقال: واه، إنّه دمٌ! ثم أخذ يُقسم بنفس معاوية وبمقدّساته: لو لم تخبرني، لما شعرتُ بجريان الدّماء لِما في كلامك من حلاوة! فسأله معاوية: كم هو عطاؤك من بيت المال؟ فأجابه: كذا ـ على سبيل المثال ـ قال معاوية: لقد ظلمـوك، فلا بدّ أن يُـزاد أضعافًا ثلاثة! هذه هي الثّقافة الّتي كانت سائدة في الجهاز الحكوميّ لمعاوية.

الذين كانوا يُمسكون بزمام الأمور في تلك الفترة هم الأشخاص الذين كانـوا يتزلّفـون للزّعماء والخلفـاء؛ فلم تكـن الأعمال تُقسّم علـى أساس الصّـلاح والكفـاءة؛ وعادة العربـيّ كانت أن يعطـي أهميّة بالغـة للأصل

والنّسب، حيث كان يسأل: ذاك الشّخص من أيّ عشيرة هو؟ ومن هم آباؤه؟ إلّا أنّ هؤلاء حتّى الأصول والأنساب لم يكونوا يراعونها... وفي زمن عبد الملك وبعض أولاده، تمّ تنصيب شخص باسم يوسف بن عمر الثقفيّ واليًا على العراق لمدّةٍ طويلة، وقد بقي حاكمًا وواليًا على العراق لسنوات. وكان معقّدًا وشقيًّا. ومن نافل ما يُنقل عن عقدته أنّه كان قصير القامة، فكان عندما يُعطي قطعة القماش للخيّاط كي يخيطها له، يسأل الخيّاط: هل تكفي هذه القطعة لقامتي؟ فكان الخيّاط ينظر إلى هذه القطعة من القماش، فإذا قال مثلًا إنّها مناسبة لك أيّها الأمير وربّما تزيد، كانوا يأخذون منه ذلك القماش فورًا ويأمرون بمعاقبته. فأدرك الخيّاطون القضيّة، فصاروا عندما يعرض عليهم قطعة القماش ويسألهم ما إذا كانت تكفي لهيكله أم لا، يردّون: كلا، يبدو أنّها لا تكفي ويلزمنا كثير من الجهد لكي نجعلها تتّسق مع بدنك الضّخم. فكان يسرّه ذلك، رُغم علمه بكذب الخيّاط! لقد كان أحمق إلى هذا الحدّ! إنّه ذلك الرجل الّذي قتل زيد بن عليّ عليه السلام في الكوفة. فمثل هذا، تسلّط على نفوس النّاس وأموالهم وأعراضهم لسنوات. فلم يكن يملك لا الأصل ولا النّسب ولا العلم ولا القابليّة، لكن لقربه من قطب السّلطة فقد عُيّن لهذا المنصب؛ وهذا وبال، ومن أعظم الآفات الّتي تفتك بأيّ نظام.

الثّمار العظيمة للصلح

استمرّ هذا التيّار على هذا المنوال، فيما كان يسير إلى جانبه تيّار إسلاميّ أصيل هو إسلام القيم والقرآن الّذي لا يعرف المهادنة مع ذلك التيّار الحاكم المنافي للقيم، ومصداقه البارز أئمّة الهدى عليهم السلام والكثير من المسلمين الموالين لهم. وبفضل وجود الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، فقد حافظ هذا التيّار القيميّ للنهضة الإسلاميّة على الإسلام – فلولا صلح الإمام المجتبى لما كُتب لذلك الإسلام القيميّ النّهضويّ البقاء، ولزال من الوجود، لأنّ الغلبة كانت لتكون في خاتمة المطاف من نصيب معاوية، ولم يكن الوضع بحيث يمكن أن تكون الغلبة للإمام الحسن المجتبى عليه السلام، فقد كانت جميع العوامل تسير بالاتّجاه المعاكس لغلبة الإمام المجتبى عليه السلام؛ ولأن تكون الغلبة لمعاوية وذلك لأنّ الجهاز الإعلاميّ كان طوع يده، ولأنّ شخصيته في العالم الإسلاميّ لم تكن تلك الشّخصيّة الّتي يعجزون عن تبريرها وإبرازها.

ولولا لجوء الإمام الحسن عليه السلام للصلح لكانوا قضوا على وجود آل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم تمامًا، ولما بقي من يحفظ النّظام القيميّ الأصيل للإسلام، ولكان انتهى كلّ شيء، ولامّحى ذكر الإسلام. ولما كان الدّور ليصل لحادثة عاشوراء. فلو كان الإمام المجتبى عليه السلام قد قرّر الاستمرار في الحرب ضدّ معاوية وانتهت (الحرب) باستشهاد آل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، لكان الإمام الحسين عليه السلام قُتل في نفس تلك الحادثة ولحصل نفس الشّيء لكبار الأصحاب، أمثال حجر بن عُديّ، ولكان مات الجميع وما بقي من يستفيد

من الفرصة للمحافظة على الإسلام بإطاره القيمي. فقد كان للإمام المجتبى عليه السلام حقٌّ عظيم على بقاء الإسلام.

(1990/04/11)

بالطّبع، كان الصّلح مفروضًا؛ وقد وقع صلحٌ في النّهاية. ولكن يجب القول بأنّ الإمام لم يكن راغباً به. وتلك الشّروط الّتي أقرّها الإمام، في الواقع، زلزلت أسس عمل معاوية. فالصّلح بذاته وشروط الإمام الحسن عليه السلام، كانت جميعها مكرًا إلهيًّا، ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾[1]، أي لو أنّ الإمام الحسن حارب وقُتل في الحرب - وكان هناك احتمالٌ كبير لأن يُقتل على يد أصحابه أو على يد الجواسيس الّذين اشتراهم معاوية ـ لكان معاوية ليقول أنا لم أقتله بل قتله أصحابه؛ ولعلّه كان سيقيم العزاء عليه أيضًا، ويبيد جميع أصحاب أمير المؤمنين من بعدها، ولما كان بقي هناك أي شيء باسم التشيّع، حتّى تظهر بعد 20 سنة في الكوفة جماعة تدعو الإمام الحسين عليه السلام. فما كان ليبقى أيّ شيء أصلًا. لقد حفظ الإمام الحسن الشّيعة، أي إنّه حفظ البناء حتّى ترجع الحكومة إلى أهل البيت بعد عشرين أو 25 سنة.

(1990/04/11)

(1) سورة آل عمران، الآية 54.

الاعتراض على الصلح

بعد أن صالح الإمام الحسن معاوية، بدأ الجاهلون عديمو الوعي يذمّونه بمختلف العبارات، حتّى كان بعضهم يُسلّم عليه بـ «مذلّ المؤمنين»[1]، ويقولون له إنّك بصلحك هذا قد أذللت المؤمنين المتحمّسين لقتال معاوية واستسلمت لمعاوية، وفي بعض الأحيان كانوا يستخدمون عبارات أكثر احترامًا وأدبًا، إلا أنّ المضمون كان واحدًا. وقد قام الإمام الحسن عليه السلام في مقابل هذه الاعتراضات والملامات بمخاطبتهم بجملة لعلّها هي الأبلغ في كلّ خطبته: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[2]. وهي آيةٌ قرآنية، وكأنّه يريد أن يقول: قد يكون ما جرى فتنة لكم وامتحانًا أو إنّه متاعٌ محدود لمعاوية.

وهذا يدلّ دلالة واضحة على أنّ الإمام كان ينتظر المستقبل، وهذا المستقبل لا يمكن أن يكون سوى أنّ الحكومة الّتي لا يُمكن أن تكون مقبولة بنظر الإمام الحسن عليه السلام والّتي هي على غير الحقّ يجب أن تتنحّى جانبًا وتأتي حكومة وفق رأيه. لهذا، كان يقول لهم إنّكم لستم مطّلعين على فلسفة هذا الأمر. فماذا تعلمون؟ لعلّ هناك مصلحة في هذا الأمر.

جاء اثنان في بداية الصّلح من وجهاء الشّيعة - مُسيّب بن نَجَبة وسليمان بن صُرَد - ومجموعة من المسلمين إلى الإمام المجتبى عليه السلام. وقالوا لدينا قوى كثيرة من خراسان ومن العراق وغيرهما، ونحن نضعهم تحت

(1) ابن شعبة الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول، نشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، الطبعة الأولى، قم، 1403هـ، ص 308.

(2) سورة الأنبياء، الآية 111.

تصرّفك، كما إنّنا مستعدّون لملاحقة معاوية حتّى الشام. فطلبهم عليه السلام إلى خلوةٍ وتحدّث معهم لهنيهة. وبعد أن خرجوا من عنده كانوا هادئين وتركوا قوّاتهم ولم يعطوا لمن كان معهم أيّ جوابٍ واضح. ويدّعي طه حسين بأنّ هذا اللقاء في الواقع قد وضع حجر الأساس لجهاد الشّيعة؛ أي إنّه يريد القول بأنّ الإمام الحسن عليه السلام قد جلس معهم وشاورهم وأوجد في هذا الاجتماع التّشكيلات الشّيعيّة العظيمة.

بناءً عليه، فإنّ هذا المعنى واضحٌ في حياة الإمام الحسن عليه السلام وفي كلماته، وإن لم تكن أرضيّة مثل هذا القيام مهيّأة في ذلك العصر لأنّ وعي النّاس كان قليلًا والإمكانات المالية للعدوّ وإعلامه كانت كثيرة جدًّا. لقد استعمل العدوّ أساليب ما كان الإمام الحسن عليه السلام ليستعملها، كدفع الأموال دون طائل، وجمع الفاسدين والأشرار وأمثالهم. فلذلك كانت يد معاوية مبسوطة بخلاف الإمام الحسن عليه السلام.

(مجلة پاسدار اسلام، 6)

توجد رواية عن الإمام الباقر عليه السلام يقول فيها: «**وُقّت هذا الأمر في السبعين**»[1] فبالتقديرات الإلهية إنّ أمر الحكومة يعود إلى أهل البيت حتّى ولو بعد مرور 30 سنة على شهادة أمير المؤمنين عليه السلام و10 سنوات على شهادة الإمام الحسين عليه السلام. إلّا أنّ منتهى الأمر هو كيف يمكن أن تحصل هذه النتيجة بمثل هذه العظمة؟ ذلك عندما يُهيّئ النّاس مقدّماتها بالإرادة والعزم. فالله تعالى لا يُحابي أحدًا، وليس له من أقارب! فالأمر

(1) الكليني، الكافي، ج1، ص 368.

الّـذي كان على عاتق النّاس لم يُنجزوه. أمّا العمـل الّذي كان على عاتق الإمـام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام فقد أدّياه، ولكن العمل الّذي كان علـى عاتق الخواص ـ عبد الله بن جعفر وعبـد الله بن عبّاس وغيرهما ـ فلم يتمّ. حتّى أولئك الّذين جاؤوا فيما بعد إلى كربلاء وحاربوا مع الإمام الحسيـن عليه السلام فلـم يقوموا بما كان ينبغـي عليهم القيام بـه في زمان مسلـم، لقد قصّـروا، وإلّا لما حدث لمسلم ما حدث. كان عليهم أن ينهوا المسألة ولم يفعلوا. وهذا التقصير أدّى إلى أن تحدث واقعة كربلاء.

ثـمّ يقـول عليه السلام: «**فلمّـا أن قُتـل الحسيـن صلوات الله عليـه اشتدّ غضب الله تعالـى على أهـل الأرض فأخّره إلـى أربعين ومائـة**»[1]. أي أنّـه فـي الظاهر قد تأخّـر. وبرأيي قد وصـل إلى سنـة 140 أي أنّه تأخّر سبعيـن سنة. وهي السّنوات الّتي وصل فيها العبّاسيّون إلى السّلطة... أي من المعلوم أنّ صلـح الإمام الحسن عليه السلام، قد هيّأ الأرضيّة لهذا العمل الكبيـر وإلا فإنّ الأئمّة عليهم السلام لم يكونوا ليتركـوا القضيّة. فهل أنّ قضية الولاية والحكومة هي قضيّة بسيطة؟! لقد كان هذا أساس الدّين ومحوره. ولكن هذا ما حدث في النّهاية.

(1990/04/11)

(1) م.س، ج1، ص 368.

الصّلح وتبديل مجرى الخلافة

لقد قيل الكثير بشأن هذا الصّلح. وأمّا ما أُريد أن أقوله فهو التّعامل مع قضيّة صلح الإمام الحسن عليه السلام من وجهة نظر جديدة. لأنّ هذه الحادثة تُمثّل مقطعًا تاريخيًّا شديد الحساسية يجعل أهميّة هذه الحادثة أكبر من أيّ حادثة سياسيّة طيلة تاريخ الإسلام. إنّ تاريخ الإسلام مليءٌ بالأحداث المختلفة ـ

أحداث عصر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وما بعده وعصر أمير المؤمنين عليه السلام والحوادث في عهد الأئمّة عليهم السلام والأمويّين والعبّاسيّين ـ فالإسلام تاريخٌ مليءٌ بالحوادث المهمّة. لكن قليلةٌ هي الأحداث الّتي لدينا والتي تُشبه هذه الحادثة، حادثة الإمام الحسن عليه السلام ، من حيث البُعد المصيريّ للتّاريخ الإسلاميّ كلّه؛ فأنا العبد قد نقّبت وبحثت في تاريخ الإسلام ولعلّه يوجد ما يشبه هذه الحادثة واحدة او اثنتين، كان لهما هذا التّأثير على كل تيّار حركة الإسلام وتاريخ الإسلام كلّه وعلى مرّ القرون المتمادية. فمن هذه النّاحية، فإنّ حادثة (الإمام الحسن) حادثة مهمّةً جداً.

خلاصة الأمر إنّ هذه الحادثة عبارة عن تبديل تيّار الخلافة الإسلاميّة إلى المَلَكية. هذه جملة مليئة بالمعنى والمضمون لو تأمّلنا فيها. فالخلافة هي نوع من الحكومة والملكية هي نوعٌ آخر. ولا ينحصر التمايز بين هاتين بخصوصيّة واحدة أو خمس خصوصيّات. فمسار الملكيّة ومسار الخلافة، هما مساران منفصلان ويتمايزان بالكامل على مستوى إدارة المسلمين وحكمهم، وإدارة البلاد والمجتمع الإسلاميّ. ففي هذه الحادثة تبدّل مسار

القطــار العظيم للتاريخ الإسلاميّ والحياة الإسلاميّة، مثلما يحدث عندما تنظــرون إلى القطارات عند تغيّر مساراتها، ففــي محلٍّ ما يتمّ تبديل هذه السكّة ويؤدّي ذلك إلى أن يتغيّر مسار القطار 180 درجة، وقد يكون القطار متّجهًا شمالًا فيُصبح بعد ذلك متّجهًا جنوبًا. وبالطبع، إنّ هذا التغيير إلى 180 درجــة لا يحصل في لحظةٍ واحدةٍ ملموسة، لكن مآل ذلك أنّ الإنسان يُشاهــد شيئًا يُشبه هذا الأمر. أنا أنظــرٍ إلى هذه الحادثة من زاوية النّظر هذه.

صراع الحق والباطل

هناك سبعة أسئلة أساس تدور حول هذه القضية:

الأوّل: بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام حلّ مسارٌ آخر مكان المسار السّابق، فانتقلت السّلطة من خطٍّ إلى خطٍّ آخر، بحسب تعبير اليوم. فما هي مميّزات وخصائص هذين الخطّين؟ وما هي خصائص هذين المسارين اللذين تبادلا الأدوار معًا؟

الثاني: ما هي أساليب تيّار الباطل الّذي أمسك بالسّلطة من أجل كسب السّيادة والهيمنة على المجتمع؟

الثالث: ما هي أساليب تيّار الحقّ الّذي خسر السلطة ـ أي تيّار الإمام الحسن ـ من أجل مقاومة تيّار الباطل؟ ما هي الأساليب والطرق الّتي استخدمها الإمام؟

الرابع: تحليل ودراسة الهزيمة. ماذا حدث حتّى انهزم تيّار الحقّ في هذه الأحداث؟ ما هو تحليل هذه الأمور؟

الخامس: كيف كان سلوك المنتصرين تجاه المغلوبين؟ لأنّ من أهم الفصول المليئة بالدروس والعبر هو هذا الفصل.

السادس: كيـف كان سلـوك المغلوبيـن مقابـل الغالبيـن؟ أيّ سياسة اختاروا؟ وأيّ استراتيجيّة؟ وماذا كانت عاقبة الأمر؟

السابع: ماذا كانت العاقبة؟

خصائص تيّار الحقّ والباطل

فيمـا يتعلّق بخصائص كلّ تيّار، هناك الكثير ممّا يُمكن أن يُقال؛ بحيث لـو أردنا أن نُعدّدها لاحتجنا إلى لائحةٍ طويلـة،...، فإنّ تيّار الحقّ، أي تيّار الإمـام الحسن عليه السلام ، يُعطي الأصالـة للدّين، فبالنسبة لهـم الأصل كان الدّيـن. فما هـو الدّين؟ هو أن يبقـى الإيمان والاعتقاد بالديـن بين النّاس وأن يبقـوا متعبّدين به ومتمسّكيـن بالإيمان والعمل؛ وأن يكون الدين حاكمًا فـي إدارة المجتمـع. فالأصـل بالنسبة لهـم كان أن يتحـرّك المجتمع وفق إدارة الدّيـن وسيادتـه وحاكميّتـه وأن يكون النّظام هو النّظـام الإسلاميّ. أمّـا الحصول علـى السّيادة والحكومـة والإمساك بزمـام السّلطة فيأتيان بالمرتبة الثانيـة، والثالثة والرابعة وهكذا، وغيرها مـن القضايا الفرعية. لكـنّ القضيّة الأساس كانـت أنّ هذا النّظام وهذا المجتمـع ينبغي أن يُدار وفق حاكمية الدّين، وأن يبقى أبناء هذا المجتمع على دينهم وإيمانهم، وأن يترسّخ ويتعمّق هذا الأمر في قلوبهم. كانت هذه هي خصائص التيّار الأوّل.

أمّـا بالنّسبة للتيّار الثاني فقد كان الأصل عنـده هو الإمساك بالسّلطة وبأيّ ثمنٍ كان. كانوا يريدون الحكومة... وكانت هذه هي السّياسة الحاكمة على التيّـار الثاني. وكانت القضيّة بالنّسبة لهـذا التيّار الإمساك بالسّلطة بأيّ ثمنٍ كان وبأيّة وسيلة كانت وبأيّ نحو كان.

مثلما هـو معروفٌ اليوم بيـن السياسيين في العالـم. فالقيم والأصول بالنّسبـة لهـم لا تُشكّل أصـلًا. فإن استطاعـوا أن يُحافظوا علـى الأصول الموجـودة في أذهانهـم فليكن، وإن لـم يتمكّنوا فإنّ الأصـل بالنسبة لهم يكون بأن يبقوا على السّلطة في أيديهم. هذا ما هو مهمٌّ بالنسبة لهم. ومثل هذا يُعدّ حدًّا حسّاسًا ومهمًّا. فمن الممكن أن يكون كلٌّ من التيّارين يعملان بظواهـر الدّين، كما كان عليه الأمر في الحرب بين أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية. ففي يوم من الأيّام، نجد أنّ جماعة

من المقاتلين ٍكانوا في صفوف أمير المؤمنين عليه السلام -في حرب صفّين الّتي وقف معاوية فيها مقابل أمير المؤمنين عليه السلام - ثم تردّدوا، وكان من بينهـم عدّة من أولئك الّذيـن يحملون الشّبهـات ولا يستطيعون أن يحلّوها بأنفسهم، ولا هم يرجعون إلى شخصٍ قادرٍ على ذلك، فلذلك كانوا يعزمون على إشاعتها، فيجمعون مجموعة من الأفراد من حولهم. ومثل هؤلاء كانوا يقعون في التردّد، فيقولون لماذا نحن نتحارب؟ فهم يُصلّون ونحن نُصلّي، وهـم يقرؤون القرآن ونحـن نقرأ القرآن، وهم يذكـرون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ونحن كذلـك، فوقعوا في مثل هذا التردّد والحيـرة. وكان هناك عمّار بن ياسر - وقد وجدت نقطةً بارزةً بشأن عمّار بن ياسر في تاريخ صدر الإسلام - هذا الجليل المحلِّل والكاشف للمسائل المليئة بالشبهات والدقيقة، والّتي كانت في ذلك الزمان مورد غفلة وجهالة. فهذا هو شأن عمّار بن ياسر في تاريخ الإسـلام؛ فإذا كنّا نعرف مالكًا الأشتـر بسيفه وشجاعته، فعلينا أن نعرف عمّار بـن ياسر بكلامه وفكره ورؤيته الصحيحـة وكشفه للكثير من الأمور فـي تاريخ صدر الإسلام. فأنا بحثت ووجدت أنّه نادرًا ما كان هناك موارد

هي محلّ شبهة في زمن أمير المؤمنين عليه السلام ولم يكن لعمّار بن ياسر يد أو حضور فيها، لقد كان هذا الرّجل الجليل رجلًا استثنائيًّا.

لقد علم عمّار بن ياسر أنّ هناك جماعة وقعوا في هذه الشّبهة، فذهب إليهم وبيّن لهم الحقائق. واتّضح لهم أنّ القضيّة ليست قضيّة أنّه هو يُصلّي وأنت تُصلّي، وقال أُقسم باللّه إنّني رأيت في حربٍ أخرى هاتين الرّايتين تتقابلان، هذه الرّاية الّتي يحملها أمير المؤمنين عليه السلام اليوم، وهذه الرّاية الّتي تقف مقابله ويحملها معاوية، وذلك في معركة بدر. ففي معركة بدر تقابلت هاتان الرّايتان - راية بني هاشم وراية بني أميّة - فكان تحت هذه الرّاية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وتحت تلك الراية كان معاوية هذا وأبوه؛ وكان النبيّ وأمير المؤمنين عليه السلام نفسه حاضرين تحت هذه الرّاية. فالخلاف بينهما خلافٌ حول الأصول، فلا تنظروا إلى هذه الظواهر، وأزيلوا هذه الشّبهة من أذهانكم.

قد يراعي هذا التيّار، الّذي تكون السّلطة أساسًا بالنسبة له، الظّواهر الإسلاميّة في بعض الأحيان، وهذا ليس دليلًا ومعيارًا، بل ينبغي النّظر إلى باطن القضيّة وتشخيصها بذكاءٍ، وكيف أنّ كلّ تيّار ينطبق على أيّ شيء، هذا هو المطلب الأوّل. فخصائص كلّ من التيارين: أنّ هناك تيّارًا لا همّ له سوى الوصول إلى السّلطة، وتيّارًا يتّجه نحو القيم والمبادئ والأصول. فهو يؤمن بالبُنى والأفكار الإسلاميّة الأصيلة، أي القيم الإسلاميّة، ويسعى من أجلها ويُجاهد في سبيلها. ففي هذه الجهة الأصوليّة وحفظ القيم الأصلية؛ وفي الجهة المقابلة، هناك سعي نحو السّلطة وطلب الحصول عليها؛ أحيانًا يكون الأمر بهذا النّحو وأحيانًا

أخرى بذاك النّحو ولكن في كلُ الأحوال ما يريده هو أن تكون السّلطة بيده. هذا هو المطلب الأوّل.

أساليب تيّار الحقّ والباطل في العمل

أمّا بالنسبة لتيّار الباطل فما هي الأساليب الّتي استخدمها؟ فمثل هذا لافت للأنظار جدًّا. إنّ أساليب الباطل في العموم هي مزيج من عدّة أشياء، أي إنّ خطّة معاوية كانت خطّة مؤلّفة من عدّة أقسام من أجل الحفاظ على السّلطة وترسيخها، ولكلّ قسمٍ أسلوبه في العمل والتّنفيذ. فأحد هذه الأساليب كان عبارة عن استعراض القوّة، وفي بعض الأماكن كان يستعرضها من خلال العنف والقمع والتّنكيل؛ وثانيها هو المال، الّذي يُعدّ أكثر الأشياء فعاليّة بيد عوامل الشرّ؛ الآخر هو الإعلام؛ والرابع هو العمل السياسي؛ أي الأساليب السّياسيّة، والمقايضات السّياسيّة. هذه بمجموعها كانت أساليب معاوية.

أنتم ترون في مكانٍ ما أنّ معاوية قد وصل به العنف إلى قتل حُجر بن عديّ، الّذي هو من صحابة النبيّ ﷺ، حتّى ولو كان قتله يُحمّله ثمنًا باهظًا. ثمّ يلاحق رشيد الهجريّ حتّى يقتله. ونجده يولّي زياد بن أبيه، هذا الفرد الظّالم والمعقّد والّذي لا قيمة عنده ولا همّ له سوى السّلطة، والّذي كان سيّئ الأخلاق، يولّيه على الكوفة ـ الّتي هي مركز سلطة الفكر الشيعيّ والفكر الولائيّ ـ ويُعطيه الإجازة والصّلاحية ليفعل ما يريد. وبشأن زياد بن أبيه كتب المؤرّخون [والنص للإمام الحسين عليه السلام]: «**أخذْك**

بالظنّة وقتلك أولياءه على التهم»[1]، فكان يأخذ أيّ شخص بالتّهمة وسوء الظّنّ لأدنى مورد؛ فيعتقل ويحبس ويُنكّل بكلّ من اتُّهم بالانتماء لأهل البيت أو التعاون معهم ومع ذلك التيّار المغلوب، ويقتله ويقضي عليه. لقد عمّت فتنته في الكوفة والعراق الّذي كان مركز حاكميّة التشيّع وأهل البيت عليهم السلام. هكذا كان يستعرض قوّته. ومعاوية نفسه في موردٍ آخر، كان يلاطف امرأة عجوزاً تأتي من القبيلة الفلانيّة وهي تسبّه وتشتمه وتوبّخه بأنّك فعلت كذا وكذا وكذا، فيضحك لها ويُلاطفها ولا يقول لها شيئاً. يأتي عديّ بن حاتم إلى معاوية وقد كان فاقد البصر، فيقول معاوية: «يا عديّ إنّ عليًّا لم يُنصفك، لأنّه حفظ ولديه في حروبه وأخذ منك ولديك». يبكي عُديّ ويقول: «يا معاوية، أنا لم أُنصف أمير المؤمنين حينما استُشهد هو وأنا ما زلت حيًّا»[2]. وكان كلّ من يأتي من المرتبطين بأهل البيت عليهم السلام إلى مجلس معاوية، ويحصل فيه أقل إهانة لأمير المؤمنين، كان يحمل على معاوية وأتباعه بشجاعة وقوّة وصراحة، وكان معاوية يضحك ويلاطف وأحيانًا كان يبكي. كان يقول: أجل تقول حقًّا. لعلّ ذلك بالنّسبة لكم لا يُصدّق، ولكن هذا هو الواقع، هكذا كان الإعلام، فالإعلام أكثر الأساليب سمًّا وخطرًا على مرّ التاريخ. وكان الباطل يستفيد منه كثيرًا. ولا يُمكن لتيّار الحقّ أن يستخدم الإعلام كما يستخدمه الباطل في أيّ زمن. فلأجل أن يتمكّن الإعلام من التغطية الكاملة على الأذهان يحتاج إلى التّلاعب وإلى الكذب والخداع. وتيّار الحقّ ليس من جماعة الكذب والخداع. إنّه تيّار

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 44، ص 214.

(2) راجع: أمالي المرتضى، ج1، ص 298.

الباطل الّذي لا يهمّه أي شيء، فالمهمّ عنده هو أن يقلب الحقيقة في أعين النّاس. وهو يستفيد من جميع الوسائل، وقد فعل.

وما هو مشهور ومتناقل على ألسنٍ متعدّدة، أنّه عندما قُتل أو ضُرب أمير المؤمنين عليه السلام في محرابه، تعجّب أهل الشام كيف أنّ عليًّا كان في المحراب. فالمحراب هو للصلاة، وبعض النّاس لا يُصدّق مثل هذا، ولكن هذا هو الواقع؛ فعلى مدى سنوات كانت حكومة معاوية، ومن قبله أخيه يزيد بن أبي سفيان، تبثّ مثل هذه الأنباء في الشام، وتُعتّم الأجواء وتشوّش الأذهان، بحيث إنّه لم يكن من الممكن لأحد أن يفهم غير هذا، هذا ما حدث. كان الإعلام لمصلحة بني أميّة ومعاوية وضدّ آل النبيّ. فهذا الواقع الّذي قام في العالم الإسلامي وبقي إلى حوالي مائة سنة بعد الهجرة - أي لعلّه أربعون أو خمسون سنة بعد عهد أمير المؤمنين عليه السلام ، كان أمير المؤمنين يُلعن خلالها على المنابر - وهذا اللعن في عالم الإسلام، الّذي يُتّهم به الشّيعة ويلامون عليه أنّه لماذا تلعنون بعض الصحابة، كان من عمل معاوية وأخلاقه، فهم من قام بهذا العمل، إنّه عمل معاوية. فأمير المؤمنين، عليّ بن أبي طالب عليه السلام الّذي كان أفضل القوم[1] وأقدمهم إسلاماً[2] وأقرب أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، كان يُطعن به ويُلعن لعشرات السّنوات على المنابر. وحتّى زمن عمر بن عبد العزيز، الّذي منع ذلك

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج15، ص201، «**كان عليّ أفضل النّاس بعد رسول الله**».

(2) الحراني الأصفهاني، عبد الله بن نور الله، عوالم العلوم والمعارف، تحقيق وتصحيح محمد باقر الأبطحي الأصفهاني، نشر مؤسسة الإمام المهدي، إيران - قم، الطبعة الأولى، 1413هـ، ج11، ص 383، «.. **قد زوّجتك أقدمهم إسلاماً، وأعظمهم حلماً، وأحسنهم خُلقاً، وأعلمهم بالله علماً**». (من كلام الرسول مع ابنته حضرة الصدّيقة الكبرى).

عندما صار خليفةً، وقال لا يحقّ لأحد أن يفعل هذا. فبعد عبد الملك بن مروان، حكم ولداه، الوليد وسليمان، بحدود 12 أو 13 سنة، ثمّ جاء بعدهما عمر بن عبد العزيز، وبعد سنة أو سنتين من حكومته، حكم ولدا عبد الملك الآخران أي يزيد وهشام. لم يسمح عمر بن عبد العزيز لهم أن يلعنوا أمير المؤمنين، وهو ما كانوا يفعلونه إلى ذلك الوقت. هذا هو أحد الأعمال الّتي كانوا يفعلونها. أجل، في البداية كان النّاس يتعجّبون لكنّهم اعتادوا على ذلك شيئًا فشيئًا.

نقرأ في التاريخ أنّه لم يبقَ من قارئٍ أو محدّثٍ أو راوٍ في الدين أو في العالم الإسلاميّ إلّا وأجبره جهاز حكومة معاوية وأتباعه على اختلاق حديثٍ أو تفسير آية، وأمثال ذلك، في ذمّ أهل البيت عليهم السلام وفي مدح أعدائهم.

هذا سُمرة بن جندب بن معروف الّذي وردت بشأنه الرواية المعروفة «**لا ضرر ولا ضِرار**»[1]، وهو كان من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، غاية الأمر أنّه صحابيّ غضب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عليه، وذلك بسبب تلك القصّة المعروفة أنّه كان له شجرة في أرضٍ لعائلةٍ وكان يذهب ويُزعجهم ويدخل عليهم في بيتهم من دون أي استئذان، مع وجود العائلة والنّساء والأطفال في ذلك البيت، وكانوا يرونه وقد دخل عليهم فجأة لأنّ له هذه الشجرة؛ فشكوا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: بِع هذه الشجرة لأصحاب هذا البيت، فقال: لا أبيعها، هذه شجرتي وأنا أُريد أن أهتمّ بشجرتي؛

(1) الكافي، ج5، ص 280.

فقـال الرسول ﷺ : بِعها لي، فلم يقبل؛ فقـال له الرّسول: أعطيك المبلغ الفلانيّ، فلم يقبل؛ فقال له الرسول: أعطيك شجرة في الجنّة، وهذا يعني وعـدًا بالجنّـة، لكنّه لم يقبل، وقـال: أريد هذه الشّجرة ولا بـدّ؛ فلمّا وجد النبـيّ ﷺ ذلك الإصرار قال لصاحب المنزل اذهب واقتلع هذه الشجرة وارمِهـا خارجًا، «**فـلا ضرر ولا ضِـرار فـي الإسـلام**». أي إنّه لا يوجد في الإسـلام ما يقبل بأذيّة النّاس وضررهم، فـلا يوجد في الإسلام مثل هذا أنّه بحجّة أنّ هذا ملكي فأؤذي النّاس. فحديث «**لا ضرر**» المعروف، والّذي يُعدّ من الأصول والقواعـد الفقهية عندنا، هو بشأن هذا الرجل. إنّ سمرة بـن جندب بقي حيًّا إلى زمن معاوية. ولها من عاقبة، لأنّ معاوية كان يتتبّع الصّحابـة ويسعى إليهم. فقد كان لأصحاب النبيّ شهرة ومكانة ولهذا كان يسعى لجمعهم حوله. فأحضره معاوية إليه وقال له إنّني أرغب في أن تقول إنّ هذه الآيـة المعروفة، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴾[1] قـد نزلـت بعلـيٍّ عليه السلام؛ أراد معاويــة أن يجعل هذه الآية مقابل كلام أمير المؤمنين عليه السلام في ذمّ الدنيـا، في تلك الخطبة القاصعة في نهـج البلاغة الّتي لها أثرٌ كبير. أنتم تلاحظون أنّ تلك الكلمات والخطب كانت في منتهى الجمال.

تصـوّروا اليـوم مثلًا شخصًـا يؤلّف كتابًـا أو شعرًا أو مقالـةً في غاية الفصاحـة والجمـال والفنّ حـول موضوع ما، مـن الطبيعـيّ أنّ الموضوع سيأخذ مجـده، وسيكون لصاحب هذا الأثر الفنّي حلاوة في أعين النّاس.

(1) سورة البقرة، الآية 204.

وهنا لا يمكن في الواقع مقارنة كلام أمير المؤمنين عليه السلام بأيّ أثرٍ من الآثار الفنّية الّتي نعرفها، إنّه فوق ذلك بكثير، إنّه آية في الجمال. وهذه كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، وكذلك هي في الواقع في بيان القيم الإسلاميّة والمعارف الإسلاميّة، كانت ممّا لا يمكن لمعاوية تحمّله وقبوله، لأنّها تجعل أمير المؤمنين عليه السلام مورد استحسان في أعين النّاس. أراد (معاوية) أن يواجه هذه الكلمات الزاهدة في مذمّة الدنيا، والّتي نُقلت عن أمير المؤمنين عليه السلام ، فلذلك قال معاوية لسمرة بن جندب قل إنّ هذه الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب عليه السلام ؛ أي أنّ عليًّا عليه السلام (وفق ذلك) سيكون ممّن يتحدّث عن الدّنيا بحديثٍ رائعٍ ويُعجب النّاس ويقسم على ذلك لكنّه في الواقع هو من ألدّ أعداء اللّه والإسلام.

والآية الأخرى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ ﴾[1] قيل إنّها نزلت في ابن ملجم. هذه من الأمور الّتي كان يحتاجها معاوية كثيرًا في إعلامه ودعاياته. فقال لأحد أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الّذي شاهده في المعارك وكان إلى جنبه - فسمرة بن جندب كان منذ حداثته جنديًّا وكان يُشارك في المعارك رغم أنّه كان تحت سنّ التكليف، كان من هذا النوع، وكان من أصحاب النبيّ أيضًا - قال له قل إنّ هذه الآية قد نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام ، اقترح عليه ذلك، لكنّ سمرة بن جندب، رغم أنّه كان سيئًا وشقيًّا، لكنّ وجدانه لم يكن مستعدًّا، فقال: كلّا. والّذين كانوا يتوسّطون لهذا الأمر في بلاط معاوية قالوا له لا تقلق فإنّ حسابك

(1) سورة البقرة، الآية 207.

سيصلـك، فلا تقلق بشـأن المال وسوف يُعطيك 50 ألف درهمًا، وكان هذا المبلـغ في ذلك الزمان كثيرًا جدًّا، فخمسـون ألف مثقال من الفضّة يعني خمسة مثاقيل من الذّهب، في حسابات ذلك الزّمان، هذا يُعدّ ثروة كبيرة، قالـوا له نعطيك خمسين ألفًا، فقال: كلّا، لا أقبـل. هنا يقول بعض النّاس إنّ سمـرة بـن جندب كان في الواقع يتلاعب وأراد أن يرفع السّعر لا أنّه قد أنّبـه ضميره، فهـو كان يعلم بأنّ معاوية يحتاج إلى هذا الأمر وفي الحقيقة كان يحاول أن يساوم. هنا، هل أنّ وجدانه كان يتقبّل الأمر أم لا، لا أعرف، ولا أضـع ذلك على ذمّتي، ولكن عندما لم يقبل رفعوا السّعر إلى مائة ألف درهـم ولم يقبـل أيضًا، حتّى وصل الأمر إلى نحـو 500 ألف درهم تقريبًا، لكـن مثل هذا المبلـغ الكبير جدًّا، هو ثـروة استثنائيّة، ولكـن مع ذلك لم يقبل. هنا، قال معاوية لذلك الّذي كان يتوسّط إنّ هذا الرجل بلا عقلٍ وهو مجنـون لأنّه لا يعرف ما هـي الـ 500 ألف، فقولوا لـه: 500 ألف وأحضروه إلـى هنا حتّى أرى هـل أنّه سيقبل أم لا. فأمر معاوية مـن كان مسؤولًا عن بيت المال أن يحضر هذا المبلغ إلى المجلس. وكما تعلمون في تلك الأزمة الأمـوال ستكون من الذّهب، وعندما توضع في الأكياس ستكون ثقيلة وذات حجم كبير وتحتاج إلـى من يحملها، فأحضر الحمّالون الأكياس ووضعوها فـوق بعضها بعضًا حتّـى وصلت إلى أعلى السّقف، وقالـوا هذه هي الـ 500 ألـف، فهـل أنت جاهزٌ أم لا؟ عندما نظر إلى هذه الأموال ورأى هذه الثّروة العظيمـة قبِل، وفسّر تلـك الآية كما أراد معاوية وبقيت في الكتب. وصحيحٌ أنّ مثل هذه الكلمات الممتزجة بالخطأ والرّذالة قد تمّ اختلاقها في العالم الإسلامـيّ، وبالأغلب جاء العلماء فيما بعد واستبعدوها، لكن هذه رشحاتٌ

من هؤلاء وقد بقيت في أذهان عدّة وأثّرت فيهم، وهذه من الأعمال الّتي كان يقوم بها معاوية في الإعلام. فمجموع هذه الأساليب هي الّتي شكّلت أساليب معاوية لكسب الزّعامة والسّلطة.

أمّا تيّار الحقّ فلم يجلس ساكنًا مقابل هجمات الباطل. فقد كانت له أساليبه والّتي يُمكن اختصارها:

أوّلًا: بالمقاومة والحركة المقتدرة. فبعضٌ تصوّر أنّ الإمام الحسن عليه السلام لم يُحارب خوفًا، كلّا، إنّ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام كان عازمًا بشدّة على الحرب وهو من شجعان العرب. كنت أتأمّل في كتابٍ يذكر بطولات الإمام المجتبى عليه السلام في القضايا المختلفة، فبطولاته في الأحداث المختلفة كثيرة. غاية الأمر أنّه في حروب أمير المؤمنين عليه السلام، وحيث كان الميدان ميدان حرب كان أمير المؤمنين عليه السلام نفسه يمنع أن يُحارب الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام، وكان يمنع أن يقعا في الخطر. فقال بعضهم لماذا ترسل محمّد ابن الحنفية وهو ابنك وتمنع من إرسال الحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال إنّي أخاف أن ينقطع نسل الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. فهما بقيّة النبيّ وأُريد أن أحفظ نسل النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. كان يشعر بالخطر في ميدان الحرب وأراد أن يحفظهما، لا بسبب حبّه فهو يُحبّ أبناءه الآخرين، ونفس أمير المؤمنين عليه السلام هو رجل الحرب ورجل الميدان والمخاطر وليس من أولئك الّذين يتوهّمون الخطر. غاية الأمر أنّهما ابنا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يرغب أن يوقعهما في الخطر. ولأنّهما حضرا في حروب أمير المؤمنين عليه السلام فلم يكن لهما صولات كثيرة لأجل هذا، لهذا لم يُسجّل اسم هذين العظيمين - الإمام

الحسن والإمام الحسين عليهما السلام - ضمن الشّجعان؛ ولكن كان للإمام الحسن عليه السلام مشاركة في الحروب الإسلاميّة ضدّ إيران، كما كان له حضورٌ في دفاعه عن بيت عثمان أمام المهاجمين والثوّار، بأمرٍ من أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وكذلك كان له حضورٌ في القضايا المهمّة الكثيرة. وفي واقعتي الجمل وصفّين كان له دورٌ مهمٌّ واستثنائيّ بحيث شاهدت أنّ اسم الإمام الحسن عليه السلام ورد كثيرًا في وقائع صفّين والجمل خاصّةً. فيما شاهدت أنّ اسم الإمام الحسين عليه السلام كان أقل. أي إنّه كان للإمام الحسن المجتبى عليه السلام حضورٌ أكبر في الميادين والأحداث من الإمام الحسين عليه السلام . لقد كان رجل الحرب والسّياسة والتدبير والفصاحة والقوّة. عندما يُطالع المرء محادثات ومناظرات الإمام الحسن عليه السلام يقشعرّ بدنه من قوّته وقدرته. وفي وقائع الصّلح، وبعد الصّلح، نُقل عن هذا العظيم من الكلمات القاطعة والقاصعة ما كان في بعض الموارد أشدّ قوّةً وأحدّ من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام . ولعلّه قليلًا ما شاهدت مثل هذه الشدّة والقدرة في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام في مقابل الأعداء، بسبب أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يواجه مثل هؤلاء الأعداء، الّذين كانوا بمثل تلك الوقاحة والخبث، وجهًا لوجه وعن قرب. لهذا، لا يوجد أيّ نقصٍ في عمل الإمام الحسن عليه السلام . إنّما كان النّقص في الظّروف الزّمانيّة. وباقتدارٍ وقف للدّفاع إلى الحدّ الممكن، وهذا كان أحد أساليبه. ففي بعض المواطن يكون الوقوف المقتدر سبباً للضرر. فإنّ تغيير الأسلوب والمناورة في اختيار الأساليب يُعدّان عملًا أساساً وضروريًّا.

ثانيًا: الإعلام. إنّ العمل الإعلاميّ في جهاز الحقّ له أهميّة فائقة. وغاية

الأمر أنّ تيّار الحقّ مكتوفٌ في الإعلام؛ فلا يُمكنه استخدام أيّ أسلوبٍ وأيّ وسيلـةٍ كانـت. فهو لا يُبيّن سوى الحقّ والواقع. هنـاك أشياءٌ تكون مرغوبة عند النّاس، والتيّار الباطل لا يأبى أبدًا أن يُظهرها كما يُحبّ النّاس، لكنّ تيّـار الحـقّ لا يُمكنه ذلك، بـل يُبيّن الحقّ ولو كان مـرًّا. كيف كان يُخاطب أميـر المؤمنين عليه السلام أصحابه بطريقة مرّة بحيث يتعجّب الإنسان؟ نحن الّذين نُحـبّ أن تكون أساليبنا مثل أسلـوب أمير المؤمنين عليه السلام نتعجّب أحيانًـا من هذا الأسلوب في بعضٍ الموارد. أمّا معاوية، فلم يكن يستخدم هذا الأسلوب بتاتًا. كان معاوية يتملّق النّاس، ويسعى للحصول على دعمهم بأيّ ثمنٍ. لم يفعل عليّ بن أبي طالب عليه السلام هذا الأمر أبدًا، لا أنّه لم يكن يعرفه بـل لإنّه خلاف التّقوى وخلاف الأصول، وعليّ بن أبي طالب عليه السلام يقـول: «**لـولا التّقى لكنت أدهى العـرب**»[1]. في هذه الأمـور، فإنّ الحقيقة هي هذه، فمـن الواضح المعلوم بالرّجوع إلى سوابـق عليّ ومعايشته للنبيّ ومفاخـره العظيمـة وذهنيّته وروحـه المتألّقة أنّه أعلم مـن معاوية وأذكى وأكثـر حنكةً، ويُمكنه أن يقوم بالكثير من الأعمـال والأفعال غاية الأمر أنّ الحقّ لا يُجيز ولا يسمح.

ثالثًا: السّعي نحو القيم. والأسلوب الآخر هو الإصرار على حفظ القيم. فالشـيء المهم جدًّا عند جهاز الحقّ والذي يتـمّ الاعتناء به في أساليبهم هـو إصرارهم علـى حفظ القيم بأيّ ثمـنٍ كان. وفي النّهايـة التّراجع إلى حـدّ حراسة بقـاء الدّين. فلو أنّ الحقّ رأى أنّ الصمـود يؤدّي إلى أن يزول

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 8، ص 24.

أصل الدين، فإنّه يتراجع. فالإمام الحسين عليه السلام يقول: «**الموت خيرٌ من ركوب العار والعار خيرٌ من دخول النار**»[1]، فلو أنّه تقرّر أن أقبل العار فأقبله ولكن لا أدخل جهنّم. يوجد بعض الأماكن بحيث نرى بعض النّاس، ولأجل أن لا يتحمّل العار، يقوم بعملٍ لا يهمّه معه أن يناله العذاب والسّخط الإلهيّان. ما هو العار؟ الأصل هو أن يكسب الإنسان رضا الله وأن يؤدّي تكليفه، ولو بالتّراجع عن كلام قاله أو خطٍّ مشى عليه أو تراجع عن موقفٍ له؛ فكلّ ما يريده الله، وكلّ ما يرضي الله يُعتبر أصلًا في حياة الأئمّة. كان الأمر كذلك في حياة الإمام الحسن عليه السلام. فعندما وجد أنّه لا بدّ له أن يقبل بالصّلح مع معاوية من أجل الضّرورات وضغط الظّرف الواقع، رغم أنّه في ذلك الوقت كان يُرسل الجند ويُحرّض على الحرب ويُجيّش الجيوش ويُرسل الكتب ويقوم بكلّ ما هو لازمٌ من أجل الحرب وعلى مختلف المستويات، وعندما رأى أنّه لا يُمكن (القيام بالحرب) قَبِل بالصّلح. فانفضّ عنه أقرب النّاس إليه... مع أنّ الكثيرين في ذلك الوقت، وبعد أن صالح الإمام الحسن، فرحوا ومن أعماق قلوبهم لأنّهم كانوا متنفّرين من الحرب، ولكن حتّى نفس هؤلاء الّذين فرحوا، رجعوا إلى الإمام الحسن عليه السلام وأرادوا أن يلوموه على تراجعه عن موقفه، حتّى المقرّبون والوجهاء الّذين كانوا من الصّحابة المشهورين، جاؤوا إليه وتحدّثوا معه بعباراتٍ غير لائقة. لكنّ الإمام عليه السلام تراجع من أجل الحفاظ على الدّين.

---

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 75، ص 128.

أسباب هزيمة تيّار الحقّ

القضيّة اللاحقة هي تحليل هزيمة تيّار الحق، إنّ السبب الأساس في هزيمة الإمام الحسن عليه السلام كان ضعف الرؤية العامّة وامتزاج الإيمان بالدوافع المادّية. ففي مجال ضعف الوعي العام، كان النّاس بعيدين كلّ البعد عن الوعي، وكان إيمانهم الدّينيّ ممتزجًا بالدّوافع المادّيّة. لقد أضحت المادّيّة عندهم أصلًا، وتزلزلت عندهم القيم لما يزيد على عشر أو عشرين سنة من بعد الصّلح. وحدث ذلك في كلّ مجالات القيم. وكان هناك شيء من التمييز وغيرها من الأمور، كلّ هذه أدّت إلى ألّا يتمكّن الإمام الحسن عليه السلام من المقاومة. وأمّا سلوك الغالبين مع المغلوبين فبدلًا من أن يأتوا إلى الإمام الحسن عليه السلام وأتباعه، فيأسروهم أو يقتلوهم فإنّهم على العكس من ذلك، عندما تسلّطوا على الأمور، احترموهم بالظّاهر وتعاملوا مع الإمام الحسن عليه السلام بكلّ احترام. لكنّ معاوية وجماعته قرّروا أن يمحوا الشّخصيّة ويضعفوها. فيحفظ الشّخص ويبيد الشّخصيّة، هذا كان نهجهم. هذا كان أصلًا أساساً في الإعلام عندهم.

وأمّا الجّماعة المغلوبة فماذا فعلت مع الغالبين؟ لقد كانت استراتيجيّتهم أن يُنظّموا تيّار الحقّ وسط هذا الفضاء المليء بالفتن والغشاوة والمخاطر والسّموم وأن يعطوه شكلًا ليكون العمود الفقريّ لحفظ الإسلام. والآن حيث لا نقدر أن نجعل كلّ المجتمع في ظلّ الفكر الإسلاميّ الصحيح، فبدلًا من أن نهتمّ بتيّار هشٍّ قابلٍ للزّوال - وهو التيّار العام - فلنحفظ تيّارًا عميقًا وأصيلًا في أقلّية ونحفظه لكي يبقى ويضمن حفظ الأصول الإسلاميّة. هذا ما فعله الإمام الحسن عليه السلام. فقد شكّل تيّارًا محدودًا، أو الأفضل

أن نقول نظّمه، وهو تيّار الأصحاب أو الأنصار وأصحاب أهل البيت عليهم السلام أي تيّـار التشيّـع. وبقي هـؤلاء طيلة تاريـخ الإسلام، وفـي كلّ عهود القمع والتّنكيـل. وقـد أدّى ذلك إلى أن يضمنوا بقاء الإسـلام، ولو لم يكن هؤلاء لتبدّل كلّ شيءٍ. فقد كان تيّار الإمامة، تيّار رؤية أهل البيت عليهم السلام ، ضامنًا للإسلام الواقعيّ.

وأمّـا العاقبة فـإنّ جماعة الغالبين والمتسلّطيـن والمنتصرين أضحوا مُدانيـن ومغلوبيـن، والمستضعفون أضحوا الحـكّام والفاتحين في ذهنيّة العالـم الإسلامـيّ. إذا نظرتـم اليـوم إلـى الذهنيّة الموجودة فـي العالم الإسلامـيّ، وهي تلك الذهنية الّتي روّج لهـا تقريبًا الإمام الحسن عليه السلام وأمير المؤمنين عليه السلام ، فهي ليست الذهنيّة الّتي أرادها معاوية ويزيد من بعده، وكذلك عبد

الملـك بـن مروان وخلفاء بنـي أميّة. لقد انهزمت تلـك الذهنيّة الّتي كانت لديهم بالكامل وزالت ولم تعد موجودة في التّاريخ. لو أردنا أن نُطلق عنوانًـا على ذهنيّتهم لقلنا إنّها ذهنية النّواصب. النّواصب هي فرقة من الفـرق الّتي لم يعد لها في العالم الإسلاميّ اليـوم وجودٌ خارجيّ بحسب الظّاهـر. فالنّواصب هم أولئك الّذين كانـوا يسبّون أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والإسـلام ولا يقبلـون إسلامهم، حيـث إنّ هذا هو تيّارهـم الفكريّ. فلو كان مـن المقرّر أن يكون معاويـة فاتحًا وحاكمًا لكان اليوم من المفترض أن يكـون تيّاره هو الحاكـم في العالم الإسلاميّ. في حيـن أنّ الأمر ليس كذلك. إنّ التيار الفكريّ لأمير المؤمنين عليه السلام وللإمام الحسن عليه السلام هـو الحاكم فـي العالم. وإن كان فـي بعضٍ من الفـروع وقسمٍ من عقائد

الدّرجة الثّانية والثّالثة لم يُنقل، لكنّه في المجموع هذا هو التيّار، الإمام الحسن عليه السلام بناءً على هذا هو الفاتح وتيّاره هو الّذي انتصر. هذه هي خلاصة وقائع صلح الإمام الحسن عليه السلام من ناحية تأثيرها على كلّ التاريخ الإسلاميّ.

(1989/04/22)

الفصل السادس:

الإمام الحسين عليه السلام

- مخاطر المرحلة ووسائل المواجهة.
- أهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام.
- منطلقات الثورة وثمارها.

مخاطر المرحلة ووسائل المواجهة

الآفّات الداخليّة والخارجيّة

لقـد تمّ استشراف المخاطر الّتي تُهـدّد الإسلام كظاهرةٍ عزيزة، قبل ظهـور الإسـلام أو فـي بداية ظهوره، مـن جانب الرّب المتعـال. وقد تمّت ملاحظة وسيلة مواجهة تلك الأخطار، وأودعت في نفس الإسلام وفي نفس هذه المجموعة؛ فهما مثل بدنٍ سالمٍ جهّزه الله تعالى بالقدرات الدّفاعيّة، وكآلةٍ سالمـةٍ يحمل مهندسها وصانعهـا أدوات إصلاحها معها. فالإسلام ظاهرةٌ، ومثل جميع الظواهر، يُهدَّد بأخطار ويحتاج إلى وسائل للمواجهة. وقد جعل الله هذه الوسيلة في الإسلام نفسه. ولكن ما هو هذا الخطر؟

هنـاك خطـران أسـاسـان يُهـدّدان الإسـلام، أحدهمـا خطـر العـدوّ الخارجيّ، والآخر هو الاضمحلال الداخليّ.

العـدوّ الخارجيّ هو الّذي يكـون من خارج الحدود، ويقـوم باستهداف وجود نظام ما في فكره وجهاز بنيته التحتية العقائديّة وقوانينه وكلّ شؤونه وبشتّى أنواعٍ الأسلحة.

فمـا المقصـود من الخـارج؟ ليس المقصـود من خـارج البلد، بل من

خـارج النّظـام وإن كان داخل البلد. هنـاك أعداءٌ يعـدّون أنفسهم غرباء عـن النّظام ويُعارضونه. فهـؤلاء هم من الخارج وغربـاء وأجانب. فهؤلاء يتوسّـلـون بالسّلاح والسّلاح النـاريّ وبأحدث الأسلحـة الماديّة وبالإعلام والمال وبكلّ ما هو في متناول أيديهم من أجل القضاء على النّظام وإزالته من الوجود. هذا نوعٌ من الأعداء.

العـدوّ، والتّهديد الثّاني هو تهديد الترهّل الداخلـيّ، أي داخل النّظام؛ الذي لا يكون من الغرباء بل منه وفيه. فمن الممكن للمنتمين للنّظام، على أثـر التّعب أو الخطأ في فهم الطّريـق الصّحيح، أو على أثر تغلّب المشاعر النفسانيّـة، أو على أثر النّظر إلـى المظاهر الماديّة وتعظيمها، أن يُصابوا فجـأةً بهذا التّهديد من الدّاخل. وبالطّبـع، إنّ خطر (هذا العدوّ) أكبر من خطر الأوّل.

هـذان النّوعان من الأعـداء ـ التهديـد الخارجيّ والتهديـد الداخليّ ـ موجـودان لدى أيّ نظـام أو تنظيـم أو ظاهرة. وقد عيّـن الإسلام علاجًا لمواجهـة كلٍّ مـن هذيـن التّهديدين، ووضـع الجهاد. فالجهـاد لا يختصّ بالأعـداء الخارجييـن، ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾(1)، فالمنافق هو مـن داخل النّظام. لذلك يجـب مجاهدة كلّ هؤلاء. الجهـاد هو في مقابل العدوّ الّذي يُريد أن يُهاجم هذا النّظام انطلاقًا من رفضه العقائديّ وعدائه له. وكذلك ومن أجل مواجهة ذلك التفكّك الداخليّ، توجد تعاليم أخلاقية مهمّـة جـدًّا تُفهم الإنسـان حقيقة هذه الدنيـا، ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا

(1) سورة التوبة، الآية 73.

﴿... لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ..﴾(1) أي إنّ هذه الزّخارف وهـذه المظاهر وهذه اللذائذ الدنيويّة، وإن كانت ضروريّة لكم، وإن كنتـم مضطرّيـن لأن تستفيـدوا منها وإن كانت حياتكم مرتبطة بها، فـلا شكّ في ذلك، ويجب أن تؤمّنوها بأنفسكـم، ولكن اعلموا أنّ إطلاقها والتحرّك نحوها بعينٍ مغمضة ونسيان الأهداف هو أمرٌ خطرٌ جدًّا.

أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أسد ميـدان مواجهة العدوّ، وعندما يتحدّث فـإنّ المـرء يتوقّـع أن يكون نصـف خطبه أو أكثرهـا راجعًا إلـى الجهاد، والحـرب، والبطولات. لكـن عندما ننظر في روايات وخطـب نهج البلاغة نجـد أنّ أغلب خطبه ووصاياه راجعـة إلى الزّهد والتّقوى والأخلاق ورفض الدّنيا وتحقيرها، وتعظيم القيم المعنويّة والإنسانيّة الرّفيعة.

لقـد كانت واقعـة الإمام الحسين عَلَيْهِ السَّلَامُ إدغاماً لهذيـن القسمين؛ أي إنّ الجهـاد مع العدوّ والجهاد مع النّفس قـد تجلّى في أعلى مراتبه هناك، فـي واقعـة عاشـوراء. أي إنّ الله تعالى يعلم أنّ هـذه الحادثة ستقع ويجب أن تُظهـر المثـل الأعلى ليكون قـدوةً؛ مثلما يحدث في البـلاد مع الأبطال عندمـا يبرزون في مجالٍ ما، ويكون البطل محفّـزًا لغيره في ذلك المجال مـن الرّياضـة. بالطّبع، هذا مثـالٌ صغيرٌ من أجل تقريـب (الصّورة) إلى الذّهـن. إنّ واقعـة عاشـوراء عبـارة عن حركـةٍ عظيمة مجاهـدة في كلا الجبهتيـن. سواء في جبهـة المواجهة مع العدوّ الخارجيّ، الّذي كان عبارة عن جهاز الخلافة الفاسد نفسه، وطلّاب الدّنيا المرتبطين بجهاز السّلطة

(1) سورة الحديد، الآية 20.

هذا، والّذين أرادوا تلك القوّة الّتي كان النبيّ قد استخدمها من أجل نجاة البشر، من أجل تلك الحركة المقابلة لمسيرة الإسلام ونبيّه المكرّم صلى الله عليه وآله وسلم؛ أم في الجبهة الدّاخليّة حيث كان المجتمع في ذلك الوقت قد تحرّك بشكلٍ عامّ نحو ذلك الفساد الداخليّ.

النّقطة الثّانية وهي الأهمّ بنظري؛ وهي أنّه كان قد مرّ مقطعٌ من الزّمن، وكان قد طُوي عهد المصاعب الأساس للعمل. فالفتوحات قد تحقّقت، وقد تمّ الحصول على الغنائم، ونطاق الدّولة قد اتّسع، وقد تمّ قمع الأعداء الخارجيّين من هنا وهناك، وتدفّقت الغنائم الوفيرة إلى داخل الدّولة؛ وأضحى البعض من أصحاب الرّساميل، وانتمى البعض لطبقة الأشراف. فبعد أن كان الإسلام قد اقتلع هذه الطّبقة وقمعها، عادت وتشكّلت طبقة جديدة من الأشراف في العالم الإسلاميّ. هناك أفرادٌ، باسم الإسلام وبسمات وعناوين إسلامية - ابن الصحابيّ الفلاني وابن التّابع الفلانيّ، وابن المقرّب للنبيّ الفلانيّ - دخلوا في أعمال غير لائقة وغير مناسبة؛ وقد سجّل التّاريخ أسماء بعض هؤلاء، وكانوا يجعلون مهر بناتهم مليون مثقال من الذهب الخالص أي مليون دينار، بدل أن يكون مهر السنّة، الّذي جعله النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام ومسلمو الصّدر الأوّل من الإسلام، وهو 480 درهمًا. فمن هم هؤلاء؟ هم أولاد صحابة أجلّاء كمصعب بن الزبير وغيره.

(1993/01/26)

لقد بدأت الأحداث قبل مرور أقلّ من عقدٍ من الزّمان على رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. في البداية، تمتّع أصحاب السّوابق (الأمجاد) في الإسلام –

بمـن فيهم من صحابـة وتابعين وأشخاص قد شاركوا في حـروب النبيّ – بالامتيـازات. وقد كان الحصول علـى عطاءات ماليّة إضافيّة من بيت المال أحـد هذه الامتيـازات. وأضحى هناك عنوان يجعـل مساواتهم مع الآخرين غيـر صحيح وغيـر ممكن أيضًا! كانت هذه هي اللبنـة الأولى. إنّ التحرّكات الّتـي تنجرّ إلـى الانحراف تبدأ من هـذه النّقطة الصّغيـرة، ومع كلّ خطوة تـزداد سرعتهـا. لقد بـدأت الانحرافات من هـذه النقطة حتّـى وصلت إلى أواسـط عهد عثمان، حيث وصل الوضع في عهـد الخليفة الثّالث إلى حدٍّ أنّ كبـار صحابة النبيّ ﷺ قد أضحوا من أكبر الرأسماليّين في زمانهم! إنّهم من الصّحابة، أصحاب الشّأن الرّفيع والمعروفين ـ كطلحة والزبير وسعد بن أبي وقّاص وغيرهم ـ هؤلاء الكبار والوجهاء الّذين كان لكلّ واحدٍ منهم سجلّ ضخـم من المفاخر السّابقة في بـدرٍ وحنين وأُحد، صاروا من الرأسماليّين الكبار فـي الإسلام. عندما توفّـي أحدهم وترك الجواهـر والذّهب وأرادوا تقسيمها بين ورثته، جاؤوا في البداية بسبائكها وقطعها وأرادوا أن يُقسّموها ويُقطّعوها بالفؤوس وكأنّها قطعات حطب تحتاج إلى فأس ليقطعها؛ فالذهب عادةً يتم حسابه وقياسه بالمثاقيل، فانظروا كم كان يمتلك من الذهب حتّى احتاجـوا إلى الفأس لتقسيمـه. لقد ذُكرت هذه الأمور فـي التاريخ، وليست مـن القضايا الّتي ذكرها الشّيعة في كتبهم، إنّها حقائق، كان يسعى الجميع لضبطها وتسجيلها. لقد تركوا من الدّراهم والدنانير ما يبلغ حدّ الأساطير.

(1996/06/09)

عندمـا نقـول فساد الجهاز مـن الدّاخل، فمعنـاه أنّه يظهـر أفرادٌ في المجتمع ويبدؤون بالتّدريج بنقل أمراضهم الأخلاقيّة المعدية ـ حبّ الدّنيا

والشّهوات ـ والّتي هي للأسف أمراضٌ مهلكة إلى باقي أفراد المجتمع. في مثـل هذه الحالة، هل سيكون هناك من يجرؤ أو يمتلك الهمّة للمضيّ قدمًا فـي مخالفة جهاز يزيد بـن معاوية؟! هل سيحدث مثل هـذا الأمر حينها؟ فمـن هـو الّذي كان يُفكّـر بمواجهة جهـاز الظّلم والفسـاد ليزيد في ذلك الزّمـان؟ على مثل هـذه الأرضيّة، قامت النّهضـة الحسينيّة العظيمة الّتي كانت تُجاهد العدوّ، كما كانت تواجه روحيّة طلب الرّاحة المهلكة المنتشرة بين المسلمين العاديين وعامّتهم. وهذا أمرٌ مهمٌّ.

(1993/01/26)

أهداف ثورة الإمام الحسين عليه السلام

لو دقّقنا النظر في هذه الحادثة، لعلّه يُمكن القول: إنّ الإنسان يستطيع أن يعدّ أكثر من مائة درس مهمّ في هذا التحرّك الّذي قام به الإمام أبو عبد الله عليه السلام في بضعة أشهر، من اليوم الّذي خرج فيه من المدينة نحو مكّة وإلى اليوم الّذي شرب فيه كأس الشهادة العذب في كربلاء. ويُمكن القول آلاف الدروس، حيث تُعتبر كلّ إشارة من ذلك الإمام العظيم درساً. لكن عندما نقول أكثر من مائة درس، نعني بذلك أنّه لو أردنا أن نُدقّق في هذه الأعمال لأمكننا استقصاء مائة عنوان وفصل، وكلّ فصل يُعتبر درساً لأمّة وتاريخ وبلد ولتربية النفس وإدارة المجتمع وللتقرّب إلى الله. هكذا هو الحسين بن عليّ (أرواحنا فداه وفداء اسمه وذكره) كالشمس الساطعة بين القدّيسين، أي إن كان الأنبياء والأئمّة والشّهداء والصّالحون كالأقمار والأنجم، فالحسين عليه السلام كالشّمس الطّالعة بينهم، كلّ ذلك لأجل هذه الأمور.

وإلى جانب المائة درس، هناك درس رئيس في هذا التحرّك والنهضة الّتي قام بها الإمام الحسين عليه السلام، سأسعى لتوضيحه لكم، وتكون كلّ

تلك الدروس بمنزلة الهوامش أمام هذا الّذي هو بمنزلة النصّ الأصليّ، وهو لماذا ثار الحسين عليه السلام؟ هذا هو الدّرس، لماذا ثرت يا حسين رغم كونك شخصيّة لها احترامها في المدينة ومكّة، ولك شيعتك في اليمن؟ اذهب إلى مكان لا شأن لك فيه بيزيد ولا ليزيد شأنٌ بك، تعيش وتعبد الله وتُبلّغ. هذا هو السؤال والدرس الرئيس، ولا نقول إنّ أحدًا لم يُشر إلى هذا الأمر من قبل، فقد حقّقوا وتحدّثوا كثيرًا في هذه القضيّة. وللإنصاف، ما نودّ قوله اليوم وهو برأينا استنتاجٌ جامعٌ ورؤية جديدة للقضيّة هو أنّ بعض النّاس يودّ أن يقول: إنّ هدف ثورة أبي عبد الله الحسين عليه السلام هو إسقاط حكومة يزيد الفاسدة وإقامة حكومة بديلة. هذا القول شبه صحيح وليس بخطأ، فلو كان القصد من هذا الكلام هو أنّ الحسين عليه السلام ثار لأجل إقامة حكومة بحيث إنّه لو رأى أنّه لن يصل إلى نتيجة لقال لقد قمنا بما علينا فلنرجع، فهذا خطأٌ. أجل: إنّ الذي يتحرّك لأجل الحكم، يتقدّم حتّى يرى إلى حيث يرى إن كان الأمر ممكنًا، فإذا رأى أنّ احتمال حصول هذا الأمر أو الاحتمال العقلائيّ غير موجود، فتكليفه هو أن يرجع. فإذا كان الهدف تشكيل الحكومة فالجائز هو أن يتحرّك الإنسان إلى حيث يُمكن، وعندما يُصبح غير ممكنٍ يجب أن يرجع.

وبعضٌ على العكس من ذلك، قالوا: ما الحكومة؟ إنّ الحسين عليه السلام كان يعلم بعدم تمكّنه من إقامة الحكومة، إنّه جاء لأجل أن يُقتل ويستشهد. لقد شاع هذا الكلام على الألسن كثيراً لمدّة من الزّمن، وكان بعضٌ يُبيّن ذلك بعبارات شاعريّة جميلة، حتّى إنّني رأيت بعض علمائنا الأجلّاء قد قالوا ذلك أيضًا. فالقول بأنّ الإمام عليه السلام ثار لأجل أن يستشهد، لأنّه رأى

أنّـه لا يمكنه عمـل شيء بالبقاء، فقال: يجب أن أعمـل شيئًا بالشهادة، لم يكـن كلامًا جديدًا. وبالنّسبة لهذا الكلام أيضًـا، ليس لدينا في المصادر والأسانيـد الإسلاميّـة ما يجوّز للإنسان إلقاء نفسه فـي القتل، ليس لدينا مثـل هذا الشـيء. إنّ الشهادة، الّتـي نعرفها في الشّـرع المقدّس والآيات والرّوايـات، معناها أن يتحرّك الإنسان ويستقبل الموت لأجل هدفٍ مقدّس واجـب أو راجح؛ هذه هـي الشّهادة الإسلاميّة الصّحيحـة. أمّا أن يتحرّك الإنسـان لأجل أن يُقتـل، أو بحسب التّعبير الشّاعـريّ أن يجعل دمه وسيلةً لزلزلـة الظّالم وإيقاعه أرضًا، فمثل هـذه الأمور لا علاقة لها بواقعةٍ بتلك العظمـة. إذًا هذا الأمر وإن كان فيه جانب من الحقيقة لكن لم يكن هدف الحسيـن عليه السلام. وباختصار لا يُمكننا القول إنّ الحسين عليه السلام ثار لأجل إقامة الحكومة، ولا القول: إنّه ثار لأجل أن يستشهد، بل يوجد شيءٌ آخر في البين. أتصوّر أنّ القائلين إنّ الهدف هو الحكومة أو الهدف هو الشهادة قد خلطوا بين الهدف والنتيجة. فقد كان للإمام الحسين عليه السلام هدفٌ آخر، والوصول إليه يتطلّب طريقًا وحركـةً تنتهي بإحدى النتيجتين: الحكومة أو الشّهـادة، وكان الإمام مستعدًّا لكلتـا النتيجتين، فقد أعدّ مقدّمات الحكم وكذا مقدّمات الشهادة، ووطّن نفسه على هذا وذاك، فإذا تحقّق أيّ منهما، كان صحيحًـا، لكن لم يكـن أيّ منهما هدفًا، بل كانا نتيجتين، وأمّا الهدف فهو شيءٌ آخر.

بشـكلٍ مختصر لـو أردنا بيان هـدف الإمام الحسين، ينبغـي أن نقول التالي: إنّ هدف ذلك العظيم كان عبارة عن أداء واجبٍ عظيم من واجبات الدّين لم يؤدّه أحدٌ قبله، لا النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولا أمير المؤمنين عليه السلام ولا الإمام

الحسن المجتبى عليه السلام ، واجبٌ يحتـلّ مكانًا هامًّا في البناء العام للنّظام الفكـريّ والقيمـيّ والعمليّ للإسلام. ورغم أنّ هـذا الواجب مهمٌّ وأساس، فلمـاذا لم يؤدَّ حتّى عهـد الإمام الحسيـن عليه السلام ؟ كان يجب على الإمام الحسيـن عليه السلام القيام بهذا الواجب ليكون درسًا علـى مرّ التّاريخ، مثلما أنّ تأسيس النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم للحكومـة الإسلاميّـة أصبح درسًا علـى مرّ تاريخ الإسلام، ومثلما أصبح جهاد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في سبيل الله درسًا على مرّ تاريخ المسلمين وتاريخ البشريّة إلى الأبد. كان ينبغي للإمام الحسين عليه السلام أن يؤدّي هذا الواجب ليُصبح درسًا عمليًّا للمسلمين وعلى مرّ التاريخ.

وأمّا أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو الّذي قام بهذا الواجب فلأنّ أرضيّة هـذا العمل قد مُهّـدت في زمن الإمام الحسين عليه السلام ، فلـو لم تُمهّد هذه الأرضيّة في زمن الإمـام الحسين عليه السلام ، كأن مُهّدت، على سبيل المثال، فـي زمن الإمام علي الهاديّ عليه السلام لقـام الإمام عليّ الهادي عليه السلام بهذا الواجـب، ولصار هو ذبيح الإسـلام العظيم؛ ولو صادف أن حدث ذلك في زمن الإمـام الحسن المجتبى عليه السلام أو في زمـن الإمام الصادق عليه السلام لـكان على أحدهمـا أن يعمل به. لكن لم يحدث ذلك فـي زمن الأئمّة حتّى عصـر الغيبـة إلّا في عصر الإمام الحسيـن عليه السلام . إذًا، لقد كان الهدف أداء هـذا الواجـب، وعندها تكون نتيجـة أداء الواجب أحـد الأمرين، إمّا الوصـول إلى الحكـم والسّلطة وقـد كان الإمام الحسيـن عليه السلام مستعدّاً لذلـك، لكـي يعود المجتمع كما كان عليه في عصـر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنيـن عليه السلام ، وإمّـا الوصول إلـى الشّهادة وهـو عليه السلام كان مستعدًّا لها أيضـاً. لقد خلق الله الحسين والأئمّـة عليهم السلام بحيث يتحمّلون مثل هذه

الشّهادة لمثل هذا الأمر، وقد تحمّل الإمام الحسين عليه السلام ذلك.

إنّ النبـيّ الأكـرم صلى الله عليه وآله وسلم - وكذا الأمـر بالنّسبة لأيّ نبـيّ - عندما بُعث، أتـى بمجموعة من الأحكام، بعضها فرديّ من أجل إصلاح الفرد، وبعضها اجتماعـيّ من أجل بناء المجتمعات البشريّـة وإدارة الحياة البشريّة. هذه المجموعـة مـن الأحكام يُقال لهـا النّظـام الإسلاميّ. لقد نـزل الإسلام على القلـب المقدّس للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وجاء بالصـلاة والصّوم والزّكاة والانفاقات والحجّ والأحـكام الأسريّة والعلاقات الفرديّة، ثمّ جاء بالجهاد فـي سبيـل الله وإقامة الحكومـة والاقتصـاد الإسلاميّ، وعلاقـة الحاكم بالرعيّـة ووظائـف الرعيّة تجـاه الحكومة. هـذه المجموعة مـن الأحكام عرضهـا الإسـلام على البشر، وبيّنها النبـيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**يا أيّها النّاس والله ما من شيء يُقرّبكم إلى الجنّة ويُباعدكم من النار إلّا وقد أمرتكم به**»[1]. ولم يُبيّن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كلّ ما يُسعد الإنسان والمجتمع الإنسانيّ فحسب، بل طبّقه وعمل به.

فقـد أقام الحكومـة الإسلاميّة والمجتمع الإسلامـيّ، وطبّق الاقتصاد الإسلامـيّ، وأُقيـم الجهـاد واستُحصلت الـزكاة، فشيّد نظامًـا إسلاميًّا وأصبـح النبـيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وخليفتـه من بعـده، مهندس النّظـام وقائد هـذا القطار في هذا الخطّ. كان الطريـق واضحًا وبيّنًا، فوجب على الفرد وعلـى المجتمـع الإسلاميّ أن يسير في هذا الطّريـق وعلى هذا النّهج، ولو حصـل ذلك لبلـغ النّاس الكمـال، ولأصبحوا صالحيـن كالملائكة، ولزال

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص74.

الظّلم والشرّ والفساد والفرقة والفقر والجهل من بين النّاس، ولوصلوا إلى السّعادة الكاملة ليصبحوا عباد اللّه الكمّل. لقد جاء الإسلام بهذا النّظام بواسطة النبيّ الأكرم ﷺ وطُبّق في مجتمع ذلك اليوم، فأين حدث ذلك؟ في بقعةٍ تُسمّى المدينة، واتّسع بعد ذلك ليشمل مكّة وما حولها. وهنا يُطرح سؤال وهو: ماذا يكون التكليف فيما لو جاءت يدٌ أو حادثة وأخرجت هذا القطار الّذي وضعه النبيّ الأكرم ﷺ عن هذه السكّة؟ وماذا يكون التكليف فيما لو انحرف المجتمع الإسلاميّ وبلغ الانحراف درجة بحيث خيف من انحراف أصل الإسلام والمبادئ الإسلاميّة؟

لدينا نوعان من الانحراف. فتارةً يفسد النّاس، وهذا ما يقع كثيراً، لكن تبقى أحكام الإسلام سليمة، وتارة ينحرف النّاس ويفسد الحكّام والعلماء ومبلّغو الدين - ففي الأساس لا يصدر الدين الصحيح عن قوم فاسدين - فيُحرّفون القرآن والحقائق، وتبدّل الحسنات سيّئات والسيّئات حسنات، ويُصبح المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، ويُحرّف الإسلام 180 درجة عن الاتّجاه الّذي رُسم له. فماذا يكون التّكليف فيما لو ابتُلي النّظام والمجتمع الإسلاميّ بمثل هذا الأمر؟ لقد بيّن النبيّ ﷺ وحدّد القرآن التكليف ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1]، إضافة إلى آيات وروايات كثيرة أخرى. وأنقل منها هذه الرّواية عن الإمام الحسين. لقد ذكر الإمام الحسين عليه السلام هذه الرّواية النبويّة للنّاس، وكان النبيّ ﷺ قد حدّث بها، لكن هل كان النبيّ ليقدر على العمل بهذا

(1) سورة المائدة، الآية 54.

الحكم الإلهيّ؟ كلّا، لأنّ هذا الحكم الإسلاميّ يُطبّق في عصر ينحرف فيه المجتمع الإسلاميّ ويبلغ حدًّا يُخاف فيه من ضياع أصل الإسلام. والمجتمع الإسلاميّ لم ينحرف في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم ينحرف في عهد أمير المؤمنين عليه السلام بتلك الصّورة، وكذا في عهد الإمام الحسن عليه السلام عندما كان معاوية على رأس السّلطة، وإن ظهرت الكثير من علائم ذلك الانحراف، لكنّه لم يبلغ الحدّ الّذي يُخاف فيه على أصل الإسلام. نعم، يُمكن أن يُقال بأنّه بلغ الحدّ في برهة من الزمن، لكن في تلك الفترة لم تُتح الفرصة ولم يكن الوقت مناسبًا للقيام بهذا الأمر. إنّ هذا الحكم الّذي يُعتبر من الأحكام الإسلاميّة لا يقلّ أهميّة عن الحكومة ذاتها، لأنّ الحكومة تعني إدارة المجتمع. فلو خرج المجتمع بالتّدريج عن مساره وخرُب وفسد وتبدّل حكم الله ولم يوجد عندنا حكم وجوب تغيير الوضع وتجديد الحياة أو بتعبير اليوم (الثورة)، فماذا تكون الفائدة من الحكومة عندها؟ فالحكم الّذي يرتبط بإرجاع المجتمع المنحرف إلى الخطّ الصّحيح لا يقلّ أهميّة عن الحكومة ذاتها، ويُمكن أن يُقال إنّه أكثر أهميّة من جهاد الكفّار ومن الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر العاديّين في المجتمع الإسلاميّ، بل وحتّى من العبادات الإلهيّة العظيمة كالحجّ. لماذا؟ لأنّ هذا الحكم - في الحقيقة - يضمن إحياء الإسلام بعد أن أشرف على الموت أو مات وانتهى.

منطلقات الثورة وثمارها

الأرضيّة الممهّدة للثّورة

إنّــه خليفة النبــيّ ﷺ الّذي يقع في عصره هــذا الانحراف بشرط أن يكــون الوقــت مناسبًا للقيام بذلــك، لأنّ الله لا يُكلّف بشــيء لا فائدة فيه. بالطّبــع، الوقــت المناسب لا يعني عــدم وجود الخطــر، كلّا، ليس هذا هو المقصــود؛ فمعنى هذه العبــارة، هو أن يعلم الإنســان أنّ هذا العمل الّذي يقوم بــه تترتّب عليه نتيجــة، أي إبلاغ النّداء إلى النّاس وإفهامهم وعدم بقائهم على خطئهم. وربّمــا أنّ الإسلام في عصر الإمام الحسين عليه السلام قــد تعرّض للتحريف وكان الوقــت مناسبًا والأرضيّة ممهّدة، لذا وجب على الحسيــن عليه السلام أن يثــور. فالشّخص الّــذي تولّى السّلطة بعــد معاوية لم يُراعِ حتّى ظواهر الإسلام. وكان منغمسًا في الخمر والمجون والتهكّم على القــرآن وترويج الشّعر المخالف للقرآن والّــذي يتهجّم على الدّين ويُجاهر بمخالفة الإسلام؛ غاية الأمر، لأنّ اسمه رئيس المسلمين لم يُرد أن يحذف اســم الإسلام. فهو لم يكن عاملًا بالإســلام ولا محبّاً له، وكان بعمله هذا

كنبع الماء الآسن الّذي يُفسد ما حوله ويعمّ المجتمع الإسلاميّ. هكذا يكون الحاكم الفاسد، فبما أنّه يتربّع على قمّة المرتفع، فما يصدر عنه لا يبقى في مكانه، بل ينتشر ليملأ ما حوله، خلافًا للنّاس العاديّين حيث يبقى فسادهم لأنفسهم أو لبعضٍ ممّن حولهم. وكلّ من شغل مقامًا ومنصبًا أرفع في المجتمع الإسلاميّ كان ضرره وفساده أكبر. لكن لو فسد من يقع على رأس السّلطة لانتشر فساده وشمل كلّ الأرض، كما أنّه لو كان صالحًا، لامتدّ الصّلاح إلى كلّ مكان. فشخصٌ مفسدٌ كهذا أصبح خليفة المسلمين بعد معاوية، وخليفة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ! فهل هناك انحرافٌ أكبر من هذا؟

هل أنّ معناه عدم وجود الخطر؟ كلّا، فالخطر موجود. فلا معنى أن يبقى من هو على رأس السّلطة ساكتًا أمام معارضيه ولا يخلق لهم المخاطر، بل من البديهيّ أن يوجّه لهم الضّربات، فعندما نقول الوقت المناسب، فمعناه أنّ الظروف في المجتمع الإسلاميّ مؤاتية لأن يُبلّغ الإمام الحسين عليه السلام نداءه إلى النّاس في ذلك العصر وعلى مرّ التاريخ.

فلو أراد الإمام الحسين عليه السلام الثّورة في عصر معاوية لدُفن نداؤه، وذلك لأنّ وضع الحكم في زمن معاوية والسياسات كانت بحيث لا يُمكن للنّاس معها سماع قول الحقّ، لذلك لم يقل الإمام الحسين عليه السلام شيئًا طيلة السّنوات العشر الّتي كان فيها إمامًا في زمن معاوية؛ فهو لم يفعل شيئًا ولم يُقدم ولم يثُر لأنّ الظّروف لم تكن مؤاتية. الإمام الحسن عليه السلام كان قبله ولم يثر لأنّ الظروف لم تكن مؤاتية أيضًا؛ لا أنّ الإمام الحسن عليه السلام لم يكن أهلًا لذلك. فلا فرق بين الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام، ولا بين الإمام الحسين عليه السلام والإمام السجّاد عليه السلام،

ولا بين الإمام الحسين عليه السلام والإمام علي النقيّ عليه السلام أو الإمام الحسن العسكريّ عليه السلام. بالطّبع، فإنّ منزلة الإمام الحسين عليه السلام - الّذي أدّى هذا الجهاد - هي أرفع من الّذين لم يؤدّوه، لكنّهم سواء في منصب الإمامة. ولـو وقع هذا الأمر في عصـر أيّ إمام، لثار ذلك الإمام ونال تلك المنزلة. فالإمام الحسين عليه السلام واجه مثل هذا الانحراف وكانت الظّروف مؤاتية، فـلا محيص له عليه السلام من تأدية هـذا التكليف، فلم يبقَ هنـاك أيّ عذر. لهـذا، عندما قال لـه عبد الله بن جعفر، ومحمد ابـن الحنفية، وعبد الله بـن عباس - الّذين كانوا من العلماء والعارفين بأحـكام الدين ولم يكونوا مـن عامّـة النّاس - إنّ تحرّكك فيه خطرٌ فلا تذهـب، أرادوا أن يقولوا: إنّ التكليـف قد سقط عنك لوجود الخطر، لكنّهم لـم يُدركوا أنّ هذا التكليف ليـس بالتكليف الّذي يسقط بوجود الخطر، لأنّ مثل هذا التكليف فيه خطر دومًـا، فهل يمكن لإنسان أن يثـور ضدّ سلطة مقتدرة في الظاهر ولا يواجه خطرًا؟!

إنّ العمـل الّـذي جرى في زمن الإمـام الحسيـن عليه السلام كانت نسخته المصغّـرة في عصـر إمامنا الخميني قدّس سره، غاية الأمـر أنّه هناك انتهى إلى الشّهادة وهنا انتهى إلى الحكم، فهما أمرٌ واحدٌ ولا فرق بينهما. فقـد كان هدف الإمام الحسين عليه السلام وهدف إمامنا الجليل واحدًا، وهذا الأمر يُشكّل أساس معارف الإمام الحسين عليه السلام، وإنّ المعارف الحسينيّة تُمثّل قسمًا عظيمًا من معارف الشّيعة. فهذا أصلٌ مهمّ وهو نفسه من أركان الإسلام.

فالهـدف كان عبـارة عـن إرجاع الإسـلام والمجتمـع الإسلامـيّ إلى

الصراط المستقيم والخطّ الصحيح. ففي أيّ زمان؟ في الوقت الّذي تبدّل الطّريق، وانحرف المسلمون نتيجة جهل وظلم واستبداد وخيانة بعض القوم. بالطّبع، إنّ التّاريخ يمرّ بمراحل مختلفة، فأحيانًا تكون الظّروف مؤاتية وأحيانًا لا تكون. وفي زمن الإمام الحسين عليه السلام كانت الظروف مؤاتية وفي زمننا كذلك، فأقدم الإمام على العمل نفسه، وكان الهدف واحداً. غاية الأمر، عندما يكون الإنسان متّجهًا نحو هذا الهدف ويريد الثّورة على الحكومة ومركز الباطل من أجل إرجاع الإسلام والمجتمع والنّظام الإسلاميّ إلى موقعه الصحيح، تارةً يصل إلى الحكومة؛ وأخرى لا يصل إلى الحكومة بل يصل إلى الشهادة، ألا يكون القيام في هذه الصّورة واجبًا؟ فلو وصل إلى الشهادة لكان واجباً أيضًا. فهل أنّه في هذه الصّورة التي وصل فيها إلى الشهادة، لا يكون للقيام فائدة؟ لـمَ لا، فلا يوجد أيّ فرق. فهذا القيام وهذا التحرّك مفيدٌ في كلا الحالتين، سواءٌ وصل إلى الشّهادة أم وصل إلى الحكومة، غاية الأمر أنّ لكلّ منهما نوعًا خاصًّا من الفوائد يجب القيام به والتحرّك نحوه.

فهذا هو العمل الّذي قام به الإمام الحسين عليه السلام. غاية الأمر، أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو أوّل من قام بهذا التحرّك، ولم يقم به أحدٌ قبله؛ لأنّه في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأمير المؤمنين عليه السلام ما كانت مثل هذه الأرضيّة والانحراف موجودين، أو إذا كان هناك انحراف في بعض الموارد فلم تكن الأرضيّة مناسبة ولا المقتضى موجوداً (للثورة)، أمّا في زمن الإمام الحسين عليه السلام، فكلا الأمرين قد وُجدا؛ فهذا هو أساس القضيّة في مورد نهضة الإمام الحسين عليه السلام.

الثورة تكليف وواجب

يُمكننا أن نُلخّص القضيّة بهذه الصّورة: إنّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام كانت لتأدية واجبٍ عظيم وهو إعادة الإسلام والمجتمع الإسلاميّ إلى الخطّ الصّحيح أو الثّورة ضدّ الانحرافات الخطيرة في المجتمع الإسلاميّ. وهذا ما يتمّ عن طريق الثّورة وعن طريق الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، بل هو مصداقٌ عظيم للأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. بالطّبع، فقد تكون نتيجتها إقامة الحكومة، وقد تكون الشّهادة، وقد كان الإمام الحسين عليه السلام مستعدًّا لكلتا النّتيجتين. والدّليل على ذلك هو ما يُستنتج من أقوال الإمام الحسين عليه السلام. وهذه بعض أقوال أبي عبد الله عليه السلام وكلّها تشير إلى هذا المعنى:

أ - عندما طلب الوليد، والي المدينة، الإمام الحسين عليه السلام ليلًا وقال له: إنّ معاوية قد مات وعليك بمبايعة يزيد، ردّ عليه الإمام عليه السلام: «**نُصبح وتُصبحون وننظر وتنظرون أيّنا أحقّ بالبيعة والخلافة**»[1].

وعند الصباح عندما لقي مروان أبا عبد الله عليه السلام طلب منه مبايعة يزيد وعدم تعريض نفسه للقتل، فأجابه الإمام عليه السلام: «**إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وعلى الإسلام السّلام إذ قد بُليت الأمّة براعٍ مثل يزيد**»[2]. فالقضيّة ليست شخص يزيد، بل أيّ شخصٍ مثل يزيد، فما يريد الإمام الحسين عليه السلام قوله هو: لقد تحمّلنا كلّ ما مضى، أمّا الآن فإنّ أصل الدين والإسلام والنّظام الإسلاميّ في

---

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 44، ص325.

(2) م.ن، ص326.

خطر، إشارة إلى أنّ الانحراف خطرٌ جدّي، والقضيّة هي الخطر على أصل الإسلام.

ب - إنّ أبا عبد الله عليه السلام قد أوصى أخاه محمّد ابن الحنفيّة، مرّتين: الأولى عند خروجه من المدينة، والثّانية عند خروجه من مكّة. ولعلّ هذه الوصيّة كانت عند خروجه من مكّة في شهر ذي الحجّة - فبعد الشّهادة بوحدانيّة الله ورسالة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول الإمام عليه السلام : «**وإنّي لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا مفسدًا ولا ظالمًا وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي** صلى الله عليه وآله وسلم»(1)، أي أريد الثّورة لأجل الإصلاح لا للوصول إلى الحكم حتمًا أو للشّهادة حتمًا. والإصلاح ليس بالأمر الهيّن، فقد تكون الظّروف بحيث يصل الإنسان إلى سدّة الحكم ويمسك بزمام السّلطة وقد لا يمكنه ذلك ويستشهد، وفي كلتا الحالتين تكون الثّورة لأجل الإصلاح. ثمّ يقول عليه السلام : «**أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي وأبي عليّ بن أبي طالب** عليه السلام **فمن قبلني بقبول الحقّ فالله أولى بالحقّ، ومن ردّ عليّ هذا أصبر حتّى يقضي الله بيني وبين القوم بالحقّ** ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾(2)...»(3). والإصلاح يتّم عن هذا الطّريق، وهو ما قلنا أنّه مصداق للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(1) م.س، ص 329.

(2) سورة الأعراف، الآية 87.

(3) بحار الأنوار، ج44، ص 330.

ج - عندما كان الإمام عليه السلام في مكّة، بعث بكتابين، الأوّل إلى رؤساء البصرة، والثاني إلى رؤساء الكوفة، جاء في كتابه إلى رؤساء البصرة: «**وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، فإنّ السنّة قد أُميتت والبدعة قد أُحييت، فإن تسمعوا قولي وتُجيبوا دعوتي وتُطيعوا أمري أُهدكم سبيل الرّشاد**»[1]. أي يريد الإمام الحسين عليه السلام تأدية ذلك التّكليف العظيم وهو إحياء الإسلام وسنّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والنّظام الإسلاميّ. وجاء في كتابه إلى أهل الكوفة: «**فلعمري ما الإمام إلّا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط والدائر بالحقّ والحابس نفسه عن ذات الله، والسلام**»[2]. الإمام ورئيس المجتمع الإسلاميّ لا يمكن أن يكون فاسقًا فاجرًا خائنًا مفسدًا بعيدًا عن الله، بل يجب أن يكون عاملًا بكتاب الله، وذلك بالطّبع على مستوى المجتمع، لا أن يحبس نفسه في غرفة الخلوة للصّلاة، بل أن يحيي العمل بالكتاب على مستوى المجتمع، ويأخذ بالقسط والعدل ويجعل الحقّ قانون المجتمع. ولعلّ معنى الجملة الأخيرة هو أنّه يثبّت نفسه على الصّراط الإلهيّ المستقيم بأيّ نحوٍ حتّى لا يقع أسير الإغراءات الشّيطانيّة والماديّة. أي إنّ الإمام عليه السلام قد بيّن هدفه من الخروج.

(1) أبو مخنف الكوفي، وقعة الطف، تحقيق وتصحيح محمد هادي اليوسفي الغروي، نشر جماعة المدرسين، الطبعة الثالثة، 1417هـ، قم - إيران، ص107.

(2) م. ن، ص 96.

د-كان الإمام عليه السلام بعد خروجه من مكّة يُخاطب النّاس في كلّ منزل ينزل فيه؛ عندما (واجه الحسين عليه السلام جيش الحرّ) وسار بأصحابه في ناحية، والحرّ ومن معه في ناحية، حتّى بلغ «البيضة» خاطب الإمام عليه السلام أصحاب الحرّ، فقال: «**أيّها النّاس إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من رأى سلطانًا جائرًا مستحلًّا لحُرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغيّر عليه بفعل ولا بقول، كان حقًّا على الله أن يُدخله مدخله**»[1]. فالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بيّن ما يجب عمله إذا انحرف النّظام الإسلاميّ، وقد استند الإمام الحسين عليه السلام إلى قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هذا.

فالتّكليف هو أن «**يُغيِّر بفعل أو قول**»، فإذا واجه الإنسان مثل هذه الظّروف، وكان الظّرف مؤاتيًا كما تقدّم، وجب عليه أن يثور ضدّ هذا الأمر ولو بلغ ما بلغ، سواء أدّى ذلك لأنّ يُقتل، أو أن يبقى حيًّا، أو أن ينجح في الظّاهر أو لا ينجح؛ يجب على كلّ مسلم في مثل هذه الحال أن يثور. وهذا تكليفٌ قال به النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. ثمّ قال عليه السلام : «**وإنّي أحقّ بهذا**»[2]، لأنّي سبط النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم؛ فإذا كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قد أوجب هذا الأمر على المسلمين فردًا فردًا، فإنّ سبط النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ووارث علمه وحكمته الحسين بن علي عليه السلام سيكون أحقّ بالثّورة؛ «فإنّي خرجت لهذا الأمر»، فيُعلن عن سبب وهدف ثورته وهو لأجل «التغيير» أي الثّورة ضدّ هذا الوضع السّائد.

(1) م.س، ص172.

(2) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 44، ص 382.

هـ- كان للإمــام الحسين في منزل عُذيب، ـ حيث التحق به أربعة نفر: بيـانٌ آخر، قال لهم الإمام عليه السلام : «**أمـا والله إنّي لأرجو أن يكون خيرًا ما أراد الله بنا قُتلنا أم ظفرنا**»[1]. وهذا دليل على ما تقدّم أنّه لا فرق سواء انتصر أم قُتل، يجب أداء التكليف.

وفي أوّل خطبةٍ لـه عليه السلام عند نزوله كربلاء، يقول عليه السلام : «**وإنه قد نـزل مـن الأمر ما قد ترون**» إلـى أن يقول: «**ألا ترون إلـى الحقّ لا يُعمل بـه وإلى الباطل لا يُتناهى عنـه؟ ليرغب المؤمن في لقاء ربّه حقًّا...**»[2] إلى آخر الخطبة.

إنّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام ، إذًا، كانت تأديةً لواجب، وهذا الواجب يتوجّه إلى كلّ فرد من المسلمين عبر التاريخ، وهو أنّه على كلّ مسلم لزوم الثّورة حال رؤيـة تفشّي الفساد في جذور المجتمع الإسلاميّ بحيث يُخاف من تغييرٍ كلّي في أحكام الإسلام؛ بالطّبع، بشرط أن تكون الظّروف مؤاتية، وعُلم بأنّ لهذه الثورة نتيجة؛ أمّا مسألة البقاء على قيد الحياة وعدم القتل وعدم التعرّض للتعذيب والأذى والمعاناة، فهذه الأمور ليست من الشّروط. فالحسيـن عليه السلام قـد ثار وأدّى هـذا الواجب عملياً ليكـون درسًا للجميع. (1995/06/09)

لقـد قام الإمام الحسين بـن عليّ عليه السلام وأيقظ وجـدان النّاس. لهذا ظهرت تلك النّهضات الإسلاميّة الّتي بدأت واحدة تلو الأخرى، بعد شهادة الإمـام الحسيـن عليه السلام ، والّتي جرى قمعهـا حتمًا. ولكن ليـس المهمّ أن

(1) وقعة الطف، ص 174.

(2) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 44، ص 381.

يجـري قمع التحرّك مـن قبل العدوّ وإن كان بالطّبع مـرًّا، ولكن ما هو أمرّ هـو أن يصل المجتمع إلى حيـث لا يظهر أيّ ردّة فعل مقابل العدوّ، هذا هو الخطر الأكبر.

الثّمار الطيّبة للثّورة الحسينيّة

لقد قام الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام بعمل، أدّى إلى ظهور أشخاصٍ فـي جميع عهود الحكومـات الطاغوتية؛ ورغم أنّهم كانـوا أبعد عن عصر صدر الإسلام إلّا أنّ إرادتهم للقتال والجهاد ضدّ جهاز الظّلم والفساد كانت أكبـر من عصر الإمام الحسـن المجتبى عليه السلام. كمـا كان يُقضى عليهم جميعًا؛ فبدءًا من قضية قيام أهل المدينة المعروفة بالحرّة، إلى الأحداث اللاحقـة وقضايا التوّابيـن والمختار الثقفي إلى عصر بنـي العبّاس، ففي الداخل هناك شعوبٌ دائمًا ما تثور. فمن ذا الّذي أوجد مثل هذه الثّورات؟ إنّـه الحسين بن علي عليه السلام. فلو لـم يثر الإمام الحسين عليه السلام هل كانت لتتبـدّل هذه الروحية الكسولة والمتهرّبة من المسؤوليّة إلى روحيّة مواجهةٍ للظلـم وتحمّـل المسؤوليّة؟ لماذا نقـول إنّ روحيّة تحمّـل المسؤوليّة كانت ميّتـة؟ إنّه بسبب أنّ الإمام الحسين عليه السلام ذهب من المدينة، الّتي كانت مهـد الرّجـال العظام في الإسلام، إلـى مكّة. وكان أبنـاء العبّاس والزبير وعمـر وأبنـاء خلفاء صـدر الإسلام قـد اجتمعـوا جميعهم فـي المدينة، ولـم يكـن أيٌّ منهم حاضـرًا أو مستعدًّا لمساعـدة الإمام الحسين عليه السلام فـي هذه الثّـورة الدمويّـة والتّاريخيّـة. إذًا، فإلى ما قبل بدء ثـورة الإمام الحسيـن عليه السلام، لم يكـن الخواصّ مستعدّين ليخطوا خطـوةً واحدة. أمّا

بعد ثورة الإمام الحسين عليه السلام فقد أُحييت هذه الرّوحيّة. وهذا درسٌ كبير ينبغي أن نُضيفه إلى الدّروس الأخرى في واقعة عاشوراء. عظمة هذه الواقعة هي هذه. هذا الّذي يُقال: «**الموعود بشهادته قبل استهلاله وولادته،** [هذا الّذي] **بكته السماء ومن فيها والأرض ومن عليها**»[1] قبل ولادته، إنّه الحسين بن عليّ عليه السلام الّذي له ذلك العزاء الكبير ونحن نُعظّمه. وبحسب هذا الدّعاء أو الزّيارة فإنّ البكاء عليه هو من أجل ذلك. لهذا، عندما ننظر اليوم نرى أنّ الذي أحيى الإسلام وحفظه هو الحسين بن علي عليه السلام.

(1993/01/26)

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 98، ص 347.

الفصل السابع:

حركة السيدة زينب الكبرى عليها السلام وأحداث ما بعد كربلاء

- ملحمة زينب الكبرى عليها السلام.
- حركة الإمام السجّاد عليه السلام في مرحلة الأسر.
- الشّيعة بعد حادثة كربلاء.

ملحمة زينب الكبرى عليها السلام

إنّ زينب الكبرى عليها السلام امرأةٌ عظيمة. فمن أين تنبع هذه العظمة التي تحملها هذه المرأة الجليلة في أعين الشّعوب الإسلاميّة؟ لا يصحّ القول بأنّها نابعة من كونها كانت ابنة عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، أو أخت الحسين بن عليّ والحسن بن عليّ عليهم السلام ، فالنّسب لا يُمكنه دومًا أن يخلق مثل هذه العظمة، لقد كان لجميع أئمّتنا بناتٌ وأمّهاتٌ وأخوات ولكن من منهنّ كانت كزينب الكبرى عليها السلام ؟! فإنّ قيمة وعظمة زينب الكبرى إنّما تنبع من موقفها وحركتها الإنسانيّة والإسلاميّة العظيمة على أساس التكليف الإلهيّ. فعملها وقرارها ونوعيّة حركتها، كلّ ذلك منحها هذه العظمة. وكلّ من تقوم بمثل هذا العمل، حتّى ولو لم تكن بنت أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنّها ستحصل على مثل هذه العظمة. فمنشأ هذه العظمة هو من هنا، أوّلًا من تشخيصها للموقف، سواءٌ قبل تحرّك الإمام الحسين عليه السلام إلى كربلاء، أم في لحظات المحنة في يوم عاشوراء، أم في الأحداث القاصمة التي تلت شهادة الإمام الحسين عليه السلام ؛ وثانياً من اختيارها لما يتناسب مع كلّ موقف، فهذه الخيارات الّتي صنعت زينب عليها السلام .

فقبـل التحـرّك إلى كربلاء، نجـد أنّ وجهاء، كابن عبّاس وابن جعفر وشخصيّـات معروفة فـي صدر الإسـلام، ممّن يدّعي الفقاهـة والشّهامة والرّئاسـة قد تحيّـروا ولم يكونوا يعلمـون ما يفعلون، ولكـنّ زينب الكبرى لـم تُصب بالحيرة، وأدركت أيّ طريقٍ ينبغـي أن تسلكه، ولم تترك إمامها وحيـدًا وتذهب. فهي لم تُدرك صعوبـة الطّريق فحسب، بل شعرت به أكثر من غيرها. لقد كانت امرأةً حاضرة لأن تُضحّي بأسرتها لأجل أداء المهمّة، ولهذا أحضرت أطفالها وأبناءها معها. كانت تشعر بكيفيّة الواقعة. في تلك السّاعـات العصيبة حيث لا يقـدر أقوى النّاس علـى إدراك ما ينبغي عليه فعلـه، لقد أدركت (السيّـدة زينب عليها السلام) ذلك ودعمـت إمامها وجهّزته لمذبـح الشهـادة. وبعد شهـادة الحسين بـن عليّ عليه السلام، وحيـن أظلمت الدنيا وتكدّرت القلوب والنفوس وآفاق العالم، أضحت هذه السيّدة الكبرى نورًا ومنارةً. لقد وصلت زينب عليها السلام إلى حيث لا يصل سوى أعظم النّاس في تاريخ البشريّة ـ أيّ الأنبياء.

(1991/11/13)

فـي الواقـع إنّ كربلاء مـن دون زينب عليها السلام ما كانـت لتكون كربلاء. ومـا كانـت عاشوراء مـن دون زينب الكبـرى عليها السلام لتكون تلـك الحادثة التّاريخيّـة الخالدة. لقد برزت هذه الشّخصيّـة لابنة عليٍّ عليه السلام من أوّل الحادثة إلى آخرها، بحيث يشعر المرء أنّ حسينًا ثانيًا كان في لباس امرأةٍ وفـي ثوب ابنة عليّ. وفي غير ذلك، مـاذا كان سيحدث بعد عاشوراء؟ لعلّ الإمـام السجّـاد عليه السلام كان ليُقتل، ولعلّ نداء الإمـام الحسين عليه السلام ما كان ليصـل إلـى أحد. في تلـك المرحلة، وقبل شهادة الإمـام الحسين بن

عليّ عليه السلام أيضًا، كانت زينب كمواس وصديقٍ وشخصٍ لم يشعر الإمام الحسين عليه السلام مع وجوده بالوحدة أو بالتّعب. إنّ المرء ليُشاهد مثل هذا الدّور في وجه زينب عليها السلام وفي كلماتها وفي حركاتها.

لقد شعرت زينب عليها السلام بالاضطراب مرّتين، وكانت قد ذكرت هذا الاضطراب للإمام الحسين عليه السلام. أحدها، كان بعد مجيء خبر شهادة مسلم، عندما جاء الإمام ونقل بعض المسائل ووصلت الأخبار المختلفة. فحضرة زينب عليها السلام هي في النّهاية امرأة ذات عواطف جيّاشة وتمتلك مشاعر المرأة المرهفة؛ كما أنّ مظهر هذا الغليان في الشعور هم آل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. ففي عين الصّلابة والقدرة والشجاعة والمقاومة إزاء المصائب، نجد مرّةً أخرى أنّ هذه الأسرة نفسها هي مظهر النّبع الفوّار والزلال للرّهافة الإنسانيّة والرّحمة البشريّة. ولو ضربت الحسين بن علي عليه السلام مثالًا على ذلك، فهذا الّذي كان يقف أمام العالم كلّه، أمام بيداء الذّئاب المفترسة، ويقاوم وحده ولا يهتزّ، لكنّه يضطرب أمام الأشياء الصغيرة. مثلما حدث عندما صُرع ذلك الغلام الحبشيّ الأسود، فجاء الإمام عليه السلام ووقف على رأسه. كان هذا غلامـاً أسود ومن المخلصين والمحبّين، لعلّه جون، غلام أبي ذر، ولكن بلحاظ الوضع الاجتماعيّ والثّقافة الاجتماعيّة التي كانت سائدة آنذاك ـ وإن لم يكن بين المسلمين في النّهاية طبقة رفيعة جدًّا ـ فإنّه لم يكن صاحب مرتبة شريفة ورفيعة. فعندما يُقتل ـ حسنٌ، هناك الكثيرون ممّن كانوا قد قُتلوا من أشراف الكوفة والوجهاء والمشهورين فيها، كحبيب بن مظاهر وزهير بن القين وغيرهم، من الّذين يُعدّون من الكبراء

والمشهورين فيها؛ لقد استُشهدوا بجانب الإمام الحسين عليه السلام، وعندما سقطوا لم يُظهر حضرة (الإمام) مثل هذه الحركة (التي أظهرها تجاه هذا الغلام)، بل خاطب أمثال مسلم بن عوسجة قائلًا: إن شاء الله تؤجر من الله ـ فعندما يُقتل هذا الغلام الأسود الّذي ليس له أحد ولا ولد ولا أسرة تنتظره لتبكي عليه، يأتي الحسين بن عليّ عليه السلام ويقوم تجاهه بنفس تلك الحركة التي قام بها تجاه عليّ الأكبر؛ فيقف على رأسه ويضع رأسه المدمّى في حجره لكنّه لا يهدأ؛ فقد رآه الجميع كيف أنّه انحنى ووضع وجهه على وجه هذا الغلام الأسود. هكذا هي العاطفة الإنسانيّة الفوّارة!

لهذا، فإنّ زينب هي امرأة ذات عواطف ومشاعر جيّاشة، فلم تكن في ذلك الوقت امرأة عاديّة، فهي أخت الإمام الحسين عليه السلام، أختٌ تُحبّ الإمام الحسين عليه السلام إلى درجة العشق، أختٌ تركت زوجها وعائلتها وأتت مع الإمام الحسين عليه السلام؛ لكنّها لم تأتِ وحدها؛ بل أحضرت معها ابنيها عونًا ومحمّدًا، من أجل أن يكونا معها على طريق الله، ولو اقتضى الأمر التضحية فليستشهدا. لقد أحسّت بالخطر في إحدى المحطّات أثناء الطريق، فذهبت وعرضت الأمر على الإمام الحسين عليه السلام: أخي! إنّني أشعر بالخطر وأرى الوضع خطيرًا. لقد كانت تعلم أنّ القضيّة هي قضيّة شهادة وأسر، لكنّها شعرت بالضّغط في ظلّ تلك الأحداث التي كانت تغلي لهذا راجعت الإمام الحسين عليه السلام، وهنا لم يقل لها الإمام الحسين عليه السلام شيئًا كثيرًا؛ لقد قال لا يوجد شيء، والذي يريده الله سوف

يحدث، ما يقرب من هذا المضمون، «**ما شاء الله كان**»[1]. ولا نرى زينب الكبرى سلام الله عليها بعد ذلك أنّها قالت شيئًا للإمام الحسين عليه السلام أو سألته عن شيء أو أنّها شعرت بانقباضٍ نفسيٍّ وقامت بنقله إليه، سوى في ليلة عاشوراء.

وأوّل ليلة عاشوراء، هناك حيث يُمكن أن يُقال إنّ زينب الكبرى عليها السلام قد فقدت صبرها من شدّة الغم، يقول الإمام السجّاد عليه السلام الّذي كان مريضًا: كنت نائماً في الخيمة وكانت عمّتي زينب عليها السلام جالسةً قربي تداويني، وكانت الخيمة المجاورة لنا هي خيمة أبي عليه السلام، فقد كان جالسًا، وكان جون غلام أبي ذر، مشغولاً بإعداد سيف حضرة الإمام عليه السلام، والجميع يُهيّئ نفسه لأجل القتال في الغد؛ يقول: رأيت فجأةً أبي يدندن ويقرأ أشعارًا كان مضمونها بأنّ الدّنيا قد أدبرت والدّهر غدّار والموت قد أقبل:

«يا دهر أفٍّ لك من خليل

كم لك في الإشراق والأصيل»[2].

فعندما كان ينشد شخصٌ هذا الشّعر فقد كان هذا دليلًا على أنّه أصبح واثقًا من أنّه سوف يرتحل عن هذه الدنيا عمّا قريب. يقول الإمام السجّاد عليه السلام: سمعت هذا الشّعر وأدركت رسالته ومعناه وعلمت أنّ الإمام الحسين عليه السلام ينعى نفسه، ولكنّني تمالكت نفسي. نظرت لأرى عمّتي زينب عليها السلام فجأةً وقد غرقت في حزنٍ شديد، فنهضت وذهبت إلى

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 530.

(2) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 44، ص 316.

خيمة أخيها وقالت له: أخي! أراك تتعى نفسك. لقد كنّا إلى اليوم نأنس بك، وعندما رحل أبونا عن هذه الدّنيا قلنا يوجد إخوة لنا، وعندما استُشهد أخي الإمام الحسن عليه السلام، قُلت ما زال لديّ الإمام الحسين عليه السلام، ولقد استأنست بك طيلة هذه السنوات، واعتمدت عليك وأنا اليوم أراك تتعى نفسك.

لزينب عليها السلام الحق في أن تتألّم. ولعلّ الحالة الّتي كانت عليها زينب عليها السلام في ذلك اليوم كانت حالة غير عاديّة. أنا أتصوّر أنّ الوضع الذي كان موجودًا في ذلك اليوم (العاشر) بالنّسبة لزينب كان وضعًا استثنائيًّا. فلا يُمكننا مقارنة وضعها بوضع أيّ من النّساء، ولا حتّى بالإمام السجّاد عليه السلام. لقد كان وضع زينب عليها السلام وضعًا صعبًا ومرهقًا إلى حدٍّ بعيد. فجميع الرجال قد استُشهدوا في يوم عاشوراء. ولم يبقَ في عصر عاشوراء رجل واحد في كلّ المخيّم سوى الإمام السجّاد عليه السلام الّذي كان أيضًا مريضًا وكان قد سقط هناك ولعلّه كان في حالة من الإغماء. الآن إذا نظر المرء إلى هذا الوضع، مخيّم فيه ما يُقارب الثمانين أو الأربعة وثمانين نفرًا ما بين طفلٍ وامرأة، محاصرون في وسط بحرٍ من الأعداء، فكم يحتاجون من العمل والجهد؟! والبعض عطشى، والبعض جوعى، بل لعلّه يُمكن القول بأنّ الجميع كانوا عطشى وجوعى؛ وجميع القلوب مضطّربة وخائفة، وأجساد الشهداء مقطّعة إربًا إربًا وقد سقطت على الأرض، بعضهم إخوتهم، وبعضهم أبناؤهم. وعلى كلّ حال لقد كانت حادثة مرّة جداً ومهولة، وكان ينبغي لشخصٍ ما أن يجمع كلّ هؤلاء، وهذا الشخص هو زينب عليها السلام.

لم تكن زينب عليها السلام مجرّد شخصٍ قد فقد أخاه أو ولديه أو إخوته الآخرين أو كلّ هؤلاء الأعزّاء، ثمانية عشر شابًّا من شباب بني هاشم والأصحاب الأوفياء؛ لقد كان هناك شيءٌ آخر لا يقلّ أهميّة عمّا جرى وهو أنّها كانت، بين كلّ هؤلاء الأعداء، مسؤولة عن هذا الحمل الثقيل لإدارة وحراسة هذه البقيّة من النساء والأطفال الّذين تفرّقوا وتشتّتوا، كما كان عليها أن ترعى الإمام السجّاد عليه السلام أيضًا. لذا، اللّه وحده يعلم في بضع السّاعات تلك التي تلت وقوع الحادثة، وإلى حين حلول وقت التحرّك والرّحيل، وتحديد الأعداء ما الذي سيفعلونه بهم؛ في بضع الساعات تلك التي ضمّت تلك الليلة المظلمة والحالكة والعصيبة، اللّه وحده يعلم ما الذي جرى على زينب الكبرى عليها السلام. لهذا كانت زينب عليها السلام طوال هذه الساعات في حركةٍ دائمة تركض ناحية هذا الطفل، وناحية تلك المرأة، وناحية تلك الأمّ الثكلى، وناحية تلك الأخت المفجوعة بأخيها، وناحية ذلك الطفل الرّضيع، تقوم بحركةٍ دائمة بين الأفراد وتجمعهم وتواسيهم وتعطف عليهم. لكن في لحظة من اللحظات، كان صبرها يفيض، فتبدأ بمخاطبة أخيها، وتذهب إلى أخيها الشهيد، ملاذها الوحيد وملجأها. لدينا في الروايات أنّ زينب الكبرى جاءت إلى جسد أخيها المقطّع ونادت من أعماق قلبها: «**يا محمّداه. صلّى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعراء مرمّلٌ بالدماء**»[1].

(1984/10/12)

(1) وقعة الطف، ص259.

عندمـا يُقال أنّ الدمّ انتصـر على السّيف في عاشـوراء وفي واقعة كربلاء، وهو كذلك، فإنّ عامل هذا الانتصار هو زينب عليها السلام ؛ وإلا فإنّ الدمّ في كربلاء قد انتهى. واقعةٌ عسكرية انتهت بهزيمةٍ ظاهرية لقوى الحـقّ في ميـدان عاشوراء. أما ذلك الشيء الّـذي أدّى إلى تبديل هذه الهزيمـة العسكريّـة الظاهريّة إلى انتصارٍ قطعـيٍّ دائميّ هو شخصيّة زينب الكبرى عليها السلام . فالدور الّذي قامت به زينب عليها السلام ؛ هو أمرٌ في غاية الأهميّة. وقد دلّت هذه الواقعة على أنّ المرأة ليست موجودةً على هامش التاريخ، بل هي فـي صلب الأحداث التّاريخيّـة المهمّة. القرآن أيضـاً ناطـقٌ بهـذه المسألة فـي مواردٍ متعـدّدة، لكـنّ هذه (الحادثة) مرتبطة بالتّاريـخ القريب وليست مرتبطة بالأمم الماضية؛ إنّها حادثةٌ حيّـةٌ ومحسوسـةٌ يُشاهـد فيهـا الإنسـان زينب الكبـرى عليها السلام تظهر بهذه العظمـة المحيّرة والسّاطعة في الميدان، وتقـوم بعملٍ يذلّ العدوّ ويُحقّره، عدوٌّ قد انتصر في المعركة العسكريّة بحسب الظّاهر، واقتلع المعارضيـن وقمعهـم وجلس على عرش النّصر في مقـرّ سلطته وفي قصـر رئاسته؛ فتسِـم جبينه بوصمة العار الأبديّ وتبـدّل انتصاره إلى هزيمة. هذا هو عمل زينب الكبرى. لقد أظهرت زينب سلام الله عليها أنّـه يُمكنها أن تُبدّل الحجاب وعفاف المرأة إلـى العزّة الجهاديّة، إلى جهادٍ عظيم.

ومـا بقيَ من خُطَب زينب الكبرى عليها السلام ، ممّا هـو في متناول الأيدي، يظهر عظمة حركة زينب الكبرى عليها السلام . فخطبتها الّتي لا تُنسى في أسواق الكوفـة لم تكـن كلامًا عاديًـا، ولا موقفًا عاديًا لشخصيّـةٍ كبرى، بل بيّنت

بتحليلٍ عظيـم أوضاع المجتمع الإسلاميّ في ذلك العصر بأجمل الكلمات وأعمـق وأغنى المفاهيم في مثل تلك الظّروف. انظروا إلى قوّة الشخصيّة تلك، يا لها من شخصيّة قويّة.

فقبـل يوميـن، كانـت قد فقـدت أخاهـا وقائدهـا وإمامهـا في تلك الصحراء، فقدته مع كلّ الأعزّاء والشباب والأبناء، وهذا الجمع المؤلّف من بضع عشـرات من النساء والأطفال قد أُسـروا وأُحضروا على مرأى مـن أعيـن النّاس وحُملـوا على نيـاق الأسْر، وجـاء النّاس للمشاهدة، وبعضهـم كان يُهلّل وبعضهم كان يبكـي؛ ففي خضمّ هذه المحنة، تسطع فجـأةً شمس العظمة، فتستعمـل نفس اللهجة الّتـي كان يستعملها أبوها أميـر المؤمنيـن عليه السلام وهو على منبـر الخلافة مخاطبًـا أمّته، فتنطق بالطّريقـة نفسها، وباللهجة والفصاحة والبلاغـة نفسها، وبذلك السموّ فـي المضمون والمعنى نفسه: «**يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر**»، أيّهـا المخادعون، أيّها المتّظاهرون، لعلّكم صدّقتكم أنّكم أتباع الإسلام وأهـل البيت، ولكـن سقطتم في الامتحان وصرتم فـي الفتنة عميًا، «**ألا وهـل فيكـم إلّا الصّلِـف والنّطِـف وملـق الإمـاء، وغمـز الأعـداء؟**»[1]، فتصرّفكـم وكلامكم لا ينسجم مع قلوبكم. لقد غرّتكم أنفسكم وظننتم أنّكم مؤمنون، وتصوّرتم أنّكم ما زلتم ثوريين، ظننتم أنّكم ما زلتم أتباع أمير المؤمنين عليه السلام، في حين أنّ واقع الأمر لم يكن كذلك. لم تتمكّنوا مـن الصّمـود والنّجاح في الفتنـة، ولم تتمكّنـوا من النّجـاة بأنفسكم،

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج45، ص 109.

«... إنما مثلكم كمثل التي ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾»[1] [2] فقد أصبحتم كالّتي بدّلت الحرير أو القطن إلى خيوط، ثمّ أرجعت تلك الخيوط ونقضتها إلى قطن أو حرير، فمن غير بصيرةٍ ووعيٍ للظّروف، ومن غير تمييز بين الحقّ والباطل، أبطلتم أعمالكم وأحبطتم سوابقكم. فالظّاهر ظاهر الإيمان، واللسان يطفح بالادّعاءات الثوريّة، أمّا الباطن فهو باطنٌ أجوف خالٍ من المقاومة أمام العواصف المعارضة. فهذا يُعدّ من الآفات.

فبهذا البيان القويّ والكلمات البليغة، وفي ظلّ تلك الظّروف الصّعبة، تحدّثت زينب الكبرى عليها السلام. فلم يكن الأمر بحيث نرى مجموعة من المستمعين يجلسون أمام زينب ويستمعون إليها وهي تتحدّث معهم كخطيبٍ عاديّ؛ كلا، بل كان هناك عددٌ من الأعداء، وحملة الرّماح يُحيطون بهم، وكان هناك أُناسٌ مذبذبون أمثال أولئك الّذين سلّموا مسلمًا إلى ابن زياد، وأولئك الّذين كتبوا الرّسائل للإمام الحسين عليه السلام وتخلّفوا عنه، وأمثال أولئك الذين كان ينبغي لهم أن يواجهوا ابن زياد في ذلك اليوم، ولكنّهم اختبؤوا في بيوتهم؛ هؤلاء كانوا في سوق الكوفة. وكان هناك عددٌ من الأشخاص الذين أظهروا ضعف النّفس، وهم الآن يشاهدون ابنة أمير المؤمنين عليه السلام ويبكون.

(1) سورة النحل، الآية 92.

(2) وقعة الطف، ص259.

فكانت زينب الكبرى في مواجهة هذه الجماعات المتفاوتة الّتي لا يُمكن الثّقة بها، ولكنّها كانت تتحدّث بهذه الطّريقة المحكمة. فهي امرأة التّاريخ، وهذه المرأة لم تعد ضعيفة. ولا يصحّ اعتبارها امرأةً ضعيفة. فهذا جوهر المرأة المؤمنة حيث تُظهر نفسها في مثل هذه الظّروف الصّعبة. هذه هي المرأة الّتي تُعدّ قدوةً لكلّ الرّجال العظماء والنّساء العظيمات في العالم. فهي تُبيّن علل الثّورة النبويّة والثّورة العلويّة، وتقول إنّكم لم تتمكّنوا من معرفة الحقّ في الفتنة، ولم تستطيعوا أن تعملوا بتكليفكم، وكانت النّتيجة أن يُرفع رأس فلذة كبد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على الرّماح. من هنا يمكن فهم عظمة زينب.

(2010/10/21)

حركة الإمام السجّاد عليه السلام في مرحلة الأسر

لقـد كان الوضـع بعـد عاشـوراء بالنّسبـة للشّيعـة والمعتقديـن بخطّ الإمامـة وضعًا مذهلًا. فوحشيّـة عملاء وجلاوزة الأمويّيـن وما فعلوه بآل النبـيّ، سـواءٌ في كربـلاء أم في الكوفـة أم في الشّام، أرعـب كلّ من كان علـى اتّصال بخطّ الإمامة. بالطّبع، أنتم تعلمـون أنّ زبدة أصحاب الإمام الحسين عليه السلام قد استُشهدوا في كربلاء أو في واقعة التوّابين، أمّا الّذين بقـوا فلم يمتلكـوا الجرأة الّتـي تخوّلهم الوقـوف وقول كلمـة الحقّ مقابل سلطـة يزيـد المتجبّر، وفيما بعـد مروان. جمعٌ مؤمن، لكنّـه مشتّت وغير منظّـم ومرعوب، وقـد انصرف من النّاحيـة العمليّة عن طريـق الإمامة. هـذا هـو الإرث الّذي بقي للإمـام السّجّاد من جمع الشّيعـة، القمع الكثير والجماعة المناصرة الضّعيفة جدًّا. فكان على الإمام السّجّاد عليه السلام، من أجل حفـظ تيّار الإسلام الأصيـل والمذهبيّ والواقعـيّ، أن ينهض للجهاد ويجمـع كلّ هذا الشّتات ويتّجه بهم نحو الحكومة العلويّة، أي نحو الحكومة الإسلاميّة الواقعية. لقد عمل الإمام السّجّاد عليه السلام في ظلّ هذه الظّروف طيلـة 34 سنـة وسأكتفـي بذكر بعض المقاطع البـارزة من حيـاة الإمام

السّجّاد عليه السلام. القسم الأوّل من حياة الإمام الرّابع المليئة بالمفاخر، هو القسم المتعلّق بأسره.

لقد أُسر الإمام الرّابع مرّتين، وسيق إلى الشّام بالسّلاسل والأغلال مرّتين؛ كانت المرّة الأولى من كربلاء، والمرّة الثانية من المدينة في زمن عبد الملك بن مروان. لقد كان الإمام السجّاد عليه السلام تجسيدًا للقرآن والإسلام حين أُسر من كربلاء مع قافلة الأسرى الحسينيّين. ولحظة سقوط الشّهداء على رمال كربلاء، بدأت ملحمة عليّ بن الحسين عليه السلام. كان الأطفال، صبيةً وإناثًا، والنّساء الفاقدات للمعين يُحيطون بالإمام السّجّاد عليه السلام في قافلةٍ لا يوجد فيها رجلٌ واحد، وكان على الإمام السجّاد عليه السلام أن يقودهم جميعًا، وطوال الطّريق إلى الشّام، لم يسمح لهذا الجمع الّذي تربطه رابطة الإيمان أن يُصاب بالتردّد والتزلزل. عندما دخلوا الكوفة، أمر عبيد الله بن زياد بقتل كلّ رجال آل البيت، فشاهد من بين الأسرى رجلًا، فسأله: من أنت؟ فقال: أنا عليّ بن الحسين، فهدّده بالقتل، وهنا كان أوّل ظهورٍ وتجلٍّ للإمامة والمعنويّات والقيادة، فقال: «**أبِالقتل تُهدّدني**»[1] في حين أنّ كرامتنا من الله الشهادة، وافتخارنا هو في أن نُقتل في سبيل الله، وإنّنا لا نخاف الموت. فتراجع جهاز عبيد الله بن زياد أمام هذه الصّلابة.

وفي أحداث الشّام، وبعد الاحتفاظ بالإمام السجّاد عليه السلام وباقي الأسرى في وضعٍ مشتّت ووخيمٍ جدًّا، وفي وضعٍ من الاستعباد الكامل،

---

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج.45، ص 118.

لأيّام متوالية، لقد بدا لـ (يزيد) أن يحضر الإمام السّجّاد عليه السلام معه إلى المسجد وأن يعمل على توهينه أمام النّاس من النّاحية المعنويّة، خشية أن يؤثّر إعلام معارضيه ومؤيّدي الإمام عليه السلام المنتشرين في كلّ مكان، على وضع الحكومة. فتوجّه الإمام السّجّاد عليه السلام في ذلك المسجد إلى يزيد قائلًا: أُريد أن أصعد هذه الخشبات وأتحدّث إلى النّاس. فلم يخطر ببال يزيد أنّه يُمكن لابن النبيّ، الّذي كان شابًّا أسيرًا ومريضًا، والّذي كان من المفترض أن يكون طيلة هذه المدّة قد انهزم من النّاحية النّفسيّة، أن يُشكّل خطرًا عليه، فسمح له بذلك. فصعد الإمام السجّاد عليه السلام المنبر وأعلن على الملأ فلسفة الإمامة وحادثة الشّهادة، وحركة الحكومة الأمويّة الطّاغوتيّة في قلب هذه الحكومة. لقد قام بعملٍ هيّج أهالي الشّام، أي أنّ الإمام السجّاد عليه السلام كان له مثل هذه الشّخصيّة العظيمة الّتي تقف مقابل عبيد الله بن زياد ومقابل كلّ هذا الحشد المخدوع في الشام وفي عمق الجهاز الأمويّ وفي مقابل جلاوزة يزيد من دون أن يخاف، فينطق بكلمة الحقّ ويُبيّن، دون أن يرى لحياته قيمةً أو قدرًا.

(1980/12/05)

لقد كان الإمام السجّاد عليه السلام يرسم ملحمة طويلة عظيمة كبطلٍ عظيم بأقواله وأفعاله خلال فترة الأسر والمرض هذه، والّتي تُعتبر فترةً مختلفةً تمامًا عن المرحلة الأساس من حياته، حيث بدأ يعمل على البنية التحتية باعتدالٍ ودقّة وهدوء، حتّى أنّه كان يجلس أحيانًا مع عبد الملك بن مروان في مجلسٍ واحدٍ ويتصرّف معه تصرّفًا معتدلًا وعاديًّا. أمّا في هذا المرحلة فإنّنا نُشاهد الإمام بصورة ثائرٍ هادرٍ لا يسكت على أيّ كلمة.

وكان أمام الملأ يردّ بأجوبة تزلزل أركان أعدائه المقتدرين.

فـي الكوفة نراه يخطب مقابل عبيد الله بن زياد ـ ذلك الوحش الدمويّ الّـذي يقطر سيفه دمًا، وقد أسكره شراب قتل ابـن النّبيّ وكأس الانتصار ـ بحيـث يأمر بقتل الإمام عليه السلام. ولو لم تنهـض زينب عليها السلام بالأمر في وقته، وترمي بنفسها على الإمام وتقول لا أدعكم تقتلونه حتّى تقتلوني قبله وأنا امرأة، فكان على ابن زياد أن يبعثهم كأسرى إلى الشام، لو لم يكن كلّ ذلك لكان هناك احتمالٌ كبير أن يُقتل الإمام السجّاد عليه السلام.

وفـي سـوق الكوفـة أيضًـا، وبصـوتٍ واحـدٍ وزمـانٍ واحـدٍ، يخطـب الإمام عليه السلام هـو وعمّته زينب عليها السلام وأخته سكينـة، فيجيّشون النّفوس ويفشون الحقائق.

وفـي الشّام، سـواء في مجلس يزيد أم في المسجـد، وأمام حشدٍ كبيرٍ مـن النّاس، يُبيّـن الإمام عليه السلام الحقائق بأبلغ بيـان. وقد تضمّنت خطبه وكلماتـه حقّانية أهل البيـت بالخلافة، وفضحت جرائـم النّظام الحاكم، وحذّر النّاس الغافلين الجاهلين بأسلوبٍ شديدٍ وبليغ[1].

لمـاذا يلجـأ الإمـام السجّـاد عليه السلام، في مرحلة مـا بعد الأسـر، إلى المهادنـة والتقيّـة ويُغطّـي علـى التحـرّكات الثوريـة والشديـدة بالدّعاء واستخدام اللين، بينما يتصرّف في مرحلة الأسر بشدّة وقوّة ووضوح؟

(1) ذكر الخطبة وإماطة السّتار عن عمقها يتطلّب عملاً مستقلاً عن موضوعنا، ولكن ينبغي لكلّ من يريد أن يفسّـر هـذه الخطبة أن يدرسهـا كلمة كلمة مع الالتفات إلى هذه الأصـول. تلك كانت حالة الإمام السجّاد عليه السلام في مرحلة الأسر الملحميّة (الكاتب).

والجـواب هو أنّ مرحلـة الأسر كانت فصلًا استثنائيًّـا، حيث كان على الإمام السجّاد عليه السلام، وبمعزل عن كونـه إمامًا، أن يُهيّئ أرضيّة التحرّك المستقبلـيّ لإقامـة الحكومة الإلهيّة والإسلاميّة، وقـد كان اللسان النّاطق للدّمـاء المسفوكـة فـي عاشـوراء. فالإمـام السجّاد عليه السلام لـم يكن هنا بحقيقتـه، بل كان لسـان الحسيـن عليه السلام الصّامت الّـذي تجلّى في هذا الشّاب الثـوريّ فـي الشّـام والكوفة. فلو لـم يكن الإمـام السّجّاد عليه السلام شديـدًا وحادًّا وصريحًا في بيـان القضايا فإنّه لن يبقى في الحقيقة مجال لعملـه المستقبلـيّ. لأنّ مجال عمله المستقبليّ ينطلـق من دم الحسين بن علي عليه السلام الهادر. كما أنّ دم الحسين عليه السلام كان أيضًا أرضيّةً للنّهضات الشّيعيّة على طول التّاريخ. وهكذا ينبغي أن يبدأ العمل، أوّلًا بتحذير النّاس، ثمّ في ظلّ هذا التّحذير تبدأ المعارضة الأصوليّة والعميقة والبعيدة المدى، ولا يُمكن أن يتحقّق هذا التّحذير إلّا باللهجة الحادّة والشّديدة.

لذلك كان دور الإمام السجّاد عليه السلام في هذا السّفر، ودور زينب عليها السلام حمـل نداء ورسالة ثورة الحسين بن عليّ عليه السلام. إذ إنّ معرفة النّاس بقتل الحسين عليه السلام، ولماذا قُتل، وكيف قُتل، سوف تؤثّر على مستقبل الإسلام ومستقبـل دعوة أهل البيت عليهم السلام، بنحوٍ؛ ولو لـم يعلموا لسوف تؤثّر بنحوٍ آخر. وكان ينبغي بذل الجهود الكبيرة لأجل نشر هذه الحقائق على مستوى المجتمع، وكان على الإمام أن يستخدم كلّ ما لديه من ذخائر ويمضي بمثل هـذا العمل إلى أبعد الحدود. لهذا تحـرّك الإمام السجاد عليه السلام في هذا الاتّجاه مثل سكينة وفاطمة الصغرى ومثل زينب نفسها ومثل كلّ أسير (كلٌّ بقدر استطاعته) كحمَلة لرسالة. لقد اجتمعت كلّ هذه الطّاقات حتّى تنثر

دم الحسين عليه السلام المسفوك في الغربة في كلّ المناطق الإسلاميّة الّتي مرّوا بها من كربلاء إلى المدينة. وحين دخل الإمام السجّاد عليه السلام إلى المدينة كان عليه أن يُبيّن الحقائق أمام العيون والأنظار لحظة وصوله، فكان هذا الفصل القصير مقطعًا استثنائيًّا في حياته. المقطع التّالي يبدأ حين يُباشر الإمام السّجّاد عليه السلام حياته في المدينة كإنسانٍ ذي قدرٍ وشأن، ويبدأ عمله من بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وحرمه. ولأجل بيان برنامج الإمام الرابع نحتاج إلى دراسة الأوضاع الّتي كانت سائدة وظروف زمانه أيضًا.

(مجلة باسدار إسلام، 6)

الشّيعة بعد حادثة كربلاء

بداية الحراك الشيعي

عندما جرت واقعة كربلاء سيطرت على كافّة العالم الإسلاميّ، وخاصّة عندما وصل الخبر إلى الحجاز والعراق، حالةٌ من الرعب والخوف الشّديدين بين الشّيعة وأتباع الأئمّة، لأنّهم شعروا أنّ حكومة يزيد لا تتورّع عن ارتكاب أيّ شيء لإحكام قبضتها على كلّ شيء، حتّى ولو كان قتل الحسين بن علي عليه السلام ، سبط الرّسول المعروف بالعظمة والاعتبار والقداسة في كافّة أنحاء العالم الإسلاميّ. هذا الرعب الّذي ظهرت آثاره في الكوفة والمدينة بلغ ذروته بعد مرور زمان معيّن، إثر وقوع عدّة حوادث أخرى - إحداها حادثة الحرّة - فسيطر جوّ القمع الشّديد في منطقة نفوذ أهل البيت عليهم السلام في الحجاز (وخاصّة المدينة) وفي العراق (وخاصّة الكوفة). فضعفت الاتّصالات وصار أتباع الأئمّة والمعارضون لنظام بني أميّة أقليّة وفي حالة ضعف وعدم ثبات.

وتُنقل رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال في الحديث عن أوضاع

الأئمّـة الّذين سبقوه: «**ارتدّ النّاس بعد الحسيـن** عليه السلام **إلّا ثلاثة...**»[1] وذُكـر في روايةٍ أخرى أنّهم خمسة وفـي بعضها أنّهم سبعة. وفي رواية عن الإمام السجّاد عليه السلام - يرويها أبو عمر النهديّ - يقول سمعت عن الإمام أنّه قال: «**ما بمكّة والمدينة عشرون رجلًا يُحبّنا**»[2].

وقـد نقلت هذين الحديثين في هذا المجال، حتّـى يتّضح الوضع العامّ لعالم الإسلام بالنسبة للأئمّة وأتباعهم. فهذا القمع الّذي حدث أوجد مثل تلك الحالـة الّتي صار فيها أتباع الأئمّة عليهم السلام متفرّقين آيسين خائفين لا يملكون القدرة علـى التحرّك الجماعيّ. ولكن في تلك الرّواية يُكمل الإمام الصادق عليه السلام القول: «**ثمّ إنّ النّاس لحقوا وكثروا**»[3].

وتفصيل القضيّة المذكورة هو: بعد واقعة شهادة الإمام الحسين عليه السلام صـار النّاس في خوف ورعب لكن ليس إلى درجة زوال تشكيلات أتباع أهل البيـت. ودليل ذلك أنّه في الوقت الّذي جـاؤوا بأسرى كربلاء إلى الكوفة، شوهدت التحرّكات الّتي تدلّ على وجود التنظيمات الشيعيّة.

وعنـد الحديـث عـن «التنظيمـات الشيعيّـة السريّـة» لا نقصـد نمط التنظيمات الموجود في هذا العصر، بل المقصود تلك الرّوابط العقائديّة الّتـي كانت تصل النّاس بعضهم ببعض وتحملهـم على التّضحية والأعمال السرّية، والّتي تؤلّف في أذهاننا مجموعة واحدة.

(1) بحار الأنوار، ج 46، ص 144.

(2) م.ن، ص 143.

(3) م.ن، ص 144.

فـي تلك الأيّام الّتي كان فيهـا أهل البيت عليهم السلام في الكوفة، يسقط في إحـدى الليالي حجـرٌ في السجن الّـذي كانوا فيه، وإذ بالحجـر ورقة كُتب عليهـا: «لقد أرسل حاكم الكوفة رجلًا إلـى يزيد في الشّام حتّى يعلم ماذا يفعل بكم. فإذا سمعتم غدًا ليلًا صوت تكبير فاعلموا أنّكم ستُقتلون ها هنا، وإذا لـم تسمعـوا فاعلموا أنّ الوضع سيتحسّـن»[1]. عندما نسمع بمثل هذه القصّة نُدرك جيّدًا وجـود شخص من الأصدقاء وأعضاء هذه التّنظيمات داخـل الجهاز الحاكم لابـن زياد، يعلم القضايا وتطال يـده السّجن ويعلم مـا هي الإجراءات بحقّ المعتقلين وما سيجري عليهم، ويُمكنه بالتّكبير أن يوصـل الأخبـار، وبالرغم مـن كلّ القمع والتّشديد كانـت تُشاهد مثل هذه الأمور.

مثال آخـر: عبد الله بن عفيف الأزديّ، الرّجـل الأعمى الّذي قام بردّة الفعـل الأولى عنـد ورود الأسرى إلى الكوفـة، وأدّى ذلك إلـى استشهاده. وكذلـك ما رأيناه في الشّام أو في الكوفة عندمـا التقى النّاس بأهل البيت بالبكاء والتلاوم وقد تكرّرت هذه الحوادث في مجلس يزيد وفي مجلس ابن زياد أيضًا.

بنـاءً على هذا، ومع فرض جوّ من القمـع الشّديد بعد هذه الحادثة، لم ينهدم نظام عمل أتباع أهل البيت عليهم السلام ولم يحصل لهم التشتّت والضّياع. ولكـن بعد مرور مدّة وقعت حـوادث أخرى، ازداد معها جوّ القمع. ومن هنا يُمكـن فهم الحديث «**ارتدّ النّاس بعد الحسين**» بأنّه يرتبط بمرحلة تلك

(1) نقل ابن الأثير هذه القصة في تاريخه الكامل (الكاتب).

الأحـداث أو ما بعدها، أو مرتبطٌ بالمقاطـع الزمنيّة الّتي حصلت في هذا المجال.

وخلال هـذه المرحلة – قبل وقوع تلك الحادثة المهمّة والمفجعة – قام الشّيعـة بترتيـب وتنظيـم أعمالهم واستعـادة انسجامهـم السّابق. وينقل الطبريّ قائلًا: «**فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال**»[1]، وهـو يقصد الشّيعة في طلب الثّأر لدمـاء الحسين بن علي عليه السلام. وكانوا يدعـون النّاس مـن الشّيعـة وغيرهـم ويستجيب لهـم النّاس جماعات، جماعات، وقد استمرّ هذا الوضع إلى أن هلك يزيد بن معاوية.

ولهذا نجد مع كلّ هذا الضّغط والقمع الشّديد استمرار التحرّكات – كما ينقـل الطبريّ – ولعلّه لهذا السّبب تقول مؤلّفة كتاب «جهاد الشّيعة» (وهي كاتبة غير شيعيّة ولا تمتلك رؤية واقعيّة تجاه الإمام السجاد عليه السلام ولكنّها أدركت هذه الحقيقة): «أصبح الشّيعة بعد شهادة الحسين عليه السلام كتنظيمٍ واحدٍ تجمعهم الاعتقادات والروابط السّياسيّة ويعقدون الاجتماعات ولهم القادة والقوى العسكريّة. وكان التوّابون أوّل مظهر لهذه التنظيمات»[2].

وهكـذا شعرنـا مع تسلّـل الضّعف إلـى التّنظيمات الشّيعيّـة إثر حادثة عاشـوراء أنّ هذه التحرّكات في مقابل هذا الوضع استمرّت بنشاطٍ لإعادة هـذا التنظيم إلى سابق عهـده، إلى أن جرت «واقعة الحـرّة». وبرأيي فإنّ واقعة الحرّة كانت مفصلًا عظيمًا في تاريخ التشيّع وضربة كبيرة جدًّا له.

---

(1) بحار الأنوار، ج45، ص 356، نقلاً عن تاريخ الطبري، ج 5، ص 558.

(2) سميرة مختار الليثي، جهاد الشيعة، ص 27.

واقعة الحرّة

لقد جـرت هذه الواقعة سنة 63 للهجرة. وتفصيلهـا باختصار، أنّه في سنة 62 هـ وُلّيَ أحد شباب بني أميّة قليلي الخبرة، على المدينة ففكّر ومن أجل استمالة قلوب الشّيعة في المدينة، أن يدعو بعضهم إلى ملاقاة يزيد. فدعـا بعض أشراف المسلمين والصحابة ووجهـاء المدينة - الّذين كانوا فـي معظمهم مـن محبّي الإمـام السجّاد عليه السلام - إلى الشـام للقاء يزيد والاستئناس به وللحـدّ من الخلافات. فذهبوا إلى الشام والتقوا به ومكثوا عدّة أيّام، وأعطاهم يزيد مبالغ كبيرة من المال (بمقدار 50 ألف درهم أو مئة ألف) ثمّ رجعوا إلى المدينة.

عندمـا عادوا إلى المدينـة ـ ولأنّهم رأوا الفجائع في بلاط يزيد ـ بدؤوا بانتقـاده والتهجّـم عليه. وانقلبـت القضيّة، فبدلاً من مدحـه والثّناء عليه بـدؤوا بالتّشهيـر به وقالـوا للنّاس: كيف يمكـن أن يكون يزيـد خليفة وهو شـاربٌ للخمر، ويُلاعب الكلاب والقردة، ويُمارس أنواع الفسق والفجور؟ إنّنا نخلعه عن الخلافة. وكان على رأس هؤلاء، عبد الله بن حنظلة[1] الّذي دعا النّاس إلى القيام على يزيد وخلعه.

فـأدّت هـذه الحركـة إلـى أن يأمـر يزيـد أحـد القـادة الكهـول والمخضرميـن لبني أميّـة، ويُدعى «مسلم بن عقبـة»، بالإسراع إلى المدينـة وإخماد الثّورة فيها. فقدم ابن عقبة وحاصرها عدّة أيّام ثمّ دخلهـا وارتكب فيها أبشـع وأفجع الجرائم الّتي لـم يحدث مثلها في

(1) حنظلة هو الشاب الذي قبل أن يطلع فجر ليلة عرسه التحق بجيش رسول الله واستُشهد في غزوة أُحد وغسلته الملائكة ولهذا عُرف بـ «حنظلة غسيل الملائكة».

تاريخ الإسلام. وقد عُرف بعد هذه الحادثة المفجعة باسم «مسرف بن عقبة».

إنّ مجريات وتفاصيل هذه الحادثة كثيرة ولا يمكن أن أشرح كلّ الأحداث فيها، ولكن يكفي أنّها أصبحت أكبر وسيلة لإرعاب محبّي وأتباع أهل البيت، خاصّة في المدينة الّتي هرب منها من هرب وقُتل آخرون، بعضهم من أصحاب أهل البيت الخيّرين كعبد اللّه بن حنظلة. لقد وصل هذا الخبر إلى كافّة أقطار العالم وعُلِم أن النّظام الحاكم سوف يقف بقوّة أمام أيّة حركة من هذا القبيل، ولن يسمح بأيّ نحو من التحرّكات.

المختار ومصعب وحركة التوّابين

الحادثة الأخرى الّتي أدّت إلى إضعاف الشّيعة، هي حادثة شهادة المختار في الكوفة، وتسلّط عبد الملك بن مروان على كامل العالم الإسلاميّ.

فبعد موت يزيد، تبعه خلفاء أحدهم معاوية بن يزيد الّذي لم يحكم لأكثر من ثلاثة أشهر، ثمّ مروان بن الحكم الّذي حكم لمدة سنتين أو أقل، ثمّ وصل الأمر إلى عبد الملك الّذي كان أكثر خلفاء بني أميّة حنكةً كما جاء بشأنه: «كان عبد الملك أشدّهم شكيمة وأمضاهم عزيمة»[1].

(1) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ج 7، ص 209.

فاستطاع عبد الملـك أن يقبض على زمام أمور العالم الإسلاميّ بيده، وأن يوجـد نظامًا إرهابيًّا وقمعيًّا، وكان إمساكـه بزمام الأمور متوقّفًا على القضـاء علـى خصومـه. فالمختار الشيعيّ قـد صُفّي قبـل مجيئه على يد مصعـب بن الزبيـر. ولكنّ عبد الملك أراد أن يضـع نهايةً لاستمرار حركة المختـار وغيره والحـركات الشيعيّـة الأخـرى. وبالفعل قـام بذلك، حتّى عانـى الشّيعة في العـراق، وخاصّة الكوفة الّتي كانت فـي ذلك الوقت أهمّ مراكزهم، أشدّ معاناة.

(مجلة باسدار إسلام، 8)

وإن كانت حركة التوّابين الّتي حدثت عام 64 أو 65 للهجرة – حيث علـى الظّاهر كانـت شهادتهم عـام 65 – قد أوجدت جـوًّا جديدًا في أجـواء العراق المكبوتة، لكنّ استشهادهم جميعًا عن بكرة أبيهم أعاد جـوّ الرّعب والقمـع إلى الكوفة والعراق. وبعـد أن توفّي أعداء الجهاز الأمـويّ، أي المختار ومصعب بن الزبير، ولم يكن عبد الله بن الزبير فـي مكّة قـادرًا علـى أن يتحمّل المختـار التابع لأهـل البيت عليهم السلام، فقتلـه بيد مصعب، وتجدّد هذا الرّعب والخوف أكثر وضعُفت الآمال. حتّى جاء فـي نهاية المطاف عبد الملك على رأس السّلطة، ولم تمرّ مـدّة قصيرة حتّـى صار كلّ العالـم الإسلاميّ تحت سلطـة بني أميّة المنحوسة بـكلّ اقتدارهم، وتمكّن عبد الملك مـن أن يحكم طيلة 20 سنة بكلّ اقتدار.

(1986/07/19)

وفـي كلّ الأحوال فقد بدأت هذه الأحداث من واقعة عاشوراء، وكان لها تبعـات من قبيل واقعـة الحرّة وقمع حركة التوّابين[1] فـي العراق، وشهادة المختار، وشهـادة إبراهيم بن مالك الأشتر النخعـيّ، وآخرين من وجهاء الشّيعـة حيث إنّـه بعد شهادتهم تمّ قمع حركات التحـرّر سواء في المدينة أم فـي الكوفة - اللتين كانتا المركز الأساسـ للتشيّع - وأُصيب التشيّع في العالـم الإسلامـيّ بحالة من القمع الشديد وغاص أتبـاع الأئمّة في منتهى الغربة والوحدة.

عصر الانحطاط الفكريّ والاخلاقيّ

هناك عاملٌ آخر إلى جانب هذا الرّعب وهو الانحطاط الفكريّ للنّاس، في كلّ أطراف العالم الإسلامي وأكنافه، وهو الّذي نشأ من عدم الاهتمام بتعاليم الدّين في مرحلـة العشرين سنة الماضية. وفيما بعد هُجر التّعليم الدينـيّ وتعليـم الإيمـان وتفسير الآيات وبيـان الحقائق منذ زمـن النبيّ ـ فـي مرحلـة العشرين سنة بعد عـام 40 للهجرة وإلـى ذاك الوقت ـ فابتُلي

(1) كانت حركة التوّابين أوّل ردّة فعل على عاشوراء وقد جرت في الكوفة. فبعد استشهاد الإمام الحسين بـدأ بعضـ الشّيعة يتلاومون فيمـا بينهم ويتعاتبون لأنّهم لـم يستجيبوا لدعوة الإمـام ويسرعوا إلى نصرتـه، ورأوا أنّـه لن يغسل هذه المعصية سـوى الانتقام لأبي عبد الله من قاتليـه وأعدائه، ولهذا جـاؤوا إلى الكوفة واجتمعـوا بخمسة أعيان وزعماء للشيعة وتباحثوا. وفـي النهاية جعلوا سليمان بن صرد الخزاعي قائدهم وبدؤوا بتحرّكٍ عسكريٍّ علنيّ.

وفي ليلة الجمعة، في الخامس والعشرين منٍ ربيع الثاني لسنة 65 للجهرة جاؤوا إلى مرقد الإمام الحسين المطهّر وبكوا وضجّوا بحيث لم يُرَ حتي يومنا هذا مثل ذلك اليوم. ثمّ ودّعوا القبر واتّجهوا إلى الشام للقتال والتحموا بالجيش الأموي حتى قُتلوا عن بكرة أبيهم.

النقطـة الملفتـة في حركة التوّابين هي أنه رغم أنّهم في الكوفة لكنّهم اتّجهوا نحو الشام وحاربوا النّظام مـن أجـل أن يثبتوا أنّ قاتـل الإمام الحسين ليسـ شخصاً أو بضعـة أشخاص بل إنّه نظـام بأسره. (الكاتب).

النّاس بلحاظ الاعتقاد والأصول الإيمانيّة بالخواء والفراغ. عندما يضع المرء حياة النّاس في ذلك العهد تحت المجهر يتّضح هذا الأمر من خلال التّواريخ والرّوايات المختلفة الموجودة. بالطّبع، كان هناك علماء وقرّاء ومحدّثون، سيأتي التعرّض لهم، لكنّ عامّة النّاس ابتُلوا بعدم الإيمان وضعف الاعتقاد ضعفًا كبيرًا. وقد وصل الأمر إلى حيث إنّ بعض أيادي جهاز الخلافة يُشكّكون في النبوّة! ذُكر في الكتب أنّ خالد بن عبد اللّه القسري، ويُعدّ من عمّال بني أميّة المنحطّين جدًّا والسيّئين، كان يُفضّل الخلافة على النبوّة ويقول: «إنّ الخلافة أفضل من النبوّة»، ثمّ يستدل قائلًا: «أخليفتك في أهلك أحب إليك وآثر عندك أم رسولك»[1]؛ أي لو أنّك تركت في أهلك شخصًا يخلفك في غيبتك فهل هو أفضل وأقرب إليك أم ذاك الّذي يأتيك برسالةٍ ما من مكانٍ معيّن؟ فمن الواضح أنّ ذاك الّذي جعلته في بيتك خليفةً لك سيكون أقرب إليك. فخليفة اللّه - وهنا لا يقول خليفة رسول اللّه - هو أفضل من رسول اللّه!

إنّ ما كان يقوله خالد بن عبد اللّه القسريّ كان يجري على لسان الآخرين.

وعندما نظرت في أشعار شعراء العصر الأمويّ وجدت أنّه منذ زمان عبد الملك قد تكرّر تعبير خليفة اللّه في الأشعار إلى درجة أنّه ينسى المرء أنّ الخليفة هو خليفة النبيّ! فقد استمرّ هذا الأمر إلى زمن بني العبّاس.

---

(1) ابن قتيبة الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، نشر دار إحياء الكتب العربي، الطبعة الأولى، 1960م، القاهرة، ص 346.

بـنــي أمـــيّـــة هـــبّـــوا طـــال نــومُــكــمُ
إنّ الـخـلـيـفـة يـعـقـوب بـن داوودِ
ضـاعـت خـلافـتـكـم يـا قــوم فـالـتـمـسـوا
خـلـيـفـة اللّه بـيـن الـــزقّ والــعــودِ[1]

حتّى عندما كانوا يريدون هجاء الخليفة كانوا يقولون خليفة اللّه! وأينما كان الشّعراء المعروفون في ذلك الزمان كجرير والفرزدق وكُثير وغيرهم، ومئـات الشّعـراء المعروفين والكبـار، عندما يريدون مـدح الخليفة كانوا يُطلقـون عليه لقـب خليفة اللّه، لا خليفـة رسول اللّه. وهذا نمـوذجٌ واحد. لقـد ضعُفت عقائد النّاس بهذا الشكل حتّـى فيما يتعلّق بأصول الدين. أمّا أخلاقهم فقد انحطّت بشدّة.

هنـاك نقطـة لفتت نظري أثنـاء مطالعتي لكتاب الأغانـي لأبي الفرج، وهـو أنّـه فـي سنوات الـ 70 والـ 80 والـ 90 والمئة إلـى 150، 160 تقريبًا، فـإنّ أشهر المغنّين والمطربين واللاعبيـن والعابثين في العالم الإسلاميّ كانـوا في المدينـة أو في مكّة، وكلّمـا كان يضيق صـدر الخليفة في الشام شوقًا للغناء، ويُطالب بمغنٍّ أو مطرب، كانوا يرسلون له من المدينة أو مكّة أحد المطربين المعروفين أو المغنّين. فأسوأ الشعراء والماجنين كانوا في مكّـة والمدينة. فمهبط وحي النبيّ ومنشأ الإسلام أضحى مركزًا للفحشاء والفسـاد. ومـن الجيّـد أن نعرف هذه الأمـور بشأن تاريـخ المدينة ومكّة.

(1) السيد المرتضى علم الهدى، علي بن الحسين، أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، تحقيق وتصحيح محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، 1998م، القاهرة، ج1، ص141.

وللأسف في الآثار الّتي لدينا، لا يوجد مثل هذه الأشياء، وهي أمورٌ واقعيّة حدثت. وأنا العبد أعرض لنموذجٍ من رواج الفساد والفحشاء.

كان في مكّة شاعرٌ يُدعى عمر بن أبي ربيعة، وهو من شعراء التعرّي والمجون، وقد مات في أوج قدرته وفنّه الشعريّ. ولو أردنا ذكر قصص هذا الشّاعر وماذا كان يفعل في مكّة لاحتاج الأمر إلى فصلٍ مشبّعٍ بالتّاريخ المؤسف لذلك العصر، في مكّة والطواف ورمي الجمرات. وهذا البيت مذكور في كتاب المغني:

بدا لي منها معصمٌ حينما جَمَّرت

وكفٌّ خضيبٌ زُيّنت ببنان[1]

فوالله ما أدري وإن كنت داريًا

بسبعٍ رميتُ الجمر أم بثماني[2]

وعندما مات عمر بن أبي ربيعة، ينقل الراوي أنّه أقيم في المدينة عزاءٌ عام وكان النّاس يبكون في أزقّة المدينة. ويقول إنّني أينما ذهبت كنت أجد مجموعة من الشباب، نساءً ورجالًا، واقفين ويبكون عمر بن أبي ربيعة في مكّة، فشاهدت جارية تسعى في عملها وتحمل دلواً لتُحضر الماء، وكانت دموعها تنهمر على خدّيها بكاءً على عمر بن أبي ربيعة غمًّا وأسفًا؛ وعندما وصلت إلى مجموعة من الشّباب سألوها لماذا تبكين لهذا الحدّ؟ فقالت لأنّ هذا الرّجل قد مات وخسرنا، فقال لها أحدهم، لا تحزني هناك شاعرٌ

(1) ابن هشام الأنصاري، مغنى اللبيب، ج1، ص 14.

(2) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن الشافعي، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق علي شيري، طبع ونشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1998م، ج69، ص260.

آخر في المدينة هو خالد المخزوميّ، والّذي كان لمدّةٍ حاكمًا على مكّة من طـرف علماء الشّـام، وقد كان من شعراء التعـرّي والمجون، كعمر بن أبي ربيعة، فذكروا لها ذاك البيت وأرادوا أن يذكروا لها بعض الأبيات الشعريّة لهـذا الشّاعر، فاستمعت هذه الجاريـة قليلًا - وقد ذُكر في «الأغاني» هذا الشّعـر وخصائصه - فمسحت دموعها وقالـت: «الحمد الله الّذي لم يُخلِ حرمـه». فإذا فُقد شاعرٌ جـاء آخر، هذا نموذج من الوضع الأخلاقيّ لأهل المدينة.

والقصص كثيرة عن سهرات مكّة والمدينة. ولم تكن المسألة منحصرة بالأفراد المنحطّين، بل شملت الجميع في المدينة، بدءًا من ذاك المتسوّل المسكيـن كأشعـب الطمّـاع المعروف الّـذي كان شاعرًا ومهرّجًـا ومرورًا بالأفـراد العاديّين وأبناء السّوق وأمثال هــذه الجارية إلى أبناء المعروفين من قريش وحتّى بني هاشم، كانوا من هؤلاء الّذي غرقوا في هذه الفحشاء.

وفــي زمن أمارة هذا الشّخـص المخزوميّ، جـاءت عائشة بنت طلحة وكانـت تطوف، وكان يُحبّها، وعندما حان وقـت الأذان أرسلت هذه المرأة رسالـةً أن لا تؤذّنوا حتّى أُنهي طوافـي، فأُمر بعدم رفع أذان العصر! فقيل لــه أنت تؤخّر الأذان من أجل شخصٍ واحدٍ وامـرأة تطوف: أوَتؤخّر صلاة النّاسـ؟! فقال: واللهِ لـو أنّ طوافها بقي إلى الصبح لقلـت لهم أن يؤخّروا الأذان إلى الصبح! هذا كان حال ذلك الزمن.

(1986/07/19)

الفصل الثامن:

الإمام السجّاد (عليه السلام)

- الظروف الاجتماعيّة والسّياسيّة.
- أهداف حركة الإمام السجّاد (عليه السلام).
- الإمام السجّاد (عليه السلام) وتجلّيات المواجهة السّياسيّة.
- تكتيك بداية المرحلة الثالثة لحركة الأئمّة (عليهم السلام).
- مواجهة الإمام مع علماء البلاط.

الظّروف الاجتماعيّة والسّياسيّة

إنّ الحديث عن الإمام السجّاد عليه السلام وكتابة سيرته عملٌ صعب، لأنّ أساس تعرّف النّاس إلى هذا الإمام تمّ في أجواء غير مساعدة إطلاقًا. ففي ذهن أغلب كتّاب السّيرة والمحلّلين أنّ هذا الإنسان العظيم قد انزوى للعبادة ولم يكن له أيّ تدخّل في السّياسة. حتّى أنّ بعض المؤرّخين وكتّاب السّيرة ذكروا هذه المسألة ذكرًا صريحًا. أمّا الّذين لم يقولوا هذا الأمر بصراحةٍ فإنّ مفهومهم عن حياة الإمام السجّاد عليه السلام ليس سوى هذا الأمر. وهذا المعنى موجودٌ في الألقاب الّتي تُنسب إليه والتّعابير الّتي يُطلقها النّاس عليه: كما يُطلق عليه بعض النّاس لقب «العليل»، في حين أنّ مرضه لم يستغرق أكثر من عدّة أيّام في واقعة عاشوراء. ومن الطّبيعيّ أنّ كلّ إنسان يمرض في حياته عدّة أيّام، وإن كان مرض الإمام للمصلحة الإلهيّة حتّى لا يُكلّف هذا العظيم بالدّفاع والجهاد في سبيل الله في تلك الأيّام، ليستطيع في المستقبل أن يحمل الحمل الثّقيل للأمانة والإمامة على عاتقه، ويبقى حيًّا بعد والده لمدّة 34 أو 35 سنة، تُعدّ أصعب مراحل عصور الإمامة عند الشّيعة. أنتم عندما تنظرون إلى ماضي حياة الإمام

السجّاد عليه السلام سوف تجدون حوادث متنوّعة ولافتة جدًّا، كما حدث لبقيّة أئمّتنا، وربّما إذا جمعنا سير الأئمّة عليهم السلام معًا فلن نجد مثل سيرة السجّاد عليه السلام.

إنّ سيرة كلّ إنسان بالمعنى الواقعيّ للكلمة تتّضح عندما نعرف التّوجّه العامّ الّذي سار عليه، ومن بعدها نقوم بملاحظة الحوادث الجزئيّة في حياته. فإذا عُرف التّوجّه العامّ، فإنّ الحوادث الجزئيّة سوف تُصبح ذات معنى، أمّا إذا لم يُعرف ذلك التوجّه أو فُهم خطأ، فإنّ تلك الحوادث الجزئيّة سوف تُصبح دون معنى أو ذات معنًى خاطئ. وهذا لا يختصّ بالإمام السجّاد عليه السلام أو باقي أئمّتنا عليهم السلام فقط، بل إنّ هذا يصدق وينطبق على سيرة الجميع.

مثلاً بخصوص الإمام السجّاد عليه السلام نجد أنّ رسالته إلى محمّد بن شهاب الزهريّ تُعتبر نموذجًا لأحد الحوادث في حياته. فلو أخذنا هذه الحادثة بنفسها، وبمعزل عن بقية الحوادث في تلك المرحلة، لا يُمكن أن نفهم شيئًا. فقد تُفهم هذه الرّسالة على أنّها من أحد الّذين ينتسبون إلى آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لأحد العلماء المعروفين في ذلك الزّمان، في هذا المجال توجد عدّة آراء: هذه الرسالة يُمكن أن تكون جزءًا من جهادٍ واسعٍ وأساس، ويمكن أن تكون نهيًا بسيطًا عن منكر، ويُمكن أن تكون اعتراضَ شخصيّةٍ على شخصيّةٍ أخرى كالاعتراضات الّتي تُشاهد كثيرًا على طول التّاريخ بين شخصيّتين أو عدّة أشخاص. ولا يُمكن فهم شيءٍ من هذه القضيّة فهمًا تلقائيًّا وبمعزل عن بقيّة أحداث تلك المرحلة. والهدف من هذه المسألة هو أنّنا إذا التفتنا إلى الحوادث الجزئيّة وقطعنا النّظر عن

التّوجّـه العـامّ في حياة الإمام فلن تُفهم سيرتـه، لذلك لا بدّ من أن نعرف التوجّه العامّ في سيرته.

إنّ بحثنا الأوّل هو حول التوجّه العام للإمام السجّاد عليه السلام في الحياة ونقرنه بكلماته، وأيضاً بالمفهوم العامّ لحياة الأئمّة عليهم السلام ثمّ نوضحه.

نحـن نُشاهـد بعد صلـح الإمام الحسـن عليه السلام ، الّذي وقع فـي السّنة الأربعين للهجرة، أنّ أهـل البيت لم يلتزموا البقاء داخل البيت والاقتصار على بيان الأحكام الإلهيّة كما يفهمونها فقط، بل نجد منذ أوّل أيّام الصّلح أنّ برنامج كلّ الأئمّة عليهم السلام كان يقوم على تهيئة المقدّمات لإقامة الحكومة الإسلاميّـة بحسـب النّهج الّذي يرونه. وهذا مـا نُلاحظه بوضوح في حياة الإمام المجتبى عليه السلام وكلماته.

مـن هـذه الجّهـة كان عمل الإمـام الحسـن عليه السلام عمـلاً عميقًا جدًّا وتأسيسيًّـا. لقـد عاش الإمـام الحسن عليه السلام مع كلّ تلـك التحوّلات عشر سنـوات، اجتمـع حوله، في هذه المدّة، أفراد وتربّـوا على يديه. توزّع قسمٌ منهم في كلّ زاوية لمواجهة نظام معاوية وإضعافه بشهادتهم واعتراضاتهم وصرخاتهم.

وفيما بعد وصل الدّور إلى الإمام الحسين عليه السلام . وقد تابع هذا العظيم ذلك النّهج نفسه في المدينة ومكّة ومناطق أخرى حتّى هلك معاوية وجرت واقعـة كربلاء. وإن كانت واقعة كربلاء ثـورة مفيدة جدًّا ومثمرة لمستقبل الإسلام، لكنّ ذاك الهدف الّذي كان الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام يسعيـان لأجله تأخّر، لأنّ النّاس قد أُرعبوا وجرت تصفية الأتباع المقرّبين للإمـام الحسن والإمام الحسيـن عليهما السلام ، وتسلّط الأعداء فكان وقوع ذلك

الحادث طبيعيًّا. فلو لم تجرِ نهضة الإمام الحسين عليه السلام على هذا النّحو، فإنّ التّخمين هو أنّــه كان هناك مجال، فيما بعد (الإمام الحسين عليه السلام) وفي المستقبل القريب، لتحرّكٍ ينتهي إلى تسليم الحكومة للشّيعة. ولا يعني هــذا الكلام أنّه لم يكن النّهوض واجبًا على الإمام الحسين عليه السلام ، بل إنّ الظّـروف الّتي كانت في هذه الثّورة كانت تفرض أن تحدث في ذلك الوقت ولا شكّ في ذلك أبدًا. لكن لو لم تكن تلك الظّروف، ولو لم يستشهد الإمام الحسيــن عليه السلام في تلــك الواقعة، فالاحتمــال الأكبــر أنّ المستقبل الّذي تطلّع إليه الإمام الحسن عليه السلام كان سيتحقّق بسرعة.

لقــد كان الأئمّة عليهم السلام في سعيٍ وراء هذا الخــطّ وهذا الهدف، وكانوا يسعــون دائمًــا لتشكيــل الحكومــة الإسلاميّــة. وعندمــا استُشهــد الإمام الحسين عليه السلام في واقعة كربلاء، وأُسر الإمام السجّاد عليه السلام وهو في تلك الحالــة من المرض، فمنذ تلك اللحظة، بدأت في الحقيقة مسؤولية الإمام السجّــاد عليه السلام . ولو قُدّر في ذلك التاريخ أن ينجح الإمام الحسن والإمام الحسيــن عليهما السلام في تأمين ذلك المستقبل لقام الإمام السجّاد عليه السلام في ذلك الوقت بالتحديد بهذا الأمر ومن بعده الأئمّة الباقون عليهم السلام .

بنــاءً عليــه، ينبغــي أن نبحث في مجمــل حياة الإمــام السجّاد عليه السلام عــن هذا الهــدف الكلّي والمنهج الأصلــيّ، وأن نعرف دون شــك أنّ الإمام السجّاد عليه السلام كان يسعى لأجل تحقيق ذلك الهدف الّذي كان يسعى لأجله الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام .

كان الإمــام السجّــاد عليه السلام ، في الفترة مــا بين تسلّمــه للإمامة منذ عاشوراء 61 هـ. واستشهاده مسمومًا عام 94 هـ، يُتابع مسؤوليّة تحقّق ذلك

الهـدف. لذلك ينبغي أن نُفسّر جزئيّات عمل الإمام والمراحل الّتي مرّ بها والأساليب الّتي استعملها، والتّوفيقات الّتي حصلت، وكلّ الأمور الّتي بيّنها، وكلّ التحرّكات الّتي قام بها، والأدعية والمناجاة الّتي جُمعت في الصحيفة السجّادية... كلّ هذا ينبغي أن يُفسَّر على ضوء الخطّ العامّ. ومن المواقف الّتي اتّخذها طوال مدّة الإمامة:

1. موقفه أمام عبيد الله بن زياد ويزيد، الّذي تميّز بالبطولة والشّجاعة والفداء.
2. موقفـه من «مسرف بن عقبة» الّذي تميّز بالهدوء، هذا الرجل الّذي قام بتدمير المدينة واستباح أموالها بأمر من يزيد في السّنة الثّالثة من حكمه.
3. حركـة الإمـام أمام عبـد الملك بن مـروان، أقوى خلفـاء بني أميّة وأمكرهم، حيث تميّز موقفه بالشدّة حينًا واللين حينًا آخر.
4. تعامل الإمام عليه السلام مع عمر بن عبد العزيز.
5. تعامل الإمام مع أصحابه وأتباعه ووصاياه لأصحابه.
6. موقف الإمام من وُعّاظ السّلاطين وأعوان الظلمة.

كل هذه المواقف والتحرّكات ينبغي أن تُدرس بدقّة. ووفق تصوّري أرى أنّه بالالتفات إلى النّهج العـام، فإنّ كل هذه الجزئيّات والحوادث سوف تكتسب معانٍ مناسبة وواضحة. وسوف نجد عندها أنّ هذا الإنسان العظيم قد قضى كلّ حياته وسعيه في طريق الهدف المقدّس وهو عبارة عن إقامة حكومة الله على الأرض وتطبيق الإسلام، وقد استفاد من أنضج وأفضل الوسائل، وتقدّم بالقافلة الإسلاميّة، الّتي كانت بعد واقعة عاشوراء في تشرذمٍ وتفرّق مهول،

وأنجز مهمّته العظمى ومسؤوليّته الأصيلة (الّتي سوف نشير إليها بالتفصيل لاحقاً)، والّتي قام بها كلّ أئمّتنا وجميع الأنبياء والصّالحين، مراعيًا أصول السّياسة والشّجاعة والدقّة في الأعمال. وبعد 35 سنة من الجهاد المستمرّ، الّذي لم يعرف الرّاحة أبدًا، رحل عن الدّنيا كريمًا مرفوع الرّأس موكلًا حمل ثقل الرّسالة من بعده إلى الإمام الباقر عليه السلام.

إنّ انتقال الإمامة إلى الإمام الباقر عليه السلام، وهي تحمل مهمّة إقامة حكومة اللّه على الأرض، تظهر بصورةٍ واضحة في الرّوايات. ففي رواية، نجد أنّ الإمام السّجّاد عليه السلام يجمع أبناءه مشيرًا إلى محمّد بن علي الباقر عليه السلام ويقول: «... احمل هذا الصندوق وخذ هذا السّلاح وهذه الأمانة بيدك»، وحينما فتح الصّندوق كان فيه القرآن والكتاب[1].

لعلّ ذلك السّلاح يرمز إلى القيادة الثّوريّة، وذلك الكتاب يرمز إلى الفكر والعقيدة الإسلاميّة، وقد أودعهما الإمام السجّاد عليه السلام الإمام الّذي سيأتي من بعده مودّعًا الدّنيا، راحلًا إلى جوار الرّحمة الإلهيّة بنفسٍ مطمئنّة ووجدانٍ هادئ ورأسٍ مرفوع. كانت هذه هي الصّورة العامّة لحياة الإمام السجّاد عليه السلام.

ولكن إذا أردنا أن ندرس تفاصيل الأحداث، علينا أوّلًا أن نُمهّد لها بالوضع السّابق لها، إذ يوجد في حياة الإمام السّجّاد فصلٌ قصير ومحدّد

(1) بصائر الدرجات، ج 1، ص 180. عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**لما حضرت علي بن الحسين الوفاة قبل ذلك أخرج سفطاً أو صندوقاً عنده فقال: يا محمد احمل هذا الصندوق، قال فحمل بين أربعة، قال فلما توفي جاء إخوته يدّعون في الصندوق، فقالوا اعطنا نصيبنا من الصندوق، فقال: والله ما لكم فيه شيء ولو كان لكم فيه شيء ما دفعه إلي وكان في الصندوق سلاح رسول الله وكتبه** صلى الله عليه وآله وسلم».

نذكره أوّلًا، ثمّ نقوم بعدها بشرح المسير العاديّ لحياة الإمام وتفصيل الأوضاع وأحوال الزّمان والظّروف الّتي كانت سائدة.

(مجلة باسدار اسلام، 6)

لقد بدأت حياة الإمام السّجّاد بمرحلة مليئة بالصّعاب، حيث جرت حادثة كربلاء، الّتي لم تهزّ كيان الشّيعة فحسب، بل هزّت الأمّة الإسلاميّة بأجمعها. ومع أنّ القتل والأسر والتّعذيب كان شائعًا آنذاك، لكنّ قتل أولاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأسر العائلة النبويّة ووضع رؤوس آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم على الرّماح والاستهانة بمن كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يُقبّل ثناياه، كلّ هذا قد زلزل العالم الإسلاميّ وصعقه. فلم يكن أحد يتوقّع أنّ الأمر سوف يصل إلى هذه المرحلة. ولا أدري مدى صحّة الشّعر المنسوب للسيدة زينب عليها السلام: «**ما توهّمت يا شقيق فؤادي كان هذا مقدّرًا مكتوبا**»[1]، فقد كان يشير إلى هذه النّقطة، وهذا كان استنتاج جميع النّاس. ففجأةً انتشر الشّعور بأنّ السياسة أضحت سياسة مختلفة، والتّشديد الّذي كان يشعر به الجميع أصبح أشدّ. فهذا البيت يُشير بلا شكّ إلى أنّ هذا الحدث كان غير متوقّع آنذاك. فلهذا أخذ الهول والفزع ينتاب الأمّة الإسلاميّة حيث شاهدت ورأت ما لم تكن تتوقّعه من التّنكيل والتّعذيب.

لذا، فقد عمّ الخوف والرّعب كافّة المناطق الإسلاميّة. وباستثناء الكوفة، وذلك بفضل التوّابين وبعدها بفضل المختار؛ فإنّ الرّعب الذي ساد المدينة وغيرها من المناطق، وحتّى مكّة المكرّمة مع وجود عبد الله

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 45، ص 115.

بن الزّبير الّذي ثار بعد مدّة، بسبب حادثة كربلاء المفجعة، كان رعبًا غير مسبوقٍ في العالم الإسلاميّ.

.. بناءً عليه، فإنّ الوضع الفكريّ، وهذا الوضع من الفساد الأخلاقيّ، والفساد السياسيّ كان عاملًا آخر. فأغلب الشخصيّات الكبار قد تشبّثوا بفضلات الحياة المادية لرجال الحكومة آنذاك. شخصيّات كبيرة مثل محمّد بن شهاب الزهري، الذي كان في مرحلة من المراحل، من تلامذة الإمام السّجّاد عليه السلام، فقد أصبح تابعًا للجهاز الحاكم. وتلك الرّسالة المعروفة للإمام السجّاد إلى محمد بن شهاب الزّهريّ، التي هي رسالة تاريخيّة وموثّقة في كتاب «تحف العقول» وأماكن أخر، تبيّن أي نوع من الروابط والانتماءات لأمثال هذه الشخصيّات الكبيرة. وأمثال هؤلاء أيضًا، محمّد بن شهاب، حيث نقل العلّامة المجلسيّ في البحار على ما يبدو عن جابر بن عبد الله أنّ الإمام السّجّاد عليه السلام قال: «**ما ندري كيف نصنع بالنّاس، إن حدّثناهم بما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضحكوا**»، فهم لا يكتفون بالرّفض بل يضحكون استهزاءً، «**وإن سكتنا لم يسعنا**»[1]. ومن ثمّ يذكر حادثةً حيث نقل الإمام حديثًا لجماعةٍ كان فيها شخصٌ استهزأ ورفض ذلك الحديث. ثمّ يذكر بشأن سعيد بن مسيّب والزّهريّ أنّهم كانوا منحرفين، وبالطّبع أنا العبد، لا أقبل ذلك بشأن سعيد بن مسيّب، فهناك شواهد عديدة على أنّه كان من حواريّي الإمام، لكن ما يتعلّق بالزّهريّ وكثيرون غيره كان الأمر كذلك. ويُعدّد ابن أبي الحديد أسماء

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 6، ص 259.

عـدد مـن الشخصيّات ورجال ذلك الزمان من الّذيـن كانوا من أتباع أهل البيت عليهم السلام ثمّ انحرفوا فيما بعد.

.. كان يجب إصلاح دين النّاس، وإصلاح أخلاق النّاس، وإخراج النّاس مـن مستنقع الفساد، كما كان يجـب إعادة إحياء التوجّـه إلى المعنويّات، المعنويّـات التـي هي لبّ لبـاب الدّين وروحـه الأصليّ. لذا تـرون أنّ أكثر الـكلام المنقـول عن الإمـام السجّاد عليه السلام هـو في الزّهـد: «**إنّ علامة الزاهدين في الدنيا الراغبين عنها في الآخرة...إلخ**»[1]. هذه الجملة هي بداية حديثٍ طويـل مفصّل. وإنّ كان في هذا الحديث مفاهيم وإشارة إلى تلـك الأهداف التي ذكرناها. أو «**أوَلا حرّ يدع هذه اللماظة لأهلها فليس لأنفسكم ثمن إلا الجنّة ألا فلا تبيعوها بغيرها**»[2].

إنّ أكثـر كلمـات الإمام السّجّـاد عليه السلام كانت حول الزّهـد والمعارف الإسلاميّـة، إلّا أنّ الإمام كان يطرح المعارف الإسلاميّة ويُبيّنها من خلال الدّعاء، وذلك لأنّ الظّروف في ذلك العهد، وكما كُنّا قد ذكرنا، كان يسودها القمـع، ولم يكن الوضـع ملائمًا بحيث يسمح للإمـام السجّاد عليه السلام بأن يتكلّـم إلى النّاس ويطرح آراءه بصورة صريحة وواضحة، لم تكن الأجهزة فقط هي المانع بل النّاس أيضًا كانوا يرفضون ذلك. أساسًا، فإنّ المجتمع كان قـد أصبح مجتمعاً فاسدًا ضائعاً فاقـدًا للاستعداد، وكان يجب إعادة بنائه من جديد.

---

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 75، ص 128.

(2) تحف الحقول، ص 391.

كانت حياة الإمام السّجّاد عليه السلام لمدة 34 أو 35 سنة، من عام 61 هـ إلى 95 هـ، على هذا النّحو. وكلّما كان يمضي الوقت كان الوضع يتحسّن، حتّى قال الإمام الصادق عليه السلام، كما ذكرناه سابقاً، «**ارتدّ النّاس بعد الحسين...**» إلى أن قال «**ثم إنّ النّاس لحقوا وكثروا**». وفي زمن الإمام الباقر عليه السلام تحسّن الوضع عمّا كان عليه في زمن السجّاد عليه السلام وهذا بفضل ما بذله الإمام السجّاد من جهد خلال 35 سنة.

(1986/07/19)

يظنّ بعض النّاس أنّه لو أراد الإمام أن يقاوم نظام بني أميّة لكان ينبغي أن يرفع راية المقاومة العسكريّة، أو أن يلتحق بالمختار، أو عبد الله بن حنظلة، أو أن يقودهما معلنًا بذلك المقاومة المسلّحة بكلّ وضوح. لكن بالنّظر إلى ظروف زمن الإمام السجّاد عليه السلام، وبالالتفات إلى هدف الأئمّة عليهم السلام، نفهم أنّ هذا النّوع من التّفكير هو تفكيرٌ خاطئ.

فلو قام الأئمّة عليهم السلام، ومن جملتهم الإمام السجّاد عليه السلام، في تلك الظّروف بمثل هذه التحرّكات العلنيّة والسّلبيّة، فباليقين لما بقي للشّيعة باقية، ولما بقيت الأرضيّة أو فُسح المجال لاستمرار ونموّ مدرسة أهل البيت ونظام الولاية والإمامة فيما بعد. لهذا نجد أنّ الإمام السجّاد عليه السلام في قضيّة المختار، لم يُعلن التعاون معه، ورغم ما جاء في بعض الروايات عن ارتباطٍ سريّ بينهما، إلاّ أنّه ودون شكّ، لم يكن ارتباطًا علنيًّا، حتّى قيل في بعض الرّوايات إنّ الإمام السجّاد عليه السلام كان يذمّ المختار، ويبدو هذا الأمر طبيعيًّا جدًّا من ناحية التقيّة، وذلك حتّى لا يُستشعر وجود أيّ ارتباط بينهما، مع العلم بأنّ المختار فيما لو انتصر فإنّه بالتأكيد كان

سيُعطـي الحكومة لأهـل البيت عليهم السلام ، ولكن في حـال هزيمته، ومع وجود أدنـى ارتبـاط واضحٍ وعلنـيّ، لكانت النّقمـة شملت وبشكل قطعـيّ الإمام السجّـاد عليه السلام وشيعة المدينة واجتثّت جذور التشيّع أيضًا. لأجل ذلك لم يُظهر الإمام عليه السلام أيّ نوعٍ من الارتباط العلنيّ به.

ورد فـي روايـة أنّه عندما دخل مسلـم بن عقبة إلـى المدينة في واقعة الحرّة، لـم يشكّ أحدٌ على الإطلاق في أنّ أوّل شخص سيقع ضحيّة نقمته هـو عليّ بن الحسين عليه السلام ، لكنّ الإمـام السجّاد عليه السلام بتدبيره الحكيم تصرّف بحيث دفع البلاء عنه، وبذلك حافظ على استمرار المحور الأصليّ للشيعة.

وهنـاك روايات في بعض الكتب ـ مـن جملتها «بحار الأنـوار» ـ تحكي عـن إظهار التذلّل من قِبَل السجّاد عليه السلام عند مسلم بن عقبة، ولكن هذه الرّوايات كاذبة قطعًا وذلك للأسباب التالية:

أوّلًا: هذه الرّوايات لا تستند إلى أيّ سندٍ صحيح.

ثانياً: توجد روايات أخرى تُكذّبها وتدفعها من حيث المضمون.

توجد روايات عديـدة بخصوص لقاء الإمام عليه السلام مع مسلم بن عقبة لا تنسجـم أيّ واحـدة منها مع الأخـرى، ولأنّ بعض تلـك الروايات ينطبق وينسجم أكثر مع نهج الأئمّة وسيرتهم، فنحن بصورة طبيعيّة نقبلها.

علـى كلّ حال، مـع أنّنا لا نقبل تلـك الرّوايات الّتي تتحـدّث عن صدور مثـل هـذه الأفعال عن الإمام، لكنّنـا لا نشك أيضًا فـي أنّ الإمام لم يُقابل مسلـم بن عقبة بتصرّفٍ معادٍ، لأنّ أيّ تصرّف من هذا القبيل سوف يؤدّي إلـى قتـل الإمام، وهذا سيؤدّي بـدوره إلى خسارة عظيمـة لا تُجبر بلحاظ

الدّور الّذي ينبغـي أن يقوم به الإمام السجّاد عليه السلام بالنسبة لثورة الإمام الحسيـن عليه السلام وتبليغ حقيقتهـا. لهذا يبقى الإمام عليه السلام ـ وكما قرأنا فـي رواية الإمـام الصادق عليه السلام ـ ويلحـق النّاس به شيئًـا فشيئًا ويزداد عددهـم. وفي ظلّ تلك الظّروف الصّعبة وغير المساعدة يبدأ عمل الإمام السجّاد عليه السلام.

بالطّبـع، كان جهـاز عبد الملـك ـ حيـث إنّ معظم عهد إمامـة الإمام السجّـاد، البالغـة ثلاثين سنة ونيّـف، كانت في ظلّ هـذه الحكومة ـ يقوم بالرّصد التام والمراقبـة الدائمة لحياة الإمام السجّاد عليه السلام، ويستخدم الجواسيـس والعيـون الكثيـرة الّتي كانـت تنقـل إليـه أدقّ التفاصيل حتّى المسائل الداخلية والخاصّة بالإمام عليه السلام.

أهداف حركة الإمام السجاد عليه السلام

بعد أن اتّضحت ساحة عمل الإمام السجّاد عليه السلام أُشير بشكلٍ مختصر إلـى الهدف والنّهـج الّذي اعتمده الأئمّة عليهم السلام. وبعـد ذلك نقوم بدراسة جزئيّات حياة هذا الإمام فيما يتعلّق بهذا النّهج.

ممّـا لا شكّ فيه أنّ الهدف النهائيّ للسّجاد عليه السلام كان إيجاد الحكومة الإسلاميّـة، وكما جاء في كلام الصادق عليه السلام فـإنّ الله تعالى وقّت عام 70 لقيـام الحكومة الإسلاميّة، ثـمّ بسبب قتل الإمام الحسين عليه السلام سنة 60 فـإنّ الله أخّرهـا إلى سنـة 147 ـ 148هـ، فهذا يحكي بوضـوح عن أنّ الهدف النهائيّ للإمام السجّـاد عليه السلام وسائر الأئمّة كان إيجاد الحكومة الإسلاميّـة. ولكـن كيـف يمكن أن تُقـام الحكومة الإسلاميّـة في مثل تلك الظّروف؟ إنّ هذا يحتاج إلى عدّة أمور:

1. ينبغي أن تدوّن وتُدرس وتُنشر المدرسة الإسلاميّة الحقيقيّة، الّتي يحمل علمهـا الأئمّـة عليهم السلام، هذه المدرسة الّتـي هي أيضًا المبنـى الأساس للحكومـة الإسلاميّة. بعد أن انفصل المجتمـع الإسلاميّ ولمدّة طويلة من الزّمـن عن الفكر الإسلامـيّ الصّحيح، كيف يمكـن إقامة حكومة

علـى أسس الفكر الإسلامـيّ الأصيل في حيـن أنّ الأرضيّة الفكريّة لم يتمّ تحقيقها بين النّاس، ولم تدّون تلك الأحكام الأصيلة؟

إنّ أعظم الأدوار الّتي مارسها الإمام السجّاد عليه السلام هي أنّه دوّن الفكر الأصيل للإسـلام: كالتوحيد، والنبوّة، وحقيقة المقـام المعنويّ للإنسان، وارتباطـه باللّه. وأهمّ دور أدّته الصّحيفـة السجّادية هو في هذا المجال. فانظـروا إلى هذه الصّحيفة، ثـمّ جولوا ببصركم في أوضـاع النّاس على صعيد الفكر الإسلاميّ في ذلك الزّمن ستجدون مدى المسافة الّتي تفصل بين الاثنين.

ففـي ذلك الزّمن الّـذي كان يسير فيه المسلمون فـي كلّ أنحاء العالم الإسلامـيّ نحو الحياة المادّيّـة والملذّات، بدءًا مـن شخص الخليفة عبد الملك بن مروان، إلى العلماء المحيطين به (ومن جملتهم محمّد بن شهاب الزهـريّ، وسوف أذكـر أسماء علماء البلاط فيما بعـد)، نزولًا إلى جميع الّذين كانوا يغوصون في بحر الدنيا والماديات، يقف الإمام السجّاد عليه السلام ويقول مخاطبًا النّاس: «**أوَلا حرّ يدع هذه اللماظة لأهلها؟**»[1].

ففـي هذه الجملة يوضح الإمام أنّ الفكـر الإسلاميّ الأصيل كان عبارة عن جعـل الهدف للمعنويّـات، والتحرّك للوصـول إلى الأهـداف المعنوية والإسلاميّـة، وجعـل الإنسان يرتبط باللّه عبر التكليـف. وهذا هو الموقف المقابـل تمامًـا لحركة النّاس الماديّة فـي ذلك الزّمـن. كان على الإمام السجّاد عليه السلام أن يقوم بعملٍ كبيرٍ لأجل أن يحفظ الفكر الأصيل للإسلام

(1) تحف العقول، ص391.

فـي فضاء المجتمـع الإسلاميّ. وكانت هـذه الحادثة بدايـة أعمال الإمام السجّاد عليه السلام.

2. تعريـف النّاس إلى أحقّية أولئك الّذيـن ينبغي أن يتسلّموا زمام الحكم.

إذ كيـف يُمكن لأهل البيت تشكيـل حكومة في الوقت الّذي كان الإعلام والتبليغ ضدّ آل الرسول قد ملأ العالم الإسلاميّ طوال عشرات السنين حتّى عصر الإمام السجّـاد عليه السلام، وفيه ظهرت الأحاديث الموضوعة عـن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والّتـي تُخالف حركة أهل البيت بـل إنّها في بعض الموارد تشتمل على سبّهم ولعنهم، وقد نُشرت بين أناس لم يكن لديهم أي اطّلاع على المقام المعنويّ والواقعيّ لأهل البيت.

لهـذا، فإنّ أحد الأهـداف والتحرّكات المهمّـة للإمام السجّاد عليه السلام كان يرتبط بتعريف النّاس إلى أحقّية أهل البيت، وأنّ مقام الولاية والإمامة والحكومـة حقٌّ ثابت لهم وهم الخلفـاء الواقعيّون للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. وهذا الأمر، إلى جانب أهميّته العقائدية والفكريّة، فإنّ له ماهيّة سياسيّة وهي الارتباط بالحركة السّياسيّة المناهضة للنّظام الحاكم.

3. كان علـى الإمـام السجّـاد عليه السلام أن يؤسّـس الأجهـزة والتشكيـلات الّتـي يُمكن أن تكون منطلقـًا أصليًّا للتحرّكات السّياسيّـة المستقبليّة، ففـي مجتمعٍ ممـزّق، يعيش تحت أنواع القمع والفقـر والتضييق الماليّ والمعنـويّ، حتّـى أنّ الشّيعـة عاشوا مـن الرّعب والتضييـق إلى درجة أنّ تشكيلاتهـم تلاشـت، فكيف يُمكن للإمام السجّـاد عليه السلام أن يبدأ عملـه وحيدًا أو مع مجموعـة قليلة وغير منظّمة؟ لهـذا كان همّ الإمام السجـاد عليه السلام أن يبدأ بتشكيـل هذه التّنظيمات الّتـي كانت، برأينا،

موجـودة منذ أيّام أمير المؤمنين عليه السلام غير أنّها ضعفت وتلاشت إثر واقعة عاشوراء والحرّة وثورة المختار.

بالنتيجة نجد كان للإمام السّجّاد ثلاثة أعمال أساس:

الأول: تدوين الفكر الإسلاميّ بصورة صحيحة وطبق ما أنزل الله، بعد مرور أزمنة من التحريف والنسيان عليه.

الثاني: إثبات أحقّية أهل البيت في الخلافة والولاية والإمامة.

الثالـث: إيجاد التشكيلات المنسجمـة لأتباع أهل البيت عليهم السلام وأتباع التشيّع.

هذه الأعمـال الثلاثة الأساس هي الّتي ينبغـي أن ندرسها ونبحث فيها لنرى أيّ واحد منها قد تحقّق في حياة الإمام السجّاد عليه السلام .

إلـى جانب هذه الأعمـال، كان هناك أعمال أخـرى هامشيّة أو ضمنيّة وتحرّكات قام بها الإمام وأتباعه لأجل اختراق ذلك الجوّ المرعب والقمعيّ. ففـي ظلّ الإجـراءات الأمنية المشدّدة الّتـي كان يفرضها الحكم، نلاحظ مواقـف عديدة للإمـام عليه السلام أو أتباعـه كان الهدف منهـا كسر حواجز القمـع وصناعة بعض الأجـواء الملائمة واللطيفـة، خاصّة مـع الأجهزة الحاكمـة أو التابعة لها، مثل المواقف الّتي حدثت بين الإمام عليه السلام وعبد الملـك عدّة مـرات، أو الأمور الّتي جرت مع العلمـاء المنحرفين والتّابعين لعبد الملك (من قبيل محمّد بن شهاب الزهريّ) كلّ ذلك لأجل خرق ذلك الجوّ المتشدّد.

إنّ الباحـث عندمـا يستعرض الرّوايـات، سـواء الأخلاقيّـة منهـا أم المواعـظ أم الرّسائل الّتي نقلت عـن الإمام أو المواقف الّتي صدرت عنه،

وذلــك على أساس ما بيّناه، فإنّه سوف يجد لها المعاني المناسبة؛ وبتعبيرٍ آخر ســوف يرى أنّ جميع تلــك التحرّكات والأقوال كانــت ضمن الخطوط الثّلاثة الّتي أشرنا إليها والّتي كانت تصبّ جميعًا في دائرة إقامة الحكومة الإسلاميّــة. وبالتأكيد لم يكن الإمام يُفكّر في إيجــاد حكومة إسلاميّة في زمانــه لأنّــه كان يعلــم أنّ وقتها فــي المستقبل، أي فــي الحقيقة في عصر الإمام الصادق عليه السلام.

(مجلة باسدار اسلام،8)

وبهــذه الأعمال الثّلاثة ســوف تتهيّأ أرضيّة إقامــة الحكومة الإسلاميّة والنّظــام العلَويّ. لقد ذكــرتُ سابقًا، وأؤكّد على ذلك الآن أيضًا، أنّ الإمام السجّــاد عليه السلام لــم يكن يــرى أنّه سيتمّ تحقيــق الحكومــة الإسلاميّة في زمانــه (وهذا بخــلاف ما عمل لأجله الإمام الصــادق عليه السلام في زمانه)، فقــد كان معلومًا بــأنّ الأرضيّة فــي عصر الإمام السجّــاد عليه السلام لم تكن معــدّة لذلــك، وكان حجم الظّلــم والقمع والجهل كبيرًا إلــى درجة يصعب معهــا إزالتهم خلال هذه السّنوات الثلاثيــن. فكان الإمام السجّاد عليه السلام يعمــل للمستقبــل. ومن خــلال القرائــن العديدة، نفهــم أيضًــا أنّ الإمام الباقــر عليه السلام لم يكن يهدف إلى إقامة حكومة إسلاميّة في زمانه، أي أنّه منــذ سنة 61 وحتّى 95 هــ (شهادة الإمام السجّاد عليه السلام)، ومنذ سنة 95 وحتّــى 114 هـ (شهادة الإمام الباقر عليه السلام)، لم يكن في تصوّر أيّ منهما أنّه ستُقام هذه الحكومة في زمانه، ولهذا كانا يعملان على المدى البعيد.

وســوف نستشهد على هذه الفكرة بكلمات الإمام السجّاد عليه السلام، لأنّها أفضل المصــادر وأكثرها أصالة للتعرّف إلى سيرة حياته عليه السلام، بل على

حيـاة كلّ الأئمّة عليهم السلام. غاية الأمر – وكما أشرنـا إليه سابقًا – أنّنا نفهم هـذه البيانات بصورة صحيحة عندمـا نطلّع على حركة الأئمّة ومقصدهم من الجهاد والمواجهة والسّعي والسّير، وبغير هذه الصّورة قد نفهم معاني هذه الكلمات – الّتي سوف أُبينّها – مغلوطة. وبعد أن اطّلعنا على بعض تلك الحـوادث، والّتي استفدناها ببركة كلمات الأئمّة عليهم السلام، سوف نعتمد على نفس المصادر وسنرى أيّ استنتاجات صحيحة نُحصّلها.

قبـل أن ندخل في صلب البحث ينبغـي أن نُذكّر بنقطة موجزة وهي أنّه بسبـب مرحلة القمع الشّديد الّتي كان يعيشهـا الإمام السجّاد عليه السلام، لم يستطـع أن يُبيّن لنا تلك المفاهيم بصورة واضحة ولذلك كان يستفيد من أسلـوب الموعظة والدّعاء (خاصّة أدعيـة الصحيفة السجّادية الّتي سوف نتعرّض لها فيما بعد والبيانات والروايات الّتي نُقلت عن الإمام عليه السلام والّتي كانت تطغـى عليها حالة الموعظة)، حيث كان الإمام ضمن بيان الموعظة والنصّيحـة يُبيّن ما أشرنا إليه سابقًا؛ وبهـذا اتّبع الإمام السجّاد عليه السلام منهجًـا حكيمًـا وشديـد الحذاقة. وبذلـك الأسلوب الّذي ظاهـره موعظة النّاس ونصحهم، أدخل الإمام عليه السلام إلى أذهانهـم ما يُريده، وهذا من أفضل أشكال التّعاطي الأيديولوجيّ والفكريّ الصحيح.

الإمام السجّاد عليه السلام
وتجلّيات المواجهة السّياسيّة

ما سنقــوم بدراسته هنا هو كلمات الإمــام السجّاد عليه السلام الواردة في كتاب «تحــف العقول» حيث نُشاهد عدّة أنواع مــن الأسلوب المذكور والّتي تُشير إلى طبيعة الجهات المخاطَبة.

أحــد تلك الأنواع هو الكلمــات الموجّهة إلى عامّة النّاس، والّتي يظهر فيها أنّ المستمع ليس من الجماعة المقرّبة والخاصّة للإمام أو من الكوادر التّابعيــن له. وفي هــذه الخطابات يستند الإمــام عليه السلام دائمًا إلى الآيات القرآنيــة، لمــاذا؟ لأنّ عامّة النّاس لا ينظرون إلــى الإمام السجّاد عليه السلام كإمــام، بل يطلبون الدّليل في كلماته، ولهذا كان الإمام يستدلّ إمّا بالآيات أو بالاستعارة من الآيات. ولعلّه في هذه الرّوايات، قد استخدم في 50 موردًا أو أكثر آيات قرآنيّة إمّا بصورة مباشرة أو بطريق الاستعارة.

أمّــا في الخطاب الموجّه إلــى المؤمنين نجد الأمــر يختلف، لأنّ هؤلاء المؤمنيــن يعرفون الإمــام السجّاد عليه السلام وقوله مقبــول عندهم، لهذا لم يكن يستند فــي كلامه إلى الآيات القرآنية. ولو أحصينا كلّ كلامه الموجّه

إليهم لوجدنا أنّ استخدام الآيات القرآنية فيه قليل جدًّا.

في رواية مفصّلة من كتاب «تحف العقول» تحت عنوان: «**موعظته لسائر أصحابه وشيعته وتذكيره إيّاهم كلّ يوم جمعة**»[1]، نجد أنّ دائرة المستمعين واسعة وهذا ما نستنتجه من القرائن المفصّلة الواردة فيها. فلم يستخدم الإمام عليه السلام في هذه الرّواية كلمة «**أيّها المؤمنون**» أو «**أيّها الإخوة**»، وأمثالها، حتّى نعلم أنّ خطابه موجّه إلى جماعة خاصّة، ولكنّه قال «**أيّها النّاس**» وهذا يُشير إلى عموميّة الخطاب. في حين أنّه في بعض الروايات الأخرى كان الخطاب موجّهًا بصورة خاصّة إلى المؤمنين.

ثانياً؛ لا يوجد في هذه الرواية تصريحٌ بشيء معارض للجهاز الحاكم، بل انصرف كلّ الخطاب لبيان العقائد وما ينبغي أن يعرفه الإنسان، وذلك بلسان الموعظة. فالخطاب يبدأ هكذا: «**أيها النّاس، اتقّوا الله واعلموا أنّكم إليه راجعون...**». ثمّ يتطرّق الإمام عليه السلام إلى العقائد الإسلاميّة ويوّجه النّاس إلى ضرورة فهم الإسلام الصّحيح. وهذا يدلّ على أنّهم لا يعرفون الإسلام الصحيح، وهو يريد بذلك إيقاظهم من غفلة الجهل إلى معرفة الإسلام وتعاليمه.

فانظروا مثلاً كيف يستفيد الإمام السّجاد عليه السلام من الأسلوب الجذّاب، حيث يقول هنا: «**ألا وإنّ أوّل ما يسألانك عن ربّك الّذي كُنتَ تعبده**»[2] ويمضي على هذا المنوال ناصحًا، ويُخوّف من ذلك الوقت الّذي يوضع المرء في قبره ويأتي منكر ونكير لمساءلته. وبهذا يريد أن يوقظ

---

(1) تحف العقول، ص 249.

(2) م.ن.

فيهـم الدّافع لمعرفة اللّه وفهم التوحيد، «**وعن نبيّك الّـذي أُرسل إليك**»، ثمّ الدافع لفهم النبوة، «**وعن دينك الّذي كنت تدين به، وعن كتابك الّذي كنت تتلوه...**»[1].

وأثنـاء عرضـه لهذه العقائـد الأصيلـة والمطالب الأسـاس للإسلام، كالتوحيد والنبوّة والقرآن والدين، يُبيّن هذه النقطة الأساس بقوله عليه السلام: «**وعن إمامك الّذي كنت تتولّاه**»[2]، فهو هنا يطرح موضوع الإمامة. وقضيّة الإمامة عند الأئمّة تعني قضيّة الحكومة أيضًا، إذ لا يوجد فرق بين الولاية والإمامة على لسان الأئمّة عليهم السلام. وإن كان للوليّ والإمام معانٍ مختلفة عند بعض النّاس ولكن هاتين القضيّتيـن - الولاية والإمامة ـ على لسان الأئمّة أمرٌ واحدٌ والمراد منهمـا واحد. وكلمة «**الإمام**» المقصودة هنا تعني ذلك الإنسـان المتكفّل بإرشاد النّاس وهدايتهم مـن الناحية الدينيّة، والمتكفّل أيضًـا بـإدارة أمور حياتهـم من النّاحيـة الدنيويّة، أي خليفـة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الإمام هو قائد المجتمع، أي ذلك الإنسان الّذي نتعلّم منه ديننا وتكون بيده إدارة دنيانا أيضًا، بحيث تكون إطاعته في أمور الدّين والدّنيا واجبة علينا.

فـي عالم التشيّـع تعرّضت هذه القضيّة (دور الإمـام) إلى فهم خاطئ طيلـة قرون متتالية. ففـي السّابق، كان النّاس يتصـوّرون أنّ الإمامَ يتفرّد بحكم المجتمع، وهو الّذي ينبغي أن يُدير أمور الحياة بيده وبجهده الذاتيّ: فيُحارب ويُصالح ويعمل ويُنفّـذ كلّ طلب بنفسه؛ فهو يأمر النّاس وينهاهم من جهة، وفي نفس الوقت هو الّذي يُنفّذ هذه الأمور وحده لإصلاح دينهم!

---

(1) م.س، ص 249.

(2) م.ن.

واليوم أيضًا لقد تعرّضت هذه القضيّة للفهم الخاطئ بحيث أصبحنا نعتبر أنّ الإمـام في عصـر الغيبة ليس سـوى عالمًا دينيًّا، وهـذا بالطبع تصوّرٌ خاطـئ. لفظة «**الإمام**» تعنـي المتقدّم والقائـد. فالإمام الصادق عليه السلام عندما كان يُخاطب النّاس في منى أو عرفات بقوله: «**أيّها النّاس إنّ رسول الله كان الإمـام**»(1)، كان يُشيـر إلـى أنّ الإمام هو الّذي يتوّلـى أمور النّاس الدينيّة والدنيويّة.

لقـد كان هذا المعنى يُفهـم فهمًا خاطئًا في المجتمـع الإسلاميّ، أيّام حكـم عبد الملك بن مروان وفي عصر الإمـام السجّاد عليه السلام، وذلك لأنّ إمامـة المجتمع، وهـي إدارة شؤون حياة النّاس وبسـط نظام العيش الّذي يُمثّل قسمًا مهمًّا من الإمامة، قد سُلبت من أهلها وأُعطيت إلى من لا أهليّة لهم بها، حيث كانوا يُلقّبون أنفسهم بالأئمّة ويعرفهم النّاس بذلك. فالنّاس كانوا يُطلقون لقب الإمام على عبد الملك بن مروان، ومن قبله أبيه وقبلهما يزيـد وغيره. وقـد قبلوهم على أسـاس أنّهم قادة المجتمـع والحكّام على النّظام الاجتماعيّ للنّاس. وقد ترسّخ ذلك في أذهان النّاس.

وهكذا عندما كان الإمام السجّاد عليه السلام يقول إنّك ستُسأل عن إمامك في القبر، كان يُشير إلى أنّك هل انتخبت الإمام المناسب والصّحيح؟ وهل أنّ ذلـك الشّخص الّذي كان يحكمك، ويقـود المجتمع الّذي تعيش فيه هو حقّاً إمام؟ وهل هو ممّن رضي الله عنه؟ لقد كان الإمام بهذا الكلام يوقظ النّاس ليجعل هذه القضيّة حسّاسة في نفوسهم.

(1) الكافي، ج4، ص466.

بهـذه الطريقة كان الإمام يحيـي قضيّة الإمامة؛ فلمّـا لم يكن الجهاز الأمـويّ الحاكـم يرضى بـأن يتمّ الحديث عنهـا، استخدم الإمـام أسلوب الموعظة. (كانـت هذه من إحدى الوسائل الهادئـة الّتي استخدمها الإمام في هذا المجال، وسوف نُشير لاحقًا إلى أساليب أكثر تشدّدًا).

بنـاءً علـى هذا، ففـي البيان العـام الموجّه إلـى عامّة النّـاس نجد أنّ إمامنـا، وبلغة الموعظة، يُحيي المعارف الإسلاميّة، وخاصّة تلك المعارف الحسّاسة في ذهن النّاس، ويسعى لأجل أن يتعرّف النّاس إليها ويتذكّروها. ويُمكن الالتفات في هذا النوع من الخطاب إلى نقطتين اثنتين:

الأولـى: أنّ هـذا الأسلوب البيانـيّ للإمام لم يكـن تعليميًّا، بل هو من نـوع التّذكيـر. أي إنّ الإمام لم يكن يجلـس ليُبيّن للنّـاس دقائق التّوحيد، أو ليُفسّـر لهـم مسألـة النبـوّة، وإنّما يُذكّرهـم بها. لمـاذا؟ لأنّ المجتمع الّـذي كان يعيشُ فيه الإمام السجّـاد عليه السلام لم تكن تفصلـه عن مرحلة النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم مسافة زمنية كبيرة حتّى ينحرف كليًّا عن العقائد الإسلاميّة. بـل كان هناك الكثير من الأشخاص الّذين عايشوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومرّت عليهم مرحلـة الخلفاء الراشديـن، وقد عاصروا أئمّتنـا العظام من أمير المؤمنين عليه السلام إلى الإمام الحسن عليه السلام وإلى الإمام الحسين عليه السلام. ومـن الناحية الاجتماعيّة لـم يكن الوضع قد وصل إلـى مرحلة يُعاني فيها المجتمع الإسلاميّ من الانحراف العقائديّ والأصوليّ.

بالنسبـة لمسألـة التوحيـد والنبوّة والمعـاد والقرآن. نعـم، كانت هذه المسائـل تدريجيًّـا تخرج من ذاكرتهم، وكانت الحيـاة المادّية تُحيط بهم إلى درجة تُنسيهم الفكر الإسلاميّ والعقيدة الإلهيّة.

كانـت الحياة الدنيويّـة والمادّية تسري في المجتمـع بحيث لا تُبقي في أذهـان النّاسـ أيّ توجّه للمسابقة في مضمار المعنويّـات والخيرات. وإذا وُجد هذا الأمر فإنّه لم يكن ليتعدّى القشور والسّطوح. أمّا بالنّسبة للمفهوم الّـذي كان يحملـه النّاس في زمـن رسول الله ﷺ والعصـر المتّصل به، عـن التوحيد والحساسية المتميّزة تجاهه، فقـد كانوا يفتقدونه في عصر الإمام. وهذا ما كان يستدعي التذكير حتّى يرجع الأمر إلى سابق عهده، لا أنّ هناك أشياء محرّفة ينبغي أن تُصحّح.

وهذا بخـلاف المراحل اللاحقة، كمرحلة الإمام الصادق عليه السلام، لأنّ المسألـة حينها لم تكن على هذه الشّاكلة. فقد ظهر في ذلك الوقت الكثير مـن المتكلّميـن والمتفلسفيـن والمفكّرين، وتحـت عناوين متعـدّدة كانوا يجلسون في المساجد الكبرى، مثل مسجد المدينة وحتّى المسجد الحرام ومسجـد الشام، ويُدرّسـون العقائـد المنحرفة والباطلة. لقـد برز حينها أناسـ مثل «ابن أبـي العوجاء» يُدرّسـون عقائد الزنادقـة والإلحاد. لهذا، بالتأمّل بأحاديث وكلمات الإمام الصادق عليه السلام نجد بيان التوحيد والنبوّة وأمثالهـا بصورة استدلالية[1]. فالحاجة إلـى الاستدلال ضروريّة لمواجهة استدلال الخصم، وهذا ما لا نجده في كلمات الإمام السجّاد عليه السلام، الّتي كانت تعتمد على الحالة الشعوريّة والوجدانيّة الّتي تُذكّر بالقضايا الأساس.

وباختصـار، لم يكن عصر الإمام السجّاد عليه السلام يحكي عن خروج عن الفكـر الإسلاميّ، حتّى عند الحـكّام، إلّا في بعض الموارد الّتي يظهر فيها

(1) مجموعة رسائل في شرح الأحاديث، الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص 565.

مثـل هذا الأمر. وذلـك عندما ألقى يزيد اللعين تلـك الأبيات الشعريّة في حالة السكر عندما أُحضر أسرى أهل البيت عليهم السلام فقال:

لعبت هاشم بالملك فلا
خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل[1]

ولكنّنـا نستطيع أن نقول إنّ هذا الكلام كان تحـت تأثير السّكر. فحتّى أمثـال عبـد الملـك أو الحجّاج لم يكونـوا يجرؤون على إعـلان مخالفتهم لفكـرة التّوحيـد أو النبوّة. لقد كان عبد الملك بن مـروان يقرأ القرآن إلى درجـة أنّـه عُرف كأحد قـرّاء القرآن. ثـمّ عندما وصل إليـه خبر تنصيبه خليفـة قبّل القـرآن وقـال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾[2] [3]، إنّ هذا ما حدث فعـلاً. والحجّـاج بن يوسف الّـذي سمعتم عـن ظلمه (وباليقيـن إنّ الّذي سمعتمـوه هو أقـلّ بكثير ممّا فعله) كان عندما يخطـب في النّاس يأمرهم بالتقـوى. وهكذا نفهم سبـب اعتماد الإمام السجّـاد عليه السلام على التذكير بالأفـكار الإسلاميّة لإخراج النّاس من مستنقع الدنيا والأهواء المادّية إلى ساحة معرفة اللّه والدين والقرآن.

الثانيـة: وهي مـا أشرنا إليه سابقًا، من أنّ الإمـام كان يأتي على ذكر مسألـة الإمامة من خـلال بيانه العامّ بصورةٍ مفاجئـة. أي أنّه أثناء ذكره للقضايا الإسلاميّة مثلما كان يحدث في عهد النّظام الشاهنشاهيّ السّابق عندمـا كان أحدٌ يتحدّث معكم فيقول: أيّها السّادة توجّهوا إلى اللّه وفكّروا

(1) الطبرسي، الاحتجاج، ج2، ص 307.
(2) سورة الكهف، الآية 78.
(3) محمد تقي النقوي النائيني الخراساني، مفتاح السعادة في شرح نهج البلاغة، ج2، ص239.

بقضيّــة التّوحيد وبقضيّة الإمامــة واهتمّوا بقضيّة الحكومــة، فانظروا إنّ مــا لدينــا من إمامةٍ هنــا نفهمها دون بيــان الإمام السجّاد. نــرى أنّ كلمة الحكومة هذه في عصر النّظام السّابق كانت كما تعلمون شيئًا خطيرًا، فلو أراد أحدٌ أن يجعل النّاس يهتمّون بقضيّة الحكومة ما كانت أجهزة السّلطة لتمــرّ على هذا الكلام بسهولة. لكن إذا جــاء ذلك بلغة الوعظ وعلى لسان رجــل زاهد وعابد فإنّه يُمكن أن يُقبل لدى أجهزة السّلطة، وبتعبير آخر لن يُثير الحساسيّات. هذا نوع من بيانات الإمام السجّاد عليه السلام.

(مجلة باسدار إسلام، 9).

تحذير الخواص من الدنيا والرفاهية

أمّا النّوع الثاني فهو ذلك الخطاب الموجّه إلى مجموعة خاصّة لا تُعرف هويّتها. ولكن من الواضح أنّه كان موجّهًا إلى مجموعة من الّذين يُخالفون النّظـام الحاكـم. فمن يُمكن أن يكون هؤلاء؟ هـذه الخطابات وإن لم يُعلم منهـا بالتّحديد من هي تلك الفئة المخاطَبة، ولكن مـن الواضح أنّها لفئة مخالفـة للنّظام الحاكم، وأفرادها هم فـي الواقع من أتباع الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن المعتقدين بحكومة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ولحسن الحظّ، إنّنا نجد في كتاب تحف العقول نموذجًا لهذا النّوع من الكلمات الصّـادرة عن الإمـام السجّاد عَلَيْهِ السَّلَامُ (وذلـك لأنّنا لا نجد في غيـره من الكتب موارد أخرى من هذا النوع رغم أنّ هناك الكثير في حياة الإمام السجّاد عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن على أثـر الحوادث المختلفة الّتي جرت في ذلك العصر من القمع والتنكيل والاضطهاد وقتل الأصحاب زالت تلك الآثار وبقي القليل منها).

يبـدأ الخطـاب التّابع لهذا النّوع الثانـي هكذا: «**كفانا الله وإيّاكم كيد الظالميـن وبغي الحاسديـن وبطش الجبّاريـن**»[1]. ويُعلم من هذا البيان

(1) الكافي، ج8، ص15.

أنّ الإمـام والجمـع الحاضـر مهـدّدون من قِبَـل السلطات الحاكمـة، وأنّ المسألـة ترتبط بمجموعـة خاصّة: المؤمنين بأهـل البيت عليهم السلام، ولذلك جاء الخطاب بصيغة «**يا أيّها المؤمنون**»، خلافًا للنّوع الأوّل حيث يستعمل «**يا أيّها النّاس**» أو «**يا ابن آدم**»، وذلك لأنّ الخطاب موجّه إلى المؤمنين في الحقيقة بأهل البيت وأفكار أهل البيت عليهم السلام.

والدّليـل الآخر الواضح جدًّا هـو عندما يقول عليه السلام: «**أيّها المؤمنون لا يفتننّكم الطواغيت وأتباعهم من أهل الرغبة في الدنيا، المائلون إليها المفتونون بها، المقبلون عليها**»[1].

فالمقصـد الأصليّ مـن الكلام هو حفظ هـؤلاء المؤمنين وبناء الكادر الـلازم للمستقبل. ومن الواضح أنّه على أثـر الصّراع الشّديد في الخفاء، مـا بين أتباع الأئمّـة عليهم السلام وأتباع الطواغيت، فإنّ أتبـاع الأئمّة عانوا من الحرمـان الكبير والخطـر الأكبر الّذي يُهدّد المجاهديـن وهو التوجّه إلى الرفاهية، هذه الرفاهية الّتي لن تجرّهم سوى إلى ترك الجهاد.

لقـد كان الإمـام عليه السلام يؤكّد كثيرًا علـى هذه النقطة، ويُحـذّر النّاس من حيـاة التّرف في هذه الدنيا المتلألئة الكاذبـة الخدّاعة الّتي لن تؤدّي سـوى إلى التقرّب مـن الطواغيت. لهذا نجد في هذا البيـان، وفي العديد من كلمات الإمام السّجّاد عليه السلام، وفي الروايات القصيرة الّتي نُقلت عنه، تأكيدًا على هذا الأمر.

مـاذا يعني التّحذير من الدنيـا؟ إنّه يعني حفـظ النّاس من الانجذاب

(1) تحف العقول، ص 252.

نحو المترفين والإيمان بهم وتمييزهم بحيث تقلّ حدّة مواجهة النّاس لهم. وهـذا النّوع من الخطابات موجّه للمؤمنيـن، أمّا في الخطاب المتوجّه إلى عامّة النّاس، فقلّما نجد مثل هذا النّوع. ففي خطاب عامّة النّاس، كثيرًا ما يظهر: أيّها النّاس التفتوا إلى الله، إلى القبر والقيامة، إلى أنفسكم والغد. فمـا هو هدف الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ من هذا النوع الثاني من الخطاب؟ المقصود هو بناء الكادر.

فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ يريد أن يصنع من المؤمنين كوادر ملائمة للمرحلة، ولهذا يُحذّرهم من الانجذاب نحو أقطاب القدرة والرّفاهية الكاذبة. ويُكرّر ذكر النّظام الحاكم خلافًا للنوع الأوّل من الكلمات، كما يقول مثلاً: «**وإنّ الأمور الواردة عليكم في كلّ يوم وليلة من مظلمات الفتن وحوادث البدع وسنن الجور وبوائق الزمان وهيبة السلطان ووسوسة الشيطان**»[1].

وهنـا نجـد أنّ الإمـام مباشرة بعد ذكـر هيبة السّلطـان وقدرته يذكر وسوسـة الشّيطـان، يريد بذلك أن يلفت، وبكلّ صراحـة، النّظرَ إلى حاكم ذلـك الزّمان ويضعـه إلى جانب الشّيطـان. وفي تتمّة الـكلام جملة لافتة ومهمّـة جـدًّا لذلك أنقلها، فهي تحكـي عن مطلب كُنتُ قـد ذكرته سابقًا: «**لتثبّـط القلـوب عـن تنبهـا وتذهلها عن موجـود الهـدى ومعرفة أهل الحـقّ**»[2]. تلـك الهداية الموجـودة الآن في المجتمع. فهـذه الأحداث الّتي ترد على الإنسان في حياته في الليل والنّهار - في عصر القمع - تمنع القلوب من تلك النيّة والتوجّه والدافع والنشاط المطلوب للجهاد.

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 8، ص 15.

(2) م. ن، ص 15.

فالإمام السّجّاد عليه السلام يعظهم بالأسلوب السّابق نفسه، «**وإيّاكم وصحبة العاصين ومعونة الظّالمين**» فهو يُحذّرهم من مجالسة أهل المعاصي. من هم أهل المعاصي؟ أولئك الذين جُذبوا لنظام عبد الملك الظالم. الآن، حاولوا أن تتصوّروا شخصية الإمام السجّاد وأن تكوّنوا تصوّرًا عنه عليه السلام. هل ما زال ذلك الإمام المظلوم الصّامت المريض الّذي لا شأن له بالحياة؟ كلّا، فالإمام هو الّذي كان يدعو مجموعة من المؤمنين والأصحاب ويُحذّرهم، بهذه الصّورة الّتي ذكرناها من التقرّب إلى الظلَمة ونسيان المجاهدة، ويمنعهم من الانحراف عن هذا الطريق، وكان يحفّزهم ويُشحنهم بالنشاط، ويدفعهم من أجل أن يكونوا مؤثّرين في إيجاد الحكومة الإسلاميّة.

من جملة الأشياء الّتي أراها جليّة وشديدة الأهميّة في هذا القسم من كلمات الإمام السّجّاد عليه السلام، تلك الكلمات الّتي يُذكّر فيها بتجارب أهل البيت عليهم السلام الماضية. ففي هذا القسم يُشير الإمام عليه السلام إلى تلك الأيّام الّتي مرّت على النّاس من قِبَل الحكّام الجائرين، مثل معاوية ويزيد ومروان، ووقائع مثل الحرّة وعاشوراء، وشهادة حجر بن عديّ ورشيد الهجريّ، وعشرات الحوادث المهمّة والمعروفة والّتي مرّت على أتباع أهل البيت طيلة الأزمان الماضية واستقرّت في أذهانهم. ويريد الإمام عليه السلام أن يحثّ أولئك المخاطَبين من خلال ذكر تلك الحوادث الشّديدة، على التحرّك والثورة. والتفتوا الآن إلى هذه الجملة: «**فقد لعمري استدبرتم من الأمور الماضية في الأيّام الخالية من الفتن المتراكمة والانهماك فيها ما تستدلّون به على تجنّب الغواة**»[1].

أي إنّكم تستحضرون تلك التّجارب وتعلمون ماذا سيفعل بكم أهل البغي

(1) تحف العقول، ص 253.

والفساد ـ وهم حـكّام الجور ـ عندما يتسلّطون عليكم. ولذلك يجب عليكم أن تتجنّبوهـم وتواجهوهم. وفي هذا الخطاب يطرح الإمام مسألة الإمامة بصورة صريحة، أي قضيّة الخلافة والولاية على المسلمين والحكومة على النّاس وإدارة النّظام الإسلاميّ. هنا يُبيّن الإمام السجّاد عليه السلام قضيّة الإمامة بالصّراحة، في حين أنّه في ذلك الزّمن لم يكن ممكنًا طرح مثل هذه المطالب على العامّة. ثم يقول عليه السلام: «**فقدّموا أمر الله وطاعته وطاعة من أوجب الله طاعته**».

وهنا يُعيّن الإمام فلسفة الإمامة عند الشّيعة والإنسان الّذي يجب أن يُطاع بعد الله. ولو فكّر النّاس في ذلك الوقت بهذه المسألة لعلموا بوضوح أنّه لا يجب طاعة عبد الملك؛ لأنّه من غير الجائز أن يوجب الله طاعة عبد الملك، ذلك الحاكم الجائر بكلّ فساده وبغيه. وبعد أن يُقدّم الإمام هذه المسألة يتعرّض لردّ شبهة مقدّرة فيقول: «**ولا تقدّموا الأمور الواردة عليكم من طاعة الطّواغيت وفتنة زهرة الدنيا بين يدي أمر الله وطاعته وطاعة أولي الأمر منكم**»[1]. فالإمام عليه السلام في هذا القسم من كلمته يعرض بصراحة لقضية الإمامة.

ففي هذا الخطاب والخطاب السّابق يُركّز الإمام عليه السلام على مسألتين أساسيّتين من المسائل الثلاث الّتي أشرنا إليها سابقًا.

الأولى: إعادة تدوين وتجديد الفكر الإسلاميّ والمعتقدات الإسلاميّة وإحياؤها في أذهان النّاس والحثّ على تعلّمها.

والأخرى: البعد السياسيّ لولاية الأمر أي قضيّة الحكومة وقيادة

(1) تحف العقول، ص 254.

النّظام الإسلاميّ.

وعندما يُعرّف الإمام هاتين المسألتين للنّاس في ذلك الزّمن فإنّه يقوم في الواقع بتعريف النّظام العلويّ والنّظام الإسلاميّ الإلهيّ.

نوعٌ آخر من كلمات الإمام السّجّاد عليه السلام وهو أهمّ من الكلمتين السابقتين. ومن خلاله يدعو الإمام بصراحة النّاس إلى ضرورة إيجاد التشكيلات الإسلاميّة الخاصّة. وبالطبع فإنّ هذه الدعوة موجّهة إلى أولئك الّذين يتّبعون أهل البيت عليهم السلام ، وإلّا لو كانت إلى غيرهم من عامّة النّاس لأُفشيت وأدّت إلى إيذاء الإمام عليه السلام وتعرّضه للضغوط الصعبة، وبحمد اللّه فإنّنا نجد نموذجًا لهذا النّوع من الكلمات في «تحف العقول»[1].

يبدأ الإمام بهذه العبارة: «**إنّ علامة الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة، تركهم كلّ خليط وخليل ورفضهم كلّ صاحب لا يريد ما يريدون**»[2]. وهذا تصريح بالدعوة إلى إيجاد تشكيلات شيعيّة.

فهو عليه السلام يُعلّمهم بأنّ عليهم الابتعاد عن أولئك الّذين يُخالفونهم في الدافع ولا يتّبعون الحكومة العلويّة وحكومة الحقّ..[3].

(1) للأسف الشديد ينبغي أن نقول إنّه لا يوجد في جميع العناوين المتعلّقة بمثل هذه الكلمات الصادرة عن الإمام السجّاد عليه السلام - والّتي اختارها المحدّثون - أيّ نوع من الإشارة إلى ذلك المحتوى الذي أشرنا إليه. فعلى الأغلب، جعلوا ذيل العنوان هو الزهد. بالطبع إنّ الزهد الواقعيّ هو هذا، لكنّ ذلك الفهم السائد حول الزهد لا يُمكن أن يُستنبط من هذه الكلمات وكان ينبغي أن يُشار إلى أنّ الإمام عليه السلام في هذه الكلمات كان بصدد الإشارة إلى القضايا السّياسيّة (الكاتب).

(2) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 75، ص 128.

(3) برأيي يمكن أن نجد من قبيل هذا البيان في كلمات الإمام السجّاد وكذلك في كلمات سائر الأئمّة وهو في كلماتهم كثير. وقد وجدتُ في حياة الإمام الصادق صلوات الله عليه، وكذلك في حياة الإمام الباقر عليه السلام وأيضاً في حياة أربعة من الأئمة اللاحقين بحدٍّ أدنى. حتى أنّ علامة تشكيل المنظّمة والتشكيلات الإسلاميّة قد وجدت أصولها في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام ، وليس هنا المجال للبحث والتفصيل فيه (الكاتب).

وهنـاك نوعٌ آخر مـن كلمات الإمام عليه السلام لا توجد فيـه تلك المطالب الكليّة الّتي أشرنا إليها، مثل رسالة الحقوق. للإمام السجّاد عليه السلام رسالة مفصّلـة هي بحجم رسالةٍ حقيقية بحسـب اصطلاحنا، وهي رسالة كتبها الإمـام لأحـد أصحابه يذكر فيهـا حقوق الأفـراد والإخوان علـى بعضهم بعضًـا، ويذكر فيها أيضًا حقّ الله عليك، وحـقّ أعضائك وجوارحك، وحقّ العيـن واللسـان واليد والأذن... كمـا يذكر حقّ حاكـم المجتمع الإسلاميّ وحقّـك عليه، وحقّك على جيرانـك، وحقّك على أسرتك. لقد ذكر كلّ هذه الأنواع من الحقوق الّتي تُنظّم العلاقات بين الأفراد في النّظام الإسلاميّ. فالإمـام وبهدوءٍ تامّ ومن دون أن يأتي على ذكر الحكومة والجهاد والنّظام المستقبلـيّ، قد ذكر في هذه الرسالة أسس علاقات النّظام المقبل بحيث إنّه لو جـاء يوم وتحقّق نظام الحكومة الإسلاميّة في عصر الإمام السجّاد نفسه ـ وهو بالطبع احتمالٌ بعيد ـ أو في العصور اللاحقة فهو يُعرّف النّاس إلـى الإسـلام الّذي ستُحقّـق حكومته فـي المستقبل، ليلقي فـي أذهانهم مسبقًـا طبيعـة العلاقات الّتي تربط بينهم في ذلـك النّظام. هذا نوعٌ آخر من كلمات الإمام السجّاد الّتي تلفت الأنظار كثيرًا.

ونـوع آخر نجده فـي الصحيفـة السجّادية، وهـذا الأمـر يتطلّب بحثًا مفصّـلاً ربّما هو عمـل أولئك الّذين يعملون في هـذا المجال. فالصّحيفة السجّاديـة تتضمّـن مجموعة من الأدعيـة في كافّة المجـالات الّتي ينبغي أن يلتفـت إليهـا الإنسان اليقظ والفطن. وأكثرها فـي الروابط والعلاقات القلبيـة والمعنويـة للإنسـان. في هـذه الأدعية والمناجـاة، توجد مطالب معنوية وتكاملية كثيرة لا حصر لها. والإمام عليه السلام في ثنايا هذه الأدعية،

وبلسان الدّعاء، يُحيي في أذهان النّاس الدوافع نحو حياة إسلاميّة ويوقظها. إحدى النتائج الّتي يُمكن أن تحصل من الأدعية، وقد ذكرناها مراراً، هي إحياء الدوافع السليمة والصحيحة في القلوب. فعندما ندعو: «**اللهمّ اجعل عواقب أمورنا خيراً**».

فإنّ هذا الدّعاء يُحيي في القلوب ذكر العاقبة ويدفع أصحابها للتفكّر في المصير. فقد يغفل الإنسان أحيانًا عن عاقبته، ويعيش ولا يلتفت إلى مصيره. فإذا تلا هذا الدعاء يستيقظ فجأة إلى ضرورة تحسين عاقبته. أمّا كيف يتمّ ذلك فهذا بحثٌ آخر. فقط أردت أن أضرب مثلاً حول الدور الصادق للدعاء. وهذا الكتاب المليء بالدوافع الشريفة للأدعية كافٍ لإيقاظ المجتمع وتوجيهه نحو الصلاح. وإذا تجاوزنا ذلك، وجدنا روايات قصيرة وعديدة نُقلت عن الإمام السجّاد عليه السلام. منها ما ذكرته سابقاً: «**أوَلا حرٌّ يدع هذه اللماظة لأهلها**»[1]. انظروا كم هو مهمٌّ هذا الحديث. فالزخارف الدنيويّة والزبارج كلّها ما هي سوى بقايا لعاب الكلب التي لا يتركها إلا الحرّ. وكلّ أولئك الّذين يدورون في فلك عبد الملك إنّما يريدون تلك اللماظة. وأنتم أيها المؤمنون لا تنجذبوا إليها. ونجد الكثير من مثل هذه الكلمات الثورية والملفتة في خطب الإمام السجّاد عليه السلام. وسوف نصل إليها فيما بعد إن شاء اللّه. لقد كان الإمام السجّاد عليه السلام شاعرًا. وشعره يحتوي على معانٍ مهمّة سوف نذكرها لاحقاً إن شاء اللّه.

(مجلة باسدار اسلام، 10)

(1) تحف العقول، ص391.

تكتيك بداية المرحلة الثالثة لحركة الأئمّة عليهم السلام

من المقاطع المهمّة في حياة الإمام السّجّاد عليه السلام طريقة تصرّفه مع جهاز الخلافة، فهل كان يتصرّف معه بطريقة اعتراضية عدائيّة، أم لا؟ لقد أشرت باختصار في الأبحاث السّابقة إلى هذا الموضوع وهنا سوف أوضح أكثر.

بالقدر الّذي اطّلعت فيه على حياة الإمام السّجّاد عليه السلام والّذي ما زلت أذكره، أنّه لا توجد مواجهة صريحة وقاطعة ضدّ الحكم أو تعريض به، من قبيل ما نُشاهده في حياة بعض الأئمّة الآخرين، كالإمام الصادق عليه السلام في عصر بني أميّة، أو الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ؛ وسببه واضحٌ، وهو أنّ مثل هذا التحرّك الشديد الّذي كان في بداية حركة الأئمّة عليهم السلام والذي كان في المرحلة الثّالثة من المراحل الأربع للإمامة، والّتي تبدأ في حياة الإمام السّجّاد عليه السلام ، سوف يُعرّض قافلة أهل البيت عليهم السلام الّتي تحمل أعباء مسؤولية الرّسالة للخطر الّذي لا يؤدّي إلى تحقيق المقصد. ففي ذلك الوقت لم يكن بستان أهل البيت الّذي تعهّد الإمام السّجّاد عليه السلام بتربيته ورعايته وسقايته قد استحكمت غصونه وأشجاره، بحيث يقدر

على تحمّل الأعاصير الشديدة. وكما أشرت في بداية هذا البحث، فقد كان عدد المحبّين والموالين لأهل البيت عليهم السلام ممّن يُحيطون بالإمام السّجّاد عليه السلام قليلًا جدًّا، وفي ذلك العصر لم يكن من الممكن لأولئك الّذين سيتحمّلون مسؤولية التنظيمات الشّيعيّة أن يواجهوا خطر العدوّ الجائر والّذي هدّدهم بالإبادة.

وإذا أردنا أن نُمثّل، ينبغي أن نُشبّه عصر الإمام السجّاد عليه السلام هذا، بمرحلة بدء الدّعوة الإسلاميّة في مكّة وهي المرحلة السريّة. ولعلّه يُمكن تشبيه عصر الإمام الباقر عليه السلام بالمرحلة الثّانية في مكّة، حين أصبحت الدّعوة علنيّة. والمرحل الّتي أتت من بعدها يُمكن تشبيهها بالمراحل اللاحقة للدّعوة. ولهذا، فإنّ المواجهة في تلك المرحلة لن تكون صحيحة.

وممّا لا شكّ فيه هو أنّه لو كانت قد صدرت عن الإمام السّجّاد عليه السلام المواجهات الحادّة التي نُلاحظها في بعض كلمات الإمام الصادق والإمام الكاظم والإمام الرضا عليهم السلام، لاستطاع عبد الملك بن مروان، الّذي كان في أوج قدرته، وبكلّ سهولة أن يطوي بساط تعاليم أهل البيت عليهم السلام ليبدأ العمل من جديد، فهذا لا يُعدّ عملًا عقلائيًّا يقطع به العقل. لكن على كلّ حال، يُمكن أن نُشاهد في ثنايا كلمات الإمام زين العابدين عليه السلام، والّتي ترجع على وجه الاحتمال إلى أواخر حياته الشريفة وطيلة مدّة إمامته، إشارات أو مظاهر لتعرّضه ومواجهته لنظام الحكم[1].

(1) أشير هنا إلى أنّ ما بحثناه في هذا الفصل هو غير ذلك التعامل المعارض للإمام السجّاد مع يزيد وجهاز خلافة آل أبي سفيان والذي له بحثٌ آخر وقد بحثت بشأنه في السابق (الكاتب).

كانت تلك المواجهات تظهر بعدّة أشكال. وأحد أشكالها هو ما لاحظناه في تعامل الإمام السجّاد عليه السلام مع محمّد بن شهاب الزهريّ. والشكل الآخر، يظهر من خلال بيان موقف ومكانة الخلفاء الأمويّين على ضوء التعاليم والإرشادات الدينيّة العاديّة. ويوجد حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «**إنّ بني أميّة أطلقوا للنّاس تعليم الإيمان ولم يُطلقوا تعليم الشّرك حتّى إذا حملوهم عليه لم يعرفوه**»[1]. فبنو أميّة كانوا يسمحون للعلماء وأهل الدين، ومن جملتهم الأئمّة عليهم السلام، بالتحدّث حول الصلاة والحجّ والزّكاة والصّيام والعبادات، وكذلك حول التّوحيد والنبوّة والأحكام الإلهيّة. لكنّهم لم يسمحوا بالبحث في مفهوم الشّرك ومصاديقه وأمثلته في المجتمع.

فلو كانت تلك التعاليم المرتبطة بالشّرك دُرِّست للنّاس، لفهموا مباشرة من هم المشركون، وإنّ ما يحملهم عليه بنو أميّة ليس سوى الشرك. ولعلموا فورًا أنّ عبد الملك والخلفاء الباقين من بني أميّة هم طواغيت يُبارزون الله، وأنّ إطاعتهم تُعدّ شركًا بالله. ولهذا لم يكونوا ليسمحوا بتعلّم هذه المفاهيم.

نحن عندما نبحث حول التّوحيد في الدّين الإسلاميّ، فإنّ قسمًا مهمًّا من هذا البحث يرتبط بمعرفة الشّرك والمشرك، ما هو الصّنم ومن هو الّذي يعبد الأصنام.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج2، ص 415.

وللمرحوم العلّامة المجلسيّ رحمه الله في بحار الأنوار نصٌّ رائع يقول فيه: «إنّ آيات الشّرك ظاهرها في الأصنام الظّاهرة، وباطنها في خلفاء الجور الّذين أشركوا مع أئمّة الحقّ ونُصّبوا مكانهم». فأئمّة الحقّ هم خلفاء اللّه وهم ينطقون عن اللّه، ولأنّ خلفاء الجور قد نصّبوا أنفسهم مكانهم وادّعوا الإمامة، فقد أصبحوا أصنامًا وطواغيت، فكلّ من يُطيعهم يُعدّ مشركًا باللّه.

وللعلّامة بعد هذا شرحٌ قيّم. فهو يُبيّن أنّ الآيات القرآنية ليست مختصّة بعصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، بل هي سارية وجارية في كلّ العصور والأزمان: «فهو يجري في أقوام تركوا طاعة أئمّة الحقّ، واتّبعوا أئمّة الجور لعدولهم عن الأدلّة العقليّة والنقليّة واتّباعهم الأهواء، وعدولهم عن النصوص الجليّة»[1]. مثل أنّه لا يُمكن لعبد الملك أن يكون حاكمًا على المسلمين وخليفة لهم، فالنّاس كانوا يرون أنّ الحياة الوادعة بعيدًا عن التعرّض للحاكم هي الحياة المريحة لهم، لهذا سلكوا هذه الحياة واتّبعوا أئمّة الجور. ولهذا كانوا مشركين.

ومن هنا نرى أنّ الأئمّة عليهم السلام إذا أرادوا أن يُبيّنوا حقيقة الشّرك فإنّهم بذلك يقومون بما يُشبه المواجهة مع نظام الحكم. وهذا ما يظهر في كلمات الإمام السجّاد عليه السلام.

ونموذج آخر من تلك الأمثلة في المواجهة: ما نُشاهده في المكاتبات والرسائل بين الإمام السجّاد عليه السلام وعبد الملك (الخليفة الأمويّ المتجبّر)، أُشير إلى اثنين منهما هنا:

---

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 48، ص 96.

1. [النموذج الأول]: في إحدى المرّات يكتب عبد الملك رسالة إلى الإمام السّجّاد عليه السلام يلومه فيها على زواجه من إحدى جواريه. وكان للإمام عليه السلام جارية أعتقها ثمّ تزوّجها. فشمت به عبد الملك. وكان عمل الإمام عليه السلام عملاً إنسانيًّا وإسلاميًّا صرفًا. ولكنّ دافع عبد الملك من تلك الرسالة كان التعرّض للإمام عليه السلام، وإفهامه بأنّه مطّلع على مسائله الخاصّة موجّهًا له بذلك تهديدًا ضمنيًّا. فأجابه الإمام عليه السلام برسالة بدأها بتوجيه أمر الزواج وأنّ العظام يفعلون مثل هذا الأمر، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد قام به: «**فلا لؤم على امرئٍ مسلم إنّما اللؤم لؤم الجاهليّة**»[1]. وهو يريد أن يُذكّره بسوابق أجداده في الجاهليّة (من كفرهم وعنادهم)...

عندما وصلت الرسالة إلى عبد الملك، كان ابنه سليمان حاضرًا، وعندما قرأها سمعه، وسمع ذمّ الإمام وأحسّ به مثل أبيه، فالتفت إليه قائلًا: يا أمير المؤمنين! أترى كيف يتفاخر عليك عليّ بن الحسين؟ يريد بذلك أن يُحرّض والده على ردّ فعل شديد. ولكنّ عبد الملك كان أعقل من ولده فقال له: لا تقل شيئًا يا ولدي! فهذا لسان بني هاشم الّذي يفلق الصخر. (أي أنّ استدلالهم قويّ وقاسٍ).

2. [النموذج الثاني]: المراسلة الأخرى الّتي تمّت بين الإمام السجّاد عليه السلام وعبد الملك، حيث علم عبد الملك أنّ سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موجود عند الإمام عليه السلام. وكان هذا أمرًا ملفتًا لأنّه تذكار النّبيّ وباعثٌ على

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج46، ص 105.

التّفاخـر. وكذلك فإنّ وجوده يُعدّ خطرًا على الخليفة، لأنّه يجلب أنظار النّاس إليه، فكتب إليه يطلب منه تسليم السّيف، ووعده بإنجاز ما يريد أي أنّه مستعدٌّ أن يهبه ما يحتاج.

ردّ الإمـام عليه السلام طلبـه، فأعاد عبد الملـك مرّةً ثانيـة تهديده بوقف حصّة الإمام من بيت المال إن لم يُرسل السيف[1]. فأجابه الإمام عليه السلام: **«أمّـا بعـد فإنّ الله ضمن للمتّقين المخرج من حيث يكرهون والرّزق من حيث لا يحتسبون وقال جلّ ذكـره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[2] فانظر أيّنا أولى بهذه الآية»**[3].

وهـذه لهجة قاسية جدًّا تجاه الخليفة، لأنّ تلـك الرّسالة إذا وقعت بيد أيّ إنسـان فسوف يعلـم أوّلًا: أنّ الإمام عليه السلام لا يعدّ نفسه خوّانًا. ثانيًا: لا يتصوّر أحد هذا الأمر بحقّ هذا الإنسان الجليل الّذي تربّى في بيت النبوّة. وهـذا يعني أنّك أنـت أيّها الخليفة خوّان وكفور. وإلى هذا الحدّ كان الإمام شديدًا مقابل التّهديد.

كان هذان نموذجين من نماذج مواجهة الإمام لجهاز الحكم الأمويّ.

وإذا أردنـا أن نُضيـف نموذجًا آخـر ينبغي أن ننظر إلـى الأشعار الّتي نُقلت عـن أصحاب الإمام السجّـاد عليه السلام ومحبّيه، فهي تُمثّـل نوعًا آخر مـن المواجهة. مواجهة أصحاب الإمـام السجّاد عليه السلام ومحبّيه من قبيل الفـرزدق ويحيى بـن أمّ الطويل للنّظام الحاكـم كان يُعدّ نوعًا من مواجهة

---

(1) فـي ذلك الزمـان كان النّاس جميعاً يأخذون حصّتهم من بيت المـال وكان الإمام يأخذ حصّته أيضاً مثل غيره. (الكاتب)

(2) سورة الحج، الآية 38.

(3) مناقب آل أبي طالب، ج4، ص 165.

الإمام للحكم ويُمكن اعتبار شعر الفرزدق نموذجًا آخرًا. فقد نقل المؤرّخون والمحدّثون قصّة الفرزدق (ما ملخّصها):

عندما قدم هشام بن عبد الملك قبل فترة خلافته إلى الحجّ، وأثناء الطّواف أراد أن يتقدّم لاستلام الحجر الأسود، ولكنّ الحشد الهائل والازدحام الكبير منعه من الوصول، رغم محاولاته المتكرّرة مع أنّه كان ابن الخليفة ومحاطًا بالمرافقين والحرّاس والحواشي، ولكنّ النّاس كانوا يمرّون من حوله دون اكتراث. فيئس من استلام الحجر، وقعد جانبًا منتظرًا انصراف النّاس، وكان أصحابه جالسين حوله. وفي هذه الأثناء يأتي رجلٌ يعلوه الوقار والهيبة، سيماؤه سيماء الزاهدين ووجهه وجه الملكوتيّين، يسطع من بين الحجّاج كالشمس فتنحّى النّاس له جانبًا ليمرّ من بينهم ويصل إلى الحجر الأسود فيُقبّله ثمّ يرجع للطواف مجدّدًا.

فصعب ذلك على هشام كثيرًا، وهو يرى نفسه ابن الخليفة ولا أحد يُعطيه أيّة قيمة، بل يُبعدونه بالركل والمطاحنة، ثمّ من جانبٍ آخر يظهر رجل يصل إلى الحجر الأسود بكلّ هدوء. فسأل غاضبًا: من هذا؟ وكان حواشيه يعرفون أنّه عليّ بن الحسين عليه السلام ولكن لئلّا يغضب منهم لم يقولوا شيئًا لأنّهم يعلمون بوجود العداء المتجذّر بين بني أميّة وبني هاشم، فلم يريدوا أن يقولوا إنّ هذا كبير العائلة المعادية لكم، والنّاس يُظهرون له كلّ هذا الحبّ والاحترام لأنّهم اعتبروا ذلك نوعًا من الإهانة لهشام.

كان الشاعر الفرزدق، من المحبيّن لأهل البيت، حاضرًا هناك وقد رأى تجاهلهم وإنكارهم لعليّ بن الحسين عليه السلام فتقدّم قائلًا: أيّها الأمير، هل تسمح لي بأن أُعرّفك به.

فقــال هشام: قل، فانطلق لسان الفــرزدق بقصيدة من أشهر القصائد الشّعريّة الّتي قيلت بحقّ أهل البيت، وبدأها بهذا البيت:

هــذا الّـــذي تـعـرف الـبـطـحـاء وطـأتـه

والـبـيـت يـعـرفـه والـحــلّ والـحـــرم[1]

وكانــت أبيــات هــذه القصيدة كوقــع السّيوف على قلــب هشام فغضب منه وطــرده. من جانبٍ آخر أرسل إليه الإمام عليه السلام مالاً فلم يقبله وقال: «ما قُلته للّه لا أُريد عليه مالاً».

وهكذا نُشاهد مثل هــذه المواجهات عند أصحاب الإمام. ونموذجٌ آخر مــا قام به يحيى بن أمّ الطويــل. كان يحيى بن أمّ الطويل من الشّباب ذوي البأســ الشّديد والشّجاعــة الفائقة وأحد المخلصيــن لأهل البيت عليهم السلام، وكان يذهــب إلى الكوفة دومًــا ويجمع النّاس ويصرخ فيهــم: «أيها النّاس، إنّنــي كافر بكــم ولا أقبل بكم حتّى تؤمنوا باللّه»، وهــو يقصد أولئك الّذين كانــوا يتّبعون بنــي أميّة. ومثل هذه الاعتراضــات المتجلّية في حياة الإمام السّجّاد عليه السلام وأصحابه كان مشهودًا.

(مجلة باسدار اسلام، 12)

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 46، ص 121.

مواجهة الإمام عليه السلام مع علماء البلاط

في تتمّة بحثنا حول القضايا المرتبطة بسيرة الإمام السجّاد عليه السلام وأساليبه وخططه لإيجاد الأرضيّة المساعدة للحركة الإسلاميّة العظيمة، الّتي يُمكن أن تنتهي بإقامة الحكومة العلويّة والحكومة الإسلاميّة:

ذكرنا ما ملخّصه أنّ هذه التحرّكات كانت تتّجه إلى التّبيين والتّوضيح بالنّسبة للبعض وإلى التشكيلات والتّنظيم بالنسبة لبعضهم الآخر، وإلى الهداية والإرشاد بالنسبة لآخرين. وهكذا يُتخيّل الإمام السجّاد، من خلال هذه الصّورة الّتي قدّمناها، إنسانًا صبورًا سعى خلال 30 أو 35 سنة متواصلة إلى جعل تلك الأرضيّة غير المساعدة بتاتًا في العالم الإسلاميّ، تتّجه نحو الظّروف الّتي يُمكن له عليه السلام أو لخلفائه أن يُحقّقوا من خلالها المجتمع الإسلاميّ، والحكومة الإسلاميّة.

ولو اقتطعنا تلك السّنوات الخمس والثلاثين لسعي الإمام السّجاد عليه السلام من حياة الأئّمة، لجزمنا بعدم وصول الأمر إلى الإمام الصادق عليه السلام بتلك الحال الّتي تمكّن معها من التصرّف والتّعاطي الصّريح والواضح مع الحكم الأمويّ، والعبّاسيّ فيما بعد.

وعليـه، فلأجل إقامة وتحقيـق المجتمع الإسلاميّ، لا بـدّ من الأرضيّة الفكريّـة والذهنيّة. وهذا ما يُعتبر أهمّ من أيّ شيء آخر. وقد تطلّب إيجاد هـذه الأرضيّـة الفكريّة والذهنية في تلك الظّـروف الّتي كانت موجودة في ذلـك العصر من العالم الإسلاميّ، سنوات مديدة. ذلك العمل الّذي نهض به الإمام السجّاد عليه السلام متحمّلًا أعباءه الجسيمة وتكاليفه الباهظة.

إلـى جانب هذا، نجد في حياة الإمـام السّجّاد عليه السلام بعض المساعي الأخـرى الّتي تـدلّ في الواقع على مـدى تقدّم الإمـام عليه السلام في المجال المذكـور. والقسـمُ الأعظم مـن هذه المساعـي، سياسـيٌّ، وأحيانًا شديد القساوة، وأحد نماذجه التي نستطيع أن نجدها هو مواجهة الإمام السجّاد للعلماء التّابعين والمحدّثين الكبار العاملين لدى الجهاز الحاكم. هذا بحثٌ في مجال هذا التعامل. وأحد أكثر الأبحاث إثارةً في حياة الأئمّة عليهم السلام هو بحث مواجهة هؤلاء العظام لحملة الفكر والثقافة في المجتمع الإسلاميّ، أي العلمـاء[1] والشعـراء. فقد كان الأئمّة عليهم السلام يتحمّلـون مسؤولية هداية النّاس في أفكارهم وأذهانهـم، وأولئك كانوا يوجّهـون النّاس إلى الوضع الّـذي يريـده خلفاء بنـي أميّة وبني العبّاس، ليكون حاكمـاً على المجتمع ويجعل النّاس مطيعين ومستسلمين.

كمـا نعلم، لقد كان الحكّام الظّالميـن والجائرين يرون أنّ جذب قلوب النّاس إليهم هو أهمّ عامل في بقاء ملكهـم وسلطانهم. فالفاصل الزمنيّ بيـن النّاس وبيـن صدر الإسـلام لم يكـن كبيرًا، لذا فـإنّ إيمـان النّاس

(1) عندمـا نقـول «العلماء» فإنّنا نقصد علماء الدين في ذلك الزمـان والذين كانوا عبارة عن المحدّثين والمفسّرين والقرّاء والقضاة والزهّاد. (الكاتب)

بالإسلام كان ما يزال قويًّا. فلو أدرك النّاس أنّ البيعة الّتي قدّموها للحكّام ليست صحيحة، وأنّ هذا الظّالم لا يجوز أن يكون خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّهم لما رضوا بتسليمه قيادتهم بتاتًا، وحتّى لو قلنا بأنّ هذا الأمر لا يشمل جميع النّاس، فعلى الأقلّ نقول بأنّ القدر المسلّم به هو أنّ الكثيرين في المجتمع كانوا يتحمّلون الوضع المنافي للإسلام في الجهاز الحاكم نتيجة الإيمان القلبيّ بمعنى أنّهم كانوا يتصوّرون بأنّ هذا الوضع هو وضعٌ إسلاميّ. ولإبقاء هذه الضبابيّة في أذهان النّاس، كان حكّام الجور يستغلّون المحدّثين وعلماء الدين قدر الإمكان ويُحرّكونهم طبقًا لمصالحهم، فيطلبون منهم وضع الأحاديث واختلاقها ونسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والصّحابة الكبار بما يوافق ميولهم وأهواءهم.

في هذا المجال توجد موارد تقشعرّ منها الأبدان، ونحن ننقل بعضًا منها كمثال:

في زمن معاوية التقى شخص بكعب الأحبار[1]. ولأنّه كان لكعب روابط حميمة مع معاوية وزعماء الشّام، سأل كعبُ ذلك الشّخص: من أين أنت؟

- من أهل الشام.

- لعلّك من ذلك الجيش الّذي يدخل منه 70 ألف جندي إلى الجنّة دون حساب.

- من هم هؤلاء؟

(1) كان كعب الأحبار يهوديّاً أسلم في عهد الخليفة الثاني. ويوجد شكوك كثيرة في الأحاديث المنسوبة إليه، ليس فقط بين الشّيعة بل حتّى بين الكثير من أهل السنّة، باعتبار أنّه قد اختلق أحاديث انطلاقاً من عدائه للإسلام. ويوجد من أهل السنّة من يقبل به.

- إنّهم أهل دمشق.
- كلا، لست من أهل دمشق.
- إذاً، لعلّك من ذلك الجيش الّذي ينظر اللّه إليه كلّ يوم مرّتين!
- من هم هؤلاء؟
- أهل فلسطين!

ولربّما لو قال ذلك الشّخص: إنّني لست من أهل فلسطين، لنقل له كعب الأحبار أحاديث عن كلّ أهالي بعلبك وطرابلس وبقيّة مدن الشام تحكي عن أنّ أهل الشام هم الأفضل، وأنّهم أهل الجنّة. وكان كعب الأحبار يختلق هذه الأحاديث ويصفها لأمراء الشّام إمّا تملّقًا، حتّى يكون نصيبه أكثر ومنزلته في قلوبهم أعلى، وإمّا بسبب العداء المتجذّر في نفسه للإسلام وحتّى يُصعّب الوصول إلى أقوال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

ويوجد في كتب التّذكرة والرجال والحديث الكثير من أمثال هذه القصص. منها قصّة ذلك الأمير الّذي أرسل ابنه إلى المدرسة (الكتّاب) فضربه المدرّس. وعندما رجع الابن باكيًا إلى أبيه وأخبره، غضب الأب وقال: سأذهب وأضع حديثًا على هذه المدرسة حتّى لا يُكرّروا فعلتهم هذه.

ونعلم من هذه القصّة كم كان اختلاق الأحاديث عندهم سهلاً، حتّى ولو كان بدافع العصبيّة أو الشّفقة على دموع طفل. وعلى أيّ حال فقد كان لهذا الوضع أثرٌ واضحٌ في إيجاد ذهنيّة وثقافة منحرفة وبعيدة عن الإسلام. كلّ ذلك كان بسبب أولئك المحدّثين والعلماء العاملين في خدمة السّلاطين والأقوياء. وفي مثل هذا الوضع تُعتبر مواجهة هؤلاء عملًا في غاية الأهميّة.

يوجد هنا نموذج يُبيّن كيفيّة مواجهة الإمام السجّاد عليه السلام لهذا الوضع، وذلك في تعامله مع محمّد بن شهاب الزهريّ:

كان محمّد بن شهاب الزهريّ[1] في البداية أحد تلامذة الإمام السجّاد عليه السلام المقرّبين، أي أنّه من جملة الّذين تعلّموا علومهم ونقلوا الأحاديث عن الإمام عليه السلام، ولكن بالتدريج ـ بسبب التجرّؤ الّذي كان فيه ـ اقترب من نظام الحكم حتّى صار أحد أعوانه وتحوّل إلى واحدٍ من زمرة العلماء والمحدّثين الّذين وقف الأئمّة عليهم السلام في قبالهم.

ولأجل أن نطّلع أكثر على وضع الزهريّ ننقل عدّة أحاديث بشأنه:

أحد هذه الأحاديث، ما جاء عنه: «كنّا نكره كتابة العلم، حتّى أكرهنا عليه السّلطان فكرهنا أن نمنعه أحدًا»[2]. ويُفهم من هذا الحديث، أنّه حتّى ذلك الزّمن، لم يكن متعارفًا بين هذه الطائفة من المحدّثين أنّ كلّ ما يعلمونه من الأحاديث ينبغي أن يكتبوه، وكذلك يتّضح أنّ محمد بن شهاب الزهريّ كان في خدمة الأمراء وأنّه كان يُحمل على كتابة الأحاديث الّتي تُناسبهم.

كان أحدهم ويُدعى معمرًا يقول: «كنّا نظنّ أنّنا قد نقلنا من الزهريّ أحاديث كثيرةً إلى أن قُتل الوليد»[3]. فعندها رأينا كتبًا كثيرة تُحمل على ظهور الدوابّ وتُخرج من خزائن الوليد ويُقال: هذا علم الزهريّ!![4] أي

(1) وقد يُدعى بمحمد بن مسلم الزهري أيضاً، فأحياناً يُذكر اسمه تحت عنوان شهاب وأحياناً مسلم، ولعلّ الأوّل اسم والده والآخر لقبه. (الكاتب)

(2) سنن الدارمي، ج1، ص 110.

(3) الوليد هو الولد البكر لعبد الملك بن مروان والذي تسلّم الخلافة بعده. (الكاتب)

(4) «... فإذا بالدفاتر قد حُملت على الدواب من خزائنه ويُقال هذا من علم الزهري!» (الكاتب)

أنّ الزهريّ وضع مـن الأحاديث الّتي تُناسب الوليد وأهواءَه ما عجزت عن حمله الرّجال. فما حال تلك الأحاديث؟ ممّا لا شكّ فيه أنّها لا تُدين الوليد وإنّما تؤيّد أعمال الوليد وأمثاله وتُصحّحها.

ويوجـد حديثٌ آخـر يتعلّق بفتـرة ارتباط الزهـريّ بالنّظـام الحاكم. فقـد روى اليعقوبيّ في تاريخه: «إنّ الزهـري يُحدّثكم عن رسول اللّه ﷺ أنّـه قال: لا تُشدّ الرحـال إلا إلى ثلاثة مساجـد: المسجد الحرام ومسجد المدينة والمسجد الأقصى وإنّ الصخرة الّتي وضع رسول اللّه قدمه عليها تقوم مقام الكعبة»[1].

ويعود هذا الحديث إلى ذلك الزمن الّذي كان عبد اللّه بن الزبير حاكمًا فيـه على مكّة. وبطبيعة الحال، فإنّه كان لا بـدّ للنّاس الّذين يريدون الحجّ أن يدخلوا مكّة ـ التي كانت تحت نفوذ ابن الزبير ـ وكانت تلك الأيّام فرصةً مناسبة له للتبليغ ضدّ أعدائه ـ وخاصّة عبد الملك بن مروان ـ ومن جانبٍ آخر بما أنّ عبد الملك كان يُدرك خطورة هذا الأمر، ولكي يمنع النّاس من الذهـاب إلـى مكّة رأى أنّ أفضـل الطّرق هو وضع أحاديـث تُبيّنُ أنّ شرف القدس بمنزلـة شرف مكّة. ونحن نعلم ـ في العـرف والثّقافة الإسلاميّة ـ أنّه لا توجد منطقة في العالم توازي الكعبة شرفًا ومكانةً ولا يوجد حجر في الدّنيـا يُضاهي الحجر الأسود. فكانت تلك الأحاديث المختلقة وسيلة لعبد الملك لكي يدفع النّاس للذهاب إلى فلسطين، لأنّ فلسطين جزءٌ من الشّام وتحـت نفوذ عبد الملك. فإلى أيّ مدى كان لهذه الأحاديث تأثيرٌ في نفوس

(1) تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 261.

النّاس وأفعالهم؟ وهل حدث في زمن ما أنّ النّاس حجّوا إلى بيت المقدس بدلًا من مكّة أم لا؟ ولو حدث ذلك لكان ينبغي أن نعدّ المجرم الأصليّ أو أحد المجرمين هو محمد بن شهاب الزهري الّذي حرّف الأمر في أذهان النّاس لأجل مآرب عبد الملك السّياسيّة.

وعندما يُصبح الزهريّ تابعًا لجهاز الخلافة، فلن يمنعه شيء من وضع الأحاديث ضدّ الإمام السجّاد عليه السلام والتّنظيمات العلويّة - منها ما وجدته في كتاب «أجوبة مسائل جار الله» - تأليف المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين -- حيث يدّعي الزهريّ في رواية أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان جبريًّا، وينسب إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال في معنى الإنسان في الآية ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾[1] أنّه أمير المؤمنين عليه السلام (والعياذ بالله).

في روايةٍ أخرى ينقل أنّ حمزة سيّد الشهداء كان شارب خمر. وإنّما جعل هاتين الرّوايتين لدعم الجبهة السّياسيّة المتسلّطة - لعبد الملك وبني أميّة - مقابل أئمّة الهدى عليهم السلام، وبالتالي لنسف عترة النبيّ وسلالته - الّذين كانوا يواجهون الأمويين - بعنوان أنّهم مسلمون من الطّراز الأوّل، ويُعرّفهم على أنّهم مثل غيرهم من العوامّ والمقصّرين في تطبيق أحكام الدّين!

بالنسبة للزهريّ وأمثاله، فقد وقف الإمام السجّاد عليه السلام موقفًا حازمًا وقاسيًا جدًّا حيث يُلحظ هذا من خلال الرّسالة الّتي وجّهها إليه.

(1) سورة الكهف، الآية 54.

بالطّبـع، قد يتسـاءل بعض النّاس إلى أيّ مدى يُمكـن أن تعكس «الرسالة» هـذا الموقـف الشّديد؟ ولكن بالالتفات إلى شـدّة اللهجة في مضمون هذه الرسالـة الموجّهة إلـى الزهريّ، وكذلـك بالنسبة للجهاز الحاكـم، وأنّها لا تنحصـر بمحمّـد بـن شهاب، بـل كانت تقع فـي أيدي الآخريـن وتنتقل بالتدريج عبر الألسن والأفواه وتبقى عبر التاريخ (كما أنّنا اليوم وبعد أكثر مـن 1300 سنة نتناولها بالبحـث)؛ بالالتفات إلى كلّ هذه الأمور، يُمكن أن نُدرك حجم الضّربة الّتي وُجّهت إلى القداسة الشّيطانيّة والمصطنعة لمثل أولئـك العلماء. لقد كانت الرّسالة خطابًـا لمحمّد بن شهاب، ولكنّها نالت من أشخاص آخرين على شاكلته. ومن المعلوم أنّ هذه الرسالة عندما تقع بأيـدي المسلمين، وبالأخصّ شيعة ذلك العصـر، وتنتقل عبر الأيدي فأيّ سقوط لهيبة هـؤلاء ومكانتهم ستحدثه في الأعين؟! وهنا ننقل مقاطع من هذه الرسالة:

فـي البدايـة يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**كفانـا الله وإيّـاك من الفتـن ورحمك من النـار**»[1]. فـي الجـزء الثاني من هـذه الجملـة، نجده يخصّـه بالخطاب، لمـاذا؟ لأنّ كلّ إنسـان يتعرّض للفتن، حتّى الإمـام السّجّاد عَلَيْهِ السَّلَامُ ولكن دون أن يسقـط فيهـا. ومحمد بـن شهاب يتعرّض للفتنة ولكنّـه سقط. أمّا بالنسبة لنار جهنّم فإنّها لا تقترب من الإمام زين العابدين عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولهذا خُصّ الكلام هنـا بالزهريّ. وابتداء الرّسالة بمثـل هذه اللهجة دليل على تعامـل الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ معه بطريقة تحقير ومعاداة. ثمّ يقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**فقد**

(1) تحف العقول، ص275.

أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك بها أن يرحمك». دقّقوا، لمن الخطاب (موجّه) في هذه الجملة؟ إنّه موجّه لشخص يغبطه الجميع على حاله، فهو أحد العلماء الكبار المقرّبين من النّظام الحاكم، بينما نجد أنّ الإمام عليه السلام يُبيّنه ضعيفًا ووضيعًا.

بعد ذلك يُشير الإمام عليه السلام إلى النّعم الّتي حباه الله بها والحجج الّتي أتمّها عليه، ثمّ يقول إنّه مع وجود تلك النّعم من الله، هل تستطيع أن تقول كيف قد أدّيت شكرها؟

ويذكر جملة من آيات القرآن ويقول إنّ الله تعالى لن يرضى أبدًا عن قصورك وتقصيرك، لأنّه سبحانه قد أمر العلماء بتبيين الحقائق للنّاس: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[1].

وبعد هذه المقدّمة يحمل عليه بطريقة قاسية جدًّا بقوله عليه السلام: «**واعلم، إنّ أدنى ما كتمت، وأخفّ ما احتملت، أن آنست وحشة الظّالم، وسهّلت له طريق الغيّ بدنوّك منه حين دنوت، وإجابتك له حين دُعيت**». ويظهر هذا الكلام، الّذي يطرحه الإمام، بوضوح ارتباطه بجهاز السّلطة. «**إنّك أخذت ما ليس لك ممّن أعطاك**». «**ودنوت ممّن لم يردّ على أحد حقًّا ولم تردّ باطلًا حين أدناك**»، (وهو الخليفة الظّالم) فبأيّ عذرٍ تُبرّر عدم إرجاعك الحقوق الضّائعة وإزالة المظالم الكثيرة؟ «**وأحببت من حادّ الله**».

(1) سورة آل عمران، الآية 187.

والجملـة المؤثّـرة جدًّا في هـذه الفقرة عندما يقـول عليه السلام: «**أوليس بدعائه إيّاك، حين دعاك، جعلوك قطبًا أداروا بك رحى مظالمهم، وجسرًا يعبرون عليه إلى بلاياهم، وسلّمًا إلى ضلالتهم داعيًا إلى غيّهم سالكًا سبيلهم، يدخلون بك الشكّ على العلماء ويقتادون بك قلوب الجهّال إليهم؟**». ثم يقول: «**فلم يبلغ أخصّ وزرائهم ولا أقوى أعوانهم إلّا دون ما بلغت من إصلاح فسادهم**»[1].

وفي هذه الرسالة الشّديدة اللهجة والبليغة يفضح الإمام السجّاد هذا التيار الفكريّ والعلميّ التابع للسلطة والحكم والّذي يتحرّك بدعم سياسيٍّ وحكوميٍّ اجتماعيّ. فأولئك الّذين قبلوا مهادنة النّظام، أصبحوا مطالبين بالإجابة عن السؤال الّذي بقي في المجتمع الإسلاميّ في ذلك الزمان وسوف يبقى عبر التاريخ.

إنّني أعتبر هذه إحدى المقاطع المهمّة من حياة الإمام السجّاد عليه السلام، وأشعر بأنّه عليه السلام لم يكتفِ بتحرّك علميّ وتربويّ محدود بين جماعة خاصّة، بل قام بحركة سياسيّة.

(مجلة باسدار اسلام، 11)

كان هذا مختصرًا لحياة الإمام السجّاد عليه السلام. وهنا بالطّبع أُشير إلى هذه النقطة أيضًا: رغم أنّ مرحلة إمامة الإمام السجّاد عليه السلام، الّتي امتدّت إلى أكثر من 34 سنة، كانت بعيدة عن المواجهة المباشرة للنّظام الحاكم، إلّا أنّ نشر بساط الإمامة الواسع وتعليم وتربية العديد

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 75، ص 132.

مـن الأفراد المؤمنين والمخلصيـن ونشر دعوة أهل البيت عليهم السلام كان من أعظم إنجازاتـه. وهذا ما جعل بني أميّة يمقتون الإمام ويتعرّضون لـه. وكانوا من قبل قد جرّوه بالأصفاد والأغلال من المدينة إلى الشام – ولم يحدث هذا في كربلاء فقط وإنّما تكرّر في زمنٍ آخر أيضًا – وقد تعرّضوا له في موارد عديدة، وآذاه أعوانهم حتّى وصل بهم الأمر، سنة 95 للهجرة في زمن الوليد بن عبد الملك، إلى تسميمه فارتفع إلى جوار ربّه شهيدًا.

(مجلة باسدار اسلام، 12)

الفصل التاسع:

الإمام الباقر عليه السلام

- مرحلة البناء الفكريّ والتنظيميّ.
- إحضار الإمام الباقر عليه السلام إلى الشام.
- الظروف السّياسيّة عند شهادة الإمام الباقر عليه السلام.

مرحلة البناء الفكريّ والتنظيميّ

المواجهة الفكريّة والثقافيّة

إنّ مرحلــة حياة الإمام الخامس، الإمام الباقر عليه السلام، هي استمرارٌ منطقــيّ لحيــاة الإمــام السجّــاد عليه السلام. فهــا هــم الشّيعة مــرّة أخرى يُصبحون جماعةً ويشعــرون بوجودهم وشخصيّتهم. إنّ الدعوة الشيعيّة الّتــي توقّفــت لعدّة سنوات علــى أثر حادثــة كربلاء والأحــداث الدموية الّتــي تلتها ـ كواقعة الحــرّة وثورة التوّابين ـ وبسبــب بطش الأمويين، لم تكــن تظهر نفسهــا إلّا تحت الأستــار السّميكة، ها هي اليــوم في العديد مــن الأقطار الإسلاميّــة، خاصّة في العراق والحجــاز وخراسان، تتجذّر وتستقطــب شرائــح كبيــرة وحتّــى أنّها فــي الدوائر المحــدودة أضحت رابطــةً فكريّــة وعمليّة يُمكن التّعبيــر عنها بالتّشكيــلات الحزبيّة. وولّت تلــك الأيّــام الّتي قال عنهــا الإمام السجّــاد عليه السلام إنّ أتباعــه ما كانوا يزيــدون فيهــا على عشرين شخصًا فــي كلّ الحجــاز[1]. وأضحى الإمام

(1) شرح نهج البلاغة، ج 4، ص 104؛ العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 46، ص 143.

الباقر عليه السلام يدخل مسجد النبيّ في المدينة فيلتف حوله جمعٌ غفير من أهل خراسان وغيرها من أصقاع العالم الإسلامي، يسألونه عن القضايا الفقهيّة، ويفد عليه أمثال طاووس اليمانيّ، وقتادة بن دعامة، وأبو حنيفة، وآخرون من المشهورين بالمعارف الدينيّة. وبالطبع، ممّن يُعتبرون خارج التوجّه الإماميّ والشيعيّ. وقد سمعوا صدى علم الإمام الذائع وأقبلوا عليه للتعلّم أو للاحتجاج والمجادلة. وبرز شاعرٌ كالكُميت الأسديّ بذلك اللسان الفصيح والفنّ العابق، ليترك أهمّ آثاره الفنّية وهي القصائد الّتي عُرفت بالهاشميّات وأضحت تنتقل من يدٍ إلى يد ومن لسانٍ إلى لسان، لتُعرّف النّاس على حقّ آل محمّد وفضل علمهم ومقاماتهم المعنوية. من جهة أخرى، فإنّ خلفاء بني مروان أحسّوا خلال هذه الفترة بنوعٍ من الطّمأنينة، وشعروا بالاستقرار بعد أن استطاع عبد الملك بن مروان ـ توفّي سنة 86 هـ ـ خلال فترة حكمه، الّتي استمرّت عشرين عامًا، أن يقمع كلّ المعارضين. وقد يعود شعور الخلفاء المروانيّين في هذا العصر بالأمن والاطمئنان إلى أنّ الخلافة وصلتهم غنيمة باردة، لا كأسلافهم الّذين كدحوا من أجلها ممّا أدّى إلى انشغالهم باللهو والملذّات الّتي تُصاحب الشّعور بالاقتدار والجاه والجلال. مهما يكن الأمر، فإنّ حساسية خلفاء بني مروان تجاه مدرسة أهل البيت قد قلّت في هذا العصر، وأصبح الإمام عليه السلام وأتباعه في مأمن تقريبًا من مطاردة الجهاز الحاكم.

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص 32 – 33)

كان من الطّبيعي أن يقطع الإمام عليه السلام خطوة رحبة في ظلّ هذه الظروف على تحقيق أهداف مدرسة أهل البيت، ويدفع بالتشيّع نحو مرحلةٍ جديدة. وهذا ما يُميّز حياة الإمام الباقر عليه السلام.

لقد قيل الكثير بشأن الإمام الباقر عليه الصلاة والسلام، غاية الأمر أنّني سأكتفي بنقطتين من حياته. إحداهما، عبارة عن مواجهته لتحريف المعارف الإسلاميّة والأحكام؛ هذا الشّيء الّذي حدث في عصر الإمام الباقر عليه السلام بصورةٍ أوسع وأكثر تفصيلًا من أيّ زمانٍ آخر، فماذا تعني مواجهة التحريف؟ المقصود من مواجهة التحريف هو أنّ دين الإسلام المقدّس، بالمعارف والأحكام التي لديه، وبآيات القرآن الّتي حدّدت للمجتمع الإسلامي، بل لكلّ عالم الإنسان والبشريّة، خصائص وشروط، بحيث لو عرفها النّاس وتمسّكوا بها لما أمكنهم تحمّل بعض الأشياء الموجودة في مجتمع معروف بالمجتمع الإسلاميّ. فلا يُمكنهم تحمّل حكومة الظالمين مثلًا، أو حكومة الفسّاق والفجّار، أو حكومة الجاهلين. كما لا يُمكنهم حتمًا تحمّل التمييز والتقسيم غير العادل للثّروة في المجتمع؛ والكثير من هذه المفاسد الموجودة في المجتمعات الإسلاميّة والتي لا يُمكن أن تنسجم مع الأحكام الإسلاميّة والنّظام الإسلامي.

بعض السلاطين والحكّام الّذين أمسكوا بزمام السّلطة تحت عنوان خلافة النبيّ - كبني أميّة وآل مروان - هؤلاء لم يكونوا لائقين بأيّ شكل لكي يحكموا المجتمع الإسلاميّ، ولقد أوجدوا في عهد حكومتهم كلّ أنواع الفسق والظلم والفساد والتمييز والجهل؛ وباختصار الانحرافات المختلفة. فلو كان من المقرّر تبيان الأحكام الإسلاميّة والآيات القرآنية كما هي

للنّاس، لما كان ممكنًا لهؤلاء أن يستمرّوا في الحكم والإمساك بالسّلطة، لهذا قاموا بعمليّة التّحريف، وقد فعلوا ذلك من عدّة طرق. أحدها، هو أن يخدعوا بعض الفقهاء والحكماء والمحدّثين والقرّاء والوجهاء وأمثالهم ويجعلونهم إلى جانبهم، يعطونهم المال أو يُخوّفونهم. فحملوا البعض طمعًا أو خوفًا لترويج ما يحلو لهم بين النّاس. لهذا، لو نظرتم إلى تاريخ القرنين الأوّلين للإسلام، لرأيتم مشهدًا عجيبًا، لرأيتم من الشخصيّات المعروفة بالقداسة والتقوى والعلم الكثير ممّن صاروا في خدمة الحكّام وأمراء الجور، ممّن كانوا يفتون النّاس بأحكام عجيبة وغريبة تحت عنوان الإسلام. انظروا الآن من باب النموذج، أيّ حكم هذا الّذي ينطق به عالمٌ بهذا الشكل، حيث يعتبر أنّ أولي الأمر، الّذين أمرنا الله تعالى والقرآن بطاعتهم، هم أيّ شخص يتسلّط على النّاس بأيّ وسيلة، حتّى ولو كان ذلك بالمكر والحيلة والسّيف والقهر والقتل، فإنّه يستطيع أن يحكم النّاس. لقد أصبح هذا هو معنى «أولي الأمر».

إنّ هذا الفهم بعيدٌ عن العقل، وغير صحيح، بحيث لو لم يتمّ ربطه بالإسلام وبأصلٍ اعتقاديّ وإيمانيّ عند النّاس لما قبِل به أحد. لكنّ هؤلاء جاؤوا وربطوه بالإسلام وذكروا الكثير من هذه الأمور التي نجد منها الكثير في تاريخ القرنين الأوّلين للإسلام. ولقد كان هؤلاء الحكّام يصحبون هذه الشخصيّات اللامعة أينما ذهبوا في مكّة والمدينة ويعرضونهم على النّاس في الاجتماعات العامّة ويجعلونهم وسيلة لتأييدهم... لقد كان هذا من طرق تحريف الدين. لقد كان أمثال هؤلاء المتظاهرين بالعلم والفقاهة والقداسة والزّهد في خدمة الحكّام الّذين كانوا يُقدّمون كلّ ما يحلو لهم

أن يعتقد به النّاس تحت عنوان الدين. وبعض هذه الأمور ما زالت موجودة في الكتب اليوم، وللأسف إنّ الكثير من المسلمين ما زالوا يعتقدون بهذه الأشياء.

كانت هذه أحد طرق التّحريف، حيث إنّ الحكّام أنفسهم عندما كانوا يجلسون على مسند السّلطة، وكانوا يشعرون بأنّه يجب على النّاس أن يقبلوا بكلّ ما يقولونه؛ فأيّ كلمةٍ أو فكرةٍ أو مبنىً كانوا يعرضونه تحت عنوان الإسلام، كانوا يُحوّلونه إلى ثقافةٍ رائجةٍ وينشرونه على مستوى العالم الإسلامي، ليُنشر ويتكرّر ويُنقل من لسانٍ إلى لسان حتّى يُشكّل الذهنية العامّة. مثلما كان بعض زعماء جهاز عبد الملك، كالحجّاج وأمثاله يعتقدون، أو هكذا يظهرون، بأنّ الخلافة أرفع من النبوّة؛ فهؤلاء لم يكونوا قانعين بأن يكون عبد الملك بن مروان وأولاده وأولئك الفسقة والفجرة خلفاء للنبيّ - حيث إنّ هذه العمامة كانت أوسع بكثير من رؤوسهم، وذاك اللباس لم يكن ملائماً لقاماتهم - وأن يكونوا غاصبين لهذا العنوان؛ لكنّهم لم يكتفوا بذلك بل أرادوا أن يدّعوا أنّ الخلافة أفضل من النبوّة... لقد وقعت تلك التحريفات في الدين، وقد كان العامل الأساس لاستمرار سلطة بني أميّة وبني العبّاس والمانع الأساس لحكومة الإسلام الحقّة هو تلك الثقافة الخاطئة الّتي سيطرت على أذهان النّاس.

ها هنا يريد الأئمّة عليهم السلام أن يُقيموا الحكومة الإسلاميّة الصحيحة وأن يُثبّتوا النّظام العلويّ، فماذا يفعلون؟ إنّ أوّل خطوة هي تبديل الذهنيّة العامّة للنّاس، وأن ينتزعوا تلك الثّقافة الّتي يُصطلح عليها

بأنّهـا إسلامية ضدّ الإسلام والّتي كانت قـد رسخت في أذهان النّاس، ويضعوا مكانهـا ثقافةً صحيحةً وقرآنًا حقيقيًّا وتوحيدًا واقعيًّا، هذه هي المواجهــة الثقافيّــة. فالمواجهــة الثقافيّة لا تعني فقـط الجلوس وبيان بعض الأشياء من أحكام الإســلام، من دون توجّهٍ ومن دون مسارٍ ثوريّ وجهــاديّ، فهذه ليســت مواجهة؛ بــل المواجهــة الثقافيّة تعنــي السّعي لتبديـل الذهنيّة العامّة والثّقافة الحاكمة على عقول النّاس، من أجل أن يتـمّ تعبيد الطّريق باتّجاه الحكومة الإلهيّــة، وقطع الطّريق على حكومة الطّاغـوت والشّيطان. لقد بدأ الإمام الباقر عليه السلام هذا العمل. هذا هو باقر علم الأوّلين، فهو باقر وفاتح الحقائق القرآنية، فهو من يبقر ويشقّ طرائـق الحقائق القرآنية والعلوم الإسلاميّة. وكان يُبيّن القرآن للنّاس. لهـذا، كان كلّ من يحتكّ بنفس الإمام الباقر عليـه الصلاة والسلام، ولـم يكن تابعًـا ولا خاضعًا ولا مشـاركًا لمعلفهم، كان حتمًـا يُبدّل رأيه بشـأن وضـع حاكميّة الزمان. لهذا، نجد أنّ الكثيـر من النّاس ممّن هم من الطّبقة الوسطى، في زمـن الإمام الباقر عليه السلام ، كانوا يُقبلون على مدرسـة أهل البيت ومذهب الإمامة، ومـا هو رائجٌ في عرف اليوم تحت عنـوان التشيّـع. التشيّع هو هــذا، أي اتّباع مدرسة أهـل البيت من أجل إقامــة السّيادة الحقيقيّة للإســلام، والإعلاء الحقيقــيّ لكلمة القرآن، وتوضيـح وتثبيـت المعــارف القرآنية بيــن النّاس. وكلّ مــن كان الإمام الباقــر عليه السلام يتّصل به ويُبيّن له المسائل كان يُبـدّل تفكيره. لقد كان هذا هــو العمل الأوّل للإمــام الباقر عليه السلام الّذي يُعدّ عمــلًا مهمًّا جدًّا وأساسًا وهو أهمّ ما قام به عليه السلام .

بناء التّشكيلات السريّة

العمـل الآخر في حياة هذا الإمام، كان عبـارة عن تنظيم التشكيلات، فمـاذا يعنـي هـذا؟ أي أنّ المرء يقـوم بنشر تلك المعـارف وذلك التغيير الثّقافـيّ والمواجهة الثقافيّة داخل المجتمع كبذرٍ ينثره الإنسان في الأرض هنا وهناك. حسنٌ، فإنّ بعض هذا البذار سيُنبت وبعضه سيموت، وبعض ما ينبـت سيُداس عليه ويزول، ولعلّ بعضه لن يُثمر كثيرًا، هذا هو حال البذر. وبعض الأحيان، كلا، فذلك المزارع الماهر الخبير والعاقل، بالإضافة إلى أنّـه يبذر الحبوب، فإنّه يُحافظ عليها، فكيف يفعل ذلك؟ من خلال تجهيز أشخاصٍ وبثّهم في أرجاء العالم الإسلاميّ من أجل القضاء على الشّبهات الّتي وقع فيها أولئك الّذين تأثّروا بذلك الإعلام والتّعاليم، فيحصلون على المزيد من المعرفة ولا يقعون تحت تأثير إلقاءات العدوّ، فلا يُشتبه عليهم الأمر ويُحافظون على روابطهم فيما بينهم، فيكون ذلك ضمانة كافية لأجل أن ينمو ذلك الحبّ سالمًا في أرضٍ مستعدّة وخصبة.

وقـد كان هذا الأمر مـن أعمال الإمام الباقـر عليه السلام، حيث كان يُربّي أشخاصًـا ويُعدّهـم ويخصّهـم بالعناية - التلامذة الخواص - ثم يربطهم ببعضهـم، ويبثّهـم في أرجـاء العالم الإسلامـيّ كأقطـابٍ وأركانٍ ووكلاء ونـوّاب ليتابعـوا ما قام به، ويتحمّلـوا أعباء التّبليغ والتّعليـم الّذي قام به. وهذا التّنظيـم السرّي للإمام الباقر عليه السلام، كان قد بدأ قبل عصره لكنّه تفاقـم وازداد فـي زمانـه، وبالطّبع، فقد وصـل في زمن الإمـام الصّادق والإمـام موسـى بن جعفر عليه السلام إلى أوجه؛ لقد كان هـذا عملًا آخرًا وهو شديد الخطورة.

لهـذا ترون في الرّوايات كيـف أنّ بعض أصحاب الإمام الباقر عليه السلام، يُعرفون بأصحاب السـرّ، كجابر بن يزيد الجعفيّ، فجابر الجعفيّ كان من أصحـاب السـرّ، فماذا يعني ذلـك؟ إنّه من أولئك الّذيـن كانوا يتواجدون فـي أرجاء العالم الإسلامي وفي كلّ الأماكن ممّن يتحمّلون مسؤولية هداية المستعدّيـن والمحبّيـن والأخذ بأيديهـم وإشباع أذهانهـم. وكان الجهاز الحاكم أينما وجد هؤلاء يُعرّضهم لكلّ أشكال الضّغط والقمع.

(1987/07/31)

بمطالعـةٍ مختصرة يُمكن تلخيص كلّ مرحلة إمامة الإمام الباقر، الّتي امتدّت إلى تسعة عشرة سنة من عام 95 للهجرة وإلى عام 114، على الشّكل التّالي: لقد اختـاره(1) أبوه الإمام السجّاد عليه السلام فـي آخر لحظات عمره، كإمام للشّيعة وخليفة له، وقد سجّل هذا التنصيب في محضر سائر أبنائه وأقاربـه. وأراه صندوقـًا بحسـب الرّوايات مليئًا بالعلـم(2) أو حاويًا لسلاح رسـول اللّه وقال: «**يـا محمّد احمل هـذا الصّندوق إلى بيتـك**»، ثمّ يتوجّه بالخطاب إلى الآخرين: «**لا يوجد في هذا الصّندوق من الدّرهم والدّينار شـيءٌ، بـل هو مليءٌ بالعلـم**»(3)، وكأنّه بهذا الموقف، وبمثـل هذا التّعبير، عـرّف الحاضرين علـى إرث القيادة العلميّـة والفكريّة ـ العلـم ـ والقيادة الثوريّة ـ سلاح النبيّ.

---

(1) الإختيار هنا بمعنى إيصائه بالتصدّي لمهام الإمامة، وتأكيد الحجيّة على الناس، لأنّ تنصيب الإمام اختيار إلهي واقعي.

(2) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 46، ص 229.

(3) م. ن.

من اللحظات الأولى، اتّخذ السّعي الوسيع والشّامل للإمام وأتباعه المخلصين مطلعًا جديدًا في إشاعة دعوة التشيّع الهادفة والبنيويّة. إنّ اتّساع نطاق هذه الدّعوة كان، بالإضافة إلى المناطق الّتي يسكنها الشّيعة – كالمدينة والكوفة – يشمل مناطق جديدة وخصوصًا تلك القطاعات من الدّولة الإسلاميّة الّتي كانت بعيدةً عن مركز حكومة بني أميّة، لتُضاف بذلك إلى نطاق طراز الفكر الشّيعيّ؛ ويُمكن ذكر خُراسان في هذا المجال أكثر من غيرها، حيث نُشاهد في الرّوايات العديدة نفوذ التبليغ والدّعوة الشيعيّة في أهل تلك المناطق[1].

إنّ ما يدفع الإمام وأتباعه نحو هذه الحركة الّتي لا تعرف السّكون، في كلّ هذا السّعي المجهد ويدعوهم للقيام بهذا التّكليف الإلهيّ هو الواقع الاجتماعيّ والذهنيّ المؤسف. فهم كانوا من جهة يشاهدون أمام أعينهم كيف أنّ النّاس، وإثر التربية المضلّة والمخرّبة، كانوا يزدادون سقوطًا وغرقًا في التيّار العام الفاسد للمجتمع يومًا بعد يوم، ووصل الأمر شيئًا فشيئًا إلى حيث أنّ عامّة النّاس لم يعودوا يستمعون إلى الدّعوة المنجية للإمامة، كحال الزّعماء والمسؤولين ـ «**إن دعوناهم لم يستجيبوا لنا**»[2] ـ ومن جانبٍ آخر لم يعد هناك في هذا التيّار الانحرافيّ، الّذي أصبح كلّ شيء فيه، حتّى الدّرس والبحث والفقه والكلام والحديث والتفسير، من أجل تلبية أماني ورغبات الطواغيت الأمويين، أيّ طاقة أمل مفتوحة

(1) ومنها رواية أبي حمزة الثمالي: «حتى أقبل أبو جعفر عليه السلام وحوله أهل خراسان وغيرهم يسألونه عن مناسك الحج» (العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 46، ص 337)؛ وينقل رواية تذكر ما جرى بين أحد علماء خراسان مع عمر بن عبد العزيز وفيها عبرةٌ بالغة. (الكاتب)

(2) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 46، ص 288.

عليهـم؛ ولو لم ينهض التشيّع لأجـل دعوتهم وهدايتهم لأُغلق عليهم طريق الهداية كلّيًّا، «**وإن تركناهم لم يهتدوا بغيرنا**»[1].

على أساس الإدراك العميق لهذا الواقع الاجتماعيّ السيّئ، يُعلن الإمام موقفه العدائـيّ تجاه القوى الفكريّة والثقافيّة، أي الشعراء والعلماء الّذين باعـوا أنفسهم - الذين هـم مختلقو الأجواء غير السّليمـة على صعيد فكر المجتمـع - وبإنزاله أسـواط توبيخه على رؤوس هـؤلاء، أحدث أمواجاً من التنبيـه واليقظـة، إن لم يكن على مستـوى وجدانهم الميّـت، ففي أذهان وقلـوب أتباعهم الغافليـن. وبلهجته المعترضـة على كُثيـر الشّاعر يقول: أمدحت عبد الملك؟! فيُجيب بسذاجةٍ أو غفلةٍ وهو بصدد تبرير معصيته، قائلًا: لم أُخاطبه بإمام الهدى، بل مدحته بكلمات الأسد والشّمس والبحر والأفاعـي والجبال؛ والأسد كلـبٌ، والشّمس جسمٌ جامدٌ، والبحر جسمٌ بلا روح، والأفاعـي حشراتٌ، والجبل صخرةٌ صمّاء. وهنـا يتبسّم الإمام أمام هـذا العذر والتبرير غير الوجيه، بطريقةٍ ذات مغزى؛ وهنا ينهض الكُميت - الشاعـر الثـوريّ والهادف - ويُنشـئ واحدة من قصائـده الهاشميّات[2] ليضع فـي أذهان الحاضرين معنى المقارنة بين هذين النّوعين من العمل الفنّي، ويوصل ذلك إلى كلّ الّذين سمعوا بهذه الواقعة[3].

---

(1) بحار الأنوار، ج 26، ص 253.

(2) القصيدة الّتي بدأت بهذا البيت الشعري:

من لقلب متيّم مُستهام غير ما صبوة ولا أحلام

ووصلـت إلى هذا البيت البليغ والقاصم والمليء بالمعرفـة: ساسة لا كمن يرى النّاس سواء ورعية الأنعام (الكاتب)

(3) المناقب، ج4، ص 207.

عكرمــة، التلميذ المعروف لابن عبّاس والّــذي كان يتمتّع بشأنيّة ومقام عظيــم بيــن النّاس، يذهــب لرؤية الإمــام عليه السلام ويقع تحــت تأثير وقاره ومعنويّاته وشخصيّته الروحيّة والعلميّة، بحيث يرمي نفسه بدون إرادةٍ بين يدي الإمــام عليه السلام ويقول بذهولٍ: لقد جالست عظمــاء كابن عباس، ولم يحــدث أن جــرى ما جرى معي الآن بيــن أيديهم. فقال الإمــام في جوابه: «**ويلــك يــا عبيــد أهل الشام إنّك بيــن يديّ بيــوتٍ أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه**»(1).

وكان الإمــام عليه السلام يستغلّ كلّ فرصــةٍ مناسبة لتحريك مشاعر النّاس الغافليــن وعواطفهم من خلال بيان زاويةٍ من الوقائع المرّة لحياة الشّيعة، وذكــر الضغــوط وأنواع العنــف والتشدّيد الّتــي كانت تُمارســ على الإمام وأتباعه من قِبَل القوى المهيمنة، وبذلك كان يهزّ عروقهم الميّتة والراكدة، ويزلــزل قلوبهــم الفاتــرة أي إنّــه كان يُعدّهــم لتلــك المواقــف المتشدّدة والتحرّكات الثوريّة.

وقد أجاب رجلًا، سأله ذات يوم كيف أصبحت يا ابن رسول الله، يروي المنهــال بن عمرو تلــك الرواية فيقول: «**كنــت جالسًا مع محمــد بن علي الباقــر عليهما السلام إذ جــاءه رجــل فسلّم عليه فردّ عليه السلام، قــال الرجل: كيف أنتــم؟ فقــال له محمّــد عليه السلام : أوما آن لكــم أن تعلموا كيــف نحن، إنّما مثلنــا فــي هــذه الأمّة مثــل بنــي إسرائيل، كان يُذبــح أبناؤهــم وتُستحيى نساؤهم، ألا وإن هؤلاء يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا**»(2).

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج46، ص 258.

(2) م.ن، ج46، ص360.

(وبعد هذا البيان البليغ والمحرّك يجرّ الكلام إلى القضيّة الأساس ـ أي أولوية الدّعوة الشيعيّة وحكومة أهل البيت عليهم السلام).

«زعمت العرب أنّ لهم فضلًا على العجم، فقالت العجم: وبماذا؟ قالوا: كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم عربياً. قالوا لهم: صدقتم، وزعمت قريش أنّ لها فضلًا على غيرها من العرب، فقالت لهم العرب من غيرهم: وبما ذاك؟ قالوا: كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم قرشيًّا. قالوا لهم: صدقتم؟ فإن كان القوم صدقوا فلنا فضل على النّاس، لأنّا ذرية محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأهل بيته خاصة وعترته، لا يشركنا في ذلك غيرنا فقال له الرجل: والله إنّي لأحبّكم أهل البيت عليهم السلام. قال: فاتّخذ للبلاء جلبابًا، فوالله إنّه لأسرع إلينا وإلى شيعتنا من السيل في الوادي، وبنا يبدأ البلاء ثمّ بكم، وبنا يبدأ الرّخاء ثمّ بكم»[1].

وعلى نطاقٍ أضيق وأكثر وثاقةً، تمتّعت علاقة الإمام بشيعته بخصائص أخرى. ففي هذه العلاقات نُشاهد الإمام وكعقلٍ مفكّر في جسمٍ حيّ فيما يرتبط بالأعضاء والجوارح، وكقلبٍ نابضٍ في عمل تغذية الأجهزة والأعضاء.

إنّ النّماذج الموجودة بين أيدينا بشأن علاقات الإمام عليه السلام مع هذه المجموعة تُشير من ناحيةٍ إلى الصّراحة في مجال التّعاليم الفكريّة، ومن جهةٍ أخرى تُشير إلى الروابط والتشكيلات المدروسة بين هؤلاء والإمام.

ونجد الفُضيل بن يسار[2]، الذي هو من أقرب أصحاب الإمام وأصحاب

---

(1) الأمالي، الشيخ الطوسي، ص 154.

(2) راجع تفصيل مدح الإمام لفضيل في قاموس الرجال، ج 97، ص 345-343 (الكاتب).

سرّه، يُرافقه في مراسم الحج، فينظر الإمام إلى الحجّاج وهم يطوفون حول الكعبة، ويقول: هكذا كانوا يطوفون في الجاهليّة! إنّما أُمروا أن يطوفوا بها، ثمّ ينفروا إلينا ويعلنون لنا ولاءهم ومحبّتهم، ويعرضون علينا نصرتهم! ثم قرأ هذه الآية ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[1].

أي لم يقل: إليها! ويوصي جابر الجعفيّ في أوّل لقاء له مع الإمام عليه السلام أن لا يُخبر أحدًا أنّه من الكوفة بل أن يتظاهر أنّه من أهل المدينة. وبهذه الطّريقة يُعلّم الإمام عليه السلام مثل هذا التلميذ الحديث -الّذي ربّما لديه قابليّات عالية لتحمّل أسرار الإمام عليه السلام والتشيّع، التي كانت قد ظهرت عليه من البداية - دروس كتمان السرّ؛ وهذا التلميذ المستعدّ نفسه والّذي أصبح يُعرف فيما بعد بعنوان صاحب سرّ الإمام عليه السلام، يصل به الأمر إلى أن يكون داخل جهاز الخلافة.

يقول النعمان بن بشير: «كُنتُ ملازمًا لجابر بن يزيد الجعفيّ. فلمّا أن كُنّا بالمدينة، دخل على أبي جعفر-الإمام الباقر عليه السلام - فودّعه وخرج من عنده وهو مسرور، حيث وردنا الأخيرجة (من نواحي المدينة) يوم جمعة فصلّينا الزوال فلمّا نهض بنا البعير إذا أنا برجل طويل آدم (أسمر) معه كتاب فناوله، فقبّله ووضعه على عينيه، وإذا هو من محمد بن علي (الباقر) إلى جابر بن يزيد وعليه طين أسود رطب. فقال له: متى عهدك بسيّدي؟ فقال: الساعة، فقال له: قبل الصلاة أو بعد الصلاة؟ فقال: بعد الصلاة. فقال: ففكّ الخاتم وأقبل يقرأه ويقبض وجهه حتّى

(1) سورة إبراهيم، ص37.

أتى على آخره، ثم أمسك الكتاب فما رأيته ضاحكاً ولا مسروراً، حتّى وافى الكوفة.

يقول النعمان بن بشير: فلمّا وافينا الكوفة ليلاً بتّ ليلتي، فلمّا أصبحت أتيت جابر الجعفيّ إعظاماً له، فوجدته قد خرج عليّ وفي عنقه كعاب قد علّقها وقد ركب قصبة (كما يفعل المجانين) وهو يقول: أجد منصور بن جمهور.. أميراً غير مأمور، وأبياتًا على هذا النّحو، فنظر في وجهي ونظرت في وجهه فلم يقل لي شيئًا ولم أقل له شيئًا، وأقبلت أبكي لما رأيته، واجتمع عليّ وعليه الصبيان والنّاس، وجاء حتّى دخل الرّحبة، وأقبل يدور مع الصبيان، والنّاس يقولون: جُنّ جابر بن يزيد. فوالله ما مضت الأيام حتّى ورد كتاب هشام بن عبد الملك إليّ وإليه أن انظر رجلاً يُقال له: جابر بن يزيد الجعفيّ، فاضرب عنقه وابعث إليّ برأسه. فالتفت إلى جلسائه فقال لهم: من جابر بن يزيد الجعفيّ؟ قالوا: أصلحك الله كان رجلاً له علم وفضل وحديث، وحجّ فجنّ وهو ذا في الرّحبة مع الصبيان على القصب يلعب معهم. قال: فأشرف عليه، فإذا هو مع الصبيان يلعب على القصب. فقال: الحمد لله الّذي عافاني من قتله»[1].

هذا أنموذجٌ من كيفية تعامل الإمام وارتباطه مع أصحابه المقرّبين وشاهدٌ على وجود العلقة والرابطة المحسوبة بدقّة والتشكيلات؛ كما أنّه نموذجٌ حول موقف الحكومة تجاه هؤلاء الأصحاب. من الواضح أنّ أيادي الحكومة ـ والّتي لا تُفكّر بأكثر من الحفاظ على نفسها وسلطتها، وترسيخ

---

(1) قاموس الرجال، ج 2، ص 329-330، وبحار الأنوار، ج 46، ص 282-283 (الكاتب).

موقعيّتها ـ لا تبقى في غفلةٍ مطبقة عن علاقات الإمام عليه السلام مع أصحابه المقرّبين وأنشطتهم، ولا شكّ بأنّهم سيشمّون رائحة مثل هذا الموضوع وسيسعون لكشفه ومواجهته[1]. وبالتّدريج يبرز نهج الاعتراض في حياة هذا الإمام عليه السلام وكذلك في الجوّ الشيعيّ العام، ويُبشّر ببداية فصلٍ جديد في تاريخ حياة أئمّة الشّيعة.

هذا وإن لم يكن في متون التواريخ الإسلاميّة وكذلك في كتب الأحاديث وغيرها، حديثٌ صريحٌ عن أنشطة الإمام الباقر عليه السلام الاعتراضيّة والحادّة نسبيًّا – وبالطبع إنّ هذا نفسه ناشئٌ من أسبابٍ وعوامل عدّة، أهمّها القمع المسيطر على الأجواء وضرورة التقيّة من قِبَل أصحاب الإمام عليه السلام الّذين كانوا المراجع الوحيدين المطّلعين على مجريات الحياة السّياسيّة للإمام عليه السلام ـ ولكن يُمكن دومًا اكتشاف عمق أداء أيّ إنسان من خلال ردود الفعل المحسوبة بدقّة من قبل أعدائه المتيقّظين. فإنّ مواجهة جهازٍ مقتدرٍ ومدبّرٍ، كجهاز هشام بن عبد الملك، الّذي عدّه المؤرّخ أكثر الخلفاء الأمويّين اقتدارًا، للإمام الباقر عليه السلام أو لأي

(1) والذي يؤيّد هذه الحقيقة بالصراحة، غير حادثة جابر والحوادث الأخرى المشابهة لتلك الرواية، أن عبد الله بن معاوية الجعفري ينقل أيضاً رسالة تهديد حاكم المدينة للإمام الباقر عليه السلام، «روي عن عبد الله بن معاوية الجعفري قال: سأحدّثكم بما سمعته أذناي ورأته عيناي من أبي جعفر عليه السلام أنه كان على المدينة رجل من آل مروان وإنه أرسل إليّ يوماً فأتيته وما عنده أحد من النّاس، فقال: يا معاوية إنّما دعوتك لثقتي بك، وإني قد علمت أنه لا يبلغ عني غيرك، فأجبت (فأحببت) أن تلقى عميك محمد بن علي وزيد بن الحسن عليهما السلام وتقول لهما: يقول لكما الأمير لتكفان عما يبلغني عنكما، أو لتنكران، فخرجت متوجهاً إلى أبي جعفر فاستقبلته متوجهاً إلى المسجد فلما دنوت منه تبسم ضاحكاً فقال: بعث إليك هذا الطاغية ودعاك وقال: الق عميك وقل لهما كذا؟ قال: فأخبرني أبو جعفر بمقالته كأنه كان حاضراً ثم قال: يا ابن عم قد كفينا أمره بعد غد، فإنه معزول ومنفي إلى بلاد مصر والله ما أنا بساحر ولا كاهن، ولكني أتيت وحدثت، قال: فوالله ما أتى عليه اليوم الثاني حتى ورد عليه عزله ونفيه إلى مصر وولى المدينة غيره». الخرائج والجرائح، ج2، ص559.

شخص آخر بذلك الوجه العنيف، هو لا شكّ ناشئٌ من رؤيته تهديدًا لنفسه في أدائه وعمله، وعدم قدرته على تحمّل وجوده. فلا شكّ أنّه لو كان الإمام الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ مشغولًا بالحياة العلميّة فحسب، دون البناء الفكريّ والتنظيميّ، لما كان الخليفة ورؤوس نظام الخليفة ليروا أنه من مصلحتهم ونفعهم أن يتصرّفوا بشدّة وعنف؛ أوّلًا، لأنّهم بذلك سوف يستفزّون الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لمواجهتهم بشدّة ـ لأنّهم كانوا قد شاهدوا أنموذجًا لهذه التجربة، في زمنٍ قريب، منها قيام حسين بن عليّ «شهيد الفخّ»[1]؛ وثانيًا، فإنّ مجموعة أنصار الإمام والمعتقدين به ـ الذين لم يكن عددهم قليلًا ـ كانوا سيغضبون ويسخطون على جهازهم الحاكم. خلاصة الحديث، يمكن الاستنباط من ردّ فعل نظام الخلافة الحادّ نسبيًّا في أواخر عمر الإمام الباقر، شدّة عمل الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ وحدّته.

(1) حسين بن علي ـ حسين الفخ ـ ابن علي بن الحسين بن الحسن بن الحسن المجتبى، وأمه زينب بنت عبد الله بن الحسن الذي خرج في زمن موسى الهادي حفيد المنصور، وفتح اسم بئر يبعد فرسخاً عن مكة.

إحضار الإمام الباقر عليه السلام إلى الشّام

مـن الحـوادث المهمّة في أواخـر حياة الإمـام وأكثرها شهـرةً حادثة إحضـاره إلـى الشّـام، الّتي كانت عاصمـة الحكم الأمـويّ. فلأجل معرفة موقـف الإمام تجاه جهـاز الخلافة، أمـر الخليفة الأمـويّ باعتقال الإمام الباقـر - وطبق بعض الرّوايات، مع ابنه الإمـام الصادق أيضًا، الّذي كان شابًّا مساعدًا وملازمًا لأبيه - ونقلهما إلى الشّام. فأُحضر الإمام إلى قصر الخليفة في الشّام. وقد أملى هشام قبل ذلك على حضّار مجلسه وحاشيته ليقومـوا بالإجراءات اللازمة عنـد لقائهم بالإمام وجهًـا لوجه. فكان من المقـرّر أن يبدأ الخليفة نفسه، ومن بعدهـا حضّار المجلس - الّذين كانوا جميعًا من الرّجـال والزّعماء - وينهالون عليه بالطّعن والشماتة. وقد أراد بهذا العمل تحقيق هدفين:

الأوّل: أن يُضْعِف بهذه التصرّفات الشديدة والمسيئة معنويّات الإمام، وليُهيـئ بذلك الأرضيّة للقيام بأيّ عملٍ يراه لازمًا. والآخر أن يُدين الخصـم في لقاءٍ بين أعلى قيـادات الجبهتين المتعاديتين، فينتزع بهـذه الوسيلـة سلاح جميـع أفراد جبهته من خـلال نشر خبر هذه

الإدانــة، والّتــي ستحصــل بفضــل الأبــواق الجاهزة دومًــا لخدمة الخليفة كالخطباء والعمّال والجواسيس.

يدخل الإمام، وبخلاف الرّسوم والعادات المتعارفة الّتي تقتضي أنّ كلّ من يدخل إلى المجلس يجب أن يُسلّم على الخليفة بذلك اللقب المخصوص بأميــر المؤمنيــن، فإنّه يتوجّه إلى جميــع الحاضريــن، ويُخاطبهم مشيرًا بيــده، وقائــلاً: السلام عليكــم. ويجلــس دون انتظار الإذن بذلــك. وبهذا التصــرّف يُشعــل نيران الحقد والحسد فــي قلب هشام، ويبــدأ برنامجه. «أنتــم يا أبناء علــيّ، كنتم دومًا تشقّــون عصا المسلميــن، وبدعوتهم إلى أنفسكم كنتم تنشــرون بينهم الشّقاق والنّفاق، وتدّعــون الإمامة لأنفسكم بجهلكم وسفاهتكم». يتفوّه بأمثال هذه التّرّهات ويسكت. ثمّ بعد ذلك، كلّ واحــد من عبيده وأصحاب معلفه، ينهضــون ويتفوّهون بمثل هذه الكلمات، ويتوجّهون بألسنتهم للطّعن بالإمام عليه السلام وتوبيخه.

أمّــا الإمــام عليه السلام، فقد كان يجلس طيلــة هذا الوقت ساكتــاً وهادئاً. وعندمــا يسكــت الجميع، ينهضــ الإمام ويقــف ويتوجّه إلــى الحاضرين، وبعد الحمد والثناء علــى الله تعالى والسلام على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، يردّ بكلماته المختصــرة والمزلزلــة كيد أولئــك إلى نحورهــم، وكأنّه يوجّــه لهم بهذه الكلمات صفعةً قاضية، ويُبيّن موقعه وأصول عائلته المفتخرة، الّتي تنطبق مــع أعلى المعاييــر الإسلاميّة - وهــي الهداية - وفي النهايــة يُبيّن عاقبة طريقهــم بحسب السّنن الإلهيّة التاريخيّة ويُزلزل لهم معنويّاتهم أكثر ممّا كانــت متزلزلة: «**أيها النّاس! أين تذهبون؟ وأين يُراد بكم؟ بنا هدى الله أوّلكم، وبنا يختم آخركم، فإن يكن لكم ملك معجّل، فإنّ لنا ملكاً مؤجّلاً،**

وليس بعد ملكنا ملك، لأنّا أهل العاقبة، يقول الله عزّ وجلّ: والعاقبة للمتّقين[1]»[2].

في هذا البيان المختصر والمليء بالمعنى ـ الّذي تضمّن التظلّم والبشارة والتهديد والإثبات والردّ ـ تحقّق التأثير والجاذبيّة إلى درجة أنّه لو أذيع ووصل إلى أسماع النّاس لكان من الممكن أن يجعل كلّ من يسمعه معتقدًا بحقّانية قائله. ولأجل الردّ على هذا الكلام، كان المطلوب وجود خطيبٍ متفوّه مقنعٍ ومنطقيّ، إلّا أنّ هذا لم يكن حال أيٍّ من مخاطَبي الإمام، ولهذا لم يعد أمامهم سوى استخدام العنف والقهر.

فيأمر هشام بإلقاء الإمام في السّجن؛ وهو بذلك يكون عمليًّا قد اعترف بضعف معنويّاته وعجز منطقه. وفي السّجن، يقوم الإمام ببيان الحقائق، ليؤثّر بالسّجناء الذين معه؛ بحيث أنّه لا يبقى أيّ واحدٍ منهم لا يعتقد من أعماق قلبه، بما قاله. فينقل مأمورو السّجن مجريات الأحداث إلى هشام. وقد كان هذا الموضوع بالنّسبة للجهاز الحاكم، الذي كان قد مضى عليه عشرات السّنين بعيدًا عن الخطاب العلويّ، لا سيّما في الشّام، غير قابلٍ للتحمّل على الإطلاق. فيأمر هشام بإخراج الإمام عليه السلام ومن معه من السّجن، ولم يكن هناك من مكانٍ أنسب لهم من المدينة المنوّرة، تلك المدينة الّتي كانوا يعيشون فيها؛ وبالطّبع، مع وضعهم تحت المراقبة

(1) قوله «**أيّها النّاس**» موجّه الخطاب إلى مجموعة أصحاب الرتب العالية في الحكومة الذين اجتمعوا في مجلس بمثل هذه الحساسية والهيبة، حول الخليفة وأرادوا الدفاع عنه، وفي الواقع هو نفي لكل القيم التي كانت تفصل، في ذلك المجتمع الطاغوتي، هؤلاء المستكبرين عن عامّة النّاس وتميّزهم عنهم. وأرادوا بذلك أن يُميّزوا أنفسهم عنهم. إنّها مواجهة أصولية وعميقة في قالب خطابٍ بسيط (الكاتب).

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص471.

وكلّ أنواع التشدّد المستمرّ وأكثر. وعند الضّرورة، إنزال الضّربة الأخيرة وإبادة الخصم من دون ضجيج في بيته، والتنصّل من وبال تهمة قتل الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ ووضعه في رقبته. لهذا، وُضعوا بأمرٍ من هشام على مراكب سريعة – كان عليها أن تقطع كلّ الطريق من دون توقّف – ويحملونهم إلى المدينة. وكانوا قبل ذلك قد منعوا أيّ إنسان في كلّ المدن الّتي تقع على الطريق من أن يتعامل مع هذه القافلة المغضوب عليها، أو أن يبيعهم الماء والخبز[1]. وبقوا على هذا الحال طيلة الطّريق، ثلاثة أيّامٍ بلياليها، فنفذ ما كان لديهم من خبزٍ وماء.

ووصلوا «مدين». وأغلق أهل المدينة بحسب ما لديهم من أوامر، بوابات مدينتهم، وامتنعوا عن بيع المتاع. اشتدّ على أتباع الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ الجوع والعطش؛ فصعد الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ على مرتفع يطلّ على المدينة ونادى

(1) وطبق بعض الروايات فقد أُشيع بين أهل المدن الواقعة على الطريق أنّ محمد بن علي وجعفر بن محمّد أصبحا نصرانيين وارتدّا عن الإسلام، العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 46، ص 306. وشبيهٌ بهذه الواقعة حدث في حركة تحرير الهند وفي عقود منتصف التاسع عشر: (فمولانا) الذي كان من علماء الدين المعروفين والمعتبرين في الهند وأول قادة المقاومة لمسلمي الهند – وهم من روّاد حركة تحرير شبه القارّة – قد ذُكر من جانب مجموعة من العلماء المعارضين للجهاد كشخص وهّابي. ولم يكن من حاجة لأي تبرير أو مناسبة من أجل إشاعة هذه التّهمة؛ فكان يكفي لأجل إسقاط مثل هذه الوجوه المحبوبة والمعروفة والمجاهدة من أعين عامّة النّاس الجاهلين والغافلين حتى يُتّهم أيّ شخص بالوهّابيّة. لم يكن عوام النّاس يعلمون ولم يكونوا قادرين أن يعلموا ما هي الوهّابيّة، وما هو منشؤها، وماذا تقول، وماذا تريد أن تفعل، وهل أنّه من الممكن أن يكون العلماء المنزّهون الذين قضوا حياتهم في النّضال ضدّ الاستعمار الإنكليزي وهّابيين – أي أداة بيد الإنكليز؟ الشيء الوحيد الذي كانوا يعلمونه، هو أنّ الوهّابية هي عبارة عن مذهب خاطئ وانحرافيّ، وها هم يسمعون أنّ هؤلاء العلماء المناضلين وهّابيّون ويكفي مثل هذا. (راجع كتاب المسلمون في حركة تحرير الهند، «طباعة آسيا»). وأنا عندما أطبّق قصّة إحضار الإمام الباقر والإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الشام واتّهامهما بالتنصّر على المئة سنة ونيّف في الهند في العصر الحديث ثمّ ألقي نظرةً على الأوضاع والأحوال الجارية في زماننا ومكاننا أسترجع في ذاكرتي هذا المصرع للبيت الشعري العربي بكلّ حيرة مؤسفة، «النّاس كالنّاس والأيام واحدة». (الكاتب)

بأعلى صوته: «**يا أهل المدينة الظّالم أهلها، أنا بقيّة الله. يقول الله:** ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[1].

يقول الراوي: وكان بين أهل المدينة شيخٌ كبير، فأتاهم فقال: «يا قوم هذه والله دعوة شعيب عليه السلام. والله لئن لم تخرجوا إلى هذا الرجل بالأسواق لتؤخذنّ من فوقكم ومن تحت أرجلكم فصّدقوني وأطيعوني.. فإنّي لكم ناصح. استجاب أهل المدينة لدعوة الشيخ فبادروا وأخرجوا إلى أبي جعفر وأصحابه الأسواق»[2].

والقسم الأخير من هذه الرواية التاريخيّة ـ والّذي يمكنه أن يكون من جهاتٍ عدّة عرضًا للوضع السياسيّ والقمع وكذلك الاستخفاف الشامل بجميع الأذهان في ذلك الزمان، وأن يكون من جانبٍ توضيحًا لموقف الإمام الباقر عليه السلام الخاصّ من جهاز حكم بني أميّة ـ على هذا النّحو: عندما وصل خبر المدينة إلى هشام أمر قبل أيّ شيء بمعاقبة ذلك الرّجل المتمرّد على خيانته لأنّه تجرّأ على الإعراب عن مخالفته لخطّة زعماء نظام الخلافة وجنّب النّاس غفلةً كبرى. وقد أُخذ هذا الرّجل وقُتل بأمرٍ من الخليفة.

ومع كلّ ذلك، يتجنّب الإمام أيّ مواجهة حادّة ومجابهة مباشرة مع الجهاز الحاكم. فلا يعمد إلى سيف، ولا يسمح للأيدي المتسرّعة أن تمتدّ إلى السلاح وتشهره، ويحملها على المزيد من حدّة النّظر ومعرفة الموقف المناسب ويمتنع عن شهر سيف اللسان كذلك، ما لم يتطلّب عمله التغييريّ

(1) سورة هود، الآية 86

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص472.

الأساس الجذريّ ذلك. كما أنّه لا يُرخّص لأخيه زيد، الّذي بلغ به الغضب مبلغه وثارت عواطفه أيّما ثورة، أن يخرج (يثور)، بل أن يُركّز نشاطه العام على التّوجيه الثّقافيّ والفكريّ. وهو بناء أساس أيديولوجيّ في إطار مراعاة التقية السّياسيّة.

ولكن هذا الأسلوب لم يكن يمنع الإمام عليه السلام، كما أشرنا، من توضيح «حركة الإمامة» لأتباعه الخلّص؛ وإذكاء أمل الشّيعة الكبير، وهو إقامة النّظام السياسيّ بمعناه العلويّ الصّحيح في قلوب هؤلاء، بل يعمد أحيانًا إلى إثارة عواطفهم بالقدر المطلوب على هذا الطّريق.

التّلويح بمستقبلٍ مشرق هو أحد السبل الّتي مارسها الإمام الباقر عليه السلام مع أتباعه. وهو يشير أيضًا إلى تقويم الإمام عليه السلام للمرحلة الّتي يعيشها من الحركة. يقول الحكم بن عيينة: بينما أنا مع أبي جعفر عليه السلام والبيت غاص بأهله إذ أقبل شيخٌ يتوكّأ على عنزة (عكازة) له، حتّى وقف على باب البيت، فقال: السلام عليك يا ابن رسول الله ورحمة الله وبركاته. ثمّ سكت، فقال أبو جعفر: «**وعليك السلام ورحمة الله وبركاته**». ثم أقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت عليهم السلام وقال: السلام عليكم، ثمّ سكت حتّى أجابه القوم جميعًا، وردّوا عليه السلام. ثم أقبل بوجهه على الإمام عليه السلام وقال: يا ابن رسول الله ادنني منك جعلني الله فداك. فوالله إنّي لأحبّكم وأحبّ من يُحبّكم، ووالله ما أُحبّكم وأُحبّ من يُحبّكم لطمعٍ في دنيا، وإنّي لأُبغض عدوّكم وأبرأ منه، ووالله ما أُبغضه وأبرأ منه لوترٍ كان بيني وبينه. والله إنّي لأُحلّ حلالكم وأُحرّم حرامكم، وأنتظر أمركم، فهل ترجو لي، جعلني الله فداك؟ فقال الإمام عليه السلام: «**إليّ إليّ**» حتّى أقعده إلى جنبه،

ثـم قال: «**أيها الشيـخ! إنّ أبي عليّ بن الحسيـن عليه السلام، أتاه رجل فسأله عـن مثـل الـّذي سألتنـي عنـه فقـال لـه أبـي عليه السلام: إن تمُت وأنت في هـذا الحـال من الانتظار، ترد علـى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلـى عليّ والحسن والحسيـن وعلـى علـيّ بـن الحسين، ويثلـج قلبك، ويبـرد فـؤادك، وتقرّ عينك، وتستقبل بالروح والرّيحان مع الكرام الكاتبين... وإن تعش تـرى مـا يقـرّ الله بـه عينـك، وتكون معنا فـي السنام الأعلى**». قـال الشيخ وهو مندهشـ من عظمة البشرى: كيف يا أبـا جعفر؟ فأعاد عليه الكلام، فقال الشيخ: اللّه أكبر يا أبا جعفر، إن أنا متّ أرد على رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم وعلى عليّ والحسـن والحسين وعلي بن الحسين وتقرّ عينـي ويثلج قلبي ويبرد فؤادي وأُستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين لو قد بلغت نفسي ههنا. وإن أعشـ أرى مـا يقرُّ اللّه به عيني، فأكون معكم فـي السنام الأعلى؟ ثم أقبل الشيخ ينتحب حتّى لصق بالأرض. وأقبل أهل البيت ينتحبون لما يرون من حـال الشيخ. ثم رفـع الشيخ رأسه وطلب من الإمـام عليه السلام أن يناوله يده فقبّلهـا ووضعهـا على عينه وخـدّه، ثم ضمّها إلى صدره وقـام فودّع وخرج والإمـام عليه السلام ينظر إليه ويقـول: «**من أحبّ أن ينظر إلـى رجل من أهل الجنّة فلينظر إلى هذا**»[1].

حتّـى أنّه أحيانـًا كان يتعـدّى ذلك ويُحـدّد سنة النّصـر ويجعل الأمل الشيعـي القديـم أمـراً واقعـاً؛ عـن أبـي حمـزة الثّمالـي قال سمعـت أبا جعفر عليه السلام يقول: «**إنّ الله كان قد وقّت هذا الأمر في السبعين، فلمّا قُتل**

(1) العلاّمة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 46، ص 361-362.

الحسين عليه السلام **اشتدّ غضب الله تعالى على أهل الأرض فأخّره إلى الأربعين ومائة سنة فحدّثناكم فأذعتم الحديث، وكشفتم القناع قناع السّر فأخّره الله ولم يجعل له بعد ذلك وقتًا عند الله، ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾**[1]. قال أبو حمزة: قد قلت لأبي عبد الله عليه السلام ذلك فقال: «**قد كان ذلك**»[2].

مثل هذه التصريحات، تُزكّي روح الأمل في قلوبٍ تعيش جوّ الاضطهاد والكبت، فتكسبها زخمًا ودفعًا نحو الهدف المنشود المتمثّل في إقامة النّظام الإسلاميّ العادل.

تسعة عشر عامًا من قيادة الإمام الباقر عليه السلام تواصلت على هذا الخط المستقيم المتماسك الواضح. تسعة عشر عامًا من التعليم الأيديولوجي، والبناء، والتكتيك النضاليّ، والتّنظيم، وصيانة وجهة الحركة، والتقيّة وإذكاء روح الأمل. تسعة عشر عامًا من مسيرٍ شائكٍ ووعرٍ، يتطلّب كثيرًا من الجدّ والجهد في الطّرقات الشّديدة الوعورة. وفي النّهاية، عندما أشرف هذا العمر القصير والمليء بالعطاء على الانتهاء، وعندما ظنّ أعداء النّهضة العلويّة الألدّاء أنّهم يستطيعون أن يتنفّسوا الصّعداء برحيل محرّك هذه النّهضة وسوف يخلو بالهم من التحرّكات الدّعائيّة النّضاليّة للشّيعة، وسوف يتفرّغون لمشاكلهم وأزماتهم التي لا تنتهي داخل البلاد وعلى الحدود، أنزل الرّماد الحامي والمشتعل لهذه الشّعلة آخر صعقةٍ مهلكةٍ له على بنيان النّظام الأمويّ. فقد قضى عمرًا بفضح وتبيين

(1) سورة الرعد، الآية 39.

(2) بحار الأنوار، ج42، ص223.

الحقائـق، وها هو يتابع بعد موتـه ما كان يقوم به. بحياته كان يبثّ الوعي، وبموتـه أيضًـا استمرّ في مسعاه هـذا. لقد كان يُرسـل لأتباعه وللجماهير الغافلـة التي كانت عطشـى للمعرفة والفهم والتفكّر درسًـا جديدًا ورسالةً جديـدة. وقد كانت هذه الرّسالة هادئةً وعميقةً مثل الخطّة العامّة لحياته. نفـع الأصدقاء والمحتاجين، لكنّه سلـب النّوم من عيون الأعداء. كان هذا نموذجًا من تقيّة الإمام الباقر عليه السلام ومظهرًا للوضع العام لنهجه وسلوكه في تلك المرحلة الزمنيّة الخاصّة.

أولئـك الذيـن دوّنـوا فيما بعـد تاريخ حيـاة الإمـام، مـرّوا غافلين أو متغافليـن على هذا الإجراء العظيم الذي أُدرج في حديثٍ مختصر. أيمكن القـول أنّهم لم يـروه؟ هكذا نقصّر. وظاهر القضيّة هـو أنّ الإمام قد أمر ابنـه الإمام جعفر بن محمّـد أن ينفق قسمًا من مدخوله - 800 درهم-من أجل العزاء والنّياح عليه لمدّة عشر سنوات. مكان العزاء هو صحراء منى، وزمانـه موسم الحجّ، هكذا ولا شيء آخر. إنّ موسم الحجّ هو ميعاد الإخوة المتباعدين وغيـر المتعارفين. فآلاف الأشخاص يعيشـون تجربة إمكانيّة الاجتمـاع وتحقّقه في ذلـك الزّمان والمكان، وأصحـاب القلوب المتقاربة والألسـن المتباعدة يدعون ربّهم في هذا المكان بلسـانٍ واحدٍ ويشاهدون معجـزة اجتمـاع الملل والشّعـوب تحت رايـةٍ واحدة. وإذا كان مـن رسالةٍ ينبغـي أن تصل إلى جميع أرجاء عالم الإسلام فلا يوجد من فرصةٍ أنسب من هذه الفرصة. هنـاك حيث تُنجز أعمال الحجّ، في عدّة أيّامٍ متوالية وفي نقاطٍ محدّدة فأيّـة أيّام ستكون أنسب من هذه الأيّام؟! وأيّة أماكن ستكون أنسـب من تلك الأمكنـة؟! مكّة مدينةٌ والنّاس منتشـرون في مدينةٍ واحدة

ومشغولــون. بالإضافــة إلى ذلــك، فالجميع فيها مشغولــون بأعمال الحجّ؛ الطّواف، السّعي، الصّــلاة و... والمشعر محلّ التوقّف الليليّ فرصته قليلة ولا يوجــد فيــه إمكانيّة، فلا يوجد أكثر من هــذه المحطّة على طريق مِنى. عرفات موقفٌ وإن كان في النّهار، ولكنّه قصير المدّة: فقط يومٌ واحد يبدأ بصبــاحٍ متعب، من الحركة وينتهي بعصرٍ يُستعدّ فيه للانطلاق. فمِنى هي الأنسب من بين الجميع: فالحجّاج يُخيّمون هناك لثلاثة ليالٍ بعد رجوعهم مــن سفر عرفات، وتسنح الفرصــة أكثر من أيّ مكانٍ آخــر لأجل التعارف والتحــاور وبــثّ الشجون. فمن هو الــذي يتحمّل متاعب الذّهــاب والرجوع من مكّة؟! فالبقاء وزيــارة كلّ تجمّعٍ ومحفلٍ ومجمع يحقق الزمان والمكان المناســبيــن. فــكلّ واحدٍ سوف يمرّ بشكلٍ طبيعيّ علــى مجلس العزاء الذي يُقام لثلاثة أيّامٍ من كلّ سنة في هذه البادية. وشيئًا فشيئًا سيتعرّف النّاس الوافدون من مختلف الآفاق عليه. وسوف يُقيم أهل المدينة لسنواتٍ عديدة في هذا المكان وفي هذه الأيّام تجمّعًا، وأهل المدينة هم من مركز الإسلام ومقــرّ الصّحابة والفقهاء والمحدّثين الكبار، ولمن هذا المجلس، إنّه لأحد وجــوه عالــم الإسلام، إنّــه لمحمّد بن عليّ بــن الحسين، رجــلٌ عظيمٌ من سلالة النبيّ، زعيم الفقهاء والمحدّثين، أستاذ جميع المشهورين في الفقه والحديــث؛ فلماذا يأتــون إلى هذا المكان من بين جميــع الأماكن ويقولون فيــه ما يقولون؟! وفــي الأساس لماذا يُقال هذا؟ ألم يكن موته طبيعيًّا فمن الذي قتله أو دسّ له السّم؟ ولماذا؟ وما الذي فعله؟ وما الذي قاله؟ هل كان يدّعــي شيئًا؟ أو كانت له دعوة؟ هــل كان يُشكّل خطرًا على الخليفة؟ وهل؟ وهل؟.. أسئلةٌ كثيرة وإبهاماتٌ أكثر، ووراؤها عشرات الأسئلة والتّساؤلات،

وعندها سيأتي سيلٌ من الأجوبة من أصحاب العزاء وأيضًا من أهل الاطّلاع المنتشرين هنا وهناك بين الجموع المحتشدة؛ أولئك الذين أسرعوا من المدينة أو الكوفة إلى هذا المكان، وفي الأساس إنّما جاؤوا لكي يُجيبوا عن هذه الأسئلة. لقد جاؤوا ليبيّنوا للنّاس، الوافدين من أرجاء عالم الإسلام إلى هذا المكان، القضايا في هذه الفرصة الفريدة وفي هذا المكان. وبالطّبع، أيضًا، ليلتقوا بالإخوة والموالين من أجل أن يخبروهم ويأخذوا المطالب والأوامر منهم. كانت أعظم شبكة إعلامية تبليغية بين آلاف القنوات الإعلامية في ذلك العصر. وهذه هي الخطّة النّاجحة للإمام الباقر عليه السلام - خطّة جهاده بعد الموت - وهذا هو الوجود الذي تتفجّر منه البركات الذي جعل حياته ومماته لله وفي سبيل الله. «**وجعله مباركًا أينما كان، وسلامٌ عليه يوم وُلد ويوم يموت ويوم يُبعث حيّا**»[1].

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص33 - 54)

الظروف السّياسيّة عند شهادة الإمام الباقر عليه السلام

توفّي الإمام الباقر عليه السلام وهو في السّابعة والخمسين من عمره، على عهد هشام بن عبد الملك، وهو من أكثر ملوك بني أميّة اقتدارًا. ورغم ما كانت تُحيط بالحكومة الأموية آنذاك من مشاكل ومتاعب، فإنّ ذلك لم يصرفها عن التآمر على القلب النابض للشّيعة، أي الإمام الباقر عليه السلام، فأوعز هشام إلى عملائه أن يدُسّوا السمّ للإمام عليه السلام، وحقّق بذلك

(1) هذا الدعاء مقتبس من الآيات القرآنية الواردة في حق نبي الله عيسى عليه السلام، (سورة مريم، الآيات 31 - 33)

انتصاره في القضاء على أخطر أعدائه.

كان نظام بني أميّة في السنوات الأخيرة لحياة الإمام الباقر عليه السلام، وفي سنوات بدايات إمامة ولده الإمام الصادق عليه السلام، يمرّ بأحد أكثر فصوله المليئة بالأحداث والمتغيّرات. فالتحدّيات العسكريّة في الحدود الشمالية الشرقية ـ تركستان وخراسان، وفي الشمال ـ آسيا الصغرى وآذربايجان، والمغرب ـ وأفريقيا والأندلس وأوروبا، هذا من جانب؛ والثّورات والانتفاضات المتلاحقة في أنحاء العراق العربيّة وخراسان وشمال أفريقيا، الّتي كانت تنطلق بالأغلب بواسطة السكّان المحلّيّين السّاخطين الّذين يئنّون من الظّلم، وكانت أحيانًا بتحريك أو مساعدة القادة العسكريّين المغول الأمويّين[1]، من جانبٍ آخر؛ وكذلك الوضع الصّعب الداخليّ في كلّ الأماكن وخصوصاً في العراق – مقر الدهاقين الكبار لبني أميّة وموقع الأراضي الخصبة الّتي كانت في الأغلب من ممتلكات الخليفة أو أحد رجالاته – وكلّ الظلم والحيف الهائل لهشام وواليه المتجبّر في العراق ـ خالد بن عبد الله القسري[2]؛ وفي النهاية القحط والطاعون في مختلف المناطق، ومنها خراسان والعراق والشام؛

(1) وقد نسب المؤرّخ جميع هؤلاء ودون استثناء إلى الخوارج، وهذا بذاته مؤشّرٌ على أنّ جهاز الخلافة كان هو المقصود بهذه الثورات والنهضات الّتي كان أغلبها أو بعضها على الأقل محقًّا. (الكاتب)

(2) اتّهم خالد بن عبد الله القسري أنّ دخله السنوي بلغ 13 مليوناً وكتب هشام بن عبد الملك إليه: لا يبيعنّ أحدٌ غلّته حتى تُباع غلّة أمير المؤمنين! وقد قال خالد هذا (والذي لم يكن على صبغة واحدة مع الخليفة) في خطبة له: يظنّ النّاس أنّني أرفع الأسعار. ألا لعنة الله على كلّ من يرفع الأسعار. (وكان يريد أن يقول أن هذا من عمل الخليفة). كان لهشام امرأة لباسها من الذهب وقد عُلّقت فيه الجواهر النفيسة وكان ثقيلاً إلى درجة أنّها لم تقدر على المسير به. ولم يتمكّن أحدٌ من تحديد قيمته. وكان له سجّادةٌ بطول مئة ذراع وعرض خمسين ذراعاً حيكت من الحرير والذهب. (ابن الأثير، ج5، ص220 و بين الخفاء والخلفاء، ص 28 و56) (الكاتب).

كلّ هـذا جعل البلاد المترامية للمسلمين في حالة عجيبة بسبب نظام بني أميّـة وعلـى يد أشهـر الولاة. وينبغـي أن نُضيف أنّ أكبر خسـارة حلّت في العالم الإسلاميّ هي الخسارة المعنوية والفكريّة والروحيّة.

فـي الأجـواء الكئيبة للدّولـة الإسلاميّة، الّتي كان فيهـا الفقر والحرب والأمراض مثل صاعقةٍ نزلت من أصحاب السّلطـة والمستبدّين الأمويين علـى رؤوس النّاس المساكيـن تحرق وتذر رمـادًا؛ أضحـت تربية غرسة الفضيلـة والتقوى والأخلاق والمعنويّات في عـداد المستحيلات. فالعلماء والقضـاة والمحدّثون والمفسّرون الّذيـن كان ينبغي أن يكونوا ملجأ وملاذ النّـاس المساكيـن والمظلوميـن صاروا في الأغلـب سببًا لزيـادة مشاكل النّـاس بطريقـةٍ أشدّ خطرًا مـن رجال السّياسـة. فقد أصبـح المشاهير والشخصيّـات المعروفة في الفقه والـكلام والحديث والتصوّف بيادق بيد جهاز الخلافة الكبير، وألاعيب بيد الأمراء والحكّام.

مـن المؤسف القـول بـأنّ دراسة أحـوال هـذه الشخصيّـات الوجيهة وأصحـاب السّمعـة تجعلهـم يتجسّدون، فـي ذهن كلّ من يُطالـع، بصورة رجـال يشتركون في معلف الأماني المنحطّة كالسّعي لنيل السّلطة والسّمعة والشهـرة، أو جبناء ومنحطّين وطلّاب راحـة، أو زهّاد مرائين وحمقى، أو متظاهرين بالعلم، مشغولين بالأبحاث الدمويّة الكلاميّة والاعتقادية.

فقـد تبـدّل القـرآن والحديث الّذي ينبغي لـكلّ منهمـا أن يصبح سببًا لرشـد ونموّ غرسات المعرفة والخصال الحسنـة، إلى أدوات بيد أصحاب السّلطة، أو للانشغال بالأمور الّتي لا فائدة منها.

في هذه الأجواء السّامّة والخانقة والمظلمة وفي ذلك الزّمن المحفوف

بالبلاء والمصاعب، حمل الإمام الصادق عليه السلام ثقل الأمانة الإلهيّة على عاتقه. وحقًّا، كم كان ضروريًّا وحيويًّا أن نتعرّف على الإمامة بذلك المفهوم الرّاقي الموجود في الثقافة الشيعيّة. وبالنسبة للأمّة الذليلة والخانعة والمخدوعة والجاهلة في ذلك الزمان المظلم والمليء بالمصائب، رأينا سابقًا أنّ الإمامة منبعٌ لتيّارين حياتيّين: الفكر الإسلاميّ الصحيح، والنّظام التوحيديّ العادل؛ والإمام مكلّفٌ بهاتين الوظيفتين: الأولى، تبيين الدّين وتطبيقه وتفسيره ـ وبما يتضمّن مواجهة التحريفات، والاختلاقات الجاهلة والمغرضة – ومن ثمّ التخطيط وإيجاد الأرضيّة لنظام التوحيد العادل والحقّانيّ؛ وفي حال وجود مثل هذا النّظام، منحه الدوام والاستمراريّة. والآن في مثل هذه الأوضاع والأحوال السيّئة، يتحمّل الإمام الصادق عليه السلام ثقل هذه الأمانة، ويصبح مسؤولًا عن هذين التّكليفين. ففي آنٍ واحد، تصبح هاتان الوظيفتان أمام ناظريه، فماذا يقدّم منهما؟ صحيحٌ أنّ العمل السياسيّ له مصاعبه الكثيرة، ولا يوجد شيءٌ يُمكن لهشام الأمويّ مع كلّ مشاغله ومتاعبه أن يغفره، أو لا ينتقم منه بشدّة؛ ولكنّ العمل الفكريّ ـ أي مواجهة التحريف ـ في الحقيقة عبارة عن اقتلاع وريد الجهاز الحاكم؛ جهازٌ لا قدرة له على البقاء إلّا بالاعتماد على الدين الانحرافيّ[1].

---

(1) هذه النقطة جديرة بالتأمّل والتدقيق الكثير وهي أنّه بالرّغم من كل هذه الانحرافات الّتي هيمنت على سلوك المجتمع ووجوده من ناحية الفكر الإسلامي الصحيح، فإنّ الاعتقادات الدينيّة في ذهن العامّة وحتّى الكثير من الزعماء كانٍ له دورٌ حسّاس في عملهمٍ وحياتهم. وعن طريق هذا الاعتقاد العام ـ والذي كان للأسف اعتقاداً بمنسوجات تُسمّى إسلاما لا الإسلام الصحيح ـ تمكّن نظام الخلافة من الإبقاء على حياته. ونموذجٌ من هذا التمسّك بالاعتقادات الدينيّة يمكن مشاهدته فيٍ أداء هؤلاء الزعماء والوجهاء في قضيّة البيعة. ما أكثر النّاس الذين كانوا يطيعون الخليفة احتراماً للعهد وحرمة نقده ـ وخاصّةً عهد البيعة ـ وبالرغم من كل المعاصي والجرائم الّتي كانوا يرونها منه. وما أكثر الموارد الّتي أظهرت الوصية والبيعة بدورها القاطع إمكان بقاء نظام الخلافة وأعطت المناعة لهذا النّظام مقابل أيّ سعيٍ. (الكاتب)

لهـذا، فإنّهم أيضًا لن يغفـروا هذا العمل أو يمـرّوا عليه مرور الكرام؛ هشامٌ، ولا غيـره من علماء العصر، العلماء الّذين يسعون لترويج المجتمع المنحطّ والمنحرف، يتحرّكون بفعاليّة من أجل ذلك.

ومـن جانبٍ آخـر، فقد تهيّـأت الظّروف مـن أجل نشـر وتعميم الفكر الثّـوريّ الشّيعيّ. فقد كان هناك حربٌ وفقرٌ واستبداد؛ عوامل ثلاثة مهيّئة ومعدّة للثورة، وتهيّأت الأرضيّـة من قبل الإمام السابق، والّذي جعل أجواء المناطق القريبة وحتى البعيدة مهيّأة إلى حدٍّ ما.

إنّ الاستراتيجية العامّة للإمامـة هي إيجاد الثّورة التوحيديّة والعلويّة؛ ففـي أجواءٍ سيكـون فيها جماعـة مطلوبة مـن النّاس تعـرف أيديولوجيّة الإمامة وتؤمن بها وتتشوّق انتظارًا لتحقّقها؛ وجماعة أخرى مطلوبة ينبغي أن تنضـم إلى تلك التشكيلات المناضلة والعازمة. فاللازم المنطقي لهذا التحـرّك العـام والنهج الكلّي هو دعوة شاملة فـي كلّ العالم الإسلامي من أجـل تهيئـة الأجواء لإشاعة الفكـر الشيعي في كلّ الأقطـار؛ ودعوة أخرى من أجل إعداد الأفراد المستعدّين وأعضاء «**التشكيلات الشيعيّة السرّية**» المضحّيـن. إنّ صعوبة عمل دعـوة الإمامة الحقّة كامنٌ فـي هذه النقطة. فهنـاك دعوة مسلكية كاملة تريد أن تبعـد كلّ أنواع التسلّط والاعتداء على حـقّ النّاس بالحريّـة ورعاية الأصول والموازيـن الإسلاميّة الأساس، وهي مضطـرّة للاعتماد على مشاعـر وفهم النّاس وأن تنمـو وتتقدّم في مجال إدراك مشاعرهـم وحاجاتهم الأساس. وعلـى العكس كان هناك أنواع من النّضـال تتشبّـث بالشّعـارات المسلكيّـة والدينيّة لبدء عملهـا، ولكنّها في التطبيـق وعلـى الأرض تتوسّل بكلّ أنـواع السعي للسلطـة ككلّ المتسلّطين

الّذين يغضّون الطرف عن الأصول الأخلاقيّة والاجتماعيّة ولا يعبؤون بمثل هـذه الصعوبات؛ وهذا هـو سرّ إطالة أمد تيّار نهضـة الإمامة، وأيضاً سرّ تقدّم النهضات الموازية لنهضة الإمامة - كبني العبّاس - والفشل النسبيّ لهذه النهضة. وهذا الطلب سوف نعرضه في المستقبل وبمزيد من الشرح بالاعتماد على الوثائق التاريخيّة.

إنّ الأوضـاع والأحوال المساعـدة والأرضيّات الّتي أمّنها الإمام السابق فـي عمله، كانت تـؤدّي إلى أن يظهر الإمام الصـادق عليه السلام كتجلٍّ للأمل الصـادق الّذي عاشه الشّيعة لسنوات وهـم بانتظاره، وذلك بالالتفات إلى الطريق الطويل والمليء بالمشقّات لنهضة التشيّع؛ وهو نفس القائم (الإمام الصادق عليه السلام) الّذي سوف يوصل كلّ الجهاد المرير لأسلافه إلى ثمرته وسـوف يقيم الثـورة الشيعيّة علـى مستوى العالـم الإسلامـيّ المترامي. فالإشـارات، وأحيانًا التصريحات المباشـرة للإمام الباقر عليه السلام ، كانت مؤثّرة أيضًا في ترعرع ونموّ غرسة الأمل هذه.

يقـول جابر بن يزيد: سأل رجـلٌ الإمام الباقر عليه السلام عن القائم الّذي يكون من بعده، فوضع الإمام يده على كتف أبي عبد اللّه وقال: «**إنّ هذا هو قائم آل محمّد**»[1].

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام ، ص54-61)

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 47، ص 131.

الفصل العاشر:

الإمام الصادق (عليه السلام)

- الغموض الذي لفَّ حياة الإمام الصادق (عليه السلام).
- دعوة الإمام الصادق (عليه السلام) للإمامة.
- المواجهة السّياسيّة عند الإمام الصادق (عليه السلام).
- التشكيلات السرّية الأيديولوجيّة والسّياسيّة.

الغموض الذي لفَّ حياة الإمام الصادق عليه السلام

من اللازم هنا أن نشير إلى أنّ إحدى الأشياء المؤسفة جدًّا، والّتي يُمكن أن تواجه الباحث حول حياة الإمام الصادق عليه السلام ؛ هي أنّ تفاصيل حياة هذا الإمام، لا سيّما في السّنوات الأولى من إمامته، والّتي تزامنت مع نهاية حكم بني أميّة، محاطة بهالة من الغموض. فهذه الحياة المليئة بالأحداث والمؤثّرة في أحداثٍ كثيرة، والّتي يُشاهَد فيها الاضطرابات والتحوّلات الكبرى من طيّات مئات الرّوايات التّاريخيّة؛ (فهذه الحياة المليئة بالأحداث، والتي هي منشأ للأحداث، والتي يُمكن مشاهدة كفاحاتها وصعودها وهبوطها في طيّات مئات الرّوايات التاريخية)، نجد أنّها لم تنعكس، لا في التّاريخ، ولا في أقوال المحدّثين وكتّاب التذكرة، بنحوٍ منظّم ومترابط على الإطلاق، وإنّ زمن وخصوصيّات أكثر الأحداث لم يتم تحديدها. فعلى الباحث أن يعتمد على القرائن وملاحظة الأحداث العامّة في ذلك الزمان، ويُقارن كلّ رواية مع ما لديه من معلومات بشأن الأشخاص أو الأحداث المذكورة بالمصادر الأخرى ليكشف عن زمان ومكان وخصائص تلك الحادثة. ولعلّه ينبغي البحث عن أسباب هذا

الغموض والإبهام لا سيّما فيما يتعلّق بالأنشطة التنظيميّة للإمام مع أتباعه في ماهيّة هذه الأعمال.

الأعمال السرّية والتنظيميّة في العادة، إذا تلازمت مع الأصول الصّحيحة للعمل السريّ يجب أن تبقى سريّة ومخفيّة دائمًا. فهي تكون خفيّة في ذلك الزمان، وينبغي أن تبقى كذلك فيما بعد، وإنّ تكتّم وسريّة أصحابها لا يسمحان لأيّ غريبٍ أن يصل إليها. حتّى إذا وصلت هذه الأعمال إلى الثّمرة المطلوبة، وتمكّن المنفّذون والعاملون من الإمساك بالسّلطة فإنّهم سوف يكشفون دقائق هذا

العمل السرّي للملأ؛ لذا نجد اليوم أنّ الكثير من الدّقائق، بما في ذلك التّوجيهات الخاصّة والاّتصالات السريّة لزعماء بني العبّاس مع عناصر منظّمتهم التّابعين لهم، في مرحلة الدعوة العبّاسية قد تمّ توثيقها في التّاريخ وهي معروفة من قِبَل الجميع.

ولا شكّ أنّه لو كانت النّهضة العلويّة قد وصلت إلى ثمرتها وصارت السّلطة والحكومة بأيدي أئمّة الشّيعة أو من اختاروهم، لكنّا اليوم على اطّلاعٍ على جميع الأسرار المختومة لدعوتهم العلويّة وتشكيلاتهم المنتشرة في كلّ الأماكن والّتي كانت فائقة السرّيّة.

ينبغي البحث عن السّبب الآخر في خصال كُتّاب التاريخ وكتابة التاريخ. فلو كان لجماعةٍ مدانة ومظلومة ذكر في التّاريخ الرّسميّ وتوثيق لذكرياتها؛ فلا شكّ بأن ذلك كان ليكون بطلب وقولٍ وإيعاز من الحاكم والظّالم. إنّ توثيق المجريات والأحداث الخاصّة بالمحكومين، فضلًا عن أنّها مدمية للقلب، فهي بالنّسبة لمؤرّخ التّاريخ، تتطلّب الكثير من الجهد

والسّعي والبحث هنا وهناك مصاحب مع الكثير من الخوف، بينما يوجد الكثير من الأخبار والمجريات بين أيدي الحكّام والتي يُمكن الحصول عليها من دون أيّ عناء أو اضطراب أو خطر ويُمكن تقاضي الأجر عليها!

ولنضع الآن هذه الحقيقة الواضحة إلى جانب الوقائع الأخرى. إنّ جميع التّواريخ المعروفة والمعتبرة، والّتي تُشكّل وثائق ومصادر أكثر التّحقيقات والدّراسات اللاحقة، والّتي دُوّنت وبقيت إلى ما بعد حياة الإمام الصادق عليه السلام بخمسمائة سنة، كانت ذات صبغة عبّاسية؛ لأنّه وكما نعلم، فإنّ حكومة العبّاسيين قد استمرّت إلى منتصف القرن السابع الهجري، وجميع التواريخ القديمة المعروفة قد كُتبت وأُلّفت في مرحلة زعامة وسلطنة هذه السلالة المتجبّرة. وبناءً عليه، يُمكن تخمين النّتيجة. فمن غير المتوقّع على الإطلاق، من أيّ مؤرّخ من مؤرّخي العصر العبّاسي أن يستطيع أو أن يطلب تحصيل المعلومات الصّحيحة والمنظّمة حول حياة الإمام الصّادق، أو أيٍّ من أئمّة الشّيعة الآخرين عليهم السلام ، وأن يوثّقها في كتابه.

وهذا هو سرّ الكثير من التّحريفات والمبهمات في حياة الإمام الصّادق عليه السلام . والطّريق الوحيد الّذي يُمكّننا من التعرّف على الخطّ العام لحياته هو أن نجد نماذج مهمّة لحياة هذا الإمام في ثنايا كل هذا الإبهام والغموض، بالاستمداد ممّا نعرفه من الأصول العامّة لفكر هذا الإمام وأخلاقه فنرسم الخطوط الأساس لحياته، بعدها نبقى بانتظار القرائن التاريخية المتفرّقة وغير التاريخيّة لتحديد الخصوصيّات والدقائق.

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام ، ص65-68)

عندمـا انتقـل الإمام الباقـر عليه السلام من هـذه الدنيا، كانـت الأوضاع والأحـوال قـد تغيّرت كثيـرًا لمصلحة أهـل البيت عليهم السلام، إثـر النّشاطات المكثّفـة الّتي جرت طيلة مدّة إمامته وإمامة الإمام السجّاد عليهما السلام. وأُبيّن لكم بكلمتين خطّة الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام الّتي كانت بالطّبع مـن الأسرار في ذلك الزّمـان. أسرار، مثل أن يُقال مثـلًا، وكما تسمعون، إنّ جابـر بن يزيـد الجعفيّ كان من أصحـاب السرّ، فكلّ مـن ينشر سرّنا فسوف تحلّ عليه لعنة الله وغيرها وغيرها؛ تلك الأسرار الّتي لو أُذيعت في ذلك الزمان، لحلّت لعنة الله على من يُذيعها، هي نفسها الّتي أُريد الآن أن أكشفها؛ لكن غاية الأمر أنّه لا يوجد اليوم أيّ مشكلة في إظهارها، لا بل هو أمرٌ واجبٌ أن يعلم النّاس ماذا كان يريد الإمام عليه السلام أن يفعل. كانت خطّة الإمام الصادق عليه السلام هي أن يجمع الأمور بعد رحيل الإمام الباقر عليه السلام وينهض بثورة علنيّة ويسقط حكومة بني أميّة ـ الّتي كانت في كلّ يومٍ تبدّل حكومـة، ما يحكـي عن منتهى ضعف هذا الجهـاز؛ وأن يأتي بالجيوش من خراسان والريّ وأصفهان والعراق والحجاز ومصر والمغرب وكلّ المناطق الإسلاميّـة، الّتـي كان فيها شبـكات حزبيّة للإمام الصـادق عليه السلام، أي الشّيعـة؛ وأن يحضر كلّ القـوّات إلى المدينة ليزحف نحـو الشّام ويسقط حكومتهـا ويرفـع بيده راية الخلافـة؛ وأن يأتي إلى المدينـة ويعيد حكومة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إليهـا؛ هذه كانت خطّة الإمام الصـادق عليه السلام. لهذا، عندما كان يجري الحديث عند الإمام الباقر عليه السلام في أيّام عمره الأخيرة ويُسأل من هو قائم آل محمّد، كان ينظر إلى الإمام الصادق عليه السلام ويقول كأنّني أنظـر إلى قائم آل محمد هذا. بالطبـع، أنتم تعلمون أنّ قائم آل محمّد هو

اسمٌ عام وليس اسمًا خاصًّا، فليس هو اسم وليّ العصر عجل الله فرجه الشريف. فوليّ العصر هـو قائم آل محمد النهائـيّ؛ لكن كلّ الّذين نهضوا مـن آل محمّد على مرّ الزمـان ــ سواءٌ انتصـروا أم لا ـ كلّ واحدٍ منهم هو قائـم آل محمّد. وتلك الرّوايـات الّتـي تقول أنّه عندما يقوم قائمنا يفعل هـذا ويفعل ذاك ويُحقّق ذلـك الرّفاه ويُقيم ذلك العدل، لم يكن المقصود منها حضرة وليّ العصر فـي ذلك الزّمن، بل كان المقصـود أنّ ذاك الرّجل من آل محمّد الّذي من المقرّر أن يُقيم حكومـة الحقّ والعدل، فإنّه عندمـا يقوم سوف يفعل هذه الأمـور وهذا أمرٌ صحيحٌ. وقـد كان من المقرّر للإمام الصادق عليه السلام أن يكـون قائـم آل محمّد في ذلك الزمان. لقد وصـل الإمام الصادق عليه السلام إلى الإمامة في مثل هذه الحالة.

لقد كان الإمـام الصّادق عليه السلام رجل الجهـاد والمواجهة ورجل العلم والمعرفة ورجل التنظيم والتشكيلات. لقد سمعتم جميعًا الكثير عن علمه، فمحافـل دراستـه وميادين تعليمه الّتـي أوجدها لم يكن لهـا نظير لا قبله ولا بعـده في تاريخ حياة أئمّة الشّيعة؛ فلقد بيّن الإمام الصّادق عليه السلام كلّ مـا ينبغي أن يُقال بشأن المفاهيم الإسلاميّة الصّحيحة والقرآنيّة الأصيلة الّتـي تعرّضت للتّحريـف طيلة قرنٍ ونيّف من الزمـان بواسطة المغرضين والمفسديـن أو الجاهليـن، وهذا الأمر هـو الّذي أدّى إلـى أن يشعر العدوّ بخطـره؛ لكنّكـم قليـلًا ما سمعتم عـن جهاده. لقـد كان الإمـام الصادق صلوات الله عليه، مشغولًا بجهادٍ واسع النّطاق من أجل الإمساك بالحكومة والسّلطة وإيجاد حكومةٍ إسلاميّة وعلويّة. أي إنّ الإمام الصادق سلام الله عليه، كان يُهيّئ الأرضيّة للقضاء على بني أميّة والمجيء بحكومة علويّة أي

حكومة العـدل الإسلاميّ. فهذا ما يتّضح من حياة الإمام الصادق عليه السلام لكلّ من يُطالع ويُدقّق.

أمّـا ذاك البعـد الثالث الّذي لـم يُسمع عنه من الأسـاس، فهو أنّه كان رجـل التنظيـم والتشكيلات. لقد أوجد الإمام الصـادق صلوات الله عليه، تشكيـلات عظيمـة من المؤمنيـن به ومن أتبـاع تيّار الحكومـة العلويّة في مختلـف أرجاء العالم الإسلاميّ، من أقصى خراسـان وما وراء النّهر إلى شمـال أفريقيا. فماذا تعني التشكيـلات؟ إنّها تعني أنّه عندما يريد الإمام الصّـادق عليه السلام أن يُعلـم النّـاس بـأيّ شيءٍ فإنّـه يفعل ذلـك من خلال وكلائـه المتواجديـن في مختلـف آفاق العالـم الإسلاميّ؛ كمـا إنّها تعني جمـع كلّ الحقـوق الشّرعيّة والميزانيّـة المطلوبـة لإدارة مواجهة سياسيّة عظيمة لآل عليّ؛ كمـا تعني رجوع أتباع الإمام الصّادق عليه السلام إلى وكلائه وممثّليـه المتواجدين في جميع المدن لمعرفة تكليفهـم الدينيّ والسياسيّ من الإمـام. التكليـف السياسيّ هـو كالتكليف الدينيّ من حيـث الوجوب. فـإنّ الفتوى الدينيّة والإسلاميّة في باب الصـلاة والزكاة والصيام وباقي الواجبـات لـذاك الـّذي يكون بالنسبـة لنا واجـب الطّاعة ولـيّ الأمر، لا تختلـف عن فتواه وأوامره السياسيّة في مجال الجهاد والعلاقات السّياسيّة والعلاقـات الداخلية وجميـع القضايا، فكلّ ذلك يجب تنفيـذه. لقد أوجد الإمـام الصادق عليه السلام مثل هذه التشكيـلات العظيمة، وبهذه التشكيلات وبمساعـدة من كان داخلًا فيها من النّاس، كان (الإمام) يواجه جهاز بني أميّـة. وبالطبع، إنّ ما جـرى على الإمام الصادق عليه السلام هو أمرٌ مهمٌّ جدًّا ومليءٌ بالعبر، فقـد كان يواجه بنـي أميّة لمدّة عشر سنـوات وكذلك بني

العبّاس (فقد واجههم) لمدّة طويلة، وعندما كان انتصاره على بني أميّة حتميًّا جاء بنو العبّاس كتيّارٍ انتهازيٍّ ونزلوا إلى الميدان ومن بعدها صار الإمام الصادق عليه السلام يواجه بني أميّة وبني العبّاس أيضاً.

وقد نُقل عن الطّبريّ - المؤرّخ المعروف - أمورٌ تتعلّق بمحاربة الإمام عليه السلام لبني أميّة في مطلع السنوات العشر لإمامته. كانت مواجهة الإمام الصادق عليه السلام في هذه المرحلة قد أضحت علنيّة، فلم يكن يحتاج إلى التقيّة والكتمان وذلك بسبب أنّ خلفاء بني أميّة كانوا مشغولين إلى درجة أنّه لم تُتح لهم الفرصة ليُلاحقوا الإمام الصادق وشيعته، كما لم يكن لديهم القدرة على قمعهم؛ لذا لم يحتج الإمام الصادق عليه السلام إلى إخفاء عمله.. كان الإمام الصادق عليه السلام يذهب يوم عرفة إلى عرفات ويقف بين هذه التجمّعات الكبيرة - والّتي جاءت من جميع نقاط العالم الإسلاميّ، من أفريقيا والشّرق الأوسط والحجاز والعراق، ومن إيران ذلك اليوم، ومن خراسان وأفغانستان ذلك اليوم، وتركستان الشرقية .فقد توافدت النّاس من جميع الأقطار؛ بحيث لو فجّرت قنبلةً في هذا المكان تكون وكأنّك فجّرتها في كلّ العالم الإسلامي، وإذا قُلتَ شيئًا في هذا المحفل والتجمّع، تكون وكأنّك نشرته عبر شبكة إعلاميّة عالميّة. فكان الإمام الصادق عليه السلام يأتي إلى داخل هذا التجمّع الكبير ويُعلن بصراحة وبشكلٍ رسميّ للنّاس أنّ الإمام والحاكم بحقّ في هذا اليوم هو جعفر بن محمد وليس أبي جعفر المنصور؛ وكان يأتي بالدّليل على ذلك، لا الاستدلال الكلامي والعقلاني لأنّه لم يكن لدى النّاس في ذلك الوقت الاستعداد للاستماع إلى مثل هذا النّوع من الاستدلال، فهو لم يكن واضحًا في مثل ذاك المجتمع، بل كان استدلالٌ من نوعٍ آخر، لأنّ المنصور العبّاسي

وأمثالـه، ولأجل أن يقنعوا أذهـان النّاس ويتظاهروا بأنّهم خلفاء النبيّ، قد جعلـوا سلسلة نسبية لأنفسهم، وكانوا يقولون إنّنـا نحن أبناء العبّاس؛ فقد كان لهم سلسلتان من النّسب، وكانوا في كلّ مرّة يُصرّحون عن واحدة منها.

كان أحدها أنّهم كانوا يقولون نحن أبناء العبّاس عمّ النبيّ، وبعد رحيله أضحـت الخلافة لبني هاشم، وبين بني هاشم فـإنّ الأكبر سنًّا وكما يُقال الأنسـب، هو العبّاس عـمّ النبيّ. فالخلافة بعد النبيّ كانـت للعبّاس ولأنّنا نحـن أبناؤه فإنّها تصل إلينا. كان هذا نحو مـن كلامهم. وكانوا يتحدّثون عـن سلسلـةً نسبيّةً أخرى، فيقولـون نحن أبناء عليّ العبّاسـي، أي عليّ بن عبـد اللّه بن عبّاس، وحقّاً كانـوا يقولون لأنّهم كانوا أحفـاد عليّ العبّاسي أو أبنـاءه، وهو تلميذ محمد بن الحنفيّـة، ومحمّد بن الحنفيّة هو ابن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام الّذي هو صهر النبيّ. فالخلافة انتقلت مـن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى عليّ عليه السلام ومن عليّ عليه السلام إلى محمّد بن الحنفيّة ـ لا إلـى الحسن والحسين ـ ومنه وصلت إلى ابن عبد اللّه بن العبّاس ـ الّذي هو جدّنا ـ ومنه وصلت إلينا، فنحن إذًا خلفاؤه.

فكانـوا يؤلّفـون سلسلةً نسبيّة علـى هذا النّحو، وكان هـذا الأمر مقنعًا لأذهان النّاس في ذاك الزمان، لأنّ مستواهم الفكريّ كان متدنّيًا، لهذا كان الإمام يقف وسط هذا التجمّع الكبير، ويُبيّن السلسلة الصحيحة للإمامة: «**أيّها النّاس إنّ رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **كان الإمام، ثمّ كان علي بن أبي طالب**»[1]، وهو منطق الشّيعـة المعروف ومن بعده الحسن ثمّ الحسين ومن بعده عليّ بـن الحسين، ومن بعده محمّد بن عليّ، ومن بعده أنا. فيعرّف نفسه كإمامٍ

(1) الكافي، ج4، ص466.

ومثل هذا كان يتطلّب شجاعة كبيرة، ولم يكن بالكلام العاديّ البسيط؛ بل كان ذلـك أكبر إعلانٍ للمخالفة والمعارضـة. كان الإمام الصادق عليه السلام يقـوم بمثل هذا العمل في أواخـر عصر بني أميّة. أمّا في عهد بني العبّاس فلم يعد الأمـر كذلك، بل كان يجري بالتقيّة والكتمان، وسبب ذلك أنّ بني العبّاسـ كانوا يرفعون شعارات آل علـيّ ومواقفهم باللسان فكان ظاهرهم ظاهر آل عليّ، وعملهم عمل بني أميّة.

لقـد كانت المواجهة في عصر حكومة بنـي أميّة على هذا الشكل، وفي عصر بني العبّاس ـ الذي دام لمدةٍ أطول – أضحت (المواجهة) أكثر خفاءً؛ حيـث كان بنو العبّاس يُمثّلون ذلك التيّـار الانحرافيّ الّذي انتهز الفرصة، وحرّف الثّورة الّتي كان الإمام الصادق عليه السلام بصددها، وهذا هو الخطر الدائم لكلّ الثورات؛ حيث يتم أحيانًا استبدال الخطّ الصحيح للثّورة الّذي يتطابـق مع معاييرها وضوابطها الأساس، بخطٍّ بديلٍ منحرفٍ فاسدٍ باطلٍ تحـت شعارات الحقّ. من هنا على الإنسان أن يكون حذرًا وواعيًا. ولم يكن أهـل ذلك الزمان يمتلكون مثل هـذا الوعي؛ فبعد سنوات، لعلّه بعد ثلاثين أو عشريـن سنة، كان سكّان المناطـق النّائية ما زالوا يظنّون – بعد مجيء بنـي العبّاس إلى الحكومة ـ بأنّ هـذا الأمر حصل نتيجة جهادهم من أجل آل علـيّ، لقـد كانوا يتصوّرون بأنّ هذه هي نفسها حكومة آل علي، فلم يكن لديهم علم بأنّهم غاصبون (للخلافة).

(1980/09/05)

لقـد عاصر الإمـام الصـادق مرحلتين في هـذه الفترة. الأولـى تمتدّ مـن عـام 114 هـ إلـى 132 أو 135هـ. أي إلى سنـة انتصار بنـي العباس

واستــلام المنصور للخلافة؛ وقد تميّــزت هذه المرحلة بالهدوء والانفتاح، وذلــك بسبب النّــزاع الّذي كان دائرًا بيــن بني أميّة وبنــي العبّاس، فوجد الأئمّــة عليهم السلام فــي تلك الفتــرة فرصة لنشر العلــوم الإسلاميّــة. ولم يمرّ الإمــام الباقر عليه السلام بمثل هذه الظـروف لأنّها كانت خاصّة بعصر الإمام الصادق عليه السلام. ففي عهد الإمام الباقر عليه السلام كانت الفترة فترة غطرسة بنــي أميّــة. وكان هشام بن عبد الملك ـ الّذي قيل فيــه كان هشام رجلهم، حيــث كان أكبــر شخصيّــة بعد عبد الملك ــ في سدّة الحكــم وكانت فترة حكمــه في عهد الإمــام الباقر عليه السلام. بناءً عليه، لم يكــن في عهد الإمام الباقــر عليه السلام أيّ اختلاف بين شخصٍ وآخــر، حتّى يتمكّن الأئمّة عليهم السلام بموجبها من الاستفادة من الفرصة. أمّا زمن الإمام الصّادق عليه السلام، فقد مثّــل بداية انتشار دعوة بني العبّاســ، التي كانت تنتشر شيئًا فشيئًا، وزمن وصول الدعوة الشيعيّة العلويّة إلى أوجها في جميع أنحاء العالم الإسلاميّ.

.. ومع وصول المنصور إلى سدّة الحكم والخلافة، فبالطّبع، لقد أصبح الوضــع صعبًا، وعادت حيــاة الإمام الصّادق عليه السلام لتكــون كحياة الإمام الباقــر عليه السلام في زمانه، تتّسم بالقمع وممارســة الضغوطات على الإمام، وفــي الوقــت نفسه لقد تــمّ نفي الإمــام عليه السلام عدّة مــرّاتٍ إلــى الحيرة، والرُميلــة، وإلى هذا المكان، وذاك المكان. لقد استحضر المنصور الإمام عــدّة مــرّات. وفي إحدى المرّات قال له: «قتلنــي الله إن لم أقتلك»[1]، وفي إحــدى المرّات، قام بإرسال كتــاب إلى والي المدينة قائلاً: «أنْ أحرِق على

(1) الاحتجاج على أهل اللجاج، الطبرسي، ج 1، ص 163.

جعفر بن محمد داره»، وعندما أُحرِق داره، جاء الإمام وأظهر غربته وسط هـذا الحريق: «**أنا ابن أعراق الثرى**»[1]. ممّا أدّى إلى زيادة سخط أعدائه أكثر. فمعاملة المنصور للإمام الصادق عليه السلام كانت معاملة شديدة جدًّا. فقد قام بتهديد الإمام عدّة مرّات.

بالطّبع فإنّ تلك الرّوايات التي تنقل أنّ الإمام عليه السلام كان يتذلّل ويظهر الخضوع للمنصور، لا أساس لها من الصحّة. فأنا قد بحثت حول هذه الروايات ولم يكن لأيّ واحد منها أيّ أساس أو سندٍ صحيح ومعتبر. وغالبًا ما تنتهي في سندها إلى ربيع الحاجب هذا المقطوع بفسقه، الّذي كان من المقرّبين للمنصور. كان البعض قد نقل بسذاجة أنّ الربيع كان شيعيًّا. الرّبيع، من أين له التشيّع؟! لقد بحثنا في حياة الربيع بن يونس، إنّ الربيع بن يونس هو من الأشخاص الذين وُلدوا في منزل أسيادهم، وأتى إلى جهاز حكم بني العبّاس وكان عبدًا لهم وحاجب المنصور وكان قد قدّم لهم الخدمات الكثيرة، وعندما كان المنصور يحتضر، كانت الخلافة لتذهب من أيدي عائلته لولا الربيع.

كان أعمامه موجودين، فقام الرّبيع بتزوير الوصيّة لتصبح الخلافة للمهديّ بن المنصور، وهكذا أوصل المهديّ إلى الخلافة؛ فهذه العائلة هي من العوائل الوفيّة والمخلصة لبني العباس، ولم يكن لهم أيّ ولاء لأهل البيت عليهم السلام. وكل ما وُضع (عن الربيع حول الإمام) فهو تلفيق وكذب،

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص 473، وجّه المنصور إلى حسن بن زيد وهو واليه على الحرمين أن أحرق على جعفر بن محمد داره فألقى النار في دار أبي عبد الله فأخذت النار في الباب والدهليز، فخرج أبو عبد الله يتخطّى النار ويمشي فيها ويقول: «**أنا ابن أعراق الثرى، أنا ابن إبراهيم خليل الله**».

من أجل إظهار الإمام عليه السلام للمسلمين آنذاك بالإنسان المتذلّل والخاضع أمـام الخليفة حتّى يعتبر الآخرون أنّ هذا هو تكليفهم أيضًا. على كلّ حال، فإنّ معاملـة المنصور للإمام الصادق عليه السلام كانـت معاملة قاسية جدّاً؛ إلى أن انتهت بشهادة الإمام عليه السلام وذلك في عام 148 هـ.

(1986/07/19)

فيمـا يلـي سـوف أُبيّـن المعالـم الهامّـة والبـارزة فـي حيـاة الإمام الصادق عليه السلام من وجهة النّظر الخاصّة ببحثنا:

1. تبيان وتبليغ مسألة الإمامة.
2. تبليـغ وبيان أحـكام الدّين وفق منهـج الفقه الشيعـيّ وأيضًا تفسير القرآن على أساس الرؤية الشيعيّة.
3. إقامة تنظيم سرّي أيديولوجي ـ سياسي.

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص67)

دعوة الإمام الصادق عليه السلام للإمامة

نرجع الآن إلى الحديث الأساس؛ أي أنّ ما كان يُشكّل بيت القصيد لدعوة الإمام الصّادق عليه السلام ، كغيره من أئمّة الشّيعة الآخرين، وهو موضوع الإمامة. ومن أجل إثبات هذه الحقيقة التاريخيّة فإنّ أكثر الوثائق قاطعيّةً هي الرّوايات الكثيرة الّتي نُقل فيها دعوى الإمامة عن لسان الإمام الصادق عليه السلام بوضوحٍ وصراحةٍ تامّة.

وكما سوف نُبيّن، كان الإمام عليه السلام أثناء ترويج وتبليغ هذا الأمر يرى نفسه في مرحلةٍ من الجهاد، حيث كان عليه أن يتبرّأ بشكل مباشر وصريح من حكّام زمانه، وأن يُعرّف النّاس على نفسه كصاحب حقٍّ واقعيٍّ للولاية والإمامة؛ وإنّ هذا العمل في الأساس لا يُمكن أن يتحقّق إلّا إذا طُويت المراحل السّابقة للجهاد والنّضال بنجاح؛ فتبرز مظاهر الوعي السياسيّ والاجتماعيّ في شريحةٍ واسعة؛ ويتمّ استشعار الجهوزيّة والاستعداد الكامن في كلّ الأماكن؛ وتكون قد أُسّست الأرضيّة الأيديولوجيّة في جماعةٍ معتدٍّ بها، ويكون قد ثبت لعددٍ كبيرٍ من النّاس ضرورة حكومة الحقّ والعدل؛ وفي النّهاية يتّخذ القائد قراره الرّاسخ من أجل المواجهة النّهائية. فمن دون

كلّ هذه الأمور، يُصبح طرح اسم شخصٍ معيّن كإمامٍ وقائدٍ محقّ للمجتمع هو عملٌ متهوّرٌ لا فائدة منه.

النّقطة الأخرى الّتي ينبغي الالتفات إليها هي أنّ الإمام عليه السلام لا يكتفي في العديد من الموارد بأن يثبت الإمامة لنفسه؛ بل يذكر أسماء أئمّة الحقّ الذين سبقوه إلى جانب اسمه أيضًا؛ وفي الحقيقة، فإنّه يطرح سلالة إمامة أهل البيت المتّصلة والّتي لا يُمكن تفكيكها. ومثل هذا العمل، بالالتفات إلى أنّه وفق الفكر الشيعيّ يدين كلّ الحكّام السّابقين الجائرين ويعدّهم طواغيت، ويمكن أن يكون إشارة إلى ارتباط جهاد الشّيعة في هذا الزّمان بالأزمنة الماضية. وفي الواقع، فإنّ الإمام الصادق عليه السلام بهذا البيان، يعدّ إمامته كنتيجة حتميّة لإمامة من سبقه، وبهذه الطّريقة يُخرجها من تلك الحالة المنقطعة والفاقدة للجذور والأصول، ويوصل سلالته بتلك القناة الموثوقة والثابتة للنبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم. والآن، التفتوا إلى عدّة نماذج من كيفيّة دعوة الإمام عليه السلام:

إنّ أكثر رواية لفتت نظري في هذا الباب هي رواية عمرو بن أبي المقدام والّتي ترسم لنا مشهدًا عجيبًا. ففي التّاسع من ذي الحجّة ـ يوم عرفة ـ اجتمع عددٌ كبيرٌ من الخلائق في عرفات من أجل أداء مراسم ذلك اليوم الخاصّ، ومن الطّبيعيّ أن يجتمع فيه ممثّلون عن كلّ المناطق الّتي يسكنها مسلمون من أقصى خراسان إلى ساحل البحر المتوسّط. ومن الممكن لكلمةٍ واحدةٍ في غير موضعها في هذا المكان، أن تستأصل عمل أكثر الشّبكات الإعلاميّة العامّة انتشارًا في ذلك الزّمان. فيوصل الإمام عليه السلام نفسه إلى هذا الجمع، ويحمل له رسالةً. ويقول الرّاوي:

رأيت الإمام عليه السلام يقف بين النّاس ويعلن نداءه ثلاث مرّات ويرفع صوته بأقصى ما يقدر عليه، بنداءٍ ينبغي أن يطرق أسماع الجميع في كلّ الأماكن وليصل عبرهم إلى كلّ أنحاء العالم الإسلاميّ. فنجده يتلفّت إلى كلّ الجهات، ويُكرّر كلامه ثلاث مرّات، وهكذا يفعل حتّى يبلغ تكرار كلام هذا الإمام اثنا عشرة مرّة. وقد أطلق نداءه هذا بمثل هذه العبارات: «**أيّها النّاس إنّ رسول الله كان الإمام، ثمّ كان عليّ بن أبي طالب، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين، ثمّ عليّ بن الحسين، ثمّ محمّد بن عليّ، ثمّ...**»[1].

وحديثٌ آخر، عن أبي الصّبّاح الكنانيّ، يصف فيه الإمام الصادق عليه السلام نفسه وباقي أئمّة الشّيعة بمثل هذه العبارات: «**نحن قومٌ فرض الله طاعتنا، لنا الأنفال، ولنا صفو المال...**»[2]. وصفو المال هي الأموال المصطفاة الّتي يخصّ الطّواغيت المتجبّرون أنفسهم بها، ويقطعون أيدي المستحقّين عنها، وعندما تخرج هذه الأموال المغصوبة بفضل انتصار المقاتلين المسلمين من أيدي الظّالمين المهزومين، فإنّها لا تُقسّم كغيرها من الغنائم لتكون في اختيار شخصٍ ما، فتمنحه مقامًا كاذبًا وفخرًا مزيّفًا، بل إنّها تودع بيد الحاكم الإسلاميّ الّذي عليه أن يستعملها في جهة مصالح المسلمين العامّة. فالإمام عليه السلام في هذه الرّواية يُعرّف نفسه على أنّه صاحب صفو المال وكذلك الأنفال - الّتي هي أيضًا من متعلّقات الإمام - وبهذا البيان يوضّح أنّه هو الحاكم الحالي للمجتمع الإسلاميّ، وأنّه يجب أن تصل إليه كلّ هذه الأموال وأن تكون بيده

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 47، ص 58.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص 546.

وأن تُستعمل بحسب رأيه في مواردها الصحيحة.

وفـي حديثٍ آخـر، يُسمّي الأئمّـة السّابقين واحدًا واحـدًا، ويشهد على إمامتهـم ولـزوم طاعتهـم واتّباعهـم، وعندما يصـل إلى اسمـه يسكت. والّذين كانوا يسمعون حديـث الإمام عليه السلام يعلمون جيّدًا أنّ ميراث العلم والحكومة بعد الإمام الباقر عليه السلام هو بيد الإمام الصّادق عليه السلام. وبهذا الإجـراء يطرح حقّـه في قيادة وحكومـة المجتمع مثلما أنّـه يُبيّن بأسلوبٍ استدلالـيّ علاقته واتّصاله بجدّه الأكبر، عليّ بـن أبي طالب[1]. ويُمكن أن نجـد الكثير من الشّواهد، في أبواب كتـاب الحجّة من الكافي، وكذلك في المجلّـد السابـع والأربعين من بحـار الأنوار، على مثل هـذا الحديث الّذي يُعلن فيه الإمام دعوى الإمامة بالتصريح أو الكناية.

الوثيقـة القاطعة الأخرى، تذكر شواهد علـى الشّبكة التبليغيّة الواسعة للإمـام عليه السلام في كلّ أنحـاء الدّولـة الإسلاميّة، وتجعل وجـود مثل هذه الشّبكـة أمـرًا مسلّمًا. هـذه الشّواهد، من الكثرة والثّبـوت بحيث إنّه لو لم يكـن هناك حديـثٌ واحدٌ صريـح فإنّ ذلـك لا يخدش بحتميّـة الموضوع. فمن يُطالـع حياة الأئمّة عليهم السلام غير المدوّنة، يتسـاءل في نفسه: ألم يكن لأئمّـة الشّيعة في نهايات عصر بني أمّية من الدّعاة والمبلّغين في أطراف وأكنـاف الدولة الإسلاميّة، الّذيـن يبلّغون بإمامتهم ويأخـذون من النّاس الطاعة والدّعم لهم؟ في هـذه الحالة، إذًا كيف يمكن تفسير هذه العلائم والرّوابـط التّنظيميّة الّتي تُشاهد بوضوح والّتي تظهر في العلاقات الماليّة

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 186.

والفكريّـة، بيـن الأئمّـة والشّيعة؟ فما معنـى حمل هذه الحقـوق الشّرعيّة والأمـوال من مختلف أطراف العالم إلى المدينـة؟ وكلّ هذه الأسئلة حول القضايـا الدينيّة؟ وهـذه الدّعوة الواسعـة المنتشرة للتشيّـع؟ وأيضًا هذا الشّـرف والمحبوبيّة الّتي لا نظير لها، لآل عليٍّ في مناطق مهمّة من الدّولة الإسلاميّـة؟ وهـذا الجمـع الغفير مـن المحدّثيـن والـرواة الخراسانيين والسيستانييـن والكوفييـن والبصرييـن واليمانييـن والمصرييـن الّذين اجتمعـوا حول الإمـام عليه السلام ؟ فأيّة يدٍ مقتـدرة أوجدت كلّ هـؤلاء؟ فهل يمكـن أن نعتبـر الصّدفة أو الحـدث التلقائيّ عاملًا أساسًـا وراء كلّ هذه الظّواهر المنسجمة والمترابطة؟

فمـع وجود كلّ هذا الإعلام المخالف، الّذي كان يُبثّ من جانب الأبواق الهائلـة لنظـام الخلافـة الأمويّة إلى مختلـف المناطق، ويذكـر اسم عليّ بن أبـي طالب كأكثر الوجـوه الإسلاميّة المدانة، وذلك علـى المنابر وفي الخُطـب؛ فهل يمكن ومـن دون وجود شبكة إعلاميّة قويّة أن يصبح آل عليٍّ بمثل هذه المحبوبيّة والجاذبيّة في تلك المناطق البعيدة والمجهولة، بحيث يطوي أولئك النّاس كلّ هذه المسافات الواسعة ويأتون إلى الحجاز والمدينة لمجرّد اللقاء والاستفـادة وعرض المحبّة والعلقة، ويتلقّون معارف الدين، والّتـي هي بحسب عقيدة الشّيعة كالسياسـة والحكومة، ويطلبون في بعض الموارد، لفقدانهم الصبر، الإقدام على التحرّك العسكري، وبحسب لسان الرّوايات القيام والخروج؟! فلو كان سلاح الشّيعة منحصرًا في إثبات علم الأئمّة وزهدهم فماذا سيكون معنى المطالبة بالثورة العسكريّة؟!

مـن الممكـن أن يُسأل أنّه لـو كان هناك مثـل هذه الشّبكـة الإعلاميّة

الوسيعـة والفعّالـة، فلماذا لا يوجد ذكـرٌ لها في التّاريـخ، أو لماذا لا يُنقل مـا يتعلّق بوقائعها بصراحـة؟ والجواب ـ كما أُشير سابقًا ـ وباختصار، هو أنّـه يجـب البحث أوّلًا عن سبـب عدم هذا الظّهور فـي البداية، في تمسّك أصحـاب الإمـام عليه السلام الشّديـد بأصل التقيّـة المُعتبر والراقـي، والّذي يمنـع نفـوذ أيّ دخيل إلى تشكيلات الإمام عليه السلام؛ ويـؤدّي في النهاية إلى فشـل جهاد الشّيعة في هذه المرحلة وعدم وصولهم إلى السّلطة والّذي هو أيضاً بذاته معلولاً لعوامل عدّة. لو لم يصل العبّاسيّون إلى السّلطة، لبقيت مساعيهـم ونشاطاتهم السرّيـة وذكرياتهم المرّة والحلـوة من نشاطاتهم الإعلاميّة بلا شك في الصدور، ولما عرف أيّ أحدٍ شيئاً عنهم ولما سجّلها التاريخ.

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص 74-80)

عندمـا نتحدّث عن التقيّة من الممكن إن تقولوا أنّ التقيّة ترتبط بذلك الزّمـان الّـذي كانت فيه الحكومـة الجائرة ممسكة بزمـام السّلطة ونحن كنّـا متخفّين ولا نقول شيئًـا بسبب الخوف منها. كلا، فـي ذلك الوقت لم تكـن التقيّة قضيّة خوف. «**التقيّة ترس المؤمن**»[1] فأين يُستعمل التّرس؟ إنّـه يُستخدم في ميـدان الحرب وأثناء القتـال. إذاً، التقية تكون في مورد المواجهة والقتال، حيث الترس والحرز والخندق والرمح.

---

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 72، ص 394.

وقد كان الأمر هكذا في ذلك الزّمان. عندما كُنّا نستعمل التقيّة لم يكن معنى ذلك أنّنا كُنّا ننزل ضربة السّيف على جسد العدوّ المنحوس، لكنّه كان بطريقةٍ لا يرى فيها ولا يُدرك أنّ هناك سيفًا ويدًا تحمل السيف، أو ترفعه وتضرب به، بل كان يشعر بالألم فقط. هكذا كانت التقيّة. أولئك الّذين كانوا يستعملون التقيّة في تلك الأيّام هكذا كانوا يفعلون، فقد كانوا على سبيل المثال، يعدّون المنشورات بعيدًا عن أعين العدوّ وفي البيوت السرّيّة رغم المراقبة الشديدة، وعندما توزّع كانت تهتك سمعة النّظام. هذا العمل، كان كضربة السيف عندما يُرفع فإنّه ينزل على رأس العدوّ وعاتقه. وبناءً عليه، كنّا نتّقي أي إنّنا لم نكن نسمح للعدوّ أن يُدرك ماذا يجري. فالتقيّة ترسٌ والمتّقي يختبئ خلف الترس. هذا هو معنى التقيّة وهي الآن تُعطي هذا المعنى نفسه.

(1990/01/29)

المواجهة السّياسيّة عند الإمام الصّادق عليه السلام

هذا أيضًا يُعدّ خطًّا واضحًا في حياة الإمام الصّادق عليه السلام ؛ بحيث إنّنا يُمكن أن نراه بشكلٍ أكثر تميّزًا وصراحةً وصحّةً ممّا نراه في حياة الأئمّة الآخرين. فحتّى لو حصل الاختلاف على تسمية فقه الشّيعة بالفقه الجعفريّ، أو وجدنا من ينكر النّشاط السّياسيّ للإمام عليه السلام أو يغضّ النّظر عنه، فإنّ الجميع متّفقون على أنّ الإمام الصّادق كان له أوسع الحوزات العلميّة والفقهيّة في زمانه، أو إحدى أوسعها. في هذا المجال، إنّ ما بقي مخفيًّا عن أعين أكثر الباحثين حول حياة الإمام عليه السلام هو المفهوم السياسيّ والبعد المعارض لهذا العمل، ونحن نقوم الآن بتناوله.

كمقدّمة، ينبغي معرفة أنّ جهاز الخلافة في الإسلام يختلف عن جميع الأجهزة الأخرى للحكم من جهة أنّه ليس مجرّد تشكيلٍ سياسيّ، بل إنّه يُمثّل قيادةً سياسيّةً دينيّة. فاسم الخليفة ولقب الخليفة للحاكم الإسلاميّ يدلّ على هذه الحقيقة وهي أنّه أكبر من القائد السياسيّ؛ فهو خليفة النبيّ، والنبيّ هو من جاء بالدّين والتّعاليم الأخلاقيّة؛ وبالطّبع، فهو في الوقت نفسه يكون قائدًا وحاكمًا سياسيًّا. فالخليفة في الإسلام، بالإضافة إلى السّياسة، يتكفّل بالأمور الدينيّة للنّاس ويُعدّ إمامهم الدينيّ.

هـذه الحقيقـة المسلّمـة أدّت إلى أن يقوم مـن جاء من الحـكّام ـ بعد السّلسلة الأولى للخلفاء الإسلاميين، والّذين كانوا، (أي الحكّام اللاحقين) لا يتمتّعـون بالمعرفـة الدينيّة أو كانـوا ذوي معرفة محـدودة جدّاً في هذا المجـال ـ لجبران هـذا النقص من خـلال علماء الدّيـن المرتبطين بهم وإلحـاق الفقهاء والمفسّرين والمحدّثين المأجورين بجهاز حكمهم، وذلك من أجل أن يجعلوا هذا الجهاز مركّبًا من الدّين والسّياسة.

والاستفادة الأخرى من وجود هؤلاء الممثّلين للشّريعة في جهاز الحكم، هي أنّهم كانوا يستطيعون بسهولة أن يُبدّلوا أحكام الدين بحسب ما تقتضيه المصالح، وذلك تحت غطاء الاستنباط والاجتهاد – والّذي لم يكن للنّاس العاديـن وعوامّهم القدرة على تحديـد معاييره – فكانوا يُبدّلون حكم اللّه من أجل السّلاطين والأمراء.

لقـد ذكر الكتّـاب ومؤرّخو القرون السّابقة، نمـاذج مرعبة من اختلاق الأحاديـث، والتفسيـر بالرأي والّـذي كان في معظم الأحـوال مؤشّرًا على تدخّـل السّلطـات السّياسيّة. ذلك العمـل الّذي كان في العصـور الأولى – وحتّـى أواخر القـرن الهجريّ الأوّل – يتّخذ شـكل الرّواية والحديث، تحوّل شيئًا فشيئًا إلى شكل الإفتاء؛ ولهذا نجد في أواخر العصر الأمويّ وبدايات العصـر العبّاسي الكثيـر من الفقهاء الّذين يُصـدرون الأحكام الإسلاميّة بحسـب آرائهـم – والّتي كانت في الواقـع آراء وتوجّهات القـوى الحاكمة ـ باستخدام الأساليب المبتدعة كالقياس والاستحسان. وقد حصل مثل هذا أيضًـا فيما يتعلّق بتفسير القـرآن. فتفسيـر القرآن بالرّأي كان من الأعمال الّتي يُمكن بسهولة أن تنجرّ إلى تبديل حكم اللّه أمام أعين النّاس، وجعلهم

يعتقدون بما يُريده المفسّر، والّذي كان في الغالب ما يُمثّل إرادة الحاكم.

وبهـذه الطريقة فإنّ الفقه والحديـث والتّفسير قد انقسـم إلى تيّارين عامّيـن منذ بدايات العصور الإسلاميّـة: التيّار الأوّل هو المرتبط بأجهزة الحكـم الغاصبـة، والّذي كان في الكثير من الحـالات يجعل الحقيقة فداءً لمصالح تلك الأجهزة ويُحرّف أحكام الله لقاء أثمانٍ بخسة؛ والتيّار الآخر هـو التيّار الأصيل والأمين الّـذي ما كان ليُقـدّم أيّ مصلحة على مصلحة تبييـن الأحـكام الإلهيّة الصحيحـة؛ ومن الطّبيعـيّ أن يكون فـي مواجهةٍ مباشـرة مع أجهزة الحكم وفقهـاء السّلطة مع كلّ خطـوة يخطوها؛ ومنذ ذلك اليوم كان يتّخذ في أغلب الأوقات شكل العمل السرّيّ وغير الرسميّ.

وبهـذا الوعـي يُمكن بوضوح أن نعلـم أنّ الفقه الجعفـري لم يكن مجرّد خـلافٍ عقائـديٍّ دينـيٍّ بسيط مع فقـه فقهاء ذلـك الزّمـان الرّسميين في زمان الإمـام الصادق عليه السلام، بل كان هذا الخلاف فـي نفس الوقت يحمل مضمونيـن للمواجهـة أيضًا؛ الأوّل والأهمّ هو إثبـات عدم تمتّع جهاز الحكم بالوعـي الدينيّ والمعرفة وعجزه عـن إدارة الأمور الفكريّة للنّاس، وهذا في الواقـع يعني عدم صلاحيّته للتصدّي لمقـام الخلافة؛ والآخر هو تشخيص موارد التّحريف في الفقه الرّسمي والناشئ عن المصلحة والمنفعة للفقهاء فـي بيان الأحكام الفقهيّة ومداراتهم لما يُمارسـه ويرغب به أرباب السّلطة والحكـم. فالإمـام الصّادق، وبنشـره لبساط العلـم والمعـارف الإسلاميّة وتفسير القرآن بمنهج مخالفٍ لمنهج علماء البلاط، يكون في الواقع العمليّ قد نهض لمعارضة ذلك الجهاز. فهو عليه السلام بهذه الوسيلة كان يُخطّئ جميع التشكيلات المذهبية والفقهية الرّسميّة، والّتي كانت تُعدّ ضلعًا مهمًّا لحكومة

الخلفاء، ويعتبر جهاز الحكم خاويًا من ناحية البعد الدينيّ.

أمّـا إلـى أيّ مدى التفت جهـاز حكم بنـي أميّة إلى بعـد المواجهة في النشـاط العلميّ والفقهيّ للإمام الصـادق عليه السلام فلا يوجد لدينا سندٌ أو وثيقـةٌ واضحـةٌ وقاطعة، ولكن أغلـب الظنّ هو أنّه في زمـان بني العبّاس، وخصوصًـا المنصور الّـذي كان يتمتّع بدهاء وحنكة كبيـرة، ولأنّه كان قد أمضـى كلّ حياتـه السّابقة على خلافته، في بيئة النّضـال والمواجهة ضدّ الأمويين، فإنّه كان مطّلعًا على النّكات الدقيقة في مجال مواجهات وجهاد العلوييـن، وكان يوجّـه زعماء ومسؤولـي جهـازه إلـى الـدّور المؤثّر لهذه المواجهة غير المباشرة.

إنّ التّهديـدات والضّغـوط والشّدائـد اللامحـدودة للمنصور تجاه النّشاطـات التّعليميّة والفقهيّـة للإمام عليه السلام، قد ذُكـرت ودُوّنت في العديد من الرّوايات التّاريخيّة، ومنها ما نشأ من هذا التوجّه والشّعور؛ وأيضًـا تأكيـده وإصـراره الكبيـر علـى جمـع الفقهـاء المعروفين في الحجاز والعـراق في مقرّ حكومته ـ وهو ما يُستنتج من مضمون العديد مـن الرّوايـات التاريخيّة ـ فكلّ ذلك ناشئٌ من شعـوره بذلك الاحتياج. ففي مباحثات الإمام ووصايـاه إلى أصحابه والمقرّبين يُشاهد بوضوحٍ استفادتـه مـن عامـل «أن لا نصيـب للخلفاء مـن العلـم»، كدليل على أنّـه لا يحقّ لهم الحكـم بالمنظار الإسلامـيّ؛ أي إنّ الإمام كان يطرح بصراحـةٍ ذاك المضمـون الاعتراضيّ الّذي كان موجـودًا في تدريسه للفقه والقرآن.

ويُنقل في حديثٍ عنه: «**نحن قومٌ فرض الله طاعتنا وأنتم تأتمّون بمن**

لا يُعذر النّاس بجهالته»[1]، أي إنّ النّاس وبسبب جهالة الحكّام والقادة غير المؤهّلين ابتلوا بالانحراف والضّلالة وسلكوا طريقًا غير طريق اللّه، وهم لذلك لا يمكنهم أن يكونوا معذورين عند الله كأن يقولوا إنّنا أخطأنا في تشخيصنا للطريق؛ وهؤلاء الزعماء وقادتنا قد جرّونا إلى هذا الطريق بسبب الجهالة. لأنّ طاعة أمثال هؤلاء القادة هو بحدّ ذاته عملٌ خلافيّ ومعصية فلا يمكن عندها تبرير المعاصي اللاحقة[2].

هذا المفهوم المتعلّق بالقيادة السّياسيّة في مجتمع الإسلام الثوريّ، أي القيادة الثوريّة، والتي ينبغي أن تكون متلازمة بالضّرورة مع القيادة الفكريّة والأيديولوجيّة، موجودٌ بوضوحٍ في تعاليم الأئمّة الّذي جاؤوا قبل الإمام الصادق عليه السلام وبعده. ففي روايةٍ عن الإمام عليّ بن موسى عن جدّه الأكبر الإمام محمّد الباقر عليه السلام، يساوي ما بين «السّلاح» في سلالة الإمامة والتابوت الّذي كان عند بني إسرائيل السابقين: «السلاح فينا كالتابوت الّذي كان عند بني إسرائيل، فمن كان عنده كانت النبوّة (وفي رواية الحكومة) له. ومن كان عنده السلاح كانت القيادة والزعامة له»[3]. وبالالتفات إلى الشكل الرمزيّ والمفهوم العميق جداً لهذا التعبير يسأل الرواي هنا: «أفيكون

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج1، ص 186.

(2) وقد كرّر القرآن المضمون ذاته في العديد من المواطن وبألفاظ مختلفة؛ فذكر التخاصم بين الذين اتّبعوا والذين اتُّبعوا على طريق الضلالة، وشكاية الذين اتّبعوا من الذين أضلّوهم.. وفي النهاية يذكر أنّ هذا العذر لا يُقبل من أحد وأنّ كلتا الفئتين لهما نصيبهما من العذاب. يُراجع الآية 167 من سورة البقرة والآية 91 ـ102 من سورة الشعراء، والآية 31-33 من سورة سبأ، والآية 97 من سورة النساء.

(3) راجع: الكافي، ج1، ص233.

السّـلاح مزايلًا للعلم»؟[1] والإمـام يُجيب قائـلًا: كلا. أي إنّ قيادة المجتمع والقيادة الثّوريّة للأمّة المسلمة تكون لمن يكون عنده السّلاح مع العلم.

فالإمـام مـن جهـةٍ، يعتبر شـرط الإمامـة هو معرفـة الدّيـن والفهم الصّحيـح للقرآن؛ ومن جانبٍ آخر، فإنّه من خلال نشر صروح العلم وجمع عـددٍ كبيرٍ من التّائقين لمعـارف الدّين حول نفسه وتعليـم الدّين بأسلوبٍ خاصّ مخالـفٍ للمنهج المعتمد في الفقه والحديـث والتفسير، بل المغاير بشـكل تامّ للمعرفـة الدينيّة الرائجة عند العلمـاء والمحدّثين والمفسّرين المرتبطيـن بالبلاط؛ يكون عليه السلام قد أثبـت معرفته الدينيّة وعدم معرفة جهـاز الخلافة بالدّين، مع كلّ ما عنده من علمـاء تابعين وأصحاب شهرةٍ ومقـام. وهو بهـذه الطريقة، يكون قـد أضفى بعدًا جديـدًا على معارضته المستمرّة والعميقة والهادئة في المواجهة.

وكما أشير من قبل، فإنّ الحكّام الأوائل من بني العبّاس، والّذين كانوا، قبـل وصولهم إلى السّلطـة، متواجدين في البيئة الجهاديّـة للعلويّين وإلى جنـب أتبـاع وأنصار آل علـي، ولديهم البصيرة والاطّـلاع على الكثير من أسرار تفاصيلهم وتشعّباتهم، فقد أدركوا الدور الاعتراضيّ لهذه الدّروس والمباحـث والأحاديث والتفسيـر، أكثر من أسلافهـم الأمويين. ولعلّه لأجل هـذا، قـام المنصـور العبّاسي، أثنـاء مواجهتـه الشّرّيـرة للإمام الصـادق عليه السلام، بمنعـه لمدّة مـن الجلوس مـع النّاس وتعليمهـم الدين والتّواصـل معهم والإجابـة عن أسئلتهـم؛ إلى أن وصل الأمـر بحسب نقل المفضّـل بـن عمر ـ هذا الوجه الشيعيّ اللامع والمعـروف ـ أنّ كلّ من كان

---

(1) وقـد أخذنا هذا المعنـى لكلمة مزايلاً من كلامٍ للمحدّث المعروف العلّامـة المجلسي في كتاب مرآة العقول. (الكاتب)

لديـه مسألةٌ في باب الزّواج والطّـلاق وأمثالها لم يكن يستطيع بسهولة أن يصل إلى الإمام الصادق ليُجيبه[1].

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام ، ص 88-95)

(1) المناقب، ابن شهرآشوب، ج 4، ص 238.

التشكيلات السرّية الأيديولوجية والسّياسيّة

لقـد استطـاع الإمـام الصّـادق عليه السلام وبمساعـدة آبائـه الواسعة – أي الإمـام السجّـاد والإمـام الباقـر وخصوصًـا فـي أواخر حيـاة الإمام الباقر عليه السلام – ومن ثمّ هو نفسه من خلال هذا السّعي، إعداد عدّةٍ مؤمنة ومسلمـة ومذهبيّـة وأصيلة وثوريّـة ومضحّية ومستعـدّة للمخاطرة في كلّ أنحـاء العالم الإسلاميّ. ولـم يكن هؤلاء أشخاصًـا عاديّين، لا يعني ذلك أنّهـم كانوا من طبقات مميّزة، كلا، فكان منهـم التّاجر والكاسب والغلام وأمثالهـا، ولكن من ناحية الرّكيزة المعنويّـة لم يكونوا يشبهون الأشخاص العاديّيـن بأيّ شكلٍ من الأشكال. فقد كانـوا أشخاصًا تُختصر حياتهم في هدفهم وفـي مذهبهم، وكانوا منتشرين فـي كلّ الأماكن. من المدهش أنّ أتبـاع الإمـام الصـادق عليه السلام كانوا منتشريـن في كلّ مـكان، فلا ينبغي التصـوّر أنّهم كانوا يتواجدون فـي المدينة فحسب، بل كانوا يتواجدون في الكوفـة أكثر من المدينة، لا بل كان البعض منهم في الشّام نفسها. فهؤلاء كانوا يُمثّلون الشّبكة العظيمـة لتشكيلات الإمام الصادق عليه السلام. الحزب العلـويّ وحزب التشيّع، وما ذكرته هنا بشأن تلك الشّبكة هو التشيّع نفسه،

أي إنّ ما ذكرته حول تلك الشّبكة الواسعة للتشكيلات هو التشيّع نفسه. وهذا من الفصول الّتي لم تُعرف من حياة الإمام الصادق؛ إنّه من الأمور الّتي أؤكّد عليها أنا العبد وأصرّ عليها، كان هناك شبكة تنظيميّة عظيمة وحزبٌ كاملٌ يُدار من قِبَل الإمام الصّادق عليه السلام في كلّ أرجاء العالم الإسلاميّ وكانت هذه من نقاط القوّة.

(1980/09/05)

كان هناك شبكة هي الّتي كانت تتحمّل مسؤوليّة الأنشطة الواسعة والمثمرة المتعلّقة بقضية الإمامة في الكثير من المناطق النّائية لدولة المسلمين، وخصوصًا في نواحي العراق العربيّ وخراسان. ولكن هذا أحد وجوه القضيّة وجزءٌ صغيرٌ جدًّا منها. إنّ موضوع التّشكيلات السرّيّة في ساحة الحياة السّياسيّة للإمام الصادق عليه السلام وللأئمّة الآخرين أيضًا، هو من أهمّ فصول هذه الحياة والسّيرة الجيّاشة، والوقت نفسه من أكثرها غموضًا وإبهامًا.

وكما قلنا سابقًا، من أجل إثبات وجود مثل هذه المنظّمة، لا يمكن ولا ينبغي أن نتوقّع وجود ذلك صراحةً في الوثائق. لا ينبغي توقّع أن يعترف أحد الأئمّة أو أحد أصحابهم المقرّبين بصراحة بوجود تشكيلات سياسيّة فكريّة شيعيّة؛ فمثل هذ الشّيء لا يمكن الاعتراف به. ففي حال جاء يومٌ واطّلع العدوّ على وجود مثل هذه التشكيلات، وسأل الإمام عليه السلام أو أحد أصحابه حوله، فإنّ التّوقّع المعقول هو التنكّر التامّ لوجود مثل هذا الشّيء؛ بل ينبغي اعتبار ذلك ظنًّا سيّئًا أو تهمةً باطلة. فمثل هذا الأمر هو من الخصائص الدّائمة للعمل السّرّي. بالطّبع، من خلال التبحّر في تاريخ

حياة الأئمّة، لا يمكن أن ننتظر أيضًا القبول بمثل هذه التّشكيلات من دون شاهدٍ أو وثيقةٍ أو دليلٍ مقنع. فيجب السّعي للوصول إلى القرائن والشّواهد وبواطـن الحوادث الّتي تبدو بالظّاهـر بسيطةً، وإن لم تلفت نظر المشاهد العادي، ولكن بالدقّـة والتأمّل تنبئ عن أحداثٍ سرّيةٍ كثيرة. لو إنّنا نظرنا من هذا المنظار إلى كلّ مرحلة حياة الأئمّة الّتي استغرقت قرنين ونصف، فسوف يصبح مسلّمًا تقريبًا، وجود مثل هذه التشكيلات السريّة الّتي تعمل تحت إمرة الأئمّة.

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص96-97)

ماهيّة التّشكيلات السرّية ودورها

ما هـو المقصود من التّشكيـلات؟ من البديهيّ أنّه لـم يكن المقصود حزبـاً منظّمـاً وبمفهوم اليـوم - أيّ مجموعة من الكـوادر المنظّمين وقادة منطقة ومدينة وغيرها - لا يمكن أن يكون كذلك. التّشكيلات هي مجموعة مـن النّاس، ذوو هـدفٍ مشترك، يقومـون بأعمـال ومسؤوليـات مختلفة بالارتباط بمركزٍ واحدٍ وقلبٍ نابض وعقلٍ حاكم، ويشعرون فيما بينهم بنوع من الرّوابط والإحساسات والمشاعر القريبة والمتآلفة.

وهـذا الجمع في زمن عليّ عليه السلام - أي في المدّة الفاصلة بين السّقيفة والخلافـة، والّتـي امتـدّت لخمسة وعشريـن سنة - هم خواص الصّحابة أنفسهـم الّذيـن كانـوا، بالرغم من كلّ تظاهـر جهاز الخلافـة بالحقّانيّة والشعبيّـة، كانوا يعتقدون أنّ الحكومة هي حـقّ أفضل المسلمين وأكثرهم تضحيـةً - أي عليّ بن أبـي طالب عليه السلام - ولم ينسوا النصّ الصّريح للنبيّ

بخلافـة عليّ عليه السلام ، وقد أعلنوا بصراحة، منذ الأيّام الأولى بعد السّقيفة مخالفتهـم للذين حصلوا علـى الخلافة ووفاءهم للإمـام عليه السلام . وفيما بعـد، ورغم أنّ المصلحة الكبرى حملت الإمام عليه السلام على السّكوت وحتّى التّعاون مع الخلفاء الأوائل، فقد سلكوا المسار العاديّ للمجتمع الإسلاميّ؛ لكنّهـم لم يُضيّعـوا أبدًا رأيهـم وتشخيصهم ونظرتهـم الصّحيحة، وبقوا علـى اتّباع عليّ عليه السلام ؛ ولهذا السبب سُمّوا بحقّ شيعة عليّ، وقد اشتُهروا بهذا التوجّه الفكريّ والعمليّ. ويُعدّ من هؤلاء شخصيّاتٌ معروفة ومفتخرة كسلمان وأبي ذرّ وأُبيّ بن كعب والمقداد وعمّار وحذيفة و...

وتؤيّـد الشّواهد التاريخيّة أنّ هذه الجماعة كانـت تنشر الفكر الشيعيّ - أي الاعتقـاد بضـرورة اتّباع الإمام كقائـدٍ فكريّ وسياسـيّ أيضًا - بين النّاس، ملتزمةً بأساليب المصلحة والحكمة، وكانوا يزدادون يومًا بعد يوم؛ وكان كلّ عملٍ لأجل تشكيل الحكومة العلويّة يُعدّ بمنزلة مقدّمة للواجب.

بعد أن وصل أمير المؤمنين عليه السلام إلى الحكومة في العام 35 للهجرة، فإنّ الأشخاص الوحيدين الّذين قبلوا وأذعنوا للإمام عليه السلام على أساس المعايير الشيعيّـة فـي مجـال الحكومة والإمامـة وبإيمانٍ راسـخٍ هي هذه الجماعـة الشيعيّة نفسهـا، أي أولئـك الّذين تربّوا بصـورة مباشرة وغير مباشـرة على يـد الإمام عليه السلام في مرحلة الـ 25 سنـة الماضية. الآخرون - أي أكثـر النّاس - وإن كانـوا يعيشـون فـي دائرة قيـادة الإمام عليه السلام وكانـوا يتحرّكون مـن النّاحية العمليّة فـي اتّجاه الفكر الشيعـيّ لكنّهم لم يكونوا يتمتّعون بتلك العلقة الروحيّة والفكريّة الّتي جعلتهم ضمن مجموعة التشكيلات الشيعيّة.

وبالالتفات إلى وجود هذين الصّنفين بين أتباع الإمام عليه السلام، يمكن تفسير هذا التّفاوت الكبير في تعامل مسلمي ذلك الزّمان مع الإمام عليه السلام؛ فهناك أمثال عمّار ومالك الأشتر وحُجر بن عدي وسهل بن حُنيف وقيس بن سعد، وإلى جانبهم يوجد أشخاص كأبي موسى الأشعريّ وزياد بن أبيه وسعد بن أبي وقّاص. يجب أن نقبل أنّه لو كان قد حصل أوّل إقدام على إيجاد التشكيلات الشيعيّة في هذا اللقاء، فإنّ طرح وأرضيّة ذلك كانت موجودةً ومرسومةً قبل مدّةٍ طويلةٍ في كلام الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في مخاطبة أصحابه المقرّبين.

كانت الإجراءات المهمّة جدًّا الّتي حصلت بعد حادثة صلح الإمام الحسن عليه السلام قد أدّت إلى انتشار الفكر الشّيعيّ وتوجيه هذه المجموعة المترابطة والمتآلفة، الّتي كانت تستطيع أن تتمتّع بالمزيد من التحرّك والديناميكيّة إثر السّلطة الظّالمة للسّلطان الأمويّ والضغط الّذي كان يمارسه عليها؛ فكان القمع والضغط يؤدّي دومًا إلى المزيد من تماسك ورسوخ وانتشار القوى المنسجمة الواقعة تحت هذا القمع، بدل أن يكون عاملًا لتشتّتها.

إنّ تجميع الطاقات الشّيعيّة الأصيلة والموثوقة وحمايتهم من شرّ المؤامرات الغادرة للجهاز الأمويّ ضدّ الشّيعة، ونشر الفكر الإسلاميّ الأصيل في دائرةٍ ضيّقةٍ ولكنّها عميقةٌ جدًّا، واستقطاب الطاقات المستعدّة وإضافتهم إلى مجموع الشّيعة، وانتظار الفرصة المناسبة وفي النّهاية الثّورة والتحرّك في الوقت المناسب الّذي يُدمّر النّظام الجاهلي لبني أميّة، سيُعيد النّظام الإسلاميّ والعلويّ إلى موقعه؛ هكذا كانت استراتيجيّة

الإمام الحسن وآخر الأسباب الّتي جعلت قبوله للصّلح غير قابلٍ للاجتناب.

ولعلّه لأجل هذه الجهة، وبعد حادثة الصلح، عندما جاءت جماعة من الشّيعة بزعامة المسيّب بن نجيّة وسليمان بن صُرد الخزاعي إلى المدينة -حيث كان الإمام عليه السلام قد رجع لتوّه من الكوفة وجعل هذه المدينة مجدّدًا مقرًّا فكريًّا وسياسيًّا لنفسه- واقترحوا على الإمام عليه السلام إعادة بناء القوى العسكريّة والسّيطرة على الكوفة والهجوم على جيش الشّام، فاختار الإمام عليه السلام هذين الرّجلين من بين الجميع واختلى بهما، وبكلماتٍ لم يصلنا منها أيّ خبرٍ لا من قريب ولا من بعيدٍ أقنعهما بعدم صوابيّة هذه الخطّة، بحيث إنّهما عندما رجعا إلى أتباعهم ورفقائهم أفهموهم بكلماتٍ قصيرة وبليغة انتفاء موضوع الثّورة العسكريّة وضرورة رجوعهم إلى الكوفة وانصرافهم إلى أعمالهم.

وبالالتفات إلى هذه القرائن، كان حسين المؤرّخ العربيّ المعاصر الفذّ- يعتقد أنّ اللبنة الأولى لبناء التّشكيلات السّياسيّة الشّيعيّة قد حصلت في ذلك اليوم، وأُسّست في ذلك المجلس الّذي اجتمع فيه الإمام الحسن عليه السلام مع هاتين الشخصيّتين الشيعيّتين المعروفتين وتباحث معهما.

وقد قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «... **لو قد فقدتموني لرأيتم بعدي أشياء يتمنّى أحدكم الموت ممّا يرى من الجور والعدوان والأثرة**[1]، **والاستخفاف بحقّ الله والخوف على نفسه، فإذا كان ذلك؛ فاعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرّقوا، وعليكم بالصّبر والصّلاة والتقيّة، واعلموا**

---

(1) الأثرة: - بالتحريك - اسم من استأثر بالشيء إذا استبد به بمعنى الاختيار وحب النفس المفرط واختصاص الرجل نفسه بأحسن الشيء دون غيره.

أن الله عـزَّ وجـلَّ يُبغض من عباده التلوّن. لا تزولوا عن الحق وأهله فإنّ من استبدل بنا هلك، وفاتته الدّنيا وخرج منها آثمًا...»[1].وهذا الخطاب الّـذي يرسم بوضوح أهم مساوئ العصر الأمـوي ويُبيّن الأمر الدّائر حول التّشكيل والتّنظيم والانسجام، يُعدّ من أكثر الوثائق الملفتة المتعلّقة بحزب الشّيعة. وهذا الطّرح نفسه هو الّذي نُشاهده في لقاء الإمام الحسن عليه السلام وهذين الرّجلين اللذين يُعتبران من أخلص الشّيعة ذاتًا وعملًا. لا شكّ أنّه لـم يكن جميع الأتباع والشّيعـة مطّلعين على هذه الخطّـة الفائقة الذكاء، وهذا كان سـرّ الاعتراضات والإشكالات الّتي كانت ترد من الأصحاب على الإمـام عليه السلام ؛ ولكنّ الجـواب الّذي كانوا يسمعونه دائمًـا بهذا المضمون ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾[2][3]، هـو إشـارةٌ خفيّـة إلى هذه السّياسة والتّدبير.

وطـوال مـدّة حكومـة معاويـة المتجبّـرة الّتـي دامـت عشريـن سنة، وبالتّفصيـل المؤلم الّذي دوّنه المؤرّخون حول كيفيّة عمل إعلامه المعادي للعلويّيـن، فـي جميـع أنحـاء البلاد - إلـى درجـة الوصول إلى لعـن أمير المؤمنين عليه السلام وجعله سنّةً رائجةً ومتداولة - ومع عدم ظهور النّشاطات البـارزة من قِبَل الإمام الحسـن والإمام الحسين عليهما السلام ، فـإنّ وجود مثل هذه الروابط والتّشكيلات كان الأمر الوحيد الّذي جعل تطوّر الفكر الشيعيّ وازدياد عدد الشّيعة في كلّ الحجاز والعراق ممكنًا.

---

(1) تحف العقول، ص 115.

(2) سورة الأنبياء، الآية 111.

(3) هـذا الوضع يمكـن مقارنته وتشبيهه إلى حدٍّ ما ومن جهاتٍ عدّة مـع النسيج الحالي للمجتمعات الّتي تُدار وتُحكم من قبل الأحزاب. (الكاتب)

عشـرون سنة بعد واقعة الصّلح، فلنلقِ نظرةً على السّاحة الفكريّة لهذه المناطـق. ففي الكوفة، كان يوجد رجالٌ شيعة، هـم من أكثر الشّخصيّات والوجـوه شهـرةً ومعروفيّـةً. وفي مكّـة والمدينة وحتى في بعض النواحي النائية، كان هناك شيعة كالحلقات المتّصلة الّذين يتناقلون أسرار بعضهم البعض. وعندما يُقتل أحد زعماء الشّيعة ـ حُجر بن عُديّ ـ بعد عدّة سنوات، نسمـع صرخات الاعتراض في مناطق عدّة من البـلاد، بالرغم من القمع الشديـد؛ ونجـد أنّ شخصيّةً معروفـةً في خراسان، وبعد هـذا الاعتراض الشديـد، تموت من شدّة الحزن والأسـى[1]. وبعد موت معاوية، يكتب آلاف الأشخاص إلى الإمام الحسين عليه السلام ويُرسلون الكتب ويدعونه إلى الكوفة من أجـل الثّورة. وبعد شهـادة الإمام عليه السلام، ينضم عشـرات الآلاف إلى جماعـة الثّائرين ويثورون في واقعـة التّوابين أو ينضمّـون لجيش المختار وإبراهيم بن مالك ضدّ الحكومة الأمويّة.

النّاظر فـي تاريخ الإسلام يسأل نفسه: هـل إنّ رواج الفكر والتّوجّهات الشّيعيّة إلى هذا الحدّ كان ليكون ممكنًا ومعقولًا سوى في ظلّ نشاطٍ محسوبٍ بدقّة لتشكيلاتٍ شيعيّة متّحدة ومنسجمة ومترابطة وذات جهة واحدة ـ أي من جانب تلـك التّشكيلات التي استشرف الإمام الحسين ولادتها مباشرةً بعـد صلح الإمام الحسـن؟ لا شكّ بأنّ الجواب سلبـيّ. فالإعلام المستمرّ والدّقيـق للجهاز الأمـويّ المتسلّط الّذي كان يُدار بواسطـة مئات القضاة والقـرّاء والخطباء والوُلاة، ما كان ليُجاب عليه، وفي بعض الموارد ليُحبط

(1) صلح الإمام الحسن، الشيخ راضي آل ياسين، ترجمة آية الله السيد علي خامنئي.

إلا بوجـود إعـلام دقيقٍ آخر، يُدار من جانـب مجموعة مترابطة ذات جهة واحدة وبالطبع سرّيّة.

علـى مشـارف هـلاك معاوية، أضحـت نشاطات هـذه المنظّمـة أكثر ووتيرتها أسـرع؛ إلى درجة أنّ والي المدينة كتب إلى معاوية، بعدما حصل علـى تقريرٍ حـول نشاطات الإمـام عليه السلام: «أمّا بعد فـإنّ عمر بن عثمان - المسـؤول المعنيّ، قـد أبلغنا أنّ رجالًا من العـراق وجماعةً من مشاهير الحجـاز، يختلفون إلى الحسين، ومن المظنـون أنّه سيقوم. لقد بحثت في هـذا الأمر ووجدتُ أنّه - الحسيـن - بصدد رفع رايـة المخالفة. فأبلغونا أوامركم ورأيكم»[1].

بعد واقعة كربـلاء وشهادة الإمام عليه السلام، أضحـت الأنشطة المنظّمة للشّيعـة في العراق أكثر رسوخًـا وتحرّكًا بدرجات؛ وهذا هـو التّأثير الّذي أوجدتـه الحـالات النفسيّة لشيعـة الكوفة، حيث إنّ الكثيـر منهم كانوا قد أُخذوا على حيـن غرّة مقابل ضربة جهاز الخلافة ولم يتمكّنوا من إيصال أنفسهم إلى ساحة عاشوراء. وكانت حرقة أسفهم وألمهم واضحةً جليّة.

يكتـب الطّبريّ المؤرّخ المعـروف في ذلك القرن: «تلـك الجماعة ـ أي الشّيعـة ـ كانوا دائمًا مشغولين بجمع السّـلاح وإعداد العدّة للحرب ودعوة النّاس في الخفاء ـ سواء كانوا شيعـة أم غير شيعة ـ من أجل ثأر الحسين وقـد استجابت لهم جماعة بعد أخرى، والتحقوا بهم، وكان الأمر على هذا المنوال حتّى مات يزيد بن معاوية»[2].

(1) ثورة الحسين، ص 118، نقلاً عن أعيان الشّيعة والأخبار الطوال.

(2) راجع بحار الأنوار، ج45، ص 356، نقلاً عن تاريخ الطبري، ج 5، ص 558.

إنّ مؤلّفة «جهاد الشّيعة» تظهر رأيها بشكلٍ صحيح حيث تقول: «ظهرت جماعـة الشّيعـة بعد شهـادة الحسين كجماعـة منظّمة تجمعهـا الروابط السّياسيّـة والعقائدية الدينيّـة ولديها قادة وقـوّات مسلّحة وكانت جماعة التوّابين أوّل مظهر لوجود مثل هذه الجماعة»[1].

وكمـا يُفهـم مـن مطالعـة الأحـداث التّاريخيّـة، وكذلـك آراء هـؤلاء المؤرّخين في أحداث عهد معاوية وكذلك الأحداث الّتي تلت شهادة الإمام الحسيـن عليه السلام، أنّ المبـادرات والمشاريـع وقيادة هـذه الأحداث كانت فقـط بيد الشّيعة ومنحصرة بهـم؛ وإلا فقد كان هنـاك الكثير من النّاس العاديـيـن، الّذين بسبب دوافعهم الإنسانيّـة أو سخطهم على جهاز الحكم الأموي أو لدوافع وأسبابٍ أخرى يشاركون الشّيعة من النّاحية العمليّة وينضمّون إليهم في ميادين القتـال أو في التحـرّكات الّتي كانت ذات صبغة شيعيّـة. لهذا، لا ينبغي أن يُتصوّر أنّ جميع الّذين شاركوا في هذه الأحداث المختلفة في ذلك المقطع التّاريخـيّ وكان لهـم أدوار فعّالـة أو عاديّة، كانوا في عـداد الشّيعة، أو في التّشكيلات المنظّمة والدّقيقة للأئمّة عليهم السلام.

النقطة الّتي أُريد أن أؤكّد عليها مع التّوضيح المذكور آنفًا، هي أنّه وإلى هذا العصر الّذي نبحث بشأنـه - أي بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام - فـإنّ اسم ومصطلح الشّيعة كان يُطلق فقط علـى أولئك الّذين كان لديهم رابطة محكمة ومحدّدة مع الإمـام الحقّ من النـاحية الفكريّة والعمليّة مثل

(1) سميرة مختار الليثي، جهاد الشّيعة، ص 27.

عصر أمير المؤمنين عليه السلام. هذه الجماعة هي الّتي كانت بعد صلح الإمام الحسن عليه السلام قد أوجدت، وبأمرٍ من هذا الإمام عليه السلام، تلك التشكيلات الشّيعيّة المترابطة؛ وهؤلاء أنفسهم هم الّذين استقطبوا، بواسطة إعلامهم وتبليغهم الواسع والعميق، أشخاصًا إلى داخل هذه التّشكيلات وجرّوا إلى الأحداث الشّيعيّة المزيد من أولئك الّذين ما كانوا من ناحية الفكر والأيديولوجية منسجمين ومشابهين لهم. لا شكّ بأنّ الرواية الّتي نقلناها في البداية عن كلام الإمام الصادق عليه السلام - الّذي جعل جماعة المؤمنين لا تعدو ثلاثة أو خمسة أنفار - ناظرةٌ إلى هذا الصنف من النّاس، أي الشّيعة والأتباع الرّاسخين للأئمّة؛ أولئك الّذين كان لهم دورٌ واعٍ ومصيريّ في حركة وسير الثّورة العلويّة والهاشميّة التّكامليّة. فعلى أثر سعي الإمام السّجّاد السريّ والهادئ بالظّاهر، استعاد هذا الجمع عناصره المستعدّة الكامنة وجذبها ووسّعها مثلما قال الإمام الصادق عليه السلام في تلك الرواية الّتي أشرنا إليها الآن، «**إنّ النّاس لحقوا وكثروا**»[1]. وفي عصر الإمام السجّاد، والإمام الباقر، والإمام الصادق عليهم السلام، هذا الجمع هو الّذي كان يُخيف زعماء نظام الخلافة دائمًا بتحرّكاته المشبوهة، ويدفعهم أحيانًا إلى القيام بردود فعلٍ عنيفة.

بعبارةٍ موجزة، لم يكن يُطلق اسم الشّيعة في الثّقافة الشيعيّة وكذلك في الفهم والإدراك والذهنيّة غير الشيعيّة، في القرون الأولى للإسلام وفي زمان الأئمّة عليهم السلام، على الشخص الّذي يكتفي بمحبّة عترة النبيّ أو

(1) بحار الأنوار، ج46، ص 144.

يعتقد فقط بحقّانيّتهم وصدق دعوتهم - وإن لم يكونوا يشاركون في دائرة النّشاط والتحرّك الّذي كان الإمام مركزه ومحوره - بل بالإضافة إلى ذلك كان التشيّع يحمل شرطًا أساسًا وحتميًّا هو عبارة عن: «الارتباط الفكريّ والعمليّ مع الإمام والمشاركة في الأنشطة الّتي كان يبادر إليها الإمام ويقودها نحو استرجاع الحقّ المغصوب وتشكيل النّظام العلويّ والإسلاميّ على كافّة المستويات الفكريّة والسّياسيّة وأحياناً العسكريّة».

هذا الارتباط هو ذاك الّذي يُسمّى في الثقافة الشّيعيّة بـ «الولاية». في الواقع، إنّ التشيّع كان عنوانًا لحزب الإمامة؛ حزبٌ يقوم بنشاطات معيّنة بقيادة الإمام ومثل كلّ الأحزاب والمنظّمات المعارضة في عصور القمع يتحرّك بالتقيّة والاستتار. هذه عصارة النّظر الدّقيق إلى حياة الأئمّة وخصوصًا الإمام الصادق عليه السلام. ومثلما قلنا سابقًا، إنّ هذا ليس بالأمر الّذي يمكن الجلوس وانتظار الأدلّة الصّريحة لإثباته، لماذا؟ لأنّه لا ينبغي ولا يمكن أن نتوقّع أبدًا أن يُكتب على بيتٍ سرّيّ يافطة: «هذا منزلٌ سرّي». هذا وإن لم يكن اعتبار وجوده مسلّمًا من دون القرائن الحتميّة. فمن الجدير، عندئذٍ أن نذهب للبحث عن القرائن والشواهد والإشارات.

(قيادة الإمام الصادق عليه السلام، ص 97-107)

الفصل الحادي عشر:

الإمام الكاظم عليه السلام

- ظروف تولّي الإمام الكاظم عليه السلام الإمامة.
- السعي دون كللٍ أو ملل واعتماد أسلوب التقيّة.
- جهاد الإمام عليه السلام ومعارضته لحكم هارون.
- شهادة الإمام الكاظم عليه السلام.

ظروف تولّي الإمام الكاظم عليه السلام للإمامة

هـذا المقطع الزّماني الممتـدّ لـ 35 سنة - من العـام 148 للهجرة إلى 183 - وهـو مرحلـة إمامـة الإمام أبـي الحسن موسى بـن جعفر عليه السلام، يُعـدّ أهـم (مقطع) في مسيرة حيـاة الأئمّة عليهم السلام. ففيه حَكَـمَ اثنان من أكثـر سلاطيـن بنـي العبّاس اقتـدارًا - المنصـور وهـارون - واثنان من أكثرهم تجبّرًا المهـديّ والهادي. ولقد تمّ القضاء على الكثير من الثّورات والانتفاضـات فـي خراسان وأفريقيـا وجزيرة الموصـل والديلم وجرجان والشّـام ونصيبيـن ومصـر وآذربايجـان وأرمينيـا وغيرهـا مـن الأقطار وتطويعهـا. وفي نواحـي الشّرق والغـرب والشّمال، من النّطـاق الإسلاميّ الوسيـع، أُضيفـت فتوحات جديدة وأموال وغنائم وافـرة فزادت من قدرة عرش العبّاسيين واستحكامه.

لقـد وصلـت بعض التيّارات الفكريّـة والعقائديّة في هـذه المرحلة إلى أوجهـا، وتولّـد بعضها وخلق جـوًّا فكريًّا مليئًـا بالشّبهـات، وسلّم الحربة لأصحـاب السّلطة، وأضحـى هنـاك آفة فـي الوعي الإسلامـي والسّياسيّ للنّـاس، وضُيّقت السّاحة علـى أعلام مجال المعـارف الإسلاميّة الأصيلة

وأصحاب الدعوة العلويّة وصُعّب عليهم الأمر.

وأصبح الشعر والفنّ والفقه والحديث، وحتّى الزّهد والورع في خدمة أصحاب السّلطة؛ وأكمل لهم أدوات الهيمنة والتسلّط. في هذا العصر، لم يعُد الوضع كما كان عليه في نهاية عصر بني أميّة؛ ولا كان شبيهًا بالسّنوات العشر الأولى لحكم العبّاسيين؛ ولا شبيهًا بمرحلة ما بعد هلاك هارون؛ حيث كان كلٌّ منها يُشكّل تهديدًا للحكومة المتسلّطة في تلك الأزمنة؛ فأيّ تهديدٍ جدّي، ما كان ليزلزل جهاز الحكومة وما كان ليجعل الحاكم في هذا المقطع الزمنيّ غافلًا عن التيّار العميق والمستمرّ لدعوة أهل البيت عليهم السلام.

في هذا العصر، الشّيء الوحيد الّذي كان من الممكن أن يمنح جهاد أهل البيت عليهم السلام وحركتهم الفكريّة والسّياسيّة، هم وأتباعهم، مجالاً للاستمرار والتكامل، هو السعي دون هوادة والجهاد الخطير واعتماد أسلوب التقيّة الإلهية. وبهذا اللحاظ تتضّح العظمة المدهشة لجهاد موسى بن جعفر عليه السلام.

يجب أن أقول أنّه عندما قام المحقّقون والمتعمّقون في التّاريخ الإسلاميّ، بتتبّع ودراسة حياة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فإنّهم لم يُخصّصوا القدر اللازم من الالتفات والانتباه لتلك الحادثة العظيمة والّتي لا نظير لها وهي «مدّة السّجن الطّويلة» لهذا الإمام الهمّام، ولهذا كانت النتيجة أن غفلوا عن جهاده الخطير.

وفي سيرة حياة هذا الإمام العالي المقام عليه السلام، فإنّ الحديث عن الوقائع المختلفة وغير المترابطة فيما بينها، والتّأكيد على المقام العلميّ

والمعنـويّ والمقدّس لسليل النبوّة؛ ونقل قضايا آل بيته وأصحابه وتلامذته ومناظراتـه العلميّـة والكلاميّة وأمثالها، من دون التوجّـه إلى خطّ الجهاد المستمرّ الّذي شمل مدّة إمامته المباركة الممتدّة لـ 35 سنة، كلّ ذلك يبقى ناقصاً وغير تام. فبشرح وتبيين هذا الخطّ، الّذي يربط جميع أجزاء هذه الحياة المليئة بالبركة فيما بينها، وبتقديم صورة واضحة ومتكاملة وهادفة فيها، تتّضح معاني كلّ ظاهرة أو حادثة أو حركة.

فلمـاذا يقول الإمـام الصادق عليه السلام للمفضّل: لا تُخبـر أحدًا عن أمر إمامـة هذا الفتى إلا لمن تثـق بهم؟ ولماذا يقول لعبد الرحمن بن الحجّاج تلميحًـا لا تصريحًا: هل كان الـدّرع على مقاسه؟ ولماذا يُعرّفه على شيعته المقرّبيـن كصفـوان الجمّال بالعلامـة والصّفة؟ ولماذا فـي نهاية الأمر، يذكر في وصيّته اسم ابنه كوصيّ له بعد ذكر أربعة أسماء، أوّلهم المنصور العبّاسـي ومن ثمّ حاكم المدينة ومن ثمّ امرأتين؛ بحيث أنّ جمعًا من كبار الشّيعـة لا يعرفـون بعـد ارتحالـه، أنّ خليفته هو هذا الفتى ابـن العشرين سنـة؟ ولماذا فـي حديثه مع هـارون الّذي خاطبه قائـلًا: «خليفتان يجيء إليهمـا الخـراج»[1] يتنكّر ويلاطف، في حيـن أنّه في بدايـة خطابه لذلك الرجـل الزاهد صاحب الكلمـة النافذة المدعوّ حسن بـن عبد الله، ينجرّ الحديث إلـى معرفة الإمام، ويعرّفه بعنوان الإمـام المفترض الطاعة، أي صاحب المقام الّذي كان في ذلك اليوم الخليفة العبّاسي قابضًا عليه؟؟

ولمـاذا يأمر علي بن يقطين ـ الّذي كان صاحب منصبٍ رفيعٍ في جهاز

(1) الاحتجاج على أهل اللجاج، الطبرسي، ج 2، ص 389.

هــارون وهو من محبّي الإمام عليه السلام - بالعمـل بالتقيّة، لكنّه يوبّخ صفوان الجمّـال علـى خدمته في ذلك الجهـاز نفسه ويدعوه إلـى قطع علاقته مع الخليفـة؟ وكيف وبأيّ وسيلة يوجد تلك العلقة والرابطة على امتداد انتشار الإسـلام بين أتباعـه وشيعته فتمتدّ تلك الشبكة إلـى الصّين؟ لماذا يعزم كلّ مـن المنصـور والمهديّ وهارون والهادي، فـي مرحلة حكمه، على قتله وحبسـه ونفيه؟ لماذا، كما يُعلم من بعض الروايات، يتخفّى الإمام عليه السلام فـي مدّةٍ من الزمن أثنـاء هذه الـ 35 سنة، ويلجأ إلـى بعض قرى الشام أو مناطق طبرستان فتتمّ ملاحقته من قِبَل خليفة ذلك الزّمان ويوصي أتباعه بالتنكّر له وعدم معرفته فيما لو سألهم الخليفة عنه؟

لمـاذا يقـوم هارون فـي موسم الحجّ بتجليلـه إلى أعلى حـدّ، وفي حجٍّ آخر يأمر بحبسـه ونفيه؟ ولماذا يقوم الإمام عليه السلام ببيان حدّ فدك الّذي يشمل كلّ العالم الإسلاميّ المترامي في بداية خلافة هارون، عندما انتهج أسلـوب اللين والصّفـح وحرّر العلويّين من السّجون إلـى الدرجة الّتي كان يُجيبـه الخليفـة معترضًـا: إذًا، قم واجلس مكاني؟ ولماذا يتبـدّل سلوك هـذا الخليفـة الليّن بعد عدّة سنـوات إلى الشدّة والعنـف حتّى أمر بحبس الإمـام عليه السلام، وبعدها بسنـوات لم يعد يتحمّل وجوده فـي السجن فيأمر بقتله بالسمّ وارتكاب تلك الجريمة؟

هذه ومئات الأحداث الملفتة والمليئة بالمضمون، والّتي بحسب الظاهر غيـر مترابطة ومتناقضـة أحيانًا فيمـا بينها، تصبح في حيـاة موسى بن جعفر عليه السلام، ذات معنى وارتبـاط عندما نشاهد تلك السّلسلة المستمرّة منـذ بدايـة إمامتـه وإلى لحظـة شهادته. وهـذه السّلسلة هـي خطّ جهاد

ومواجهة الأئمّة عليهم السلام ، والّذي استمرّ طيلة 250 سنة وبأشكالٍ مختلفة وكان الهدف منه؛ أوّلًا: تبيين الإسلام الأصيل والتّفسير الصحيح للقرآن وتقديم صورة واضحة عن المعالم الإسلاميّة؛ وثانياً: تبيين قضيّة الإمامة والحاكميّة السّياسيّة في المجتمع الإسلامي؛ وثالثًا: السّعي من أجل تشكيل ذلك المجتمع وتحقيق هدف نبيّ الإسلام المعظّم وجميع الأنبياء، أي إقامة القسط والعدل وعزل أنداد اللّه عن ساحة الحكومة وإيداع زمام إدارة الحياة إلى خلفاء اللّه وعباده الصالحين.

لقد أوقف الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كلّ حياته لهذا الجهاد المقدّس؛ وكان تعليمه وفقهه وحديثه وتقيّته وتربيته كلّها في هذا الاتّجاه. بالطّبع، كان لزمانه خصائصه؛ لهذا كان جهاده أيضًا متناسبًا مع مقتضيات زمانه؛ مثلما كان الأمر بالنسبة للأئمّة الثّمانية من زمن الإمام السجّاد عليه السلام إلى زمن الإمام العسكريّ، حيث كان لكلّ واحدٍ أو لمجموعة منهم خصائص في زمانه وبتبع ذلك في جهاده. وكانت حياتهم بالمجموع عبارة عن المرحلة الرابعة من مسيرة حياة الـ 250 سنة والّتي يمكن تقسيمها أيضًا إلى مراحل.

(1989/10/18)

السّعي دون كللٍ واعتماد أسلوب التقيّة

كانــت حيــاة موســى بن جعفــر عليه السلام، حيــاةً مدهشة وعجيبــة. ففي حياتــه الخاصّــة أوّلًا، كان الأمر واضحًــا بالنّسبة للمقرّبيــن. فلم يكن أيٌّ من هــؤلاء المقرّبين والخواص من الأصحاب من لا يعلم بالهدف من وراء جهــاده. وكان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام نفسه يُصرّح بهذا في كلماته وإشاراتــه وأعمالــه الرّمزيّــة لغيرهم أيضًــا. حتّى في محــلّ إقامته، تلك الغرفــة الخاصّة الّتــي كان يستقرّ فيها، كان الأمر بحيــث إنّ الراوي الّذي كان مــن المقرّبيــن من الإمام عليه السلام يقــول: لقد دخلــتُ ورأيتُ في غرفة موسى بن جعفر ثلاثة أشياء؛ أحدها لباسٌ خشن بعيدٌ كلّ البعد عن الوضع السّائد المرفّه العاديّ. أي بحسب مصطلح اليوم يمكن الفهم ويمكن القول إنّــه لباس حربٍ. لقد وضع موسى بن جعفر هــذا اللباس لم يلبسه؛ وضعه بصــورة شيءٍ رمــزيّ. و«سيفٌ معلّــق» أي إمّا أن يكون متدلّيًــا من السّقف أو معلّقًــا بالجــدار، و«المصحف»[1] أي القرآن. فانظــروا أيّ رمزٍ هذا وأيّ إشارةٍ جميلة حيث نُشاهد في غرفته الخاصّة الّتي لا يدخلها سوى أصحابه

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 48، ص 100.

الخواصّ، علامات ومؤشّرات رجلٍ يملكُ عقيدة جهاديّة واضحة. والسّيف الموجـود كان يُشير إلى أنّ الهدف هو الجهـاد. واللباس الخشن يُشير إلى الوسيلة وهي الحياة الخشنة القتاليّة والثوريّة؛ والقرآن يُشير إلى أنّ الهدف هـو أنّنا نريد الوصول إلى حياة القرآن بهـذه الوسائل وهذه الصّعاب الّتي نتحمّلها؛ أمّا أعداء هذا الإمام عليه السلام فكانوا يشعرون بهذه الأمور.

إنّ حيـاة موسـى بـن جعفـر، أي إمامتـه، بدأت فـي أصعـب المراحل والمقاطـع الزمنيّـة. فباعتقـادي لا يوجـد عصـر مـن بعد عصـر الإمام السجّاد عليه السلام بشدّة وصعوبة عصر موسى بن جعفر عليه السلام. فموسى بن جعفر عليه السلام صار إمامًا عام 148 بعـد وفاة أبيه الإمام الصّادق عليه السلام. وفـي هـذا العام كانـت أوضاع بني العبّاس قد استتبّت، بعـد فراغهم من الصّراعـات والخلافـات والحروب الّتي كانت دائرة فيمـا بينهم في بداية حكمهم. فقـد قضوا على التّهديد الكبير لخلافتهـم والّذي كان يجيء من شخصيّات وجيهة كبني الحسن - محمّد بن عبد اللّه بن الحسن وإبراهيم بـن عبـد اللّه بن الحسن وبقيـة أولاد الإمام الحسن الّذيـن كانوا من أشدّ النّاس عداءً ونقمةً على بني العبّاس - حيث قتل العبّاسيّون عددًا كبيرًا من رؤسائهـم ووجهائهم، وتبيّن هذا الأمر بعد فتـح الأسطوانات والأنبار عند مـوت المنصور العبّاسي، حيـث وجدوا فيها عددًا كبيـرًا من الشّخصيّات والأفـراد المقتولين الّذيـن رُميـت أجسادهم وظهرت هياكلهـم العظمية أيضًـا. فلقد قتل المنصور من الشخصيّـات المشهورة والمعروفة من بني الحسـن وبني هاشم من أقاربه ومـن الّذين كان يعدّون من المقرّبين لهم، بحيـث إنّه بنى لذلك مخازن خاصّة. وبعد أن فرغ من كلّ هؤلاء وصل الأمر

إلى الإمام الصادق عليه السلام، فقتلـه بالسمّ غيلةً. ولم يعد في أجواء الحياة السّياسيّـة للعبّاسيين أيّ غبارٍ، في مثـل هذه الظّروف الّتي كان يتمتّع فيها المنصور بأوج السّلطة الظّاهريّة والقدرة، جاء دور خلافة موسى بن جعفر عليـه الصّـلاة والسلام، الّـذي كان شابًّا فـي مقتبل العمـر، وكان يخضع لـكلّ هـذه الرّقابة. وكان الأمـر بحيـث إنّ الّذين كانوا يريـدون أن يعرفوا إلى مـن يرجعون بعد الإمـام الصادق عليه السلام كانوا يجـدون صعوبة بالغة في شـقّ الطّريق والوصـول إلى موسى بن جعفـر عليه السلام. وكان موسى بن جعفـر عليه السلام يوصيهـم بالحذر لأنّه لو عُرف أنّهم قـد سمعوا منه وأخذوا مـن تعاليمه وارتبطوا بـه سيكون مصيره الذبح. ففي مثـل تلك الظّروف، وصل الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إلى الإمامة وبدأ جهاده.

وهنـا لو سألتم أنّه كيـف بدأ موسى بن جعفر جهـاده عندما وصل إلى الإمامـة؟ وماذا فعل؟ ومن جمع؟ وأين ذهب؟ وأيّ أحداثٍ جرت عليه طيلة هـذه الـ 35 سنة؟ فللأسـف ليس لهذا العبد جوابٌ واضـح، وليس لي سوى الغصـص كمحقّقٍ فـي حياة صدر الإسـلام. فلا يوجد في يـد أحد سيرةٌ منظّمـة ومدوّنة عن هذه المرحلة الممتدّة علـى 35 سنة. إنّ ما أذكره هنا لـم يُكتب، ولم يجرِ حوله أبحاثٌ وتحقيقات، لأجل هذا، ينبغي القيام بمثل هذا الأمر. هناك أشياءٌ متفرّقة يُمكن أن نفهم من مجموعها أشياء كثيرة.

إحداهـا أنّ هنـاك أربعـة خلفاء حكموا في هذه السنوات الـ 35 من عهد إمامـة موسى بن جعفـر عليه السلام. ومنهم المنصـور العبّاسـي، الّذي امتدّ حكمـه لعشر سنـوات من بداية إمامة الإمام موسـى بن جعفر عليه السلام، ثمّ جـاء ابنه المهـديّ من بعده وحكم لعشر سنوات أيضًـا. ومن بعد المهديّ،

جـاء الهادي العبّاسي ليحكم سنةً واحدة، ومن بعـده هارون الرّشيد الّذي حكم لمدّة 12 سنة تقريبًا، وقد كان الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مشغولًا بالتّبليغ والدّعوة إلى الإمامة. وكلّ واحد من هؤلاء الخلفاء الأربعة، ضايقوا موسى بن جعفر عليه السلام وضغطوا عليه.

كان المنصـور قد استدعى الإمام عليه السلام بمعنى أنّه قد نفاه أو أحضره جبـراً إلى بغـداد. وبالطّبع، مـا أعرضه هنا هو بعض تلـك الحوادث التي جـرت. عندما ينظر المرء إلى حياة موسى بـن جعفر يرى الكثير من هذه الحوادث؛ وإحداها هو استحضاره من المدينة إلى بغداد وجعله فيها تحت الرّقابـة والضّغوط. وما نستنتجه مـن الروايات أنّ الإمام عليه السلام قد وُضع في الكثير من المشاكل. وكـم امتدّت هذه الحالة، ليس معلومًا. وذات مرّة أحضـروا الإمـام في زمان المنصـور إلى منطقةٍ في العـراق تُدعى أبجر، حيث نفـوه لمدّةٍ ما، يقول الراوي وصلت إلى هناك، إلى محضر موسى بن جعفر عليه السلام ، في ظلّ تلك الأحداث، وكان الإمام يقول كذا ويفعل كذا.

وفي زمن المهديّ العبّاسي، أُحضر الإمام عليه السلام مرّة واحدة على الأقل من المدينة إلى بغداد. يقول الراوي: كُنتُ في الطّريق الذي سلكه موسى بن جعفر، فـي المرّة الأولى التي كانوا يحضرونه فيها إلى بغـداد ـ فيُعلم من هذا التّعبير أنّ الإمـام عليه السلام كان قد أُحضـر عدّة مرّات إلى بغداد، وأنـا أحتمل أن يكون قـد حصل ذلك مرّتين أو ثلاث في زمن المهـدي ـ فوصلت إلى الإمام عليه السلام وتأسّفت وحزنت. فقال لي الإمام: كلّا، لا تغتم، فسأرجع من هذا السفر سالمًا، ولن يتمكّن هؤلاء من إلحاق أيّ ضررٍ بي؛ هذا كان في زمان المهديّ.

وفـي زمن الهـادي العبّاسـي، أرادوا إحضار الإمام لقتلـه، فحزن أحد

الفقهاء المحيطين بالهادي العبّاسي وتألّم قلبه عندما رأى ابن النبيّ يُفعل به هـذا، فتوسّط للهـادي العبّاسي، فانصرف عن قتلـه. وفي زمن هارون أيضًا، كانوا قـد أحضروا الإمام عليه السلام إلى بغداد، لمدّة طويلة وعلى عدّة مراحـل، حيث أحتمل أيضًا أنّه تـمّ إبعاد الإمام عن المدينة أكثر من مرّة، ولكـنّ القـدر المتيقّن هـو أنّه تمّ إحضـاره مرّة واحدة، وحُبِس في أماكن مختلفـة، كانت بغداد واحدة منها، كما وُضع في سجون متعدّدة أيضاً، كان آخرها سجن السنديّ بن شاهك حيث استُشهد.

انظروا كيف أنّه تم إحضار الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عدّة مرّات، على امتداد هـذه السنوات الـ 34 أو 35، أثناء انشغاله بالدعوة إلى الإمامة والقيـام بالتكليـف. علاوة على ذلك، فـإنّ خلفاء عصره كانـوا قد تآمروا عـدّة مـرّات على قتله. فبمجـرّد أن وصل المهدي العبّاسـي ابن المنصور إلى الحكومة حتّى قال لوزيره أو حاجبه الرّبيع أنّه عليك أن تعدّ العدّة لقتل موسى بن جعفر عليه السلام والقضاء عليه، حيث كان يشعر أنّ الخطر الأساس كان يأتـي من جانب موسى بن جعفـر عليه السلام. وكان الهادي العبّاسي، كما ذكرت، قد عزم في بدايـة حكومته على قتل الإمام عليه السلام. حتّى أنّه أنشد شعـرًا، قائلًا: لقد ولّى الزمان الّذي نعامل فيه بني هاشم باللين ونستسهل أمرهـم، وإنّني عازمٌ وحـازمٌ على ألّا أُبقي منهم أحـداً، وأوّل من سأقضي عليـه هو موسى بن جعفر. وفيما بعد، أراد هـارون الرّشيد أن يقوم بالأمر نفسـه، وقد فعل وارتكـب هذه الجريمة الكبـرى. فانظـروا أيّ حياةٍ مليئة بالأحداث مرّت على موسى بن جعفر عليه السلام.

عـلاوة على ما ذُكر، لا يوجد نقاطٌ كثيـرةٌ دقيقة وواضحة في حياة موسى

بن جعفر عليه السلام. من المؤكّد أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام كان يعيش في مرحلة ما من حياته متخفّيًا ولم يكن معلومًا أين كان يستتر. وفي ذلك الزّمان كان الخليفة يستدعي من وقتٍ لآخر أفرادًا ويُحقّق معهم حول إذا ما كانوا قد رأوا موسى بن جعفر عليه السلام ويسألهم عن مكانه. وكانوا هم يُصرّحون بأنّهم لم يُشاهدوه؛ حتّى أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام - كما جاء في رواية - كان قد أخبر أحد هؤلاء بأنّهم سيرسلون في طلبك ويسألونك أين رأيت موسى بن جعفر، فأنكر ذلك تمامًا وقال إنّني لم أره. وهذا ما حصل بالفعل، فقد جاؤوا به وسجنوه من أجل أن يسألوه عن مكان موسى بن جعفر.

انظروا إلى حياة إنسانٍ لم يكن يفعل سوى أنّه كان يقوم ببيان الأحكام والمعارف الإسلاميّة ولا يتدخّل في الحكومة أو يُمارس المواجهة السّياسيّة، انظروا كيف وضعوه تحت مثل هذه الضغوط. حتّى إنّني رأيت في إحدى الرّوايات بأنّ موسى بن جعفر كان يتخفّى في قرى الشّام، «دخل موسى بن جعفر عليه السلام بعض قرى الشّام هاربًا متنكّراً فوقع في غار»[1]. وقد رُوي في حديثٍ أنّ موسى بن جعفر لم يكن في المدينة لمدّة من الزّمن، وكان يُلاحَق في قرى الشّام من قِبَل الأجهزة الحاكمة، حيث كانت تُرسل الجواسيس في أثره وتلاحقه من هذه القرية إلى تلك القرية، ومن تلك القرية إلى هذه القرية، في لباس مختلف وغير معروف، إلى أن وصل الإمام عليه السلام إلى غارٍ ودخله، فوجد فيه نصرانيًّا. فراح الإمام يتباحث معه، فحتى في مثل هذا الوقت، لم يكن الإمام عليه السلام غافلًا عن تكليفه الإلهيّ في بيان الحقيقة، فيتحدّث مع ذلك النصرانيّ ويُسلم.

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 48، ص 105.

جهاد الإمام عليه السلام ومعارضته لحكم هارون

هكـذا كانـت حيـاة موسى بن جعفـر عليه السلام حيـاةً مليئـة بالأحداث، وكمـا تـرون فقد كانت حيـاةً جيّاشة. نحـن اليوم ننظر فنظـنّ أنّ موسى بـن جعفر عليه السلام هـو مجرّد شخص مظلـوم، يعيش حياةً هادئـةً ومرفّهة فـي المدينـة، فيأتي عمّال الخليفة إليه ويأخذونه إلـى بغداد أو إلى الكوفة أو إلـى البصـرة، لحبسـه وتسميمه فيما بعـد، فيستشهد وتنتهـي الأمور. لـم تكن القضيّة هكذا. بـل كانت عبارة عن جهادٍ طويـلٍ ومواجهة منظّمة تحـوي الكثير مـن الأفراد. وكان لموسـى بن جعفر أتباعٌ فـي جميع أرجاء العالـم الإسلامـيّ يُحبّونه. وفي ذلك الزّمان نجد ابـن عمّه السيّئ الذكر، والّـذي كان مـن الأشخاص التابعيـن للجهاز الحاكم، يقـول لهارون بشأن موسـى بن جعفر عليه السلام هذه الجملة: «خليفتان يجـيء إليهما الخراج»[1]. وكأنـه يريـد أن يقول لهارون أنّـه لا تتصوّر أنّك الخليفـة الوحيد على هذه الأرض وداخل المجتمع الإسلاميّ وأنّك والوحيد الّذي تُجبى إليه الخراج. بـل يوجد خليفتان أحدهما أنت والآخـر هو موسى بن جعفر عليه السلام. فكما

(1) الاحتجاج، ج2، ص 389.

أنّ النّاس يُعطونك الخِراج فإنّهم يُعطونه كذلك لموسى بن جعفر عليه السلام. وقد أراد بهذا الخبث السعاية في الإمام، ولكنّه كان يذكر الواقع. لقد كان لموسى بن جعفر عليه السلام روابط وعلاقات ممتدّة عبر جميع مناطق العالم الإسلاميّ، غاية الأمر أنّ هذه العلاقات لم تصل إلى حيث يتمكّن موسى بن جعفر عليه السلام من القيام بحركةٍ عسكريةٍ علنيّة.

لقد بقي حال موسى بن جعفر عليه السلام هكذا إلى أن وصل الأمر إلى هارون الرشيد. كان هذا في الوقت الّذي لم يعد في المجتمع الإسلاميّ أيّ معارضة للجهاز الحاكم، وكان هارون الرّشيد يحكم فارغ البال تقريبًا، لكنّ وضع حياة موسى بن جعفر عليه السلام وانتشار دعوته لم يجعل مواجهة أمره من قبلهم سهلًا. وقد كان هارون سياسيًّا محنّكًا. ومن أعماله أنّه توجّه وذهب إلى مكّة حيث يحتمل الطبري ـ المؤرّخ المعروف، أو يذكر ذلك على نحو اليقين ـ أنّ هارون الرّشيد قد عزم على الحجّ وكان هدفه أن يذهب إلى المدينة خفاءً، ويطّلع على أوضاع موسى بن جعفر عليه السلام عن قرب. فأراد أن يرى هذه الشّخصيّة الّتي يجري كلّ هذا الحديث عنها، ولها كلّ هؤلاء الأتباع حتّى في بغداد، وهل أنّه ينبغي أن يُخاف منه، فجاء والتقى بموسى بن جعفر عليه السلام وكان هذا اللقاء مهمًّا جدًّا وحسّاسًا للغاية. أولى هذه اللقاءات كانت في المسجد الحرام عندما التقى كلّ من موسى بن جعفر عليه السلام وهارون خفاءً وجرت بينهما محادثات شديدة وحادّة، وحطّم موسى بن جعفر عليه السلام هيبة هذا الخليفة في محضر الموجودين، وهناك لم يكن هارون ملتفتًا إلى أنّ هذا هو موسى بن جعفر عليه السلام.

وبعد أن يأتي إلى المدينة، يعقد عدّة جلسات مع موسى بن جعفر عليه السلام، وكانت هذه اللقاءات مهمّة. وإنّني أُشير بهذا المقدار عسى أن يُتابع أهل الدّراسات والتّحقيق والمهتمّين بهذه القضايا، فهذه بعض الرّشحات وليتابعوا هم هذه القضيّة. منها هنا، أنّ هارون الرشيد وفي هذه اللقاءات قد استعمل كلّ ما أمكنه من تهديد ورشوة وحيلة من أجل السيطرة على هذا الإنسان المعارض والمجاهد الحقيقي.

(1985/04/12)

إنّ هارون كان يُعامل الإمام الكاظم عليه السلام معاملة جيّدة وحسنة وذلك خلال المرحلة الأولى من تصدّيه للحكم. والقصّة الّتي ينقلها المأمون حول الإمام الكاظم عليه السلام معروفة وملخّصها أنّ الإمام عليه السلام كان يمتطي دابّة وجاء ودخل إلى المكان الّذي كان يجلس فيه هارون وأراد الإمام عليه السلام أن يترجّل عنها، ولكن هارون لم يرضَ بذلك وأقسم عليه أن يبقى راكبًا ويأتي بدابّته إلى بساطه، وعندما جاء الإمام عليه السلام راكبًا على بساط الخليفة احترمه هارون وبقيا مدّة يتبادلان الحديث. وعندما عزم الإمام عليه السلام على الرّحيل طلب هارون مني (أي من المأمون) ومن الأمين أن نأخذ بركاب أبي الحسن.. إلى آخر القصّة. والشّيء الملفت في هذه القصّة هو ما نقله المأمون عن أنّ أبيه هارون: هارون، والدي، قد أعطى جميع الحاضرين في المجلس 5 آلاف دينار و 10 آلاف دينار (أو درهم) كهدية وجائزة، ولكن أعطى لموسى بن جعفر عليه السلام 200 دينار، علمًا بأنّه عندما كان الخليفة يسأل عن وضع الإمام عليه السلام كان الإمام عليه السلام يُجيبه مبيّنًا له المشكلات والأوضاع المعيشية السيّئة وكثرة

العيـال. فهذا الكلام من الإمـام عليه السلام يحمل في طيّاته معنًى دقيقاً، فأنا وبقيّـة الّذين عاشوا تجربة التقيّة في زمان مواجهة الشاه نستطيع أن نفهم ونُـدرك لماذا ذكر الإمام عليه السلام ولمثل هـارون وضعه السيّئ وعدم كفاية المعيشة، فهذا الكلام ليس فيه تذلّلٌ.

الكثير منكم وفي عهد القمع والظّلم قد فعلتم مثلما فعل الإمام عليه السلام، لأنّ الإنسان ومن خلال هذا الكلام يستطيع أن يُبعد نظر العدوّ عن أعماله ونشاطاتـه. ومـن الطبيعيّ أنّ هـارون وبعد استماعه إلـى مثل هذا الكلام كان ينبغـي أن يُعطـي الإمام مبالغ طائلة 50 ألف دينـار (أو درهم) مثلاً. ولكنّـه رغـم هذا كلّه لـم يُعطه أكثر مـن 200 دينار! يقـول المأمون سألت أبـي عن سبب إعطائـه القليل فأجابني إذا أعطيتـه المبلغ الّذي في ذمّتي لخرج، ولقام مئة ألف فارس من الشّيعة، بعد فترةٍ وجيزة، ضدّي. كان هذا استنتاج وفهم هارون؛ وبرأيي، إنّ هارون كان صائبًا في فهمه. هنا يتصوّر البعض أنّه قد تـمّ السّعاية والوشاية بالإمام عليه السلام لكـنّ حقيقة القضيّة عكـس ذلك وهـو ما قلنـاه. لأنّه لـو كان الإمام عليه السلام يملك مـن الأموال الكافية في زمان جهـاده ونضاله ضدّ هـارون لاستطاع استقطاب الكثيرين ليُحاربـوا إلى جانبه. وهذا الوضع لاحظنـاه في زمان أبناء الأئمّة عليهم السلام. بالتأكيد، لو كان الأئمّة يملكون المال الكافي لاستطاعوا جمع عددٍ أكبر من النّـاس حولهم. وعلـى هذا نجد أنّ عهد الإمـام الكاظم عليه السلام كان عهدًا وصـل فيه الجهـاد والكفاح إلى أوجـه حتّى انتهى باعتقـال الإمام عليه السلام وسجنه.

(1986/07/19)

رُوي أنّــه قيل لموسى بن جعفر عليه السلام : أنتم يـا بني هاشم قد حُرمتم مــن فدك، وقد أخذوا فدك من آل علي، وأنــا أريد أن أُرجعها إليكم، قولوا لــي أين هي فـدك وما هي حدودها حتّــى أُرجعها إليكم. ومـن الواضح أنّ هذا كان مجرّد خداع هدفه إظهار أنّه قد أرجع حقّ آل محمد الضائع، وأن يُعـرف بين النّاس بذلك. فيقول له الإمــام: حسنٌ، إذا أنت أردت أن ترجع لنــا فـدك، فأنا سأعيّن لك حدودهــا. وهكذا تقرّر أن يُحـدّد له فدك. وما ذكـره الإمــام موسى بن جعفـر عليه السلام في تعيين فـدك كان عبارة عن كلّ العالم الإسلامي؛ وفدك هي هذه. أي إنّك إذا كنت تتصوّر أنّ نزاعنا معك هو حول بستان ما وعدّة أشجارٍ من النخيل فهذه سذاجة.

فقضيّتنا هنا ليست قضيّة بستان فدك مع نخيله، بل القضيّة هي قضية خلافــة النبيّ وخلافة الحكومة. غاية الأمــر، إنّ الشيء الّذي كان يُظنّ أنّه سيحرمنــا من هذا الحقّ حرمانًا كامــلًا في ذاك اليوم هو مصادرة فدك. لهذا كُنّا نُصرّ ونؤكّد على هذه القضيّة. أمّا اليوم فإنّ الشيء الّذي غصبتنا إيّـاه ليس فدكاً، الّتي لـم يعد لها قيمــة. وإنّ ما غصبته منّــا هو المجتمع الإسلامــي والبلاد الإسلاميّة. فيذكر موسى بـن جعفر أربعة حدودٍ ويقول هــذه فدك، فأرجعهــا إلينا. أي إنّ الإمام موســى بن جعفر عليه السلام يُصرّح بدعوى الحاكمية والخلافة في ذلك المجلس.

(1385/04/12)

رُوي أنّ هــارون الرّشيد قال لموسى بـن جعفر عليه السلام يومًا: «خُذ فدكًا حتّــى أردّها إليــك»، امتنـع الإمام عليه السلام فــي البداية، وقــال بعدها: «**لا آخذهــا إلا بحدودهــا**». فيقول له بعدها: «حسنٌ، خذها». ومن الملفت جدًّا

أنّ الإمام عليه السلام يُعيّن له حدودها ويقول: «**أمّا الحدّ الأوّل فعدن**»؛ ولأنّهما كانا جالسين مثلًا في المدينة أو في بغداد يتحدّثان، أضاف: «**عدن**» أي نهاية جزيرة العرب. «فتغيّر وجه الرشيد، وقال: إيهاً»، قال: «**والحدّ الثاني سمرقند**»، فأربد وجهه، «**والحدّ الثالث إفريقيا**» (أي الحدّ الثالث كان تونس) فاسودّ وجه هارون الرشيد؛ وقال: «**هنيه هيه**»، عجيب أيّ كلام هذا. قال: «**والرابع سيف البحر ما يلي الخزر وإرمينية**». والتي هي أرمينيا اليوم وما يليها حتّى البحر المتوسط. فقال الرشيد: «لم يبقَ لنا شيء، فتحوّل إلى مجلسي». فردّ عليه موسى بن جعفر عليه السلام : «**قد أعلمتك أنّني إن حدّدتها لم تردّها**» فعند ذلك عزم على قتله[1].

(1986/07/19)

شهادة الإمام الكاظم عليه السلام

عندما يريد هارون الرّشيد أثناء الدخول إلى حرم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة في ذلك السفر أن يتظاهر بين المسلمين الّذين يزورونه، ويعلن قرابته من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، ينزل إلى قبره ويقول: «السلام عليك يا بن العمّ»، فلا يقول: «يا رسول الله»، فيأتي موسى بن جعفر عليه السلام مباشرةً ويقف

(1) راجع: بحار الأنوار، ج 29، ص 201. في مناقب ابن شهرآشوب، في كتاب أخبار الخلفاء أن هارون الرشيد كان يقول لموسى بن جعفر عليه السلام : «خذ فدكاً حتى أردها إليك، فيأبى حتى ألحّ عليه فقال عليه السلام : «**لا آخذها إلا بحدودها**» قال: وما حدودها؟ قال عليه السلام : «**إن حدّدتها لم تردّها**»، قال: بحقّ جدّك إلا فعلت؟ قال عليه السلام : «**أمّا الحدّ الأوّل فعدن**»، فتغيّر وجه الرشيد وقال: إيها، قال عليه السلام : «**والحد الثاني سمرقند**»، فاربدّ وجهه قال: «**والحد الثالث إفريقية**»، فاسودّ وجهه وقال: هيه، قال عليه السلام : «**والرابع سيف البحر مما يلي الجزر وأرمينية**»، قال الرشيد : فلم يبق لنا شيء، فتحوّل إلى مجلسي، قال موسى عليه السلام : «**قد أعلمتك أنني إن حدّدتها لم تردها**»، فعند ذلك عزم على قتله».

قبال الضّريح ويقول: «**السلام عليك يا أبتاه**»[1]، أي إذا كنت أنت ابن عمّه، فهو أبي. فيفضح هذا الأسلوب التزويريّ لهارون في هذا المجلس نفسه.

شعـر من كان مـن حواشي هـارون الرشيـد أنّ أكبر خطـر على جهاز الخلافـة هو وجـود موسى بن جعفـر عليه السلام. هناك وقف رجـلٌ من أتباع جهـاز الحكومة والسّلطـة ورأى أنّ شخصًا راكبًا يأتـي من دون أي نوع من الاعتبـارات، ومـن دون أن يمتطـي حصانًا فاخرًا، ومجـرّد أن جاء فُتح له الطّريـق وعلى الظّاهر في نفس سفر المدينـة ذاك، على ما أظن، ويدخل ويســأل ذاك الرجـل: من هو ذا الّذي إذا دخل، خضـع الجميع أمامه وفتح له حواشي الخليفة الطّريق ليدخل. قيل له: هذا موسى بن جعفر. وبمجرّد أن قالـوا له ذلك، قال: ويلٌ لحماقة هؤلاء، أي بني العبّاس، يجلّون شخصًا يريد زوالهم والقضاء على حكومتهم. فقد كانوا يعلمون أنّ خطر موسى بن جعفـر عليه السلام على جهاز الخلافة هو خطرُ قائدٍ كبير يتمتّع بالعلم الوسيع والتقـوى والصـلاح، ويعرفـه الجميع وله أتبـاعٌ ومحبّون فـي جميع أرجاء العالم الإسلامي؛ ويتمتّع بشجاعةٍ لا تخيفه أيّ قوّةٍ مهما بلغت، ولهذا يقف فـي وجه الأبّهـة الظّاهرية لسلطنة هارون ويتحدّث مـن دون أيّ محاباةٍ أو مجاملة.

مثـل هكـذا شخصيّة مجاهـدة ومناضلـة ومتّصلة بـالله ومتوكّلة على الله لها أنصارٌ فـي جميع أرجاء العالم الإسلامي ولديها خطّة لأجل إقامة الحكومـة والنّظـام الإسلاميـين. كان هذا يمثّـل أكبر خطـر على حكومة

(1) بحار الأنوار، ج48، ص 103.

هارون. لهذا، قرّر هارون أن يزيل هذا الخطر من أمامه. بالطبع، لقد كان هارون رجلًا سياسيًّا لهذا لم يقم بهذا العمل دفعةً واحدة. ففي البداية، كان يرغب أن يتمّ هذا الأمر بطريقة غير مباشرة. بعدها وَجد أنّه من الأفضل أن يسجن موسى بن جعفر عليه السلام، لعلّه يستطيع في السجن من التفاوض معه أو إعطائه امتيازات وأن يضعه تحت الضّغوط من أجل حمله على القبول والإذعان والتسليم. لهذا أمر باعتقال موسى بن جعفر عليه السلام وإحضاره من المدينة؛ ولكن بطريقة لا تخدش مشاعر أهل المدينة ولا يعرفون ما حلّ بموسى بن جعفر عليه السلام. لهذا، صنعوا مركبين ومحملين ووجّهوا واحدًا منهما إلى العراق وآخر إلى الشام من أجل أن لا يعرف النّاس إلى أين يأخذون موسى بن جعفر. فجاؤوا بموسى بن جعفر إلى مركز الخلافة في بغداد وسجنوه هناك، وامتدّ هذا السّجن لوقتٍ طويل. بالطّبع، ليس من المسلّم أنّ الإمام عليه السلام قد أُخرج من السّجن دفعةً واحدة واعتُقل مجدّدًا، ولكن من المسلّم أنّه اعتُقل مرّة أخرى من أجل أن يُقتل في السجن وهذا ما فعلوه.

بالتأكيد، كانت شخصيّة موسى بن جعفر عليه السلام داخل السّجن هي تلك الشّخصيّة الّتي تُشبه المنارة الهادية لكلّ من كان يُحيط بها. فانظروا، الحقّ هو هذا، إنّ حركة الفكر الإسلاميّ والجهاد الّذي يقوم على أساس القرآن هما مثل هذه الحركة، فلا يُمكن أن تتوقّف لحظةً واحدة حتّى في أصعب الظّروف وهذا هو العمل الّذي قام به موسى بن جعفر عليه السلام حيث يوجد في هذا المجال قصصٌ كثيرة وروايات عديدة؛ وواحدة من أكثرها جمالًا ولفتًا للنظر، أن السنديّ بن شاهك المعروف والّذي تعلمون عنه

أنّـه كان سجّانًـا عنيفًا جـدًّا وشديدًا ومن عبيـد العبّاسييـن والأكثر وفاءً لهـذه السلطنـة والخلافة في تلك الأيـام؛ وقد كان هذا سجّـان موسى بن جعفر عليه السلام ، وقـد سجن موسى بن جعفر عليه السلام في زنزانة مزرية تحت الأرض، في منزله. وكانت عائلة السنديّ بن شاهك في بعض الأوقات تنظر مـن طاقة إلى داخـل السجن وقد أثّر وضع حيـاة موسى بن جعفر عليه السلام فيهـم وغرس فيهم بذر محبـة أهل البيت. فأحد أبناء السنديّ بن شاهك، ويُدعـى كشاجم، هو من كبـراء التشيّع وأعلامهم. ولعـلّ كشاجم كان من أولاد السنـديّ لجيلٍ أو جيلين، وكان من عظمـاء الأدباء والشعراء وأعلام التشيّـع في زمانه، وقد ذكر الجميع هذا الأمر؛ اسمه كشاجم السندي وهو من أولاد السندي بن شاهك.

هـذا كان حال حياة موسـى بن جعفر في السّجـن. بالتأكيد لقد جاؤوا مـرّات إلـى الإمام فـي السجـن وهـدّدوه وطمّعـوه وأرادوا أن يُرغّبوه لكنّ هـذا الإنسان العظيم الّـذي اتّصف بتلك الصلابة الإلهيّـة، وبالتوكّل على الرّب المتعـال واللطف الإلهيّ ونفس هذا الصّمود هـو الّذي حفظ القرآن والإسلام إلى اليوم. اعلموا هذا، إنّ استقامة أئمّتنا في وجه تيّارات الفساد هـي الّتي أدّت بنا اليوم لإدراك الإسلام الحقيقيّ. يُمكن للأجيال المسلمة وأبنـاء البشر اليـوم أن يُدركوا شيئًـا باسم الإسلام والقـرآن وسنّة النبيّ فـي الكتب، أعمّ مـن كتب الشّيعة وحتّـى كتب أهل السنة. لـو لم تكن هذه الحركـة المجاهدة الشديدة للأئمّة عليهم السلام طيلة هذه الـ 250 سنة فاعلموا أنّ الكتّـاب والخطباء المأجورين لعصر الأمويين والعبّاسيين كانوا ليُبدّلوا الإسلام بالتدريج، وكانوا يفعلون ذلك، وبعد مرور قرنين، لما كان بقي من

الإسـلام، أو لما كان بقي القـرآن، أو لكان القرآن محرّفًا. إنّ هذه الرايات الخفّاقـة وتلك المشاعـر المتّقدة وهذه المنارات الرفيعـة هي الّتي وقفت في تاريخ الإسلام وأطلقـت شعاع الإسلام بحيث إنّ كلّ المحرّفين والّذين أرادوا أن يقلبوا الحقائق في تلك البيئة المظلمة لم يتمكّنوا من أن يُحقّقوا ما أرادوا. كان تلامذة الأئمّة عليهم السلام من جميع الفرق الإسلاميّة ولم يكونوا من الشّيعة فقط؛ وأولئـك الّذين كانوا من تلامذة الأئمّة والّذين لم يكونوا يعتقـدون بأهـداف التشيّـع، أي الإمامة الشيعيّـة، كانوا كثر. وقـد تعلّموا التفسيـر والقـرآن والحديث وسنّة النّبيّ من الأئمّـة. إنّ هذه المقاومة هي الّتي حفظت الإسلام إلى يومنا هذا.

في النهاية قُتل موسى بن جعفر عليه السلام في السجن مسمومًا. ومن أشدّ مـرارات سيرة الأئمّـة هي شهادة موسى بن جعفـر عليه السلام. وبالطّبع، لقد كانـوا يريدون في ذلك الوقت أن يتظاهروا بالحسنى. ففي الأيام الأخيرة، جـاء السنديّ بـن شاهك بمجموعة مـن الوجوه والمشاهيـر الكبار الّذين كانوا فـي بغداد ليجتمعوا حـول الإمام عليه السلام وقال لهم انظـروا إنّ وضع حياتـه جيّـد ولا يوجد أيّ مشكلة. فقال الإمـام عليه السلام : نعم، ولكن اعلموا أنّهم سيقتلونني مسمومًا. وقد قُتل الإمام مسمومًا ببضعة حبوب من التّمر، وتحت تلـك الأغلال والقيود الّتي قيّدوا بها عنقـه وقدميه، وهكذا ارتفعت روح الإمـام العظيـم والمظلوم والعزيـز في السجن، إلـى الملكوت الأعلى ووصل إلى الشهادة.

بالطبـع، كان هؤلاء يخافون من جنـازة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أيضًـا، وكذلك مـن قبر موسى بن جعفـر عليه السلام. ولهذا عندمـا أخرجوا

جنازة الإمام موسى بن جعفر عليه السلام من السّجن وكانوا يُطلقون الشعارات الّتي تدلّ على أنّ هذا الشخص كان خارجيًّا ويثور على الحكومة؛ كانوا يقولون هذه الكلمات لكي يجعلوا شخصيّة موسى بن جعفر عليه السلام في مورد التّهمة. وقد كانت أجواء بغداد بالنسبة للجهاز الحاكم أجواءً غير مستقرّة إلى درجة أنّ أحد عناصر جهاز الحكم نفسه وهو سليمان بن جعفر ـ سليمان بن جعفر بن المنصور العبّاسي أي ابن عم هارون الّذي يُعدّ من أشراف العبّاسيين ـ قد وجد أنّ هذا الوضع من الممكن أن يخلق لهم مشكلة، فقام بدورٍ آخر وأحضر جنازة موسى بن جعفر عليه السلام ووضع كفنًا قيّمًا على الجنازة، وجاء بكلّ احترام إلى الإمام في مقابر قريش، الّتي تُعرف اليوم بـ «الكاظميين»، ودفنوا الإمام عليه السلام في المرقد المطهّر القريب من بغداد، وهكذا ختم موسى بن جعفر حياةً مليئةً بالجهاد.

(1985/04/12)

الفصل الثاني عشر:

الإمام الرضا عليه السلام

- الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد.
- خطة الإمام الرضا عليه السلام لمواجهة المأمون.
- شهادة الإمام الرضا عليه السلام.

الإمام الرضا عليه السلام وولاية العهد

عندما استشهد موسى بن جعفر عليه السلام مسمومًا بعد سنين من الحبس في سجون هارون، سيطر جوٌّ عام من القمع على البلاد الخاضعة للسّلطة العبّاسية. وفي ذلك الجوّ الخانق الّذي وصفه أحد أتباع علي بن موسى عليه السلام ، قال محمد بن سنان: «وسيف هارون يُقطِّر الدّم»[1]، كان أكبر إنجاز لإمامنا المعصوم الجليل هو أنّه استطاع أن يحافظ على شجرة التشيّع وسط أعاصير الحوادث، ويمنع من تشتّت وفتور عزم أتباع أبيه الجليل. وبأسلوب التقيّة المدهش استطاع أن يحفظ حياته الّتي هي محور وروح الشّيعة، ليستمرّ في جهاد الإمامة العميق في عهد أكثر خلفاء بني العبّاس قدرةً، وفي زمن الاستقرار والثّبات الكامل لذلك النّظام. لم يتمكّن التاريخ من رسم صورةٍ واضحة عن مرحلة السنوات العشر لحياة الإمام الثامن في زمن هارون، وفيما بعده في مرحلة الحروب الداخليّة الّتي امتدّت لخمس سنوات بين خراسان وبغداد، لكن بالتدبّر يُمكن إدراك أنّ الإمام الثامن في هذه المرحلة أكمل تلك المواجهة الممتدّة لأهل

---

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 8، ص 257.

البيت عليهم السلام والّتي استمرّت في كلّ العصور بعد عاشوراء بنفس تلك التوجّهات والأهداف.

وبمجرّد أن حسم المأمون تلك الحرب لمصلحته عام 198 وتحوّل إلى خليفة بلا منازع، كان من أوّل تدابيره التفرّغ لحلّ مشكلة العلويين وجهاد التشيّع. ولأجل هذا الهدف، وضع أمام عينيه تجربة سلفه من الخلفاء.

تجربةٌ أظهرت القدرة والشّموليّة والعمق المتزايد لهذه النّهضة وعجز أجهزة السّلطة عن اقتلاعها أو إيقافها ومحاصرتها. لقد كان يرى أنّ سطوة وهيبة هارون حتّى مع السّجن الطّويل وتسميم الإمام السّابع في السّجن لم تتمكّن من منع الانتفاضات والمواجهات السّياسيّة والعسكريّة والإعلاميّة والفكريّة للشيعة. ولأنّه لم يكن بمستوى القدرة الّتي كانت لأبيه وسلفه، بالإضافة إلى تأثير الحروب الداخليّة بين العبّاسيين، فقد كان يرى بأن السّلطة العبّاسية مهدّدة بمشكلات كبيرة، ولهذا وجد من الضروريّ أن ينظر بجدّية تامّة إلى خطر نهضة العلويين.

لعلّ المأمون في تقييمه لخطر الشّيعة على جهازه، كان يُفكّر بطريقة واقعيّة. وأغلب الظّن أنّ مدّة الخمس عشرة سنة بعد شهادة الإمام السابع وإلى اليوم الّذي سنحت فيه بالخصوص فرصة السنوات الخمس للحروب الداخليّة، فإنّ تيّار التشيّع تمتّع بالمزيد من الاستعداد على طريق رفع راية الحكومة العلويّة.

وقد كان المأمون يشعر بهذا الخطر بحدسه الذكيّ ويُفكّر بمواجهته، ولهذا بتبع هذا التقييم والتشخيص كانت قصّة دعوة الإمام الثامن من المدينة إلى خراسان واقتراح ولاية العهد الإلزاميّة عليه، وهذه الحادثة

الّتي جـرت لم يحدث ما يُشبهها، ولم يكن لها فـي نوعيّتها شبيه ولا نظير في جميع عهود الإمامة الطويلة.

وهنـا من الجدير أن نُطالع واقعة ولاية العهـد هذه. ففيها واجه الإمام الثامـن علي بـن موسى الرضا عليه السلام تجربةً تاريخيّـةً عظيمةً في معرض حربٍ سياسيّةٍ خفيّة تحـدّد نتيجتها انتصار أو هزيمة مصير التشيّع. ففي هذه المعركة، نزل الخصم وهـو المأمون إلى الميدان بعدّته وعديده. وقد نزل المأمـون إلى الميدانٍ متمتّعًا بالدّهاء الواسـع والتّدبير القويّ والفهم والدّرايـة غير المسبوقـة، بحيث لو انتصر واستطـاع أن يُطبّق خطّته الّتي أعدّهـا لوصـل يقينًـا إلى الهدف الّـذي لم يتمكّـن أيّ واحدٍ مـن الخلفاء الأمويّيـن أو العبّاسيّيـن من تحقيقه منذ السنـة الأربعين للهجرة (أي بعد شهـادة عليّ بـن أبي طالب)، ورغـم كلّ جهودهم، وهو عبـارة عن اقتلاع شجـرة التشيّع وتيّـار المعارضة الّـذي كان دومًا كشوكةٍ فـي أعين زعماء الخلافات الطاغوتية.

لكـنّ الإمـام الثّامـن عليه السلام، وبالتّدبيـر الإلهـيّ، تغلّب علـى المأمون وهزمه فـي ذلك الميدان السياسيّ الّذي أوجـده بنفسه. فلم تكن النتيجة أنّ التشيّـع لم يضعف فحسب، بل كانـت سنة الـ 201 هجري هي سنة ولاية العهد للإمام عليه السلام، من أكثر سنوات تاريخ التشيّع بركةً وثمرةً، وقد بثّت نفسًـا جديدًا في جهـاد العلويين. كلّ ذلـك ببركة التّدبيـر الإلهيّ للإمام الثامن عليه السلام وأسلوبه الحكيم الّذي أظهره هذا الإمام المعصوم في هذا الامتحان الكبير.

ولأجـل أن نُضيء على وجـه هذه الحادثة المدهشة نقـوم بعرض شرحٍ

مختصر لخطّة المأمون وتدبير الإمام في هذه الواقعة.

لقـد كان المأمون بدعوتـه للإمام الثامن عليه السلام إلـى خراسان يسعى وراء عدّة مقاصد أساس:

أوّلها؛ وأهمّها تبديل ساحة المواجهات الثوريّة الحادّة للشّيعة إلى ساحة للنشاط السياسيّ الهادئ البعيد عن الخطر. وكما ذكرت فإنّ الشّيعة كانوا يُمارسـون في ظلّ التقيّة مواجهات ونضـال لا يعرف التّعب والتوقّف. وهذه المواجهـات النضاليـة، الّتي كانـت متلازمة مع خاصّيتيـن، كان لها تأثيرٌ لا يوصـف في القضـاء على بساط الخلافة، أحدهمـا المظلوميّة والأخرى القداسة.

كان الشّيعـة وبالاعتمـاد على هذين العاملين النّافذيـن يوصلون الفكر الشيعـيّ الّذي هو عبارة عـن تفسير الإسلام وتبيينه بحسب رؤية أئمّة أهل البيت إلى زوايا قلوب وأذهان مخاطبيهم، وكانوا يجعلون أيّ شخصٍ يمتلك أقلّ استعداد يميل إلى هذا النّوع من الفكر أو مؤمنًا به، وهكذا كانت دائرة التشيّـع تتّسـع يومًا بعد يوم في العالـم الإسلاميّ. وكانت تلـك المظلوميّة والقداسة الّتي تنطلق من ركيزة الفكر الشّيعيّ تُنظّم هنا وهناك وفي جميع العصور تلك النّهضات المسلّحة والحركات الثّوريّة ضدّ أجهزة الخلافة.

كان المأمون يريد أن يسلب هذا الجمع المناضل ذاك الخفاء والاستتار دفعةً واحدة، ويجـرّ الإمام عليه السلام من ميدان المواجهة الثوريّة إلى ميدان السّياسـة، ويوصل بهذه الطّريقـة فعاليّة نهضة التشيّـع الّتي كانت تتزايد يومًـا بعد يوم، على أثر ذلك الاستتار والاختفـاء إلى درجة الصفر. وبهذه الطّريقة كان المأمون يسلب جماعة العلويّين هاتين الخاصيّتين المؤثّرتين

والنافذتيـن. لأنّ الجماعـة الّتي يكـون قائدها شخصيّة مميّـزة في جهاز الخلافـة ووليّ عهد الملك المطلق العنـان في زمانه، والمتصرّف في أمور البـلاد ليس مظلومًا وليسـ مقدّسًا كما يُدّعى. وكان لهـذا التدبير القدرة على أمرين:

الأوّل: أن يجعـل الفكـر الشيعـيّ مرادفًا لسائر العقائـد والأفكار الّتي لهـا أتباعٌ في المجتمع ويخرجه مـن حيثيّة الفكر المخالف لجهاز السّلطة، الّـذي وإن كان بنظر الأجهـزة ممنوعًا ومبغوضًا، لكنّـه كان بنظر النّاس، وخصوصًا الضّعفاء، يمتلك جاذبيّة كبيرة ويُثير التّساؤلات.

والثانـي: تخطئـة ادّعاء التشيّـع حول خلافـة الأمويـن والعبّاسيين، وإضفـاء الشرعيّـة على هذه الخلافـات. وكان المأمون بهـذا العمل يُثبت لجميـع الشّيعـة بالتزويـر، أنّ ادّعـاء غصـب الخلافـة المتسلّطـة وعدم شرعيّتهـا... لأنّه لو كانـت الحكومات السّابقة فاقـدة للشرعيّة فينبغي أن تكون خلافـة المأمون وحكومته الّتي هي وريثة تلك الحكومات غير شرعيّة وغاصبـة، ولأنّ علـيّ بـن موسى الرضـا عليه السلام بدخوله في هـذا الجهاز وقبولـه لولاية عهد المأمـون قد اعتبره قانونيًّا ومشروعًـا، فيجب أن يكون باقـي الخلفـاء شرعيّين، وهذا بذاتـه نقضٌ لجميع ادّعـاءات الشّيعة. ولم يكـن المأمون بهذا الفعل ينتزع من عليّ بـن موسى الرضا عليه السلام شرعيّة حكومتـه و(حكومة) من سبقه فحسب، بل كان يُدمّـر أحد أركان الاعتقاد الشيعيّ بظلم أركان الحكومات السّابقة من أساسها.

إضافـة إلى نقض الفكـرة السّائدة والمعروفة عن زهـد وعدم اهتمام الأئمّـة بزخارف الدنيا ومقاماتهـا، ويُظهر بأنّ الأئمّة يلجـؤون إلى الزّهد

فقـط في الظّروف الّتي لا تصل فيها أيديهم إلى الدّنيا، أي عندما يُمنعون عنها. بينما عندما تفتح أمامهم أبواب جنّة الدّنيا يسرعون نحوها. وحالهم في هذا حال الآخرين. فهم يتنعّمون بالدّنيا إن أقبلت عليهم.

والهـدف الثالـث للمأمـون؛ هو أن يجعـل الإمام المعصـوم، الّذي كان ركيـزة المعارضة والمواجهة في جهازه الحاكـم دومًا، وكذلك بقية القادة العلوييـن ومـن معهم ممّن اجتمع حـول الإمام عليه السلام مـن أهل الصلاح، يدخلون تحت سيطرة المأمون. وهذا نجاح لم يتمكّن أحد على الإطلاق أن يُحقّقه لا من العبّاسيين ولا من الأمويين.

والهـدف الرابـع؛ هـو أن يجعل الإمـام عليه السلام ، الّذي يمتلـك العنصر الشعبـي، ويُعدّ قبلة الآمال ومرجع النّاس فـي كلّ أسئلتها وشكاواها، تحت محاصـرة أجهزة الحكومة. وبذلك يفقد شيئًا فشيئًا الطّابع الشّعبيّ ويبني حاجزًا بينـه وبين النّاس حتّى يضعف بالتّالـي الرابط العاطفي بينه وبين الطّبقة الشعبيّة.

الهـدف الخامس للمأمون؛ كان أن يكسـب سمعة معنويّة ووجاهة. فمن الطّبيعيّ عندها أن يمدح الجميع ذلك الحاكم الّذي اختار لولاية عهده ابن بنـت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وصاحـب الشّخصيّة المقدّسة والمعنويّـة، وفي المقابل يحـرم إخوته وأبناءه مـن هذا المنصب. والمعروف دائمـاً أنّ التقرّب من الصّالحيـن والمتديّنين من قِبَل طلّاب الدنيـا يُذهب ماء وجه الصّالحين ويزيد من ماء وجه أهل الدنيا.

الهدف السادس؛ كان باعتقاد المأمون أنّ الإمام عليه السلام بتسلّمه لولاية العهـد سيتحوّل إلى عاملٍ تبريريّ لجهاز الحكم. فمن البديهيّ أنّ شخصًا

كالإمـام بما لديه من تقوى وعلم ومقام لا نظيـر له، وهو في أعين الجميع مـن أبنـاء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، إذا قام بشـرح وتبرير ما يقوم بـه جهاز الحكومة، سـوف يأمن النّظام من أيّ صوتٍ مخالفٍ ولن يطعن به أحد. وبذلك أيضًا لا يستطيع أحد أن يُنكر شرعية تصرّفات هذا النّظام. فهذا الأمر كان عند المأمون قلعةً منيعةً يمكنه من خلالها أن يُخفي عن الأعين أخطاء الخلافة وقبائحها.

بالإضافة إلى هذه كان للمأمون أهدافٌ أخرى بحسب تصوّره.

وكمـا يُشاهـد فإنّ هذا التدبيـر كان من العمق والتعقيـد لدرجة أنّه لم يكـن لأحدٍ غير المأمون القدرة على القيام بـه، ولهذا السبب، كان أنصار المأمون والمقرّبون غافلين عن أبعاده وجوانبه. ويُستنتج من بعض الوثائق التاريخيّـة، أنّ الفضل بن سهل، الوزير والقائد الأعلى، وأكثر الأفراد قربًا مـن جهاز الخلافـة، كان غير مطّلعٍ على حقيقة هـذه السّياسة ومحتواها. وذلك حتّى لا تتعرّض أهدافه في هذه الحركة الالتفافيّة إلى أيّة نكسة.

ولأجـل ذلـك كان المأمون يخترع القصص من أجـل توجيه هذا الفعل ودوافعـه ويتوسّل بهذا القـول وذاك. يجب القول حقًّـا أنّ سياسة المأمون كانـت تتمتّـع بتجربة وعمق لا نظير لـه، لكنّ الطّرف الآخـر الّذي كان في ساحـة الصّراع مع المأمون هو الإمـام علي بن موسى الرضا عليه السلام. وهو نفســه الّذي كان يُحـوّل أعمال وخطط المأمون المتصّفـة بالدّهاء والمكر والممزوجـة بالشيطنة والمعدّة بدقّة وشموليـة، إلى أعمال لا فائدة لها ولا تأثيـر وإلى حركات صبيانيّة. بينما المأمـون الّذي بذل هذه الجهود وأنفق مـن رأسماله الكبيـر في هذا السبيـل، لا أنّه فقط لم يُحقّـق أي شيء من

الأهـداف الّتي كان يسعـى إليها، بل إنّ سياسته الّتـي اتّبعها انقلبت عليه. فالسّهم الّذي كان يُريد أن يرمي به مقام ومكانة وطروحات الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، أصاب المأمون، بحيث إنّه وبعد مضيّ فترة قصيرة أصبح مضطرًّا لأن يعتبر كلّ تدابيره وإجراءاته الماضية هباءً منثورًا كأنّها شيئـاً لم يكن. وفي نهاية المطاف عاد المأمون ليختار نفس الأسلوب الّذي سلكه أسلافه من قبله وهو قتل الإمام عليه السلام. فالمأمون الّذي سعى جاهدًا لتكـون صورته حسنة ومقدّسة وليتّصف بأنّه خليفة طاهر عاقل، سقط في النهاية في تلك المزبلة الّتي سقط فيها كلّ الخلفاء السابقين له. أي انجرّ إلى الفساد والفحشاء ووُسمت حياته بالظّلم والكبر.

ويُمكن مشاهدة نماذج من حياة المأمون على مدى 15 عامًا بعد حادثة ولاية العهـد تكشف ستار الخداع والتّظاهر عند المأمون. فكان لديه قاضٍ للقضاة، فاسق وفاجر مثل يحيى بن الأكثم. وكان المأمون يُحضر المغنّيات أيضًـا إلـى قصره، وكان لديه مغـنٍّ خاصّ يُدعى ابراهيـم بن مهديّ، وقد عاش مرفّهًا مسرفًا حتّى أنّ ستائر دار خلافته في بغداد كانت من الدرّ.

خطّة الإمام الرضا عليه السلام لمواجهة المأمون

بعـد هذا العرض لسياسة المأمون، نتعرّض إلـى السّياسة والإجراءات الّتي قام بها الإمام علي بن موسى الرّضا عليه السلام لمواجهة هذا الواقع:

النقطة الأولى: عندما دُعي الإمام عليه السلام من قِبَل المأمون لينتقل من المدينة إلى خراسان، نشر جوّاً في المدينة يدلّ على انزعاجه وتضايقه من هذه الخطوة، بحيث إنّ كلّ شخص كان حول الإمام عليه السلام تيقّن أنّ المأمون يُضمر سوءً للإمام عليه السلام من خلال إبعاده عن موطنه. ولقد أعرب الإمام للجميع عن سوء ما يرمي إليه المأمون بكلّ الأساليب الممكنة، فقام بذلك عند توديع حرم النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعند توديع عائلته وأثناء خروجه من المدينة وفـي طوافه حول الكعبة من أجل الـوداع، وبكلامه وسلوكه ودعائه وبكائه، كان واضحًا للجميع أنّ هذا السفر هو رحلته الأخيرة ونهاية حياته عليه السلام .

وخلافًـا لما كان يتصوّره المأمون وهو أن يُنظر إليه نظرة حسنة، بينما يُنظر إلـى الإمام عليه السلام ، الّذي قَبِل بطلب المأمـون، نظرة سيّئة، نرى أنّ قلـوب الجميع، ونتيجةً لردّ الفعل الّذي قـام به الإمام عليه السلام في المدينة، ازدادت حقدًا علـى المأمون منذ اللحظة الأولى لسفر الإمام عليه السلام . فقد

أبعد المأمون إمامهم العزيز عليه السلام عنهم بهذا الشكل الظالم ووجّهه إلى مقتله.

النّقطة الثانية: عندما طُرحت ولاية العهد على الإمام في «مَروْ» رفض الإمام عليه السلام هذا الطّرح بشدّة، ولم يقبل حتّى هدّده المأمون صراحةً بالقتل. ولقد انتشر في كلّ مكان رفض الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام لولاية العهد من قبل الخلافة. كما أنّ العاملين في الحكومة، الّذين لم يكونوا على علم بدقائق سياسة وتدابير المأمون، قاموا وعن غباء بنشر رفض الإمام عليه السلام في كلّ مكان. حتّى أنّ الفضل بن سهل صرّح في جمع من العاملين في الحكومة، أنّه لم يرَ على الإطلاق خلافة بهذا القدر من المذلّة، فالمأمون الّذي هو أمير المؤمنين يُقدّم الخلافة أو ولاية العهد لعليّ بن موسى الرضا وهو يردّها عليه رافضًا[1].

ولقد سعى الإمام عليه السلام في كلّ فرصة تُتاح له أن يُبيّن أنّه مجبر على تسلّم هذا المنصب (ولاية العهد) وكان يذكر دائمًا أنّه هُدّد بالقتل حتّى يقبل بولاية العهد. وكان من الطّبيعيّ جدًّا أن يُصبح هذا الحديث، الّذي هو من أعجب الظّواهر السّياسيّة، متناقلًا على الألسن، ومن مدينة إلى مدينة. فكلّ العالم الإسلاميّ في ذلك اليوم وفيما بعد فهم أنّ شخصًا مثل المأمون حارب أخاه الأمين حتّى قتله، لأجل أن يُبعده عن ولاية العهد ووصل به الأمر من شدّة غضبه على أخيه أن قام برفع رأسه وآلافٍ

(1) الشيخ المفيد، الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، ج 2، ص 260، «فما رأيت خلافة قطّ كانت أضيع منها، إنّ أمير المؤمنين يتفصّى منها ويعرضها على عليّ بن موسى الرضا، وعلي بن موسى يرفضها ويأبى».

آخرين على الرّماح وطاف بهم من مدينة إلى مدينة. وشخصٌ مثل علي بن موسى الرضا عليه السلام، يظهر وينظر بلا مبالاة إلى ولاية العهد، ولا يقبلها إلّا مكرهًا وتحت التّهديد. وعند المقارنة بين الإمام علي بن موسى الرّضا عليه السلام والمأمون العبّاسي، نرى أن كلّ ما جهد المأمون لتحقيقه ووفّر في سبيله كلّ ما لديه كانت نتيجته عكسيّة بالكامل. هذه هي الخطوة الثانية للإمام عليه السلام.

أمّا النقطة الثّالثة: في سياسته عليه السلام والّتي واجه بها سياسة المأمون، هي أنّه مع كلّ الضّغوطات والتّهديدات الّتي مورست عليه، لم يقبل بولاية العهد إلا بشرط الموافقة على عدم تدخّله في أيّ شأن من شؤون الحكومة من حرب وصلح وعزل ونصب وتدبير وإشراف على الأمور. والمأمون، الّذي كان يعتقد أنّ هذا الشّرط ممكن تحملّه في بداية الأمر، لأنّه يُمكنه بعدها أن يجرّ الإمام عليه السلام إلى ساحة أعمال ونشاطات الحكومة تدريجيًّا، وافق على قبول شرط الإمام عليه السلام الّذي ينصّ على عدم التدخّل بأيّ شيء مهما كان. ومن الواضح أنّ قبول المأمون بهذا الشرط جعل خطّته كمن يكتب على وجه الماء. فأكثر أهدافه الّتي كان يرمي إليها لم تتحقّق. والإمام عليه السلام، الّذي كان يُطلق عليه لقب وليّ العهد وكان قهرًا يستفيد من إمكانات جهاز الحكم، كان دائماً يُقدّم نفسه كأنّه مخالف ومعترض عليه؛ فهو لم يكن يأمر ولا ينهى، ولا يتصدّى لأيّ مسؤولية ولا يقوم بأيّ عمل للسلطة، ولا يدافع عن الحكومة، ولا يقدّم أيّ تبرير لأعمال النّظام. لذا كان من الواضح أنّ هذا الشخص الّذي يُعتبر عضوًا في النّظام الحاكم والّذي أدخل إليه بقوّة وكان يتنحّى عن كلّ المسؤوليات، لا يُمكن أن يكون

شخصًا محبًّا ومدافعًا عن هذا النّظام. ولقد أدرك المأمون جيّدًا هذا الخلل والنّقص، فحاول عدّة مرّات وباستخدام لطائف الحيل أن يحمل الإمام على العمل خلافًا لما تعهّد به سابقًا؛ فيجرّ الإمام عليه السلام بذلك إلى التدخّل في أعمال الحكومة ويقضي على سياسة الإمام عليه السلام المواجهة والرافضة. لكن الإمام كان في كلّ مرّة يُحبط خطّته بفطنته وبراعته.

وكنموذج على هذا الأمر يذكر معمر بن خلاد نقلًا عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنّ المأمون كان يقول للإمام: إذا أمكن أن تكتب شيئًا لأولئك الّذين يسمعون كلامك ويطيعونك حتّى يُخفّفوا من حدّة التوتر والأوضاع المضطربة في مناطق وجودهم؛ لكنّ الإمام عليه السلام كان يرفض، وكان يُذكّره بشرطه السّابق القاضي بعدم تدخّله مطلقًا في أيّ من الأمور. نموذجٌ آخر مهمٌّ جدًّا وملفتٌ هو حادثة صلاة العيد حيث إنّ المأمون وبحجّة أنّ النّاس يعرفون قدر الإمام عليه السلام وقلوبهم تهفو حبًّا له، طلب من الإمام عليه السلام أن يؤمّ النّاس في صلاة العيد، رفض الإمام عليه السلام في البداية، ولكن، وبعد إصرار المأمون على طلبه، وافق بشرط أن يخرج إلى الصّلاة ويُصلّي بنفس طريقة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعلي بن أبي طالب عليه السلام. فلمّا استفاد الإمام عليه السلام من هذه المناسبة وانتهزها كفرصة جيدة لصالح مشروعه، ندم المأمون الّذي كان قد أصرّ على ذلك وأرجع الإمام عليه السلام من منتصف الطّريق قبل أن يُصلّي، معرّضًا بفعله هذا سياسة نظامه المخادعة والمتملّقة لضربةٍ أخرى في صراعه مع الإمام عليه السلام[1].

(1) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 2، ص 257-258.

النقطة الرابعة: في سياسة الإمام عليه السلام هي أنّ استفادته الأساس من مسألة ولاية العهد كانت أهم من كلّ ما ذُكر، فبقبوله بولاية العهد استطاع أن ينهض بحركة لا نظير لها في تاريخ حياة الأئمّة (بعد انتهاء خلافة أهل البيت في سنة 40 هجرية حتّى آخر عهود الخلافة الإسلاميّة)، ولقد تمثّل ذلك بظهور دعوة الإمامة الشيعيّة على مستوًى كبير في العالم الإسلاميّ وخرق ستار التقيّة الغليظ في ذاك الزّمان، حيث تمّ إيصال نداء التشيّع إلى أسماع جميع المسلمين، فمنبر الخلافة القويّ جُعل تحت تصرّف الإمام عليه السلام، وقد قام الإمام عليه السلام من خلاله برفع ندائه وإعلان ما كان يُقال طيلة 150 سنة في الخفاء والتقية للخواص والأصحاب المقرّبين، وبالاستفادة من الإمكانات الرائجة في ذلك الزمان الّتي لم تكن إلا تحت سيطرة الخلفاء والمقرّبين منهم في الرّتب العالية، أوصل ذلك النداء إلى أسماع الجميع.

وكذلك أيضاً مناظرات الإمام عليه السلام الّتي جرت بينه وبين جمع من العلماء في محضر المأمون حيث بيّن أمتن الأدلّة على مسألة الإمامة، وهناك أيضًا رسالة جوامع الشّريعة الّتي كتبها الإمام للفضل بن سهل حيث ذكر فيها أمّهات المطالب العقائدية والفقهية للتشيّع، وأيضًا حديث الإمامة المعروف الّذي قد ذكره الإمام عليه السلام في مَرْو لعبد العزيز بن مسلم، إضافة إلى تلك القصائد الكثيرة الّتي نُظّمت في مدح الإمام بمناسبة تسلّمه ولاية العهد، ومنها قصيدتا دِعبل وأبو نوّاس اللتان تُعدّان من أهم القصائد المخلّدة في الشّعر العربيّ. إن كلّ ما ذكرناه من استفادة الإمام عليه السلام من مسألة قبوله بولاية العهد، يدلّ على مدى النّجاح العظيم

الّذي حقّقه الإمام عليه السلام في صراعه ضدّ سياسة المأمون.

وفي تلك السنة نجد الخطب حافلة بذكر فضائل أهل البيت في المدينة، ولعلّـه في الكثير من الأقطار الإسلاميّة، وذلك عندما وصل خبر ولاية علي بـن موسى الرضا عليه السلام . فبعد أنّـه لم يكن هناك شخصٌ يجرؤ على ذكر فضائـل أهل بيت النبيّ عليهم السلام ، وكانوا يُشتمـون علنًا على المنابر لسبعين سنـة، وما تلاهـا من سنوات،، فقـد رجع في زمان الإمـام الرّضا عليه السلام ذكـر عظمة وفضائل أهل البيت فـي كلّ مكان؛ كمـا أنّ أصحابهم ازدادوا جـرأةً وإقدامًا بعد هذه الحادثة، وتعـرّف الأشخاص، الّذين كانوا يجهلون مقام أهـل البيت عليهم السلام ، عليهم وصاروا يُحبونهـم؛ وأحسّ الأعداء الّذين أخذوا علـى عاتقهم محاربة أهـل البيت بالضّعف والهزيمـة. فالمحدّثون والمفكّـرون الشّيعـة أصبحوا ينشـرون معارفهم ـ الّتي لـم يكونوا ليجرؤوا قبـلًا على ذكرها إلا فـي الخلوات ـ في حلقات دراسيّة كبيرة وفي المجامع العامّة علنًا.

فـي حين رأى المأمون أنّه مـن المفيد فصل الإمام عليه السلام عن النّاس. فهذا الفصل والإبعاد هو في النّهاية وسيلة لقطع العلاقة المعنويّة والعاطفيّة بيـن الإمام والنّاس. وهذا مـا يريده المأمون، ولمواجهـة هذه الخطوة لم يكن الإمام عليه السلام يترك أيّ فرصة تُمكّنه من الاتّصال بالنّاس إلّا ويستفيد منهـا خـلال تحرّكه ومسيره. فمـع أنّ المأمون كان قد حـدّد الطّريق الّتي سيسلكهـا الإمام مـن المدينة وصولًا إلـى مرو، بحيث لا يمـرّ على المدن المعروفة بحبّهـا وولائها لأهل البيت مثل قـم والكوفة، لكنّ الإمام عليه السلام استفـاد من كلّ فرصة في مسيره لإقامة علاقات جديدة بينه وبين النّاس،

فأظهـر في منطقة الأهواز آيات الإمامة، وفـي البصرة الّتي لم يكن أهلها مـن محبّي الإمام سابقًـا، جعلهم من محبّيه ومريديـه، وفي نيشابور ذكر حديـث السّلسلـة الذهبية ليبقـى ذكرى خالـدة، إضافة إلـى ذلك الآيات والمعجزات الّتـي أظهرها. وقد اغتنم الفرصة لهدايـة وإرشاد النّاس في سفـره الطّويـل هذا. وعندما وصل إلى مرو الّتي هـي مركز إقامة الخلافة كان عليه السلام كلّما سنحت له الفرصة وأفلت من رقابة الجهاز الحاكم يُسارع للحضور في جمع النّاس.

والإمـام عليه السلام ، فضـلًا عن أنّه لـم يحضّ ثوّار التشيّع علـى الهدوء أو الصلـح مع جهاز الحكومـة، بل إنّ القرائن الموجودة تـدلّ على أنّ الوضع الجديـد للإمـام المعصـوم كان عامـلًا محفّـزًا ومشجّعًا لأولئـك الّذين أصبحـوا، بفعل حمايـة الإمام ومؤازرتـه لهم، محلّ احتـرام وتقدير ليس فقـط عند عامّة النّاس بـل حتّى عند العامليـن وولاة الحكومة في مختلف المدن؛ بعد أن كانوا ولفتراتٍ طويلة من عمرهم يعيشون في الجبال الوعرة والمناطـق النّائية البعيـدة. فشخصٌ مثل دعبل الخزاعـيّ صاحب البيان الجـريء، الـذي لم يكن علـى الإطلاق يمـدح أي خليفة أو وزيـر أو أمير، والـذي لم يكن في خدمة الجهـاز الحاكم، لا بل لم يسلم من هجائه ونقده أيّ شخـصٍ مـن حاشية الخلافـة، وكان لأجل ذلك ملاحقًـا دومًا من قبل الأجهزة الحكوميّة، وظلّ لسنوات طوال مهاجرًا ليس له موطن، يحمل داره علـى كتفه، ويسير من بلـدٍ إلى بلد ومن مدينةٍ إلى مدينـة؛ أصبح بإمكانه الآن مع وجود الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أن يصل ويلتقي بمقتداه ومحبوبـه بحريّة، وأن يُوصل في فترةٍ قصيرة شعـره إلى كلّ أقطار العالم

الإسلاميّ، ومن أشهر وأبهى قصائده تلك الّتي تلاها للإمام عليه السلام حيث اشتهـر بها، والّتي تبيّن وثيقة الثّورة العلويّة ضدّ الأنظمة الأمويّة الحاكمة. حتّى أنّه وفي طريق عودته من عند الإمام، كان يسمع قطّاع الطّرق يُردّدون تلك القصيدة نفسها. وهذا يدلّ على الانتشار السّريع لشعره.

والآن نعـود لنلقـي نظرة عامّـة على ساحـة الصّراع الخفـيّ الّذي بدأ المأمون بالإعداد له، ودخل فيه الإمام علي بن موسى الرّضا للأسباب الّتي قـد أشرنـا إليها. فلنرَ كيـف كان الوضع بعد مضيّ سنة علـى تسلّم الإمام ولاية العهد.

شهادة الإمام الرضا عليه السلام

لقد جعل المأمون عليّ بن موسى متمتّعًا بالإمكانات والمكانة المرموقة، لكـنّ الجميع كانوا يعلمون أنّ هذا الولـيّ للعهد، وصاحب المقام الرفيع، لا يتدخّل فـي أيٍّ من أعمال الحكومة ويمتنع برغبته عن كلّ ما يرتبط بجهاز الحكـم، وكانوا يعلمـون أيضًا أنّه وليّ العهد بذلـك الشّرط أي عدم تدخّله بأيّ عمل من الأعمال. كان المأمون، سواء في رسالة أمر تسليم ولاية العهد أو في كلماته وتصريحاته الأخرى، قد مدح الإمام عليه السلام بالفضل والتّقوى وأشار إلى نسبه الرّفيع ومقامه العلميّ المنيع؛ وبعد أن كان قسمٌ من النّاس لا يعرف عن الإمام عليه السلام سوى اسمه (حتى أنّ مجموعة من النّاس كانت قد ترعرعت على بغضه)، فقد أصبح في غضون سنة معروفًا عندهم بأنّه شخصيّـة تستحقّ التّعظيم والإجلال واللياقـة لاستلام الخلافة، فهو أكبر من الخليفة المأمون سنًّا وأغزر علمًا وتقوى وأقرب إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأعظم وأفضل. وبعد مضيّ سنة، ليس أنّ المأمون لم يستطع كسب ودّ ورضا الشّيعة المعارضيـن بجلب الإمام عليه السلام إلى قربه فحسـب، بل إنّ الإمام عليه السلام قـام بدورٍ أساس في تقوية إيمان وعزيمـة وروحيّة أولئك الشّيعة الثّائرين.

وبخـلاف ما كان ينتظره المأمون، فإنّ نجـم الإمام في المدينة ومكة وفي أهـمّ الأقطار الإسلاميّة لم يخـبُ، ولم يُقذف بتهمـة الحرص على الدنيا وحـبّ الجاه والمنصب، بل على العكس من ذلـك تمامًا فقد ازداد احترام وتقديـر مرتبة الإمام المعنويّة لدرجة فتح الباب أمام المدّاحين والشعراء بعـد عشرات السنين ليذكروا فضل ومقـام آبائه المعصومين المظلومين. وخلاصة ما نريد قوله إنّ المأمون في هذه المقامرة الكبرى فضلًا عن أنّه لم يحصل على شيء، فإنّه فقد مكاسب كثيرة، وكان على طريق خسارة ما تبقّى له. وبعد مضي سنة على تسلّم الإمام عليه السلام ولاية العهد، وأمام هذا الواقـع الّذي أشرنـا إليه، شعر المأمون بالهزيمـة والخسارة؛ ولكي يُعوِّض عـن هذه الهزيمة ويَجبُر خطأه الفاحش وجد نفسه مضطرًّا - بعد أن أنفق كلّ ما لديه واستنفذ كلّ الوسائل في مواجهة أعداء حكومته الّذين لا يقبلون الصلـح، أي أئمّة أهل البيت عليهم السلام - إلى أن يستخدم نفس الأسلوب الّذي لجأ إليه دومًا أسلافه الظّالمون والفجّار، أي القتل.

لكـن كان من الواضـح عند المأمون أنّ قتل الإمـام عليه السلام الّذي يتمتّع بهـذه الموقعيّـة العالية والمرتبـة الرّفيعة ليـس بالأمر السّهـل. والقرائن التاريخيّة تدلّ علـى أنّ المأمون قام بعدّة إجراءات وأعمال قبل أن يُصمّم على قتل الإمام عليه السلام لعلّه من خلالها يُسهّل أمر قتل الإمام عليه السلام ويحدّ مـن خطورتـه وحساسيّتـه. ولأجل ذلك لجأ إلـى نشر الأقـوال والأحاديث الكاذبـة عن لسان الإمام كواحدة من هـذه التحضيرات. وهناك ظنٌّ كبيرٌ بـأنّ نشر الشائعـة الّتي تقـول إنّ عليّاً بن موسى الرضـا عليه السلام يعتبر كلّ النّاس عبيدًا له بهـذا الشكل المفاجئ في مرّو، لم يكـن ممكنًا، لولا قيام

عمّال المأمون بنشر هذه الافتراءات.

وحينما نقل أبو الصّلت هذا الخبر للإمام، قال الإمام عليه السلام : «**اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ عالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أَنْتَ شاهِدٌ بِأَنّي لَمْ أَقُلْ ذَلِكَ قَطُّ وَلا سَمِعْتُ أَحَداً مِنْ آبَائي عليهم السلام قَالَهُ قَطُّ وَأَنْتَ الْعَالِمُ بِمَا لَنَا مِنَ الْمَظَالِمِ عِنْدَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنَّ هَذِهِ مِنْهَا...**»[1].

إضافة إلى هذا الإجراء، كان تشكيل مجالس المناظرات مع أيّ شخص لديه أدنى أمل في أن يتفوّق على الإمام، واحدة من الإجراءات الّتي مارسها المأمون. ولمّا كان الإمام عليه السلام يتفوّق ويغلب مناظريه من مختلف الأديان والمذاهب في كافّة البحوث كان يذيع صيته بالعلم والحجّة القاطعة في كلّ مكان، وفي مقابل ذلك كان المأمون يأتي بكلّ متكلّم من أهل المجادلة إلى مجلس المناظرة مع الإمام لعلّ أحدًا منهم يستطيع أن يغلب الإمام عليه السلام ؛ وكما تعلمون فإنّه كلّما كانت تكثر المناظرات وتطول كانت القدرة العلميّة للإمام عليه السلام تزداد وضوحًا وجلاءً. وفي النّهاية يئس المأمون من تأثير هذه الوسيلة. وحاول أن يتآمر لقتل الإمام عليه السلام ، كما تذكر الروايات، من خلال حاشيته وخدم الخليفة؛ وفي إحدى المرّات وضع الإمام في سجن سرخس (منطقة شمال شرق إيران) لكن هذا لم يكن نتيجته إلا إيمان الجلاوزة والسجّانين أنفسهم بالمقام المعنويّ للإمام عليه السلام . وهنا لم يجد المأمون العاجز والغاضب أمامه في النّهاية وسيلة إلا أن يُسممّ الإمام بنفسه من دون أن يُكلِّف أيّ أحد بذلك وهذا

(1) الشيخ الصدوق، محمد بن علي بن بابويه، عيون أخبار الرضا، تحقيق وتصحيح مهدي اللاجوردي، نشر جهان- طهران، الطبعة الأولى، 1420م، ج2، ص 184.

مـا قـام به فعلًا. ففـي شهر صفر من سنـة 203 هـ أي بعـد سنتين تقريبًا مـن خـروج الإمام عليه السلام من المدينـة إلى خراسان وبعـد سنة ونيّف من صـدور قرار ولاية العهد قام المأمون بجريمتـه النكراء الّتي لا تُنسى وهي قتل الإمام عليه السلام.

الفصل الثالث عشر:

الإمام الجواد عليه السلام
الإمام الهادي عليه السلام
الإمام العسكريّ عليه السلام

- الإمام الجواد عليه السلام وبنيان الحرية.
- مواجهة الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام للسلطة.
- انتشار التشكيلات الشيعية في العالم.

الإمام الجواد عليه السلام وبنيان الحرية

إنّ الإمام الجواد عليه السلام ، وكغيره من المعصومين، هو قدوةٌ وأسوةٌ ونموذجٌ لنا. وإنّ الحياة القصيرة لهذا العبد الصالح لله، انقضت بالجهاد ضدّ الكفر والطّغيان. وقد أضحى في موقع قيادة الأمّة الإسلاميّة في حداثة عمره، وقد جاهد مجاهدةً مركّزة ضدّ العدوّ في هذه السّنوات القصيرة، حيث إنّه كان ما زال في مقتبل عمره، في عمر الـ 25 سنة، عندما لم يعد أعداء الله يتحمّلون وجوده، فقتلوه بالسمّ واستُهشد. ومثل الأئمّة الأطهار عليهم السلام الّذي أضاف كلّ واحدٍ منهم بجهاده صفحةً على تاريخ الإسلام المليء بالمفاخر، فإنّ هذا الإمام العظيم قد أضاف بعمله إلى الإسلام دعامة مهمّة من الجهاد الشّامل، وقدّم لنا درسًا عظيمًا. وذاك الدّرس العظيم هو أنّه عندما نكون في مواجهة القوى المنافقة والمرائية يجب أن نسعى جهدنا من أجل أن نستنهض وعي النّاس لمواجهة هذه القوى. فلو أنّ العدوّ يظهر عداءه بنحوٍ صريح وعلنيّ ولا يرائي، فإنّ التّعامل معه أسهل. ولكن عندما يكون العدوّ كالمأمون العبّاسي الّذي يتظاهر بالقداسة والدّفاع عن الإسلام

فـإنّ التعـرّف عليه سيكون صعبًـا بالنّسبة للنّاسـ. كان المتسلّطون، في عصرنـا هذا، وفـي جميع عصور التاريخ، يسعون دائمًـا للتوسّل بالحيلة والرّيـاء والنّفاق عندما يعجزون عن مواجهة النّاسـ وجهاً لوجه... وقد بذل الإمام علي بن موسـى الرضا عليه السلام والإمام الجواد عليه السلام، الهمّة مـن أجل كشف قناع التزويـر والرّياء هذا، عن وجه المأمون ونجحوا في ذلك.

(1980/10/10)

إنّ هـذا العظيم هو مظهر المقاومة وعلامتهـا. إنسانٌ عظيمٌ أمضى كلّ عمـره القصيـر بمواجهـة ومعارضـة السّلطـة المـزوّرة والمرائيـة للخليفـة العبّاسـي - المأمون - ولم يتراجع خطـوةً واحدةً وتحمّل جميع الظروف الصّعبة وجاهد بكلّ الأساليب الجهاديّة الممكنة. وكان أوّل من أشـاد بنيان بحث الحرّية بصـورةٍ علنيّة. وكان يُباحـث العلماء والدعاة والمدّعيـن ومختلقـي الأعذار في محضـر المأمون العبّاسـي بشأن أدقّ القضايـا ويستدلّ ويثبـت أفضليّته وحقّانية كلامـه. إنّ بحث الحرّية هو مـن تراثنا الإسلاميّ، وقـد راج هذا البحث في زمـان أئمّة الهدى، وقد تطرّق الإمام الجواد عليه السلام، هذا الإمام الجليل، إليه في زمانه وتعرّض له بصورةٍ صافية ونقيّة.

(1981/05/15)

مواجهة الإمامين
الهادي والعسكري عليهما السلام للسلطة

فـي المواجهة الّتي جرت بين الإمام الهـادي عليه السلام وحكّام زمانه فإنّ الّذي انتصر في الظّاهر والباطن هو هذا الإمام عليه السلام. ففي زمن إمامته حكـم ستّةٌ من الخلفاء واحدًا تلـو الآخر، وهلكوا جميعًا واحـدًا تلو الآخر. وكان آخرهـم المعتزّ الّذي قتل الإمام عليه السلام ولم يلبث من بعده إلّا قليلًا. وهـؤلاء الخلفاء ماتوا أذلّاء في الغالب، أحدهـم قتله ابنه، والآخر على يد ابـن أخيه، وبهـذه الطّريقة تشتّـت العبّاسيّون وانقرضـوا، بعكس الشّيعة. فالشّيعـة في زمـن الإمام الهادي والإمام العسكـريّ عليهما السلام، ورغم ما فيه من عنفٍ وقمعٍ كانوا يزدادون انتشاراً وقوّةً يومًا بعد يوم.

لقـد عاش الإمـام الهـادي عليه السلام 42 سنة، قضـى 20 سنـة منها في سامـرّاء، حيث كان يعمل ويعيش ويمتلك مزرعةً. وكانت سامرّاء في الواقع بمثابة معسكر بناه المعتصم لغلمانه التّرك المقرّبين له ـ وهؤلاء التّرك هم غير الأتـراك الّذين يعيشون في إيران أو فـي آذربايجان أو سائر النقاط، والّذيـن أحضرهـم من تركستـان وسمرقند، ومن منطقـة مانغوليا وآسيا

الشرقية واحتفظ بهم في سامرّاء. وهؤلاء الأتراك، ولحداثة إسلامهم، لم يكونوا يعرفون الأئمّة ولا المؤمنين ولا يفهمون عن الإسلام شيئًا. لهذا صاروا يُضايقون النّاس وأوجدوا بينهم وبين العرب ـ أهالي بغداد ـ النّزاعات والمشاجرات. وفي مدينة سامرّاء نفسها، اجتمع عددٌ ملحوظٌ من كبراء الشّيعة في زمن الإمام الهادي عَلَيْهِ السَّلَامُ وتمكّن الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ من إدارتهم، وإيصال رسالة الإمامة من خلالهم إلى مختلف مناطق العالم الإسلامي. فالرّسائل وهذه الشّبكات الشيعيّة، في قم وخراسان والريّ والمدينة واليمن، وفي المناطق البعيدة، وفي جميع أقطار العالم، هي الّتي استطاعت أن تروّج وتنشر وتزيد من المؤمنين بهذا المذهب، يوماً بعد يوم. وقد استطاع الإمام الهادي عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يقوم بكلّ هذه الأعمال، تحت ظلّ بريق السّيوف الحادّة والدمويّة لأولئك الخلفاء الستّة ورغمًا عن أنوفهم. ويوجد حديثٌ معروفٌ حول وفاة الإمام الهادي عَلَيْهِ السَّلَامُ ، يُعلم من عباراته تواجد جمعٍ ملحوظ من الشّيعة في سامرّاء، لم يكن الجهاز الحاكم يعرف عنهم شيئًا؛ لأنّه لو كان يعلم بهم لكان قضى عليهم عن بكرة أبيهم. لكنّ هذه الجماعة، ولأنّها استطاعت أن توجد شبكة قويّة، فإنّ الجهاز الحاكم لم يتمكّن من الوصول إليها.

إنّ يومًا من جهاد هؤلاء العظماء – الأئمّة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ – يؤثّر بمقدار سنوات. ويومٌ واحدٌ من حياتهم المباركة يساوي سنواتٍ من حياة جماعةٍ تعمل ليل نهار على مستوى التّأثير في المجتمع. هؤلاء العظماء قد حفظوا الدّين بهذه الطّريقة، وإلّا فإنّ دينًا يقع على رأسه المعتزّ والمتوكّل والمعتصم، والمأمون، ويكون علماؤه رجالٌ كيحيى بن أكثم ـ الذي رغم أنّه كان عالم

البلاط، فقد كان من الفسّاق والفجّار المتجاهرين من الدّرجة الأولى ـ لا ينبغي أساسًا أن يبقى؛ ولكان ينبغي والحال هذا، أن يُجتثّ من جذوره وينتهي كلّ شيء. فجهاد الأئمّة عليهم السلام وسعيهم لم يحفظ التشيّع فحسب، بل القرآن والإسلام والمعارف الدينيّة؛ وهذه هي خاصّية العباد الخالصين والمخلصين وأولياء الله. فلو لم يكن للإسلام أمثال هؤلاء من أولي العزم، لما استطاع أن يعود غضًّا طريًّا ويوجد هذه الصّحوة الإسلاميّة بعد 1230 سنة؛ بل كان ينبغي أن يزول شيئًا فشيئًا. فلو لم يكن للإسلام، هؤلاء الّذين جذّروا هذه المعارف العظيمة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في الأذهان على مرّ التاريخ الإنسانيّ والإسلامي، لكان ينبغي أن يزول من الوجود وينتهي كلّ شيء، ولا يبقى منه أيّ شيء. ولو بقي، فلم يكن ليبقى من معارفه شيءٌ، كالمسيحية واليهودية، اللتين لم يبقَ من معارفهم الأساس أيّ شيءٍ تقريبًا. فأن يبقى القرآن سالمًا والحديث النبويّ وكلّ هذه الأحكام والمعارف الإسلاميّة، وذلك بعد أكثر من 1000 سنة، وأن تتمكّن من أن تبرز في قمّة المعارف الإنسانيّة، فهذا ليس بالأمر الطبيعيّ، بل كان هناك عملٌ غير طبيعيّ يؤدّى من خلال الجهاد. وبالتأكيد، كان على طريق هذا العمل الكبير الضرب والسجن والقتل وكلّ هذه لم تكن بالنسبة لهؤلاء العظماء شيئًا.

يوجد حديثٌ حول طفولة الإمام الهادي عليه السلام، عندما أحضر المعتصمُ الإمام الجواد عليه السلام من المدينة إلى بغداد، في العام 218 هجريّة، أي قبل شهادته بسنتين؛ وبقي الإمام الهادي عليه السلام حينها مع أهله في المدينة، حيث كان له من العمر وقتها ست سنوات. وبعد أن أُحضر الإمام الجواد عليه السلام إلى بغداد سأل المعتصم عن أسرته وأهله، وعندما

سمع أنّ ابنه البكر عليّ بن محمّد ابن ست سنوات، قال إنّه خطرٌ ويجب أن نُفكّر بحلٍّ له. وقد أمر المعتصم رجلًا من أقاربه أن يذهب من بغداد إلى المدينة، وأن يجد فيها من هو عدوّ لأهل البيت، فيودع عنده هذا الطفل ليكون معلّمًا له ويربّيه ليصبح عدوًّا لأسرته ومنسجمًا مع الجهاز الحاكم. فجاء هذا الشّخص من بغداد إلى المدينة، واختار أحد علمائها المدعوّ الجنيدي الّذي كان من أشدّ المخالفين والمعاندين لأهل البيت - وكان في المدينة عددٌ من أمثال هؤلاء العلماء - لينهض بهذا العمل، وقال له: إنّني مأمورٌ أن أجعلك مربّيًا ومؤدِّبًا لهذا الطفل، ولا ينبغي أن تسمح لأيّ شخصٍ بالتّواصل معه أو الارتباط به، وأُريدك أن تُربّيه بهذه الطّريقة وبهذا الشكل. وقد سجّل التاريخ اسم هذا الشّخص الجنيدي. وكان الإمام الهادي عليه السلام - كما ذكرت - بعمر ست سنوات في ذلك الوقت، وكان الأمر أمر الحكومة، فمن الّذي يستطيع أن يعترض على مثل هذا الأمر؟!

وبعد مدّةٍ جاء أحد المقرّبين من الجهاز الحاكم ليطّلع على الجنيدي، ويسأل عن أحوال ذلك الطفل الّذي أودعه إيّاه. فقال الجنيدي: أيّ طفلٍ هذا، أهذا هو الطفل؟، إنّني أُبيّن له مسألةً في الأدب، فيُبيّن لي أبوابًا من الأدب، حيث أتعلّم منه! فأين درس هذا الطفل وتعلّم؟! وأطلب منه أحيانًا عندما يدخل إلى الحجرة أن يقرأ سورةً من القرآن، وعندما يدخل (وهو يريد أذيّته) يسأل أيّ سورةٍ أقرأ، فأقول له: اقرأ سورة كبيرة، كسورة آل عمران مثلًا، فيقرأها عليّ ويبيّن لي مواضع الإشكال في قراءتها. إنّهم علماءُ وحفّاظٌ للقرآن، وعلماء بالتأويل والتفسير، أيّ طفلٍ هذا؟!. وقد استمرّ ارتباط هذا الطّفل - الّذي كان في الظّاهر طفلًا، ولكنّه وليّ

اللّه، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾[1]-بهذا الأستاذ لمدّة، إلى أن أصبح هذا الأستاذ من الشّيعة المخلصين لأهل البيت[2].

لقد كان النّصر حليفهم في جميع الميادين، وهزموهم جميعًا في كلّ المواضع. فدِعبل الّذي كان معارضًا لكلّ الخلفاء العبّاسيين، وذمّ آباءهم في أشعاره، وترك لكلّ واحدٍ منهم سجلاً في التاريخ، كان له عدّة أبياتٍ حول المعتصم، يقول فيها إنّنا قرأنا في الكتب أنّ بني العبّاس هم سبعة خلفاء، والآن يقولون لنا ثمانية؛ فمن هو الثّامن؟ وأراد أن يُشبّههم بأصحاب الكهف الّذي كان كلبهم ثامنهم، ثمّ يقول بعدها: فأين أنت من ذاك الكلب؟ فذاك الكلب لم يرتكب أيّ معصيةٍ أو ذنبٍ بين يديّ اللّه، وأنت مليءٌ بالذنوب والمعاصي: ملوك بني العباسِ في الكتبِ سبعةٌ ولم تأتِنا عن ثامنٍ لهمُ كُتبُ، كذلك أهل الكهفِ في الكهفِ سبعةٌ خيارٌ إذا عُدُّوا وثامنهم كلبٌ، وإني لأُعلي كلبَهم عنك رفعةً لأنّك ذو ذنْب وليس له ذنْبُ. (2004/08/20)

وقد أحضروا الإمام من المدينة إلى سامرّاء ليكون تحت مراقبتهم، ولكنّهم وجدوا أنّه ما من فائدة. فلو اطّلعتم على حالات هؤلاء الأئمّة الثّلاثة في المناقب[3] وغيرها لالتفتّم إلى أنّ شبكة العلاقات الشيعيّة في زمان هؤلاء الثلاثة كانت أكثر منها في زمن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام. فكانت تُرسل إليهم الكتب والرّسائل من أقصى نقاط

---

(1) سورة مريم، الآية 12.

(2) كلستان سعدي.

(3) مناقب آل ابي طالب، ج 4، ص 447 - 337.

العالـم وكذلـك الأمـوال والمسائل، فـي حين أنّهـم كانوا يعيشـون ضمن نطـاقٍ ضيّق. وقد أضحى الإمـام الهادي عليه السلام في سامـرّاء محبوبًا من قِبَـل النّاس وكان الجميع يحترمونه، ولم يكن يتعرّض لأيّ إهانة. ثمّ فيما بعـد وعنـد وفاتـه انقلب حال المدينـة كلّها، وهـذا الأمر تكرّر مـع الإمام العسكـريّ عليه السلام ؛ وهنـاك أدرك الحـكّام وجود سرٍّ مـا، وكان عليهم أن يشخّصوه ويتعاملوا معه. فالتفتـوا إلى قضيّة القدسيّة. وهنا نجد المتوكّل يحضر الإمام عليه السلام إلى مجلسه، الّذي هو مجلس خمرٍ وسكرٍ، لكي ينتشر الخبـر في كلّ مكان، أنّ عليًّا بن محمـد كان نديمًا للمتوكّل وقد جالسه في مجلـس الخمر واللهو! فانظـروا أنتم أيّ تأثيرٍ تركه هـذا الخبر. لقد نظر الإمـام عليه السلام إلى القضيّة من زاوية الإنسـان المجاهد ووقف مقابل هذه المؤامـرة. فذهـب الإمام عليه السلام إلى بـلاط المتوكّل، واستطـاع أن يُبدّل مجلـس سكره إلى مجلسٍ عابقٍ بالمعنويّات. فبذكـر الحقائق وإنشاد تلك الأشعـار الشامتة هزم المتوكّل، بحيث أنّ هذا المتـوكّل وبمجرّد أن انتهى الإمام من كلماته، نهض من مكانه وأحضر للإمام الغالية (عطر مركّب من المسك والعنبر) وشيّعه بكلّ أدبٍ واحترام. فقال له الإمام: هل تتصوّر أنّك إذا جلست هنا، فإنّك ستهرب من قبضة الموت؟! وهكذا بيّن للمتوكّل كلّ ما يجري عند الموت وما بعده، حتّى أكل الديدان له. فاستطاع الإمام أن يُبدّل المجلس تبديلًا تامًّا، ويقلبه رأسًا على عقب، وأن يخرج من البلاط[1].

(1) راجع: بحار الأنوار، ج50، ص211.

باتوا على قللِ الأجبال تحرسُهم غُلْب الرجالِ فما أغنتهمُ القُللُ
واستنزلوا بعد عزّ من معاقلهم وأودعوا حفراً يابئس ما نزلوا
ناداهمُ صارخٌ من بعد ما قُبروا أين الأسرّةُ والتيجانُ والحللُ
أين الوجوه الّتي كانتْ منعّمةً من دونها تُضربُ الأستارُ والكللُ
فأفصحَ القبرُ حين ساءلهم تلك الوجوه عليها الدودُ يقتتلُ
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا فأصبحوا بعد طول الأكلِ قد أُكلوا
وطالما عمّروا دوراً لتُحصنهم ففارقوا الدورَ والأهلينَ وارتحلوا
وطالما كنزوا الأموال وادّخروا فخلّفوها على الأعداء وانتقلوا
أضحت منازلُهم قفراً معطّلةً وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا
سل الخليفةَ إذ وافت منيتهُ أين الحماة وأين الخيلُ والخولُ
أين الرماةُ أما تُحمى بأسهمِهمْ لمّا أتتك سهامُ الموتِ تنتقلُ
أين الكماةُ أما حاموا أما اغتضبوا أين الجيوش الّتي تُحمى بها الدولُ
هيهات ما نفعوا شيئاً وما دفعوا عنك المنية إن وافى بها الأجلُ
فكيف يرجو دوامَ العيش متصلاً من روحه بحبالِ الموتِ تتصلُ

هذه المواجهة الّتي ابتدأها الخليفة المتسلّط والمتعجرف، في قبال شابٍّ لا دفاع له ويبدو في الظاهر هو الأضعف، قد تحوّلت إلى حربٍ نفسيّة لم يكن فيها الحربة والسيف. فلو كنّا نحن هناك لما استطعنا أن نفعل ما فعله الإمام عليه السلام. إنّ الإمام عليه السلام هو الّذي استطاع أن يُشخّص هذه الوضعيّة ويتحدّث بطريقة لا تُغضب الخليفة. كان من الممكن مثلًا أن ينتفض الإمام عليه السلام فجأةً ويرمي بكلّ كؤوس الشّراب أرضًا، ولكن لم

يكـن هذا ليكون ردّة فعـلٍ جيّدة وما كان ليؤتي ثمـاره، لكنّ الإمام عليه السلام تصرّف بطريقةٍ أخرى. وهذا البعد في القضيّة مهمٌّ جداً.

يجـب عليكم أن تلتفتوا إلى هذه النقطة فـي حياة الأئمّة وهي أنّ هؤلاء العظمـاء كانـوا دومًا فـي حالة جهاد، جهـادٌ روحـه سياسيّـة؛ وذلك لأنّ مـن يجلـس على مسنـد الحكـم، كان يدّعي الدّيـن، وكان يراعـي ظواهر الدّيـن، حتّى أنّه كان يتقبّل فـي بعض الأوقات، رأي الإمـام الدينيّ. كتلك المسائـل الّتي كنتم قد سمعتموها عن حيـاة المأمون حيث كان يقبل رأي الإمـام عليه السلام علنًـا، فلم يكـن يأبى أبـدًا أن يقبل الرأي الفقهـيّ أحيانًا. فالشيء الّذي كان يؤدّي إلى وجود مثل هذه المواجهة والمعارضة ضدّ أهل البيـت هو أنّ أهـل البيت كانوا يعدّون أنفسهم الأئمّـة، وكانوا يقولون نحن أئمّـةٌ، وفي الأساس إنّ هذا كان يُعدّ أكبـر مواجهةٍ للحكّام. لأنّ الّذي صار حاكمًا، وكان يُعدّ نفسه إمامًا للنّاس، كان يرى الشّواهد والقرائن المطلوبة فـي الإمـام موجودة فيهم عليهم السلام، وليسـت موجودة فيـه، وكان يعتبر هذا الإمـام خطـراً على حكومته لأنّه ليسـ إلّا مدّعٍ. وقد كان الحـكّام يُحاربون بمثل هـذه الرّوحيّة العدائيّة، وكان الأئمّة عليهم السلام يقفـون كالطّود الشامخ. مـن البديهيّ في مثل هـذه المواجهة أن يكون للمعـارف والأحكام الفقهيّة والأخـلاق، الّتـي كان الأئمّـة يروّجون لهـا مكانها الطبيعـيّ. وكانت تربية المزيد من التلامذة والأتباع وتوسعة الروابط الشيعية تزداد يوماً بعد يوم.

وهـذا ما حفظ الشّيعة. فانظروا أنتم إلى مـرام تعمل ضدّه الحكومات لمدّة 250 سنة، فهل ينبغي أن يبقى منه شيء؟! بل يجب أن يزول بالكامل، ولكن أنتم ترون الآن حال الدنيا، وإلى أين وصل الشّيعة.

ينبغي أن نُلاحظ هذه النقطة جيّدًا في الأشعار الّتي أُنشدت في الإمام الصادق والإمام الهادي والإمام العسكري عليهم السلام. لقد جاهدوا وقدّموا أنفسهم في هذا الجهاد. هذا الطّريق الّذي استمرّ نحو هدف محدّد. فأحيانًا يرجع أحدهم، وأحيانًا يذهب أحدهم من هذه الجهة، (اختلفت أساليبهم في التحرّك) إلا أنّ الهدف واحد. إنّ هؤلاء العظماء حقّقوا نجاحاً أكبر من الإمام الحسين عليه السلام، الّذي وضع هذا الأساس؛ لأنّه بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام، «**ارتدّ النّاس بعد الحسين عليه السلام إلّا ثلاثة**»(1). لكن في زمن الإمام الهادي عليه السلام عندما تنظرون، فإنّ كلّ العالم الإسلامي كان قد صار في قبضة الأئمّة عليهم السلام. حتّى أنّ العبّاسيين وقفوا عاجزين ولم يعرفوا ماذا يفعلون، فلذلك أقبلوا على الشّيعة.

كان أحد الخلفاء العبّاسيين قد كتب رسالةً أمر فيها بذكر أهل البيت في الخُطب والقول بأنّ الحقّ مع أهل البيت. وقد وُثّقت هذه الرّسالة في التاريخ. كُتب أنّ وزير البلاط أسرع يعدو إلى الخليفة وقال: «ماذا تفعل؟!» فلم يجرؤ أن يقول أنّ الحقّ ليس مع أهل البيت! لكنّه قال: «اليوم هناك من ثار في جبال طبرستان وأماكن أخرى تحت شعار أهل البيت، فلو أنّ كلامك هذا يُنشر في كلّ الأماكن، فإنّهم سيجيّشون الجيوش ويأتون إليك للتخلّص منك». فرأى الخليفة أنّ ذلك الوزير يقول حقّاً، فقال: «لا تذيعوا الرّسالة»، أي إنّهم كانوا يخافون على حكومتهم. هذا وإن كان لديهم الاعتقاد، ولكنّ حبّ الحكومة والدنيا والملك منعهم من أن يؤمنوا.

(2001/09/21)

---

(1) بحار الأنوار، ج46، ص 144.

انتشار التشكيلات الشيعية في العالم

إنّ مـا يُقـال من أنّ هـؤلاء العظماء كانـوا في غربةٍ تامـة هو هكذا في الواقـع؛ فقد كانوا بعيدين عن المدينـة، وبعيدين عن أهلهم، وبعيدين عن بيئتهم الّتي ألِفوها. ولكن إلى جانب ذلك، يوجد بشأن هؤلاء الأئمّة الثلاثة – مـن الإمام الجواد وحتـى الإمام العسكري – نقطة أخـرى وهي أنّه كلّما اتّجهنـا إلى نهاية إمامة الإمام العسكـري عليه السلام، فإنّ هذه الغربة تزداد. إنّ دائرة نفوذ الأئمّة وسعة دائرة الشّيعة في زمان هؤلاء الأئمّة الثلاثة إذا مـا قورنت بزمان الإمام الصادق والإمام الباقر عليهما السلام، نجد أنّها ازدادت عشـرة أضعاف عمّا كانت عليه، وهذا شيءٌ عجيـب. ولعلّ السّبب في أنّهم قـد وُضعوا تحت هـذه الضّغوط والتّضييق، هو هـذا الموضوع. فبعد توجّه الإمام الرّضا عليه السلام إلى طرف إيران، ومجيئه إلى خراسان فإنّ من الأمور الّتـي حدثت هو هـذا الأمر. ولعلّ هذا الأمر كان فـي أصل حسابات الإمام الثامن عليه السلام. وقبله كان الشّيعة منتشرين في كلّ الأماكن، لكنّهم لم يكونوا علـى اتّصال ببعضهم البعض، وكانوا آيسين، وليس لديهـم أيّ تطلّع نحو المستقبل، أو رجاء أو تفاؤل. وكانت سلطة حكومة الخلفاء في كلّ الأماكن؛ وكان قبل المأمون، هارون مع قدرته الفرعونية. وعندما جاء الإمام عليه السلام إلـى طرف خراسان وعبر هـذا المسير ظهرت شخصيّـةٌ أمام النّاس هي تجلٍّ للعلـم والعظمة والصدق والنورانية؛ ومـا كان النّاس قد شاهدوا مثل هـذه الشّخصيّـة من قبل. فكم كان عدد الشّيعة الّذيـن كان بإمكانهم قبل هذا أن يمرّوا من خراسان إلى المدينة ليروا الإمام الصادق عليه السلام؟ لكن الجميـع شاهدوا الإمام عن قرب في هـذا المسير الطويل، ولقد كان شيئًا

عجيبًا مدهشًا، وكأنّ المرء ينظر إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. فتلك الهيبة والعظمة المعنويّة والعزّة والأخلاق والتّقوى والنّورانيّة والعلم الوسيع أحدثت هزّة، فمهما سُئل وأيّ شيءٍ طُلب منه كان الأمر بيده، وهو الشيء الّذي ما كان النّاس ليروه من قبل.

وصل الإمام الرّضا عليه السلام إلى خراسان ومرو، وكانت مرو هي مركز تركمانستان الحالية. وبعد سنةٍ أو سنتين، استُشهد الإمام عليه السلام وفُجع النّاس. فقد جعل مجيء الإمام عليه السلام - وهو المُظهِر لتجلّيات أشياء لم يسمع بها النّاس ولم يروها من قبل - وكذلك شهادته -الّتي أدّت إلى فاجعة كبيرة - فقد جعل أجواء هذه المناطق أجواء شيعيّة؛ وهذا لا يعني أنّ الجميع أصبحوا شيعة، لكنّهم أصبحوا محبّين لأهل البيت. ففي هذا الجوّ انكبّ الشّيعة على العمل. فأنتم ترون كيف أنّ إقامة الأشعريين في قم تظهر فجأة، فلماذا جاؤوا؟ فالأشعريون عربٌ، وقد نهضوا وجاؤوا إلى قم وبسطوا فسطاط الحديث والمعارف الإسلاميّة في هذه المدينة وأسّسوا مركزاً فيها. وكذلك نجد في الريّ من هم أمثال الكليني[1]. فشخصٌ مثل الكليني، لا يترعرع إلّا في بيئةٍ شيعيّة وبيئةٍ اعتقادية، حتّى يصبح هذا الشاب الكلينيّ بتلك الخصوصيّات. وفيما بعد أيضًا، عندما استمرّت هذه

(1) أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي، المعروف بـ «الكليني»، صاحب الكتاب جليل القدر «الكافي»، عاش في النصف الثاني من القرن الثالث والنصف الأول من القرن الرابع الهجري، وتوفي في شهر شعبان من سنة 329.

الحركة، أنتم ترون الشيخ الصدوق[1] كيف أنّه يسافر إلى هرات وخراسان وأماكـن أخـرى ويبدأ بجمع أحاديـث الشّيعة، فهذا أمرٌ مهـمٌّ جدًّا. فماذا يفعل محدّثو الشّيعة في خراسان؟ وماذا يفعلون في سمرقند؟ من يوجد في سمرقند؟ إنّه الشيخ العيّاشي السمرقندي[2]، هو الّذي قيل بشأنه: «في داره الّتـي كانت مرتعاً للشيعة وأهل العلم»، كما ورد في كلمات الشيخ الكشّي[3]. والكشّي نفسه سمرقنديّ. لهذا فإنّ حركة الإمام الرضا عليه السلام وفيما بعد شهادته مظلومًـا، هي الّتي جعلت مثل هذه الأجواء لصالح الأئمّة عليهم السلام؛ وقد نهض الأئمّة للاستفادة من هذا الأمر. فالرّسائل والزيارات المتبادلة الّتـي كانـت تجري لم تكن تحدث بطريقةٍ عاديّة، بـل كانت كلّها تجري في الخفـاء، وإلّا فلو كانت علنيّةً لكانوا قبضوا علـى أصحابها وقطّعوا أيديهم وأرجلهـم. فهل علـى سبيل المثال، كان ممكنًا في ظـلّ ذاك العنف والقمع الّـذي مارسه المتوكّل، ومنع فيه زيارة كربـلاء، أن تصل أسئلة النّاس إلى الإمـام عليه السلام بسهولـة، ثم ترجع إليهـم الإجابـات؟ أو أن تُرسل الحقوق الشّرعيّـة إلـى الإمام عليه السلام، ثمّ يصلهم منه الإيصـالات؟ فكلّ هذا دليلٌ على وجود شبكةٍ إعلاميّة وتعليميّة عظيمة لهؤلاء الأئمّة العظماء الثلاثة.

(1) أبـو جعفـر محمد بن علي بن بابويـه القمي المعروف بـ «الشيخ الصدوق»، من جملـة فقهاء وعلماء الشّيعـة فـي القرن الرابع للهجرة. وُلد في السنـة 306 للهجرة فـي مدينة قم. من جملة آثاره الكتاب النفيس «مـن لا يحضره الفقيه» الذي هو الكتاب الثاني من الكتب الشيعية الأربعة. غادر هذا الفقيه الرفيع الشأن الدنيا في العام 381 للهجرة في مدينة الري.

(2) محمـد بـن مسعود العياشي السمرقندي، يُعتبر من جملة علمـاء ومفسّري الشّيعة المشهورين لأواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع للهجرة.

(3) محمـد بـن عمرو بن عبـد العزيز المشهور بـ «الشيخ الكشـي»، وكنتيه «أبو عمرو»، مـن الوجوه الّتي سطعـت في أواسط النصـف الأول من القرن الرابع للهجرة وهو من العلمـاء المعروفين وأستاذ في علم الرجال والأخبار ومن محدّثي الشّيعة.

لقـد حدث مثل هـذا الأمر ما بعـد الإمام الرضـا عليه السلام وإلى زمن شهـادة الإمـام العسكري عليه السلام. فقـد استطاع الإمام الهـادي والإمام العسكـريّ عليهما السلام في مدينة سامرّاء تلك، الّتـي كانت في الواقع بمثابة معسكـر كبير ـ لم تكن في ذلـك الكبر، بل عاصمةٌ حديثـة البناء سرورٌ لكلّ مـن رأى (سُرّ من رأى) حيث يجتمع فيهـا الرؤساء والأعيان ورجال الحكومـة وبعض النّاس العاديـين الّذين يؤمّنون الحوائـج اليوميّة ـ لقد استطاعـا أن يُنظّما كلّ هذه الروابط بين جميع أقطار العالم الإسلاميّ. فعندمـا ننظر إلـى أبعاد حياة الأئمّة نفهم ماذا كانـوا يفعلون. لهذا، لم تنحصـر القضيّـة في تلك الفتـاوى الّتي كانـوا يُجيبون بها علـى أسئلة النّاس حـول الصّلاة والصّـوم والطّهارة والنّجاسة. بـل كانوا ينطلقون مـن موقعيّة الإمام بذلك المعنى الإسلامـيّ الخاصّ ويتحدّثون وفقه مع النّاس. وبرأيي يمكن الالتفات إلى هذا البعد إلى جانب غيره من الأبعاد. أنتـم ترون أنّهم عندما أحضروا الإمـام الهادي عليه السلام من المدينة إلى سامرّاء، وقتلوه في سنّ الشباب عن عمرٍ يناهز 42 سنة، أو عندما يقتلون الإمـام العسكريّ في سـنّ الـ 28 سنة، فكلّ ذلك دليـلٌ على هذه الحركة العظيمـة للأئمّة والشّيعة وأصحابهـم الكبار، عبر التاريخ. ومع أنّ جهاز الحكم كان نظامًا بوليسيًّا ويعمل بشدّة، فقد استطاع الأئمّة في مثل هذا الوضـع أن يُحقّقوا مثل هـذه النجاحات. مقصودنا أنّـه ينبغي مشاهدة هذه العزّة والعظمة إلى جانب تلك الغربة.

(2003/05/10)

لا يوجـد أيّ زمانٍ شهدت فيه روابط الشّيعة وانتشار تشكيلاتهم في كلّ أرجـاء العالم الإسلاميّ ما شهدته في زمـن حضرة الإمام الجواد والإمام الهـاديّ والإمام العسكريّ عليهم السلام. فوجود الوكلاء والنوّاب وتلك القصص الّتي تُنقل عن الإمام الهادي عليه السلام والإمام العسكريّ عليه السلام - مثلًا عندما كان يُحضـر له المال والإمام يُحدّد ماذا ينبغي أن يُفعل به - دليلٌ على هذا الأمـر. أي إنّه بالرغـم من الإقامة الجبريّة لهذيـن الإمامين الجليلين في سامـرّاء، وقبلهما الإمام الجواد عليه السلام بنحوٍ مـا، والإمام الرضا عليه السلام بنحـوٍ آخر، فإنّ الارتباط والتواصل مع النّاس كان يتّسع على هذه الشاكلة. وهـذه الروابط والتّواصـل كانت موجودة قبل زمـن الإمام الرضا عليه السلام. لكـن غايـة الأمر أنّ مجيء الإمام إلى خراسـان كان له تأثيرٌ كبيرٌ جدًّا في هذه القضيّة.

(2005/08/09)

إنّ أئمّتنـا وطيلـة الـ 250 سنة للإمامة ــ أي منذ رحيل نبـيّ الإسلام المكرّم صلى الله عليه وآله وسلم وإلى زمن وفاة الإمام العسكري - قد لاقوا الكثير من التّعذيب والقتـل والظّلـم، وحريٌّ بنا أن نبكيهـم، إنّ مظلوميّتهـم تستحضر القلوب والعواطف، لكنّ هؤلاء المظلومين قد انتصروا سواءٌ في مقطعٍ من الزمّان أو في كلّ هذا الزّمان وطوله.

(2004/08/20)

الفصل الرابع عشر:

الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف

- غاية حركة إنسان بعمر 250 سنة.
- خصائص المجتمع المهدوي.
- مسؤوليتنا في عصر غيبة الإمام عجل الله فرجه الشريف.

غاية حركة إنسان بعمر 250 سنة

الشّيعة وعقيدة المهدويّة

إنّ أصل المهدويّة هو محلّ اتّفاق جميع المسلمين. وفي عقائد الأديان الأخرى، يوجد أيضًا انتظار المنجي في نهاية الزّمان. فقد فهموا هذا المطلب أيضًا بنحوٍ صحيح في بُعدٍ من أبعاد القضيّة، ولكن في البُعد الأساس المتعلّق بتحديد ومعرفة الشّخص المنجي، ابتُلوا بنقص المعرفة. والشّيعة يعرفون المنجي بالاسم والعلامة والخصائص وتاريخ الولادة، من خلال الأخبار المسلّمة والقطعيّة عندهم.

(2005/09/20)

إنّ خصوصية اعتقادنا نحن الشّيعة هي أنّنا قد بدّلنا هذه الحقيقة في مذهب التّشيّع من حالة الأُمنية والأمر الذهنيّ المحض، إلى حالة واقعيّة موجودة. الحقيقة هي أنّ الشّيعة عندما ينتظرون المهديّ الموعود فإنّهم ينتظرون اليد المنجية تلك، ولا يغرقون في عالم العقليّات بل يبحثون عن الواقعيّة وهي موجودة. وحجّة الله حيٌّ بين النّاس وموجودٌ ويعيش فيما بينهم ويرى النّاس وهو معهم، ويشعر

بآلامهم وأسقامهم. وأصحــاب السّعادة والاستعداد يزورونه في بعض الأحيــان بصورة خفيّــة. إنّه موجودٌ، هو إنسانٌ واقعــيّ مشخّص باسمٍ معيّــن، لــه أبٌ وأمّ محــدّدان وهو بيــن النّاس ويعيشــ معهم.هذه هي خصوصيّة عقيدتنا نحن الشّيعة.

أولئــك الّذين لا يقبلون هذه العقيــدة من المذاهب الأخرى، لم يتمكّنوا في أيّ وقتٍ من إقامة أيّ دليلٍ يقبل به العقل لردّ هذه الفكرة وهذه الحقيقة.

فجميع الأدلّة الواضحة والراسخة، الّتي يُصدقّها الكثير من أهل السنّة أيضًــا، تحكي بصورة قاطعة ويقينيّة عن وجود هــذا الإنسان العظيم، فهو حجّــة اللّه، وهو الحقيقــة الواضحــة والسّاطعة - بتلــك الخصائص الّتي نعرفهــا، أنــا وأنتم - وأنتم تشاهدون هذه الأمور فــي العديد من المصادر غير الشيعيّة.

فتاريــخ ولادة الابن المبــارك والمطهّر للإمام الحســن العسكريّ عليه الصلاة والسّلام معــروفٌ، وكذلك والداه وأصحابه ومعجزاته، وقد منحه اللّه عمــرًا طويلًا، وما زال. وهو تجسيدٌ لتلــك الأمنية الكبرى، لجميع أمم العالــم، وقبائله وأديانه وأعراقه عبر جميــع العصور. هذه هي خصوصيّة مذهب الشّيعة بشأن هذه القضيّة المهمّة.

(2008/08/17)

هناك نكاتٌ بشأن الاعتقاد بالمهدويّة أُشير إليها بالإجمال:

الأولــى هــي أنّ الوجــود المقدّس لحضــرة بقيّة اللّه أرواحنــا فداه، هو عبارة عن استمرار النبوّات والدّعوات الإلهيّة منذ بداية التّاريخ وإلى يومنا

هذا، أي كما تقرؤون في دعاء النّدبة من: «**فبعض أسكنته جنّتك**»[1]، الّذي هـو آدم، وإلـى: «**أن انتهيت بالأمر**»، أي الوصـول إلى خاتم الأنبياء ﷺ؛ ومـن بعدها قضيّة الوصيّة وأهل بيت هذا النبيّ العظيم إلى أن يصل الأمر إلـى إمـام الزمان، فالجميع عبارة عـن سلسلة متّصلـة ومرتبطة ببعضها فـي تاريـخ البشريّة. وهذا بمعنـى أنّ تلك الحركة العظيمـة للنبوّات وتلك الدعـوات الإلهيّـة بواسطـة الرّسل، لـم تتوقّف في أيّ مقطـعٍ من الزمان. فالبشريّـة تحتاج إلـى الأنبياء والدّعوات الإلهيّة، والدُعـاة الإلهيّين، وهذا الاحتياج باقٍ إلى يومنا هـذا، وكلّما مرّ الزمان فإنّ البشر يُصبحون أقرب إلى تعاليم الأنبياء.

لقد أدرك المجتمع البشريّ اليوم من خلال التقدّم الفكريّ والمدنيّة والمعرفة، الكثير من تعاليم الأنبياء - والّتي لم تكن قابلة للإدراك من قبل البشر قِبَل عشرات القرون من هذا - فقضيّة العدالة هذه، وقضيّة الحريّـة، وكرامـة الإنسان، وهذه الألفـاظ الرائجة فـي العالم اليوم، هـي كلمـاتُ الأنبياء. في ذلك الزّمـن، لم يُدرك عامّـة النّاس والرأي العـام هذه المفاهيم. وبعـد مجيء الأنبياء وانتشـار دعوتهم، غُرست هـذه الأفكار في أذهـان النّاس وفـي فطرتهم وفي قلوبهـم جيلًا بعد جيل. فالدّعـاة الإلهيّون لم تنقطع سلالتهم اليـوم، والوجود المقدّس لبقيّـة الله الأعظم أرواحنا فداه، هو استمـرار سلالة الدّعاة الإلهيّين حيـث تقرؤون في زيارة آل ياسين: «**السّلام عليك يا داعي الله وربّاني**

(1) بحار الأنوار، ج99، ص105.

آياتـه»[1]. أي إنّكم اليوم ترون تجسيدًا، لدعوة إبراهيم ودعوة موسى، ودعوة عيسى، ودعوة جميع الأنبياء والمصلحين الإلهيّين ودعوة النبيّ الخاتـم في وجـود حضرة بقيّة اللّه. فهذا الإنسـان العظيم هو وارثهم جميعًـا، وبيـده دعوتهم ورايتهم جميعًـا، وهو يدعـو البشريّة ويعرض عليها تلك المعارف الّتي جاء بها الأنبياء عبر الزمان الممتدّ. هذه هي نقطةٌ مهمّة.

المعنى الحقيقيّ لانتظار الفرج

النقطـة الثانية في باب المهدويّـة: هي انتظار الفـرج. فانتظار الفرج مفهـومٌ واسعٌ جدًّا. وأحـد أنواعه هو انتظار الفرج النهائـيّ؛ أي إنّ النّاس عندمـا يرون طواغيت العالم مشغولين بالنّهب والسّلب والإفساد والاعتداء علـى حقوق النّاسـ، لا ينبغي أن يتخيّلوا أنّ مصير العالم هو هذا. لا ينبغي أن يُتصـوّر أنّـه في نهاية المطاف لا بدّ ولا مناص مـن القبول بهذا الوضع والإذعـان لـه، بل ينبغي أن يُعلـم أنّ هذا الوضع هو وضـعٌ عابر - «**للباطل جولـة**»[2]- وأمّا ما هو مرتبـطٌ بهذا العالم وطبيعته فهو عبارة عن استقرار حكومـة العدل وهـو سوف يأتي. إنّ انتظار الفـرج والفتح في نهاية العصر الّـذي نحن فيه، حيـث تُعاني البشريّة مـن الظلم والعذابـات هو مصداقٌ لانتظار الفرج، ولكن لانتظار الفرج مصاديق أخرى أيضًا.

---

(1) الاحتجاج، ج2، ص493.

(2) الآمدي، تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، ص 71.

فعندما يُقال لنا انتظار الفرج، فلا يعني انتظار الفرج النهائيّ، بل يعني أنّ كلّ طريقٍ مسدود قابلٌ للفتح. الفرج يعني هذا، الفرج يعني الشقّ والفتح. فالمسلم يتعلّم من خلال درس انتظار الفرج أنّه لا يوجد طريق مسدود في حياة البشر ممّا لا يمكن أن يُفتح، وأنّه لا يجب عليه أن ييأس ويُحبط ويجلس ساكنًا ويقول لا يمكن أن نفعل شيئًا؛ كلا، فعندما يظهر في نهاية مطاف حياة البشر ومقابل كلّ هذه الحركات الظّالمة والجائرة، عندما تظهر شمس الفرج، فهذا يعني أنّه في كلّ هذه العقبات والسدود الموجودة في الحياة الآن، هناك فرجٌ متوقّع ومحلّ انتظار. هذا هو درس الأمل لكلّ البشريّة. وهذا هو درس الانتظار الواقعيّ لجميع النّاس.

لهذا، عُدّ انتظار الفرج من أفضل الأعمال، ويُعلم من ذلك أنّ الانتظار هو عملٌ لا بطالةٌ. فلا ينبغي الاشتباه والتصوّر أنّ الانتظار يعني أن نضع يداً فوق يد ونبقى منتظرين حتّى يحدث أمرٌ ما. الانتظار عملٌ وتهيّؤٌ وباعثٌ على الاندفاع والحماس في القلب والباطن، وهو نشاطٌ وتحرّكٌ وتجدّدٌ في كلّ المجالات. وهذا هو في الواقع تفسير هذه الآيات القرآنية الكريمة ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[1] أو ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2] أي أنّه لا ينبغي أن تيأس الشعوب والأُمم من الفرج في أيّ وقتٍ من الأوقات.

---

(1) سورة القصص، الآية 5.

(2) سورة الأعراف، الآية 128.

لهـذا ينبغي انتظار الفرج النهائيّ، مثلما ينبغي انتظار الفرج في جميع مراحـل الحيـاة الفرديّة والاجتماعيّـة. لا تسمحوا لليأس أن يُسيطر على قلوبكـم، فانتظروا الفرج واعلموا أنّ هذا الفرج سيتحقّق؛ وهو مشروطٌ في أن يكـون انتظاركم انتظارًا واقعيًّا، وأن يكـون فيه العمل والسّعي والاندفاع والتحرّك.

(2005/09/20)

إنّنا اليوم ننتظر الفرج. أي إنّنا ننتظر مجيء يدٍ مقتدرةٍ تنشر العدل وهـي هزيمة الظّلم والجور الّذي سيطر على كلّ البشريّة تقريبًا، فيتبدّل هـذا الجـوّ من الظّلم والجـور وينبعث نسيم العدل في حيـاة البشر لكي يشعـر النّاس بالعدالة. إنّ هـذا هو حاجـة أيّ إنسانٍ واعٍ بشكلٍ دائم؛ الإنسـان الّذي لم يجعل رأسه في حجره ولم يستغرق في حياته الخاصّة. الإنسـان الّـذي ينظر إلـى الحياة العامّـة للبشـر بنظرة كلّيـة فإنّه من الطبيعـيّ أن يكون في حالـة انتظار، هذا هو معنى الانتظـار. فالانتظار يعني عـدم الاقتناع والقبول بالوضع الموجود لحيـاة البشر، وهو السّعي مـن أجل الوصـول إلى الوضع المطلوب؛ ومن المسلَّـم به أنّ هذا الوضع المطلـوب سوف يتحقّـق على يد ولـيّ الله المقتدرة الحجّـة بن الحسن المهديّ، صاحب الزمان عجّل الله فرجه الشريف.

يجـب أن نعـدّ أنفسنـا كجنـودٍ مستعدّين لتلـك الظـروف والشّرائط، ونجاهـد في هذا المجـال. إنّ انتظار الفرج لا يعنـي أن يجلس الإنسان ولا يفعـل أيّ شـيء، ولا ينهض لأيّ إصلاحٍ بـل يُمنّي نفسه بأنّـه منتظرٌ لإمام الزّمان عليه الصّلاة والسلام، فهذا ليس انتظارًا.

مـا هو الانتظار؟ الانتظار يعنـي أنّه لا بدّ من مجيء يـدٍ قادرةٍ مقتدرةٍ ملكوتيّةٍ إلهيّةٍ وتستعين بهؤلاء النّاس من أجل القضاء على سيطرة الظّلم، ومـن أجل غلبة الحقّ وحاكمية العدل في حياة البشريّة ورفع راية التّوحيد؛ تجعل البشر عبادًا حقيقيّين للّه. يجب الإعداد لهذا الأمر. فكلّ إقدامٍ على طريق استقـرار العدالة يُمثّل خطـوةً نحو ذلك الهـدف الأسمى. الانتظار يعني هذه الأمور. الانتظار حركةٌ وليس سكونًا. ليس الانتظار إهمالاً وقعوداً إلـى أن تصلح الأمور بنفسهـا. الانتظار حركةٌ واستعـدادٌ. هذا هو انتظار الفرج.

(2008/08/17)

خصائص المجتمع المهدوي

إنّ المجتمـع المهـدويّ هـو ذلـك العالم الّـذي يأتي فيه إمـام الزّمان ليصلحه، وهو المجتمع نفسه الّذي ظهر من أجله جميع الأنبياء. أي أنّ كلّ الأنبيـاء كانوا مقدّمة لذلك المجتمع الإنسانيّ المثاليّ، والّذي سيتحقّق في نهايـة الأمر بواسطة وليّ العصـر والمهديّ الموعود. مثل بناءٍ شامخ، يأتي شخصٌ فيُسطّح الأرض ويُزيل منها الأشواك والعوائـق، ثمّ يأتي شخصٌ آخر من بعده ويصنع فيها الأسس، ثمّ يأتي شخصٌ آخر ليضع فيها الأعمدة والأركان، وهكذا شخصٌ بعد آخر، يأتون لعمارة الجدران حتّى يصل هذا القصـر المرتفع، وهذا البنيان الرفيع إلى شكله النهائيّ. لقد جاء الأنبياء الإلهيّـون، ومنذ بداية تاريخ البشريّة، واحـدًا بعد آخر، من أجل أن يُقرّبوا المجتمع والبشريّة خطوةً خطـوة نحو ذاك المجتمع المثاليّ وذاك الهدف النهائـيّ. لقـد نجح جميع الأنبياء ولـم يفشل أيّ واحدٍ مـن رسل الله على هذا الطريق، وفي هذا المسير، لقد كان حملًا على عاتق هؤلاء المأمورين الشّامخين، وكلّ واحدٍ منهم تقدّم به خطوةً نحو المقصد والهدف النهائيّ وسعوا بكلّ جهدهـم من أجل القيام بهذا العمل. وعندما كانوا يصلون إلى آخـر حياتهم كان هناك مـن يأتي من بعدهم ليضع هذا الحمل على عاتقه

ويتقـدّم به مسافـةً أخرى، مقتربًا بذلـك من ذلك الهـدف. ووليّ العصر صلـوات اللّه عليه، هـو وارث جميع الأنبياء الإلهيّيـن، فعندما يأتي ستكون الخطوة الأخيرة على طريق إيجاد ذلك المجتمع الإلهيّ.

أتحـدّث قليـلًا حـول صفات ذلـك المجتمع. بالطّبـع، لو أنّكـم دقّقتم فـي الكتب الإسلاميّة وفـي المصادر الإسلاميّة الأساس للاحظتم جميع خصائـص ذلـك المجتمـع. فدعـاء النّدبة هذا الّـذي تُوفّقون بـإذن اللّه لقراءته أيّـام الجمعة، يذكر خصائص ذلك المجتمع. فعندما يقول: «**أين معزّ الأولياء ومذلّ الأعداء**» مثلًا، فذلك المجتمع هـو مجتمعٌ يكون فيه أوليـاء اللّه أعزّاء وأعـداء اللّه أذلّاء، أي أنّ القيـم والمعايير الحاكمة في ذلـك المجتمـع تكون هكـذا. «**أيـن المُعـدّ لإقامـة الحـدود**»[1]، ففي هذا المجتمـع تُطبّـق الحدود الإلهيّة وتُراعى كلّ الحـدود الّتي عيّنها اللّه تعالى والإسـلام في مجتمـع إمام الزمـان. فعندما يظهـر إمام الزمـان يصنع مجتمعًا لـه باختصار مثل هذه الخصوصيّة، دقّقـوا حولها في الآيات وفي الأدعية عندما تقرؤونها، فتتفتّح أذهانكم في هذا المجال، وتتّسع، فمجرّد قراءة دعاء النّدبة ليس كافيًا، فالمطلوب هو الفهم وأخذ الدّروس.

إنّ إمام الزمان عجّل الله فرجه الشريف، يبني مجتمعه على هذه الأسس:

أوّلًا: علـى إزالة وقمع وقلع جـذور الظّلم والطّغيان. فلا ينبغي أن يكون فـي هذا المجتمع الّذي يكـون في زمان وليّ العصر صلـوات اللّه عليه، أيّ ظلـمٍ وجور؛ لا أنّ الأمر يكـون في إيران على هذه الشّاكلة فحسب، ولا حتّى

(1) بحار الأنوار، ج99، ص 107.

فـي المجتمعـات الّتي يقطنهـا المسلمون، بل في كلّ العالـم. فلن يكون أيّ ظلم اقتصاديّ أو سياسيّ أو ثقافيّ أو أيّ نوعٍ آخر في ذلك المجتمع. فيجب اقتـلاع كلّ الاختلافات الطبقيّة وكلّ أنواع التّمييز وعدم المساواة والتسلّط والهيمنة. هذه هي الخصوصيّة الأولى.

ثانيًـا: إنّ من خصائـص المجتمع المثاليّ الّـذي يصنعه إمام الزمان صلوات اللّه عليه، هو الارتقاء بمستوى الفكر البشريّ، سواء على المستوى العلميّ الإنسانـيّ أو المعارف الإسلاميّة. ففي زمن وليّ العصر، لن تجدوا في كلّ العالم، أيّ أثرٍ للجهل والأميّة والفقر الفكريّ والثقافيّ. هناك يتمكّن النّاس من معرفة الدّين معرفة صحيحة، وقد كان هذا، كما تعلمون جميعًا، مـن الأهداف الكبرى للأنبياء الّذي أشـار إليه أمير المؤمنين صلوات اللّه وسلامـه عليه، في خطبة نهـج البلاغة الشريفة، «...**ويثيـروا لهم دفائن العقـول**...»[1]. لقـد جـاء في رواياتنا أنّـه عندما يظهر ولـيّ العصر، فإنّ المرأة تجلس في بيتها وتفتح القرآن وتستخرج منه حقائق الدّين وتفهمها. فماذا يعني ذلك؟ يعني ذلك أنّ مستوى الثّقافة الإسلاميّة والدّينيّة يرتقي إلى درجة أنّ جميع الأفراد، وكلّ أبناء المجتمع، والنّساء اللواتي لا يشاركن في ميـدان الاجتماع على سبيل الفرض ويبقين فـي بيوتهنّ، فإنّهنّ يتمكّنّ من أن يصبحن فقيهات وعارفات في الدّين؛ فيتمكّنّ من فتح القرآن وفهم حقائق الدّين بأنفسهنّ. انظروا إلى مجتمعٍ يكون فيه الجميع ـ نساءً ورجالًا – وعلـى كافّة المستويات قادرين على فهم الدّيـن والاستنباط من الكتاب

---

(1) نهج البلاغة، ص43.

الإلهـيّ، فكم سيكـون هذا المجتمع نورانيًّا، ولن يبقـى فيه أيّ نقطة ظلام وظلمانيّـة. فكلّ هذه الاختلافات فـي وجهات النّظر والتحليل، لن يبقى لها أيّ أثرٍ في ذلك المجتمع.

الخاصّيّـة الثالثـة: لمجتمع إمام الزمان - المجتمع المهدويّ - هو أنّه في ذلـك العصر ستكون جميع القوى الطّبيعيّـة وكلّ الطّاقات البشريّة في حالـة انبعاثٍ فـلا يبقى أيّ شيءٍ في باطن الأرض ولا يستفيد منه البشر. فـكلّ هذه الإمكانـات الطّبيعيّـة المعطّلة، وكلّ هـذه الأراضـي الّتي يمكن أن تُغـذّي الإنسـان، وكلّ هـذه الطّاقات والقوى الّتي لـم تُكشف بعد، كتلك الطّاقـات الّتـي بقيت عبر قـرون التّاريخ. مثـلًا، القدرة النوويّـة والطّاقة الكهربائيّة كانت وعبر قـرون عمر هذا العالم، في باطن الطّبيعة ولم يكن البشـر يعرفونها، ثمّ بعد ذلك قاموا باستخراجها بالتّدريج. فكلّ الطّاقات والإمكانـات اللامتناهية الموجودة فـي باطن الطّبيعة هي من هذا القبيل، وسوف تُستخرج في عصر إمام الزمان.

جملـة أخرى وخصوصية أخرى، هي أنّ المحور في عصر إمام الزمان هـو محور الفضيلة والأخـلاق. فكلّ من كان صاحب فضيلـة أخلاقيّة أكثر سيكون مقدّمًا وسبّاقًا.

(1980/06/27)

ورد فـي الروايةٍ: «**القائم منّـا منصورٌ بالرّعب مؤيّـدٌ بالنّصر، تُطوى لـه الأرض وتظهـر له الكنوز، يبلغ سلطانـه المشرق والمغـرب**»[1]، ممّا

(1) الشيـخ الصـدوق، كمال الدين وتمـام النعمة، تحقيق وتصحيـح علي أكبر غفاري، نشـر الإسلامية، طهران، الطبعة الثانية، 1395هـ، ج 1، ص 331.

يعنـــي أنّ كلّ الحكومــات الظّالمة والأجهزة الجائرة ستكـون مرعوبةً منه. فــي ذلك الزّمــن، سيكون هناك حالةٌ في زمان ولــيّ العصر أرواحنا فداه، مــن الشموليّة والعموميّة بحيث يمكن أن تحقّــق الحكومة العالميّة. «**مؤيّدٌ بالنصــر**»، فنصــر الله يؤيّده. و«**تُطوى لـه الأرض**»، أي إنّها ستكون بيده وفي قبضة قدرته. وتظهر تلك الكنوز وتبلغ سلطته مشرق العالم ومغربه.

وبعــد عــدّة جملٍ يقول، «**فلا يبقــى خرابٌ إلّا قــد عمــر**»[1]، أي إنّ هذه السّلطــة سوف تُنفق في عمارة الأرض، لا فــي السّيطرة على ثروات البشر وفــي استضعافهم. وفي كلّ نقــاط العالم لن يبقى أيّ نقطةٍ من الخراب إلّا وستُعمّــر؛ سواءٌ كانت خرابات حصلت على أيــدي البشر أو بسبب جهلهم. هنــاك رواية أخــرى عن الإمام الباقــر عليه الصّلاة والســلام يقول فيها: «**حتــى إذا قــام القائم جاءت المزايلة وأتى الرجل إلــى كيس أخيه فيأخذ حاجتــه فــلا يمنعــه**»[2]، وهي إشارة إلى أخلاق المســاواة بين البشر وإلى الإيثــار. وتُبشّر هذه الرّواية بنجــاة البشر من تسلّط البخل والحرص الّذي كان أكبر سببٍ لشقاء البشريّة. وهذا في الحقيقة علامةٌ على ذلك النّظام الإسلامــيّ الســالــم أخلاقيًّــا واقتصاديًّا واجتماعيًّا في ذلــك الزّمان. فلا يوجــد أيّ قهــرٍ وإجبارٍ في البيــن، بل إنّ البشر أنفســهــم ينجون من البخل الإنسانــيّ والحرص البشريّ وستتحقّق مثل هذه الجنّة الإنسانيّة. يوجد في روايــةٍ أخرى أيضًــا: «**إذا قام قائمنــا اضمحلّت القطائع، فــلا قطائع**»[3]،

(1) م. ن.

(2) الحر العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشّيعة، تحقيق ونشر مؤسسة أهل البيت عليهم السلام، قم، الطبعة الأولى، 1409هـ، ج 5، ص 121.

(3) م.س، ج 17، ص 222.

فتلك القطائع الّتي تمنحها الحكومات المستكبرة في العالم لأتباعها وحلفائها، وذلك الكرم الحاتميّ الّذي يحصل من جيوب الشّعوب سوف يتوقّف تمامًا في العالم. وقد كانت القطائع في الماضي بشكلٍ وهي اليوم بشكل آخر. كانت في الماضي بحيث أنّ الخليفة أو السّلطان يمنح أرضًا أو صحراء أو قريةً أو مدينةً أو حتّى ولايةً لشخصٍ ما، فيقول له اذهب هناك وافعل ما يحلو لك فيها، خذ من أهلها الجبايات والخراج واستعمل مزارعها واستفد منها وكلّ فائدة مادّية هي لك؛ وكان عليه طبعًا أن يعطي السّلطان حظّه. واليوم، هي بصورة الاحتكارات النّفطيّة والتجاريّة والصّناعيّة والفنّية المختلفة، وكلّ هذه الصّناعات الكبرى وهذه الاحتكارات الّتي جعلت الشعوب مسكينةً هي في الواقع في حكم القطائع، الّتي أُشير إليها، وفيها كانت تُمارس كلّ أنواع الرّشاوة والمحاباة. إنّ هذا البساط الّذي يقتل البشر ويقضي على الفضيلة سوف يُطوى وسوف توضع أسباب الاستفادة والنّفع بيد جميع النّاس.

وفي روايةٍ أخرى ناظرة إلى الوضع الاقتصاديّ يقول: «**ويسوّي بين النّاس حتّى لا ترى محتاجاً إلى الزكاة**»[1]، ما يعني أنّه لن يبقى هناك أيّ فقير يحتاج إلى زكاة أموالكم، وبالطّبع سيكون لهذه الزّكاة مصرفها في الأمور العامّة لا للفقراء، لأنّه لن يبقى هناك أيّ فقير؛ ومثل هذه الرّوايات ترسم الجنّة الإسلاميّة والعالم الواقعيّ. وليس هذا الأمر مشابهًا لتلك المدن الفاضلة الّتي صنعها البعض في خيالاتهم وأوهامهم، كلّا.

---

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 52، ص 390.

إنّ كلّ تلـك الشّعارات الإسلاميّـة الّتي هي جميعًا قابلة للتّطبيق، ونحن في الجمهوريـة الإسلاميّة نشعـر أنّ هناك قدرة وقلباً وفكـراً متّصلاً بالوحي والتأييـد الإلهيّ ومعصوماً يُمكنه يقينًا أن يُحقّـق مثل هذا الوضع، وسوف تقبل البشريّة على ذلك حتمًا. هذه هي حالة ذلك العالم.

(1987/04/10)

مسؤوليّتنا في عصر غيبة الإمام عجّل الله فرجه الشريف

هنا إذا رجعتم إلى الآيات والرّوايات ـ وبالتّأكيد إنّ المحقّقين والمتتبّعين قـد فعلوا ذلك ـ فسوف تجدون خصوصيّات أخرى. المجتمع الّذي لا يوجد فيه أيّة علامةٍ للظّلم والطّغيان والعدوان؛ المجتمع الّذي تصل فيه المعرفة الدّينيّة والمعرفة العلميّة للبشر إلى حدّها الأعلى؛ المجتمع الّذي تبرز فيه كلّ هذه البركات والنّعم والفضائل والجماليّات وتكون في يد الإنسان؛ وفي النّهاية المجتمع الّذي تكون فيه التّقوى والفضيلة والإيثار والأخوّة والعطف والانسجـام أصـلًا ومحـورًا. فانظـروا إلى مثل هـذا المجتمـع، فهو ذاك المجتمع الّذي سيحقّقه مهديّنا الموعود وإمام زماننا، ومحبوبنا التاريخيّ القديم، والّذي يعيش الآن تحت هذه السّماء وعلى هذه الأرض وبين النّاس. هذا هو اعتقادنا بإمام الزّمان.

حسنٌ، ماذا نفعل بعد هذا؟ فبعد هذا تكليفنا واضح.

أوّلًا، يجـب أن نعلم أنّ ظهـور وليّ العصر صلـوات اللّه عليه، مثلما أنّه بثورتنـا هذه أصبح أقرب خطوةً، فبهذه الثّورة أيضًا يمكن أن يقترب أكثر. أي إنّ نفسـ هذا الشّعب الّذي قام بهذه الثّورة، وقرّب نفسه خطوةً إضافية

إلـى إمـام زمانه، يمكنـه أيضًا أن يتقـدّم خطوةً ثمّ خطوةً ثـمّ خطوة نحو إمام زمانه. فكيف (ذلـك)؟ أوّلاً، كلّما استطعتم أن توسّعوا من دائرة هذا المقـدار من الإسلام الّذي لدينا نحن وأنتم في إيـران - لا نبالغ، الإسلام الكامـل ليـس متحقّقًا، ولكن قسمٌ مـن الإسلام قد طبّقه هـذا الشّعب في إيـران - فهـذا المقدار من الإسلام كلّمـا استطعتم أن تنشـروه في الآفاق الأخـرى للعالم، وفي البـلاد الأخرى، وفي المنـاطق المظلمـة، فإنّه بنفس المقدار سيساعد ويقرّب من ظهور وليّ الأمر وحجّة العصر.

ثانيًـا، إنّ الاقتراب من إمام الزمان ليس بمعنـى الاقتراب المكانيّ ولا بمعنـى الاقتراب الزّمانيّ. فأنتم الّذيـن تريدون أن تقتربوا من ظهور إمام الزّمان، فإنّ الاقتراب من إمام الزّمان ليس له تاريخٌ محدّد كأن يُقال مثلًا، بعد مئة سنة أو خمسين سنة، حتّى نقول أنّنا عبرنا سنةً أو سنتين أو ثلاث سنـوات، من هذه الخمسين أو المئة سنـة، فيبقى عندئذ هذا المقدار من السّنـوات، كلّا، وليس أيضًا بلحـاظ المكان حتّى نقول إنّنا تحرّكنا من هنا باتّجـاه الشّرق أو غرب العالم مثلًا، أو نحـو الشّمال أو الجنوب، لنرَى أين هـو وليّ العصر لنصل إليه. كلّا، إنّ اقترابنا مـن إمام الزّمان هو اقترابٌ معنـويّ، أي إنّكم في كلّ زمانٍ إذا استطعتـم أن تزيدوا من حجم المجتمع الإسلامـيّ كمًّا ونوعًا إلى خمس سنوات أو عشر سنوات أخرى، أو حتّى مئة سنة أخرى، فإنّ إمام الزمان صلوات الله عليه سيظهر.

لو استطعتـم أن تُحقّقوا في أنفسكم وفـي غيركم، في داخل مجتمعكم - هـذا المجتمـع الثّوريّ - التّقوى والفضيلـة والأخلاق والتّديّـن والزّهد والقـرب المعنويّ مـن الله، وجعلتم قاعدة ظهور ولـيّ العصر صلوات الله

وسلامـه عليه أكثـر رسوخًا وإحكامًا، وكلّما استطعتـم أن تزيدوا باللحاظ الكمّـي والمقدار، عدد المسلمين المؤمنين والمخلصين فإنّكم تكونون هنا أيضًـا أقرب إلى إمام الزّمان وإلى زمن ظهور وليّ العصر. فنحن نستطيع أن نُقـرّب مجتمعنـا وزماننا وتاريخنا خطوةً بخطوة نحـو تاريخ ظهور وليّ العصر صلوات الله وسلامه عليه؛ هذا واحدٌ.

النّقطـة الثّانية هي أنّـه لدينا في ثورتنا اليوم طـرق ومناهج، فإلى أيّ جهةٍ ينبغـي أن تتحرّك هذه المناهج؟ فهذه النقطـة جديرة جدًّا بالتأمّل. فافرضـوا أنّ لدينـا طالبًـا مجـدًّا يريـد أن يصبـح أستاذًا مثـلًا في علم الرّياضيّات.

فكيـف ينبغي أن نؤمّـن مقدّمات هذا الأمر. فينبغـي أن نوجّه دراساته باتّجـاه الرّياضيـات. فلا معنى أن نُعطيـه دروسًا في الفقه مثـلًا، إذا كُنّا نُريـده أن يُصبـح عالمًـا رياضيًّا. أو أنّ مـن يريد أن يُصبـح فقيهًا نُعطيه دروس الأحياء مثـلًا، فينبغـي أن تكون المقدّمـات متناسبة مـع النتيجة والغايـة. الغاية هـي المجتمـع المثاليّ المهـدويّ بتلـك الخصائص الّتي ذكرتهـا. فيجب علينا إذًا أن نؤمّن المقدّمـات بما يتناسب. يجب علينا أن نُبعد أنفسنا عن الظّلم ونتحرّك بحزم ضدّه، أيّ ظلم كان ومن أيّ شخص. يجب علينا أن نجعل توجّهاتنا نحو إقامة الحدود الإسلاميّة. وفي مجتمعنا، لا نُعطـي أيّ مجالٍ لنشر الأفكار المخالفة للإسلام. نحن لا نقول إنّه علينا بالقهـر والغلبـة لأنّنا نعلم أنّه لا يُمكن مواجهة الفكـر إلّا عن طريق الفكر، لكنّنـا نقول إنّـه علينا بالطّـرق الصّحيحة والمنطقيّـة والمعقولة أن ننشر الفكر الإسلاميّ.

يجب أن تُصبح كلّ قوانيننا ومقرّرات بلدنا وإداراتنا ومؤسّساتنا التنفيذيّة والكلّ إسلاميًّا بلحاظ الظّاهر والمحتوى، وأن نقترب نحو أسلمتها يومًا بعد يوم. هذه هي الجّهة الّتي تمنحنا وتمنح حركتنا معنى انتظار وليّ العصر. أنتم تقرؤون في دعاء النّدبة أنّ إمام الزمان يقاتل الفسوق والعدوان والطّغيان والنّفاق ويزيل كلّ ذلك ويقضي عليه. وعلينا اليوم أن نتحرّك في مجتمعنا بهذا الاتّجاه ونتقدّم. هذا هو الشّيء الّذي يُقرّبنا إلى إمام الزمان عجّل الله فرجه الشريف من النّاحية المعنويّة، ويُقرّب مجتمعنا نحو مجتمع وليّ العصر عجّل الله فرجه الشريف، ذلك المجتمع المهدويّ العلويّ التّوحيديّ ويزيده قربًا.

(1980/06/27)

وهناك أثرٌ آخر ونتيجةٌ مختلفة لمستقبل هذا العالم، حيث يزول اليأس والإحباط من قلوب الشّعوب، ونعلم حينها أنّ جهادنا مؤثّرٌ ومنتج. أحيانًا، هناك أفرادٌ ممّن ليس لديهم اطّلاع على هذا البعد من الفكر الإسلاميّ، يُصابون بالحيرة واليأس أمام هذه الحسابات والمعادلات المادّية الكبرى في العالم، ويتساءلون فيما بينهم كيف يُمكن لشعبٍ يريد أن يثور أن يقاوم مثل هذه القوى العظمى والتكنولوجيا المتطوّرة والأسلحة المدمّرة، ومثل هذه القنابل النوويّة الموجودة في العالم؟ يشعرون أنّ الصمود مقابل ضغط قوى الظلم والاستكبار أمرٌ غير ممكن. لكنّ الاعتقاد بالمهديّ والإيمان بتحقّق عصر الحكومة الإسلاميّة والإلهيّة على يد ابن النبيّ وإمام الزّمان يُحقّق هذا الأمل في الإنسان ويقول له، كلّا، سنُجاهد لأنّ العاقبة لنا، ولأنّ عاقبة أمرنا هي أنّ هذا العالم يجب أن يخضع ويُسلّم وسوف يحصل هذا

الأمـر. وذلك لأنّ مسير التّاريخ يتّجه نحو مـا قمنا اليوم بوضع أسسه وقد حقّقنـا أنموذجًا عنه ولو كان ناقصًا[1]. ومثل هـذه الأمل لو وُجد في قلوب الشّعوب المناضلة – وخاصّةً الشّعوب الإسلاميّة ـ فسوف يمنحها حالةً من النّشـاط المستمرّ بحيـث لا يُمكن لأيّ عاملٍ أن يخرجها من ميدان الجهاد والنّضال، أو أن يُصيبها بالهزيمة الداخليّة.

ويوجـد نقطـةٌ أخرى وهي أنّ الإعـلام والأفكار المغلوطـة قد انغرست فـي ذهـن النّاس، وعبـر كلّ هـذه السّنيـن المتماديـة، إلى تلـك الدّرجة حيـث اعتقـدوا أنّ أيّ تحرّكٍ إصلاحيّ لـن يكون مفيدًا ومثمـرًا قبل قيام المهـديّ عجل الله فرجه الشريف، ويستدلّـون بأنّ الدنيا يجـب أن تُملأ ظلمًا وجـورًا حتّى يأتي الإمـام المهديّ عجل الله فرجه الشريف، ومـا لـم تمتلئ بالظّلـم والجور فإنّه لـن يظهر. كانوا يقولـون إنّ الإمام يظهر بعـد أن تصبح هذه الدنيا مليئـةً بالظّلم والجور. والنّقطة الموجـودة هنا هي أنّ في جميع الرّوايات الّتي وردت بشأن الإمام المهـديّ، فـإنّ الجملة هي هكذا: «**يملأ الله به الأرض قسطًا وعدلًا، كما مُلئت ظلمًـا وجـورًا**»[2]، أنـا العبد لم أُشاهـد موضعًا واحـدًا ولا أظنّ أنّه يوجد «بعدما مُلئـت ظلمًا وجورًا». فبالالتفات إلى هذه النّقطة، رجعت إلى الرّوايات العديدة في الأبواب المختلفة ولم أجد في أيّ مكانٍ جملة، «بعدما مُلئت ظلمًا وجورا»، ففي كلّ الأماكن يوجد «**كما مُلئت ظلمًا وجورا**»، أي أنّ امتـلاء الدنيا بالعدل والقسط بواسطة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف لا يكون مباشرةً بعد أن تُملأ بالظّلم والجور، كلّا، بل إنّه كما حصل طوال التّاريخ، وليس في

(1) يقصد الجمهورية الإسلاميّة في ايران (المترجم).

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 341.

موضعٍ واحدٍ أو زمانٍ واحد، بل في أزمنة مختلفة، كانت الدنيا تُملأ بالظّلم والجور، سواءٌ في عهد الفراعنة، أو في عصور الحكومات الطاغوتيّة أو في أيّام السّلطات الظّالمة الّتي جعلت كلّ هذه الدّنيا ترزح تحت وطأة ظلمها وفي ظلّ السّحب السّوداء للجور والعدوان بحيث إنّه لم نرَ فيها أيّ علامة على العدالة والحرّية، فكما أنّ الدنيا عاشت مثل هذا اليوم، فإنّها سترى يومًا يمتلئ العالم كلّه في جميع آفاقه بنور العدل، ولا يكون فيه أيّ مكانٍ لا يمتلئ بالقسط. وهناك لن يكون أيّ مكانٍ يحكمه الظّلم أو يكون فيه البشر تحت وطأة الظّلم وجور الحكومات وتسلّط المقتدرين، وآلام التمييز العنصريّ. أي إنّ هذا الوضع الّذي يُهيمن على العالم اليوم وقد كان يعمّ هذه الدّنيا في يومٍ من الأيّام، سوف يتبدّل إلى عموميّة العدل.

(1987/04/10)

ليس إنّه بوجود الحكومة الإسلاميّة لن تتأخّر عاقبة الموعود فحسب، بل سيسرّع من ذلك، وهذا هو معنى الانتظار. انتظار الفرج يعني انتظار حاكميّة القرآن والإسلام. فأنتم لم تقنعوا بما هو موجودٌ الآن في العالم، حتّى بهذا التقدّم الّذي حقّقتموه عبر الثورة الإسلاميّة تريدون أن تقتربوا أكثر إلى حاكمية القرآن والإسلام، هذا هو انتظار الفرج. انتظار الفرج يعني انتظار فرج أمر البشريّة.

واليوم، فإنّ حال البشريّة قد وصل إلى المضائق الشديدة والعقد الصّعبة. فاليوم إنّ الثقافة المادّية تُفرض على البشر بالقوّة وهذه معضلة. إنّ من يُعذّب البشر اليوم على مستوى العالم هو التمييز، فهذه عقدةٌ كبرى. واليوم قد أوصلوا حال ذهنية النّاس الخاطئة إلى حيث

تضيع صرخات طلب العدالة من قِبَل شعبٍ ثائرٍ وسط عربدة المتسلّطين والمهيمنين وسكرهم؛ وهذه عقدةٌ أخرى أيضًا. واليوم يُعاني مستضعفو أفريقيا وأمريكا اللاتينيّة، وملايين النّاس الجائعين في آسيا وآسيا القصوى، وملايين من ذوي البشرة الملوّنة من ظلم التمييز العنصري، وقد تطلّعت عيونهم بأملٍ نحو منجٍ ومنقذ، ولا تسمح القوى الكبرى لهذا النّداء المنجي بأن يصل إلى أسماعهم، هذه معضلة. فالفرج يعني فتح هذه المضائق وحلّ هذه المعضلات وفكّ هذه العُقد. فوسّعوا من رؤيتكم، ولا نحدّ أنفسنا في بيوتنا وحياتنا اليوميّة، فالعالم كلّه يطلب الفرج ولكن لا يدري ما هو الطريق.

وأنتم أيّها الشعب الثوريّ المسلم يجب أن تقتربوا بحركتكم المنظّمة في مواصلة الثّورة الإسلاميّة إلى الفرج العالميّ للبشريّة، وأن تُقرّبوا أنفسكم من ظهور المهديّ الموعود والثّورة الإسلاميّة النهائيّة للبشريّة الّتي ستشمل العالم كلّه وتحلّ كلّ هذه العقد خطوة خطوة، وأن تقرّبوا البشريّة بذلك أيضًا، فهذا هو انتظار الفرج. وإنّ لطف الرّب المتعال، ودعاء وليّ العصر عجل الله تعالى فرجه الشّريف المُستجاب، سيكون دعامتنا في هذا الطّريق، ويجب علينا أن نتعرّف على هذا الإمام أكثر ونكون أكثر ذكرًا له. فلا ينبغي أن ننسى إمام الزّمان. فاحفظوا ذكر وليّ الله الأعظم في قلوبكم، واقرؤوا «**اللهمّ إنّا نرغب إليك في دولةٍ كريمة**»[1] من أعماق قلوبكم وبالضراعة الكاملة. فلتكن أرواحكم في انتظار المهديّ

(1) الشيخ الكليني، الكافي، دعاء الافتتاح، ج 3، ص 424.

وكذلك قواكم الجسمانيّة فلتتحرّك في هذا الطّريق. وإنّ كلّ خطوةٍ تخطونها على طريق تثبيت هذه الثّورة الإسلاميّة ستكون خطوة إضافية نحو ظهور المهديّ.

(1981/06/19)

تقوية العلاقة الروحية بإمام الزمان عجّل الله فرجه الشريف

لقد تحرّك أئمّتنا جميعًا في هذا الخطّ، من أجل أن تسيطر الحاكميّة الإلهيّة وحاكميّة القانون الإلهيّ على المجتمعات. لقد بُذلت الكثير من الجهود والجهاد والآلام والمحن والسّجون والنّفي والاستشهاد المليء بالثّمار والعطاء. واليوم أنتم وجدتم هذه الفرصة مثلما أنّ بني إسرائيل وبعد قرونٍ قد وجدوا هذه الفرصة في زمان سليمان النبيّ وداوود عليهما السلام.

(1981/05/08)

إنّ الطريق الّذي سلكتموه يا أبناء شعب إيران العزيز، استمرّوا عليه وتحرّكوا وأكملوا هذا الطّريق، وهو الطّريق الّذي لحسن الحظّ نشاهد اليوم الشّعوب المسلمة في مختلف أرجاء العالم الإسلاميّ تتحرّك نحوه بالتدريج، وشيئًا فشيئًا. يقول الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[1] فلو أنّنا جعلنا هذه التّقوى منهاج عملنا، فمن المسلّم أنّ عاقبة الأمر ستكون من نصيب الأمّة الإسلاميّة وإنّ هذا المستقبل لن يكون بعيدًا، إن شاء الله.

(2011/02/21)

(1) سورة الأعراف، الآية 128.

أذكـر جملةً واحدة في الختام، فيما يتعلّـق بضرورة الارتباط العاطفيّ والمعنـويّ والرّوحيّ بإمامنا العظيم وليّ الله المعصوم، بالنسبة لكلّ واحدٍ منّـا. القضيّـة لا ينبغـي أن تجعلوهـا محدودة فـي إطار التّحليـل الفكريّ والاستنـارة الفكريّة. فذاك المعصـوم، الّذي هو صفـيّ الله، يعيش اليوم بيننـا نحن البشر في مكانٍ ما من هذا العالـم ونحن لا نعلمه. إنّه موجودٌ، ويدعـو، ويقـرأ القـرآن، ويبيّن المواقـف الإلهيّة، إنّه يركـع ويسجد ويعبد ويدعو ويظهر في المجامع ويساعد البشر. فله وجودٌ خارجيّ ووجودٌ عينيّ، غايـة الأمر أنّنا نحن لا نعرفه. إنّ هذا الإنسان الّذي اصطفاه الله، موجودٌ اليوم، ويجب أن نقوّي علاقتنا به من الناحية الشّخصيّة والقلبيّة والروحيّة، بالإضافة إلى الجانب الاجتماعيّ والسّياسيّ والّذي بحمد الله صار نظامنا متوجّهًـا نحو ما يريده هـذا الإنسان العظيم إن شاء الله. فليجعل كلّ واحدٍ من أبناء مجتمعنا توسّله بوليّ العصر وارتباطه به، ومناجاته معه، وسلامه عليـه، وتوجّهه إليه، تكليفًـا وفريضةً وليدعو له كما لدينا في الروايات وهو الدعـاء المعـروف «**اللهمّ كن لوليّـك**»[1] الّـذي يُعدّ من الأدعيـة الكثيرة الموجـودة، ويوجد زياراتٌ في الكتب هـي جميعًا بالإضافة إلى وجود البعد الفكريّ والوعي والمعرفة فيها، يوجد فيها أيضًا بعدٌ روحيّ وقلبيّ وعاطفيّ وشعـوريّ وهـو ما نحتاج إليـه أيضًـا. إنّ أطفالنا وشبابنـا ومجاهدينا في الجبهـة يحصلون على الرّوحية والمعنويّات بالتوجّه والتوسّل بإمام الزمان ويفرحون ويتفاءلون. وببكاء الشّوق ودموعه المنهمرة يُقرّبون قلوبهم إليه،

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 4، ص 162.

وهـم بذلـك يعطفون نظر الحقّ وعنايتـه إليهم، مثلمـا أنّ ذلك يتحقّق مع الإمام ويجب أن يكون موجودًا.

(1987/04/10)

يـا إمام الزّمان! أيّها المهـديّ الموعود المحبوب عند هـذا الشّعب! يا سلالـة الأنبيـاء الأطهار! ويـا وارث كلّ الثّـورات التوحيديّـة والعالميّة! إنّ شعبنا هذا قد انبعث بذكرك واسمك واختبر لطفك في حياته وفي وجوده. أيّها العبد الصالح للّه! إنّنا اليوم بحاجة إلى دعائك الّذي ينبعث من قلبك الإلهيّ والربّانيّ الطّاهر ومن روحك القدسيّة من أجل انتصار هذا الشّعب وهـذه الثّورة، ونحتاج إلى يد القدرة الإلهيّة الّتـي جُعلت فيك لتساعد هذا الشّعـب وطريقه. «**عزيزٌ علـيّ أن أرى الخلق ولا تُـرى**»[1]، يا إمام الزّمان إنّـه لصعبٌ جـدًّا علينا أن نرى أعداء اللّه في هذا العالم وفي هذه الطّبيعة المتراميـة الّتي هي لعبـاد اللّه الصّالحين، ونتلمّس آثـار وجود أعداء اللّه ولكن لا نراك أنت ولا نُدرك فيض حضورك.

اللهـمّ! بمحمّـد وآل محمـد نقسم عليك أن تطـرّي قلوبنـا بذكر إمام الزّمان دائمًا.

اللهمّ! نوّر أعيننا بجمال وليّ العصر.

اللهـمّ! اجعـل هؤلاء الّذيـن يجاهدون فـي سبيلك جنود إمـام الزمان والمضحّين بين يديه.

(1980/06/27)

---

(1) العلّامة المجلسيّ، بحار الأنوار، من دعاء الندبة، ج 99، ص 108.

اللهمّ! بمحمّـد وآل محمّد، ارضِ القلب المقدّس لوليّك المعصوم عنّا. واجعلنا من المتوجّهين والمتوسّلين به.

اللهم! بحرمة محمّـد وآل محمّد عجّل فرجه وعجّل قيام تلك الحكومة الإلهيّة.

اللهمّ! بمحمّـد وآل محمّد، اجعلنا من أتباعه وشيعته في جميع أحوالنا وأمورنا.

(1987/04/10)

كان هـذا مـرورًا سريعًا على أحد الفصول الأساس فـي حياة أئمّة أهل البيـت عليهم السلام السّياسيّـة، طيلـة 250 سنة على أمـل أن يقـوم المحقِّقون والمفكِّرون والباحثـون فـي تاريـخ القرون الأولـى للإسـلام بالمزيد من التنقيح والتفصيل والتحقيق.

(2004/08/08)

أوّل مرّة شعرت بأهميّة هذه المسألة كان عام (١٩٧١م) . ومع أنّني قبل تلك الفترة كنت أنظر إلى الأئمّة عليهم السلام بعنوان أنّهم شخصيّات مجاهدة لإعلاء كلمة التوحيد وإقامة الحكومة الإلهية، إلاّ أنّ النقطة المهمّة الّتي وصلت إليها في تلك الفترة هي أنّه على الرغم من الاختلاف الظاهري بين سيَرهم عليهم السلام ، إلا أنّها عبارة عن مسيرة واحدة استمرّت ٢٥٠ سنة، ابتداءً من سنة ١١هـ.ق. إلى ٢٦٠هـ.ق. أي انتهت ببداية الغيبة الصغرى للإمام الحجّة عجّل الله فرجه الشريف

مركز نون للتأليف والترجمة

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
لبنان - بيروت - المعمورة - الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org

1001506